



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢١٢١

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا

فأستأذنيكم بنصيح والحب مني

د. أحمد الحج

١٤١٤/٧/٢٤

عوامل حماية المجتمع من الحركات في ضوء الكتاب والسنة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة

إعداد الطالبة

حياة صديق حمزة عبد الواحد

إشراف فضيلة الدكتور

أحمد أحمد غلوش



١٤١٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : عوامل حماية المجتمع من الصراعات فى ضوء الكتاب والسنة
الدرجة العلمية : ماجستير
اسم الطالبه : حياة صديق عبدالواحد

ملخص الرسالة

تحقيق المصلحه ونشر الأمن بين الناس هدف رئيسى من أهداف الإسلام - ولذلك فقد وضع من المناهج ما يحقق ذلك ، ومن هذه المناهج ماوضع لحماية المجتمع من الصراع بمختلف صورته السيئه . وقد تضمنت الرسالة توضيح عوامل حماية المجتمع الاسلامى من الصراع على ضوء الكتاب والسنة.

حيث عرفت فى التمهيد بالمجتمع ، وبالصراع وتنوعه إلى صراع مذموم ، وآخر محمود ، لأنه يدور مع الخير والعدل .

وفى الباب الأول - جاء الحديث عن منهج الإسلام فى حماية المجتمع من الصراع العنصرى ، وذلك عن طريق تحقيق الكرامة الإنسانية ، ووضع دعائم المساواة الحقيقية المترتبة على تساوي الطبع والكفاءة .. ونادى بالأخوة المطلقة بين المسلمين وحدد مآلهم ومآلهم ، وعرف بحقوق غير المسلمين فى المجتمع المسلم كأهل الذمه والمستأمنين ، وبين مآلهم من واجبات ومآلهم من حقوق .

وفى الباب الثانى - كان البحث فى تطبيقات العدل الإسلامى بين أفراد المجتمع المسلم ومنهج التكافل بين الناس وجوانبه . وذلك فى إطار بيان منهج الإسلام فى القضاء على الصراع الطبقي ..

وفى الباب الثالث - دار البحث حول نظام الحكم فى الإسلام ليطبق الشرع ويقوى الدين والناس ، وفى هذا الإطار كان تنصيب الحاكم المسلم ضرورة لازمه وفق صفات ومعايير محدده وبذلك تبقى الجماعة موحدة وينتفى الصراع ويتفق ~~السلطة والحكومة~~ حول السلطة والحكومة ، ويرضى الحاكم والمحكوم بالحق والعدل .

وأخيرا - كانت الخاتمة فى أهم النتائج . حيث ثبت من خلال البحث أن إستقرار المجتمع ، وتحقيق أمنه يعتمد أساساً على اتخاذ العقيدة الاسلاميه أساسا لبناء الفرد والجماعة ، ودعامة لقيام الدوله المسلمه . وثبت كذلك صيانة الشريعة الاسلاميه لكافة الحقوق البشرية ولكل الناس على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . وثبت أيضا شمول الحل الإسلامى لمشكلات الناس حيث رأينا علاجه لمختلف قضاياهم العنصرية والطبقية والسياسيه .. وغيرها ، بطريقه دقيقه وحاسمه .

إن قيام الحكومه الإسلاميه ضرورة لحماية الدين والدنيا بشرع الله ، وللقضاء على كل أنواع الصراع ، ليشتر الأمن . وتتحقق السعادة بدين الله تعالى ..
والله الموفق .

عميد كلية الدعوه واصول الدين


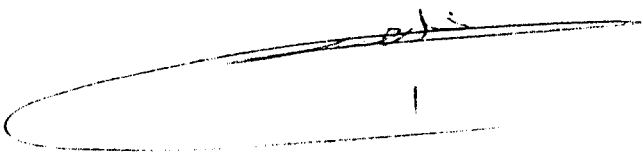
المشرف

اسم الطالبه

د / على العليانى .

د / احمد غلوش

حياة صديق عبدالواحد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

لك اللهم عظيم الشكر والحمد، فأنت صاحب المن وصاحب الفضل،
وأهل لكل ثناء...
سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا... تباركت وتعاليت يا ذا الجلال
والإكرام...
وبعد:

فإني إنطلاقاً من قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ((لايشكر
الله من لايشكر الناس)) (*)... فإني أتقدم بخالص شكري وعظيم تقديري لكل من
مد لي يد العون لإنجاز هذا العمل، وتقدم لي بالنصح والإرشاد والتوجيه
خلال البحث والدراسة والاعداد لهذه الرسالة...
وأخص بالشكر الجزيل والديّ الكريمين لدعائهما الدائم لي وتشجيعي
لاعداد هذه الرسالة... جزاهما الله خيراً كثيراً، وأطال الله في عمرهما...
كما أخص بالشكر أستاذي الفاضل الذي أشرف على إعداد هذه
الرسالة، فضيلة الدكتور أحمد أحمد غلوش... الذي تولاني في بحثي بالرعاية
الطيبة والنصح المتواصل، والتوجيه السديد... أحيل أجره إلى كريم يعطي
الكثير... إنه سميع مجيب...

ومما لايسعني التغافل عنه الاعتراف بالجميل لزوجي الكريم -عبد الحميد
جعفر داغستاني- الذي أفدت من علمه ومكتبته الكثير، والذي كان لتشجيعه لي
أكبر الأثر في إبراز هذه الرسالة العلمية إلى حيز الوجود... وكان له الفضل -بعد
الله سبحانه وتعالى- في القيام على أمر هذه الرسالة وإخراجها على هذا الوجه...
فجزاه الله كل خير، ووقفه لصالح الأعمال ولما يحب ربنا ويرضى...
ودعواتي الخالصة إلى الله جلّت قدرته أن يكون له ولأمثاله السند والعون،
ليواصلوا مسيرتهم في خدمة العلم وطلابه... إنه سميع الدعاء... محقق الرجاء...
ولايفوتني أيضاً في هذا المقام أن أشيد بمجهود إخواني الأشقاء محمد
وأحمد وفيصل، وأختي الشقيقتين، لمساعدتهم لي في الحصول على المراجع
التي لم تكن موجودة لدي، وفي المتابعة والمراجعة بعد طباعة البحث...

أسأل الله تعالى لهم دوام التوفيق والسداد في حياتهم العلمية والعملية،
والعمل لما فيه خير وصلاح الإسلام والمسلمين... ولأنسى أيضاً في هذا المجال
من شاركت بصدق وإخلاص في موضوع المتابعة وهي الأخت الصغرى شقيقة زوجي
-أم عمارة- حفظها الله وأبقاها ذخراً نافعاً للإسلام والمسلمين.
كما أتقدم ببالغ شكري ووافر امتناني لجميع القائمين على إدارة هذه
الجامعة الحبية -جامعة أم القرى- وبالأخص القائمين على إدارة كلية الدعوة
وأصول الدين لإسهالهم لي هذه المدة حتى أنهيت هذه الرسالة، ولكل من بذل
جهده في تعليمي، والوصول بي إلى هذه الدرجة العلمية...
أسأل الله تعالى جلّت قدرته للجميع حسن الجزاء وحسن المشوبة
معترفة للجميع بالفضل... متمنية لهم التوفيق والرشاد... إنه سميع الدعاء...

(*) أخرجه الترمذي، قال هذا حديث حسن صحيح /كتاب البر والصلة/

باب ماجاء في الشكر لمن احسن اليك ٢٢٩/٤.

المقدمة

إن الحمد نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، نعبده ولا نكفره، نرجو رحمته ونخشى عذابه، ونصلي ونسلم على السراج المنير، الذي أكمل به الله الدين، وأتم به علينا نعمته، ورضي لنا به الإسلام ديناً، أضاء به الله كل ظلمة في العالمين وأرسله بالهدى والحق المبين، فأقام مجتمعاً من دعوة كانت أساس كل خير، ورحمة من كل شقاء، وألف به القلوب وعصم به النفوس فأصبحوا بنعمته إخواناً وبعد:

ينشد الإسلام قيام المجتمع الصالح الذي يقوم بين أبنائه التعاون على البر والتواصي بالحق والتناصر بالتقوى، والتكافل على الخير. المجتمع الذي تتحقق فيه الكرامة الإنسانية - لأي إنسان كان - والأخوة الإيمانية الصادقة. المجتمع الذي يسوده العدل والمساواة ويرتفع عنه الظلم والجور والحيث بين كل أفراد، على ما بينهم من تفاوت في الغني والفقير، واختلاف في اللون والجنس، وتمايز في الطبقة والمركز والمنصب والجاه. المجتمع الذي تنتفي فيه كل أنواع الصراعات الاجتماعية المدمومة سواء كانت صراعات طبقية أو عنصرية أو طائفية أو مذهبية.

إلا أنه مع ما يهدف إليه الإسلام من إيجاد مثل هذا المجتمع، فإن تصور المجتمع على مثل هذه الصورة مجتمعاً مثالياً لا يمكن أن يكون لمخالفته لطبيعة البشر وتنازع قوى الخير والشر فيهم، وتصارع الآراء والرغبات المختلفة بينهم، وتفاوتهم في تقبل التعاليم وتنفيذ الأحكام.

فإن المجتمع الذي أوجده النبي محمد صلى الله عليه وسلم وظلب قروناً طوالاً من بعده متميز المعالم والحضارة والشخصية والاتجاه، وحقق مثالية لاتزال مرجعاً للإنسانية كلها يمكنها أن ترجع إليه وتستهدي بهدية إلى الطريق المستقيم.

هذا المجتمع على مثاليته لم يخل من الظلم والظالمين، ومن الانحرافات والمنازعات واختلاف وحدة الصف والكلمة، ولكن العبرة بسيادة العقيدة في التشريعات والأنظمة والتقاليد، والاستهداء بهدي الكتاب والسنة في إيجاد المجتمع الإسلامي الذي يسوده الخير وتغمره المحبة، ويؤلف بين أبنائه التعاون والتكافل وكل الجوانب الإنسانية والروابط الاجتماعية التي تنظم العلاقة بين الناس بعضهم ببعض، وبينهم وبين حاكمهم، ويتسم بالتنافس البناء في تقوى الله ويخلو من الصراعات المدمرة التي يعمل الإسلام جاهداً على حماية المجتمع منها ليصل به إلى حياة الأمن والسعادة والسلام.

وقد حفلت المجتمعات في الوقت الحاضر بشتى أنواع الصراعات العنصرية، والطائفية والطبقية والتناحر الانساني على حب الغلب والرغبة في تحصيل الجاه والمركز والسلطة، فكان الاضطراب والشقاء الذي تعاني منه البشرية اليوم، وسوف يظل هذا الشقاء والاضطراب قائماً في المجتمعات الانسانية المختلفة طال الزمن حتى تجد لنفسها الطريق القويم للخلاص

وطريق الخلاص الذي لا طريق سواه، هو الأخذ بالإسلام باعتباره نظاماً شاملاً لكل أمور الحياة.

ولم تنجح مجتمعات الشرق والغرب في هذا العصر في حل مشكلات الانسانية ولم تستطع برغم ما تملك من وسائل أن تحقق السعادة للمجتمعات البشرية، فليس الأمر أمر القوت والآلة فحسب، بل من وراء ذلك عناصر ضرورية تفقدها ولا تستطيع إليها سيلاً.

وليس القصد من هذا البحث إلا أن يوضح الصورة الحقيقية للمجتمع المسلم المتحاب الخالي من الصراعات والعقبات، ليرى فيها المسلمون حقيقة مجتمعهم الذي رسمه لهم دينهم، ويدركوا خصائصه الرائعة وقدرته على حماية مجتمعهم من كل الصراعات الاجتماعية متى ماسادت الشريعة كل جوانب حياتهم، فيقلعوا عن الهدم والأفساد، ويتطلعوا إلى البناء والإصلاح.

سبب اختيار الموضوع :

ولقد كان موضوع البحث يدور حول العوامل الأساسية التي تكفل تحقيق المجتمع الصالح وتناى به عن شتى الصراعات الاجتماعية المدمرة.

ووقع اختياري على هذا الموضوع للكتابة فيه لإعداد رسالة الماجستير للأسباب الآتية:

أولاً- لأعلم إلى الآن كتاباً أوبحشاً عالج الصراعات التي يتعرض لها أفراد المجتمع مستقلاً، وإنما ذكرت بعض الكتب بعضاً من أنواع الصراعات التي يتعرض لها بعض من أفراد المجتمع دون تناول ذلك الموضوع بالعلاج والحل المناسب له للتخلص منه وحماية أفراد المجتمع من الوقوع فيه.

ثانياً- إبراز الصورة الحقيقية للمجتمع الذي يهدف الإسلام إلى إيجاد خالي من كل الصراعات والتنافس البغيض على متاع الدنيا وزينتها الزائفة.

ثالثاً- معرفة أهمية المجتمع وضرورته للفرد، وبيان أسس تعاونه وتراپطه وتكافله ووسائل تحقيق العدل والكرامة والأخوة بين أفرادہ.

رابعاً - معرفة الحقوق والواجبات لكل من الفرد والمجتمع، فلا يعتدي الفرد على حق مجتمعه في سبيل تحصيل مايجب له، ولايتألم الفرد من ظلم مجتمعه نتيجة ضياع حقوقه.

خامساً - بيان أن المشاكل التي تعاني منها كافة المجتمعات البشرية اليوم سواء أكانت في الإقتصاد أم في السياسة سببها يرجع إلى ذلك التناحرالإنساني على حسب الغلب والشهرة والرغبة في تحصيل المركز والجاه والسلطان.

سادساً - بيان أن كل المجتمعات الانسانية المختلفة قد حفلت في الوقت الحاضر بشتى أنواع الصراعات العنصرية والطائفية والطبقية، فعمها الخوف والإضطراب والحروب والمنازعات.

سابعاً - بيان أن العلاج الوحيد والحل الحاسم لكل الأدواءوالصراعات الإجتماعية هو الأخذ بالإسلام باعتباره ديناً ونظماً شاملاً لكل أمور الحياة، وأن كل الوسائل التي تملكها مجتمعات الشرق والغرب من أمر القوت والآلآم تفلح في تحقيق السعادة والطمأنينة والهدوء النفسي لأفرادها.

كل ذلك وغيره دفنني إلى إختيار هذا الموضوع، فمزمت وتوكلت على الله عزوجل لدراسته والكتابة فيه.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع بهذه الرسالة طلاب المعرفة والساعين لتطبيق مبادئ الإسلام وأسسہ وتعاليمه السامية، وأن يقينض لهذه الأمة من يرفع لواء الاسلام، ويعمل على إيجاد مجتمعه الفاضل الخالي والآمن من الصراعات البفيضة المختلفة ((وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون)) (١).

منهج البحث :

رأيت أنه ينبغي قبل أن أدخل في صلب الموضوع - وهو عوامل حماية المجتمع من الصراعات في ضوء الكتاب والسنة- أن أتعرض لشاغل مسائل تتصل بالموضوع هي:

المسألة الأولى: ضرورة جعل الحكم لله في المجتمع.

المسألة الثانية: التعريف بالمجتمع وبيان ضرورته وإهتمام الإسلام به.

المسألة الثالثة: بيان المراد بالصراع وتنوعه وتردده بين المدوح والمذموم.

إذ لا بد منها لمعرفة ما يتعلق بهما في تحديد العوامل التي تحمي المجتمع من الصراع ومنهجي في كتابة هذا الموضوع يتلخص فيما يلي :

أولاً - تقسيم كل فصل إلى مباحث تسهل كتابة موضوعه، ثم النظر بدقة إلى عناصر كل مبحث وتحليلها، وإستخراج الآيات والأحاديث الدالة عليها.

ثانياً- ترتيب المباحث على حسب ترتيب الأفكار، وإعتماد كل مبحث على سابقه.

ثالثاً- الرجوع إلى كتب التفسير وشرح السنة لمعرفة معنى الآيات والأحاديث المتعلقة بذلك المبحث .

رابعاً- الرجوع إلى كتب معاصرة تخدم فكرة ذلك المبحث وتسهل فهم موضوعه.

خامساً- صياغة الموضوع -قدر الامكان- بأسلوبى الخاص، فإذا قلت في الهامش: أنظر، معنى ذلك أنى إطلعت على الموضوع في مرجعه وأوردت ماقاله مؤلفه بتصرف في الأسلوب والعبارة، مع الإستفادة بأسلوب المؤلف وعباراته. وإذا ذكرت في الهامش المرجع ولم أقل: ينظر، فمعنى ذلك أنى نقلت النص أو تقيدت به، كما هو المتبع في البحوث العلمية .

سادساً- بيان معاني الكلمات الغريبة، وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية، والكتب المؤلفة في غريب القرآن والحديث .

سابعاً- هناك موضوعات تحتاج إلى تفصيل، أوجزت فيها، ومرجع ذلك خطتي في كتابة هذا البحث، وهي إعطاء صورة واضحة عن حقيقة المجتمع الذي يهدف الإسلام إلى إيجاد متعاوناً متآلفاً متكافئاً، تسود أفراد علاقات الود والمحبة والشعور بالعدل والمساواة والكرامة الإنسانية والأخوة الإيمانية، دون أن أخوض في تفاصيل الأحكام وجزئياتها في ذلك الموضوع من البحث، حتى لايسلمنا الدخول في التفاصيل إلى الأطلالة والإسهاب، فإتيه القارئ في مسارب الأبحاث المتعددة الجوانب وتضيق معه الصورة التي حرصت على توضيحها.

ثامناً - خرجت الأحاديث النبوية التي مرت في البحث، فإن كان الحديث في الصحيحين إكتفيت بالعزو إليهما غالباً، مع ذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة، وقد أكتفي بأحدهما.

وإذا كان الحديث في غير الصحيحين عزوته إلى مظهره ما أمكن، مع ذكر من حكم عليه بصحة، أو ضعف، أو حسن ما استطعت .

تاسعاً- ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة، وذلك بالترجمة في المحل الذي مرفيه العلم أول مرة ما أمكن ذلك.

عاشراً- قمت بعمل فهرس شاملة للآيات الكريمة التي استشهدت بها أثناء البحث ، والأحاديث النبوية، والأعلام المترجم لهم، وفهرس للمراجع، وأخيراً فهرس للموضوعات.

وقد رتبت هذا البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب مقسمة على فصول، ولكل فصل مباحث، ولكل مبحث مطالب إن استدعى تقسيمه إلى ذلك وأخيراً خاتمة.

المقدمة: في بيان أهمية الموضوع، وسبب اختياره، وبيان منهج البحث.

التمهيد: جعلته في ثلاث مسائل:

- الأولى: في ضرورة جعل الحكم لله في المجتمع.
- الثانية: في التعريف بالمجتمع وبيان ضرورته وإهتمام الإسلام به.
- الثالثة: في بيان المراد بالصراع وتنوعه .

الباب الأول - عوامل حماية الإسلام للمجتمع من الصراع العنصري والطائفي .
وقد اشتمل على تمهيد وأربعة فصول :

التمهيد:

في بيان مفهوم العنصرية والطائفية وخطورة الصراع حولهما،
والإشارة إلى موقف الإسلام منهما.

- الفصل الأول: تنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الطوائف الأخرى.
- الفصل الثاني: تحقيق المساواة بين الناس.
- الفصل الثالث: رعاية الكرامة الإنسانية .
- الفصل الرابع: تحقيق الأخي بين المسلمين .

الباب الثاني - عوامل حماية الإسلام للمجتمع من الصراع الطبقي :
وفيه تمهيد وفصلين:

التمهيد : في بيان مفهوم الطبقة ونظام الطبقات في المجتمع الشيوعي.

- الفصل الأول: تحقيق العدل في المجتمع .
- الفصل الثاني: تحقيق التكافل في المجتمع .

الباب الثالث - عوامل حماية الإسلام للمجتمع من الصراع لأجل السلطة :
وفيه تمهيد وأربعة فصول :

- الفصل الأول - أهمية الحكم وضرورته في الإسلام .
- الفصل الثاني - التزام الحاكم بالمسئولية الشرعية في الحكم.
- الفصل الثالث - التزام الرعية بطاعة الحاكم.
- الفصل الرابع - دور تنظيم الإسلام للحكم في منع الصراع على السلطة .

وأخيراً : خاتمة البحث وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

وكان لي إستهداء بما توصلت إليه عن كتب أفاضل العلماء الذين كتبوا في تلك
الموضوعات، والاستفادة من أسلوبهم وعباراتهم وترتيبهم، أسأل الله تعالى لهم خير الجزاء.

وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته والوقت الذي استنفذته في كتابة هذا الموضوع - فإنه ولاشك يعتريه النقص والخلل، فالكمال لله وحده، ولكنني أرجو أن أكون قد وفقت في أداء ما يجب عليّ، كما أرجو أن أكون قد قدمت شيئاً للمكتبة الإسلامية لخدمة طلاب العلم والمعرفة .

وليس لي من كلمة إلا أن أحمد الله تعالى دائماً وأبداً على تيسيره وسعوته لي تعالى في إكمال كتابة هذه الرسالة، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

ويتكوّن من ثلاث مسائل :

الأولى * جعل الحكم لله في المجتمع .

الثانية * التعريف بالمجتمع وبيان ضرورته وإهتمام الإسلام به .

الثالثة * بيان المراتب بالصراع وتنوعه وتركيبه بين الممدوح والمذموم .

المسألة الأولى

جمال الحكم لله في المجتمع

إن المجتمع المسلم هو الذي يقوم على قاعدة الحكم لله في أمره كله، والإسلام حين يبني تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الأساس إنما يهدف إلى غاية يعمل على تحقيقها في كل جوانب الحياة، هذه الغاية هي صلاح المجتمع الإسلامي، وتحقيق الخير والفلاح له في شؤون حياته، ودفع الضرر والنساء الذي يصيب الفرد أو المجتمع إذا أعرض عن هدي الله وخالف أمره.

والقرآن الكريم يبين حقيقة الألوهية في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ((وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون)) (١)

(أي هو المتفرد بالألوهية فلا يوجد معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه، (وله الحكم) أي فصل القضاء بين الخلق) (٢).

وقوله تعالى: ((الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً)) (٣).

فالخلق يختص به وحده ولا يوجد أحد من دون الله يعرف أسرار الخلق والتدبير أو يشاركه في هذا الأمر.

قال تعالى: ((وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم)) (٤).

وتفرد الله سبحانه بالخلق يفرد بالملك، والمتفرد بالخلق والملك، يتفرد كذلك بالرزق، فهو خالق خلقه ومالكهم، فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شريك فيه.

(١) سورة القصص الآية (٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٩.

(٣) سورة الفرقان الآية (٢).

(٤) سورة الأنعام الآية (٤).

ولقد تكفل سبحانه برزق كل مخلوق.
قال تعالى: ((وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها
ومستودعها كل ذلك في كتاب مبين)) (١).

فإذا استقرت هذه الحقائق - الخلق والملك والرزق - استقراراً
صادقاً في القلب عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من
خير ومن رزق ومن كسب فكل مافي السماء ومافي الأرض لله، والمالك
الذي بيده العطاء، وله سيطرة الاستعلاء والتصريف والتبديل.

قال تعالى: ((له مافي السموات ومافي الأرض وهو العلي
العظيم)) (٢).
وقال تعالى: ((ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى
تصرفون)) (٣).

وإن الذي يتفرد بالخلق والتدبير، ويتفرد بالملك والسلطة والغلو،
ويتفرد بالرزق والكسب، هو الذي ينبغي أن يتفرد بتوجه الخلق بالعبادة
إليه وحده سبحانه.

قال تعالى: ((ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لاتعبدوا الشيطان
إنه لكم عدو مبين، وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم)) (٤).
وقال تعالى: ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله
واجتنبوا الطاغوت)) (٥).

وهو سبحانه الجدير بأن يدعي وحده، ولا يدعي معه أحد،
فالدعاء إلى غير الله ضلال ولا يوجد غير الله يستجيب.
يقول تعالى: ((له دعوة الحق والذين يدعون من دونه
لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباط كفيه إلى الماء ليبلغ إلى الماء
ليبلغ فاه وما هو ببالفه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال)) (٦).

(١) سورة هود الآية (٦).

(٢) سورة الشورى الآية (٤).

(٣) سورة الزمر الآية (٦).

(٤) سورة يس الآية (٦٠، ٦١).

(٥) سورة النحل الآية (٢٦).

(٦) سورة الرعد الآية (١٤).

فدعوه الله وحده والتوجيه إليه وحده، والإعتماد عليه وطلب
عونه ورحمته وهداه وحده سبحانه هي الحق، وماعداها باطل
ضائع.

ومتقتضى عبادة الإنسان لله وحده أن يخضع أموره كلها وفقاً
لهداية الله وشرعه في كل تصرفات حياته وسلوكه ومعاملاته، فإذا
أمره أو نهاه، أو أحل له أو حرم عليه كان موقفه في ذلك كله:
السمع والطاعة والالتزام والاتباع.

وفي هذا يقول الله تعالى: ((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى
الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله
ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)). (١).

ويقول تعالى: ((إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله
ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم
المفلحون)). (٢).

بمعنى أن الأمر ليس محل اختيار نأخذ شريعة الله أو ندعها
أو نأخذ الأمر منها أو من غيرها.
يقول الله تعالى: ((إن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول)). (٢).

فإن الله تعالى حين يأمر المسلمين بطاعته وطاعة رسوله، ورد
ماتنازعوا فيه إلى حكم الله ورسوله فمعنى ذلك أن هذه الطاعة واجبة في
شؤون التشريع ونظام الدولة كما هي واجبة في المبادات وغيرها مما يجب
فيه الطاعة كحكم الله وشرعه.

والقرآن الكريم دمع أهل الكتاب بالشرك ورماهم بأنهم عبدوا
أحبارهم ورهبانهم، واتخذوهم أرباباً من دون الله، وذلك حين أطاعوهم
واتبعوهم فيما شرعوا لهم مما لم يأذن به الله تعالى.

(١) سورة الأحزاب الآية (٢١).

(٢) سورة النور الآية (٥١).

(٢) سورة النساء الآية (٥٩).

قال تعالى: ((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وماأمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)). (١)

(أي اتخذ اليهود أحبارهم وهم العلماء، واتخذ النصارى رهبانهم وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم، اتخذوهم سادة لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلوا لهم مما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم). (٢)

وقد فسر هذه الآية الكريمة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو الرسول الذي لاينطق عن الهوى كما ورد عن عدي بن حاتم (٢) قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي: اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)، قال: فقلت يارسول الله، إننا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: قلت بلى، قال: فتلك عبادتهم). (٤)

(١) سورة التوبة الآية (٢١).

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٨٠/١٠.

(٢) عدي بن حاتم: /٥٦٧/.

يكنى أبا طريف أسلم سنة عشرة من الهجرة شهد فتوح

العراق والقادسية والجسر ومهران وفقت عينه يوم الجمل،

شهد صفين مع علي، سكن الكوفة وترفي بها وله من العمر

مائة وعشرون سنة.

الإصابة ٤٦٨/٢، أسد الغابة (٢٢٩٢).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه /كتاب التفسير، باب سورة التوبة ٢٨٧/٥، قال الترمذي: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب. /تحفة الأحوذى ٤١٤/٨.

قال الحافظ ابن كثير (١) في تفسيره: وهكذا قال حذيفة بن اليمان (٢)، وعبد الله بن عباس (٣) وغيرها في تفسير (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) إنهم إتبعوهم فيما حللوا وحرّموا). (٤)

وإن النصوص القرآنية لقاطعة في أن طاعة المسلم وإتباعه لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لاتستمد من شريعة الله ولاتعتمد على الاعتراف له وحده بالحكم تخرجه من هذا الدين.

(١) ابن كثير: (٧٠١-٧٧٤هـ):

إسماعيل بن كثير القرشي البصري الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، حافظ، مؤرخ، فقيه، مفسر، رحل في طلب العلم ولد في قرية من أعمال بصرى الشام انتقل مع أخيه إلى دمشق كان مشاركاً في العلوم فكتب في التاريخ والتفسير والرجال ومصطلح الحديث.

* شذرات الذهب ٢٢١/٤ . * طبقات المفسرين ١١٠/١.

(٢) حذيفة بن اليمان:

حذيفة بن حسل بن جابر، لقب باليمان لأنه أصاب دماً في قومه فهرب إلى المدينة وحالف بني عبد الأشهل من الأنصار، شهد أحداً مع النبي صلى الله عليه وسلم، صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين، ولما حضرته الوفاة قال: اللهم إني أحبك فيارك لي في لقائك ومات بعد مقتل عثمان بأربعين ليلة سنة (٥٢٦هـ).

* أمد الغابة ١٩٠/١، الاستيعاب ٢٧٧/١.

(٣) ابن عباس (١٠ من البعثة ٥٦٨هـ)

عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد بشعب مكة حنكة المصطفى صلى الله عليه وسلم، دعا له الرسول - اللهم علمه الحكمة - فكان يجلس يوماً للفقهِ ويوماً للتأويل ويوماً للحساب، ويوماً للفرائض، ويوماً للشعر، ويوماً لأيام العرب، مات الرسول وهو ابن ثلاث عشرة سنة، انتقل للطائف بعد الثنتنة ومات بعد انتقاله بثمان ليالٍ وهو ابن واحد وسبعين سنة صلى الله عليه ابن الحنفية وله مشهد معروف.

* أمد الغابة ١٩٢/٢ . * الإصابة ٢٢٠/٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٢٤٩/٢.

يقول الله تعالى: ((وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون)). (١)
فهذا هو الشرك كقوله تعالى: (اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً
من دون الله)). (٢)

(فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله،
وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله
الله، وأطاعة في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذ رباً
ومعبوداً وجعله لله شريكاً، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي
دلت عليه كلمة الأخلص (لا إله إلا الله) فإن الإله هو المعبود) (٢).

إنها القاعدة التي تربط الفرد والجماعة بالله على بصيرة، وترجع
إليها كافة الروابط والقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية.

إن الحكم في النظام الإسلامي لله وحده، وعمل البشر هو تطبيق
التشريع الإلهي وتنفيذه، دون أن يكون لهم الخيار في المدول عنه أو
اختيار بعضه دون بعض أو تعديله أو تحويره، في أي شأن من شؤون
الحياة ومجالات تعاملها التي تحكم المجتمع الإنساني.
يقول الله تعالى: ((وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم
واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)) (٤).

وقد جعل الله تعالى الحكم بما أنزله أحسن حكم وأفضله، ولذا
نسب الحكم بما أنزل إلى نفسه فجعله (حكم الله) وجعل بما عداه حكماً
جاهلياً.

-
- (١) سورة الأنعام الآية (١٢١).
(٢) سورة التوبة الآية (٢١).
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص (٨٥).
(٤) سورة المائدة الآية (٤٩).

قال تعالى: ((أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)) (١) .
فقاله تعالى ينكر على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والإصطلاحات التي وضعها الرجال بلاد مستند من شريعة الله .

والمعنى : أي لاحكم أحسن من حكمه تعالى (٢) .

وحكم الله هو الحق ، ومادونه باطل وظلم، قال تعالى :

((وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)) (٣)

قاله تعالى هو المنشئ للأحكام المهيمن بإرادته على سير الأمور ولاشريك له في ذلك، فإذا حدث تطاول على هذا المقام إختل نظام الناس وكان الصراع والظلم والفساد وعدم الاستقرار .

قال تعالى: ((فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له ميمشة ضكاً ونحشاً يوم القيامة أعمى)) (٤) .

ومن يستقرئ تاريخ الأمة العربية في ماضيها وحاضرها، يعلم أن هذه الأمة لا يرتفع لها رأس، ولا يقوم لها أمر، ولا يكون لها شأن يذكر بين الأمم إلا بالاسلام وتطبيق شرع الله، قبل الاسلام كانت قبائل متناثرة متناحرة تثور بينها الحروب لأتفه الأسباب وتستمر جيلاً كاملاً، ولا تنتهي إلا بقاء المتحاربين، حتى جاء الاسلام فجعل من هذه الأمة خيرامة أخرجت للناس وجعل منها أمة تقود البشرية إلى حياة الأمن والسلام والوفاق والوحدة. (٥)

قال تعالى: ((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)) (٦) .

(١) - سورة المائدة الآية (٥٠) .

(٢) - تفسير ابن كثير ٢٧١٢ .

(٣) - سورة الاسراء الآية (١٠٥) .

(٤) - سورة طه الآيتان (١٢٣ ، ١٢٤) .

(٥) - انظر: الشريعة الالهية لالقوانين الجاهلية للدكتور عمر سليمان

الأشقر ص (١٦٠)، والتاريخ الاسلامي تأليف محمود شاعر ١٩٧/١ .

(٦) - سورة آل عمران الآية (١٠٣) .

ويقرر الله تعالى في آية أخرى أن هذه الأمة لا يمكن أن تجتمع قلوبها ولا تتوحد صفوفها ولا يجتمع شملها على غير الإسلام، حتى لو كان القائد الذي يريد توحيدها هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذل في سبيل ذلك كنوز الأرض، قال تعالى : ((لو أنقذت مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)) (١).

وفي هذا العصر تفرقت هذه الأمة وقهرها أعداؤها، وغزوها تارة بالقومية وتارة بالإشترائية، وثالثة بالقوانين الوضعية ومناهج التربية الغربية التي جعلوها تتحاكم إليها .

ولا يمكن أن تتوحد هذه الأمة المتفرقة، وهي قد أقصت شريعة الله وحاكميته عن شؤون حياتها، وتحاكت إلى القوانين الوضعية ورضيت بها، بدون الرجوع إلى شريعة الله وتحكيمها .

ولقد كان الكفار يعلمون أن إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحكم يزيد في فرقة المسلمين وتشتتهم، ولذلك حرصت كل دولة مستعمرة أن تفرض قانونها على البلاد التي إستعمرتها، حتى تفرق جمعها وتشتت وحدتها (٢).

(إن حياة البشر لاتستقيم ولا تصح إلا على أساس تحقيق الحاكمية لله وحده، بمعنى أن يكون للناس سيد واحد يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك، ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة، وشهوات البشر الصغيرة . إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الإجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد - من دون الله - وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام كانت عبوديتهم لله وحده - عقيدة وعبادة وشريعة -

إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى، والعاصم من العبودية للعباد، وما يرتفع إنسان إلى أعلى مقام مقدر له، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه .

(١) - سورة الأنفال الآية (٦٢) .

(٢) - انظر الشريعة الإلهية للدكتور سليمان الأشقر ص (١٦٢) بتصرف .

إن تحقيق الحاكمية لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في المجتمع الإسلامي، ومامن نظام إجتماعي أو إقتصادي أو سياسي أو أخلاقي أو دولي، يمكن أن يقوم على أسس واضحة ثابتة لاتخضع للهوى والتأويلات المفروضة، ويمكن أن يتحرر البشر في ظله من الذل والخوف ويستمتعوا بالكرامة الحقيقية، التي أكرمهم الله بها، وينعموا بحياة الوحدة والسلام إلا حين تتحقق الحاكمية لله وحده في كل شؤون حياتهم .
فلا يتحكم فرد في شعب ، ولا طبقة في أمة، ولا جنس في جنس، ولا قوم في قوم ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين في ظل شريعة رب العالمين(١)

ومن هنا ندرك أن تحقيق حاكمية الله في المجتمع له دوره الفعال في منع الصراع، وفي العمل على تحقيق الوحدة والمصلحة والسلام في المجتمع الإسلامي .

(١) - انظر : طريق الدعوة في ظلال القرآن
تأليف احمد فايز ٢١٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، بتصرف وإختصار .

المسألة الثانية

تمريف المجتمع
وبيان ضرورته وإهتمام الإسلام به

الجمع في اللفظة: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، يقال جمعته فاجتمع. (١)
قال تعالى: ((وجمع الشمس والقمر)) (٢)، وقال تعالى: ((الذي جمع مالا وعدده)) (٣)، وقال تعالى: ((لمفجرة من الله ورحمة خير مما يجمعون)) (٤)،
وقال تعالى: ((أيحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه)) (٥).
(أي يوم القيامة أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة). (٦)

ويقال للمجموع جمع وجميع وجماعة (٧). قال تعالى: ((وما أصابكم يوم التقى الجمعان)) (٨) وقال تعالى: ((وان كل لما جميع لدينا محضرون)) (٩)

والمجموع: ما جمع من هنا وهنا، وإن لم يجعل كالشيء الواحد (١٠).
والجميع: ضد المتفرق، والحي المجتمع (١١).
وجُماع النام: أخلاطهم من قبائل شتى، ومن كل شيء مجتمع أصله، وكل ما تجتمع وانضم بعضه إلى بعض. (١٢)

-
- (١) - المفردات في غريب القرآن لأصفهاني ص (٩٦) والمنجد في اللفظة ص (١٠١).
 - (٢) - سورة القيامة الآية (٩).
 - (٣) - سورة الهمزة الآية (٢).
 - (٤) - سورة آل عمران الآية (١٥٧).
 - (٥) - سورة القيامة الآية (٢).
 - (٦) - تفسير ابن كثير (٤/٤٤٨).
 - (٧) - المفردات في غريب القرآن لأصفهاني ص (٩٧).
والمختار من صحاح اللفظة ص (٨٢).
 - (٨) - سورة آل عمران الآية (١٦٦).
 - (٩) - سورة يمس الآية (٢٢).
 - (١٠-١١) - ترتيب القاموس المحيط للأستاذ أحمد الزاوي (١/٥٢٠).
 - والمعجم الوجيز ص (١١٧).
 - (١٢) - الصحاح تأليف إسماعيل الجوهري (٢/١٢٠٠).
 - والمصباح المنير للرافعي (١/١٠٩).



وفي أسماء الله تعالى (الجامع): هو الذي يجمع الخلاق ليوم الحساب.
وقيل هو المؤلف بين التماثلات والمتباينات والمتضادات في الوجود). (١)

وعلى هذا فالجمع هو ضم الشيء بضمه إلى بعض.
ومنه: يكون المجتمع هو ضم الناس بعضهم لبعض.

والمجتمع: مكان الاجتماع، ويطلق مجازاً على جماعة من الناس خاضعين
لقوانين ونظم عامة. (٢)

(وقد اتفق علماء الاجتماع على أن المجتمع بصفة عامة مجموعة من الناس
يعيشون في بقعة معينة من الأرض وترتبطهم علاقات اجتماعية ولهم آمال ورغبات
وتطلعات وصعوبات وآام مشتركة ويعملون لتحقيق أهداف عامة، وللمجتمع كوحدة
اجتماعية نظمه المحددة لسلوك أفراد في إطار الدين). (٢)

ما سبق نلاحظ أن المجتمع يتمتع بالخصائص التالية:

- ١- المقيدة الواحدة التي يدين بها أفراد المجتمع كلهم أو جلهم.
- ٢- قيامه على كثرة عددية من الناس .
- ٣- ضرورة اشتراك هؤلاء الناس في وحدة اجتماعية تؤدي إلى اشتراكهم في
التقاليد والعادات الواحدة وطرق المعيشة.
- ٤- اشتراكهم في أرض واحدة لها حدود معروفة، يقيمون عليها.
- ٥- خضوعهم لنظام واحد يحكمهم ويسير شؤونهم.

*

*

*

-
- (١) - ترتيب قاموس المحيط للأستاذ أحمد الزاوي ١/٥٢٠.
 - والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/٢٩٥.
 - (٢) - المنجد في اللغة ص (١٠١)، والمعجم الوسيط ١/١٢٦.
 - (٣) - تنظيم المجتمع للدكتور أحمد كمال أحمد ١/٨٧.

(وقيام المجتمع ضرورة للإنسان، من غيره لا يستطيع الفرد بذاته أن يستمر في الحياة، فهو الذي يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة، وقد يقول قائل إن الفرد ليس عليه أن يعيش حياة اجتماعية بالضرورة، وبالتالي يمكن ألا يكون المجتمع شرطاً للبقاء، ولكن وجود الفرد ذاته متوقف على وجود المجتمع). (١)

والإنسان كائن اجتماعي، يعيش في مجتمع، وهو لذلك يجد نفسه مرتبطاً بملاقات متعددة ومتشابكة مع الآخرين. (٢)

ومن الحقائق الثابتة التي أشار إليها العلامة ابن خلدون (٢) في مقدمته: أن الاجتماع الإنساني ضروري، وهو ما يعبر عنه بقول بعضهم: الإنسان مدني بالطبع (٤) ومعنى ذلك أن المجتمع ضروري للإنسان، وهو ما يؤيده الواقع، فالإنسان يولد في المجتمع ويعيش فيه ويموت فيه.

فحياة الجماعة صفة جوهرية من صفات الإنسان، والفرد لا يتمتع بصفاته الإنسانية إلا تحت تأثير حياة المجتمع. ولا يتسنى ذلك بطبيعة الحال إلا إذا كان المجتمع وحدة حقيقية طبيعية لا تقتصر على اجتماع الأفراد اجتماعاً عديداً بل تعبر عن تألفتهم وإندماجهم في الظواهر الاجتماعية، بحيث ينتج هذا الاندماج والتآلف قوة ذاتية. (٥)

(١) - انظر كتاب علم الاجتماع تأليف محمد عاطف غيث ص (١٩١).

(٢) - انظر نفس المرجع ص (٢٠٤).

(٢) - ابن خلدون (٧٢٢-٨٠٨):

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد الحضرمي مولده ومنشأه بتونس فيلسوف مؤرخ رحل إلى فاس وقرطاجنة وتلمسان والأندلس اعترضته دسائس وشايات فذهب إلى القاهرة وفيها توفي فجأة - اشتهر بكتابه - العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والمجم والبربر - (٧ مجلدات) وله تصانيف جمّة.

* نصح الطيب ١٧١/٦.

* الأعلام ٢٢٠/٢. * شجرة النور الزكية (٢٢٧) رقم /٨١٨.

(٤) - انظر مقدمة ابن خلدون ص (٤١).

(٥) - انظر كتاب مبادئ علم الاجتماع تأليف الدكتور السيد محمد البدوي ص (٧٤)

ولقد حاول بعض الفلاسفة أن يثبتوا أن الحياة في المجتمع ليست من جوهر الإنسان، وأن من الممكن أن تتصور الإنسان في حالة العزلة. ومن هؤلاء الفيلسوف العربي (ابن طفيل) (١) الذي حاول في قصته (حي بن يقظان) أن يشرح مراحل التطور العقلي لإنسان يعيش وحيداً لاتربطه أية علاقة بالمجتمع.

ولكن هذا التيار الذي يناهز بان الفرد يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه قد اصطدم منذ القدم بالتيار المضاد الذي كان يحاول أن يثبت أن الفرد أو الكائن الإنساني لا يمكنه أن يعيش بدون مجتمع. (٢)

وإذا كان المجتمع ضرورياً للإنسان ولا بد من وجوده، فإن النظام -على أي نحو كان- ضروري للمجتمع لا يتصور وجوده بدونه، لأن الأفراد لا يمكنهم العيش بحرية مطلقة داخل المجتمع وإلا كان في ذلك هلاكهم أو اضطراب حياتهم وتفتت مجتمعاتهم. (٢)

ولهذا كان لابد من نظام للمجتمع يتضمن الحدود والقيود والضوابط التي يجب أن يلتزم بها كل أفراد المجتمع في سلوكهم ومعاملاتهم وسائر شؤون حياتهم حتى يستطيعوا العيش بأمان واستقرار بعيدين عن كل أنواع الصراعات المدمومة التي تثيرها الفوضى والاضطراب وانعدام وسائل تنظيم أفراد المجتمع في كل شؤون حياتهم الخاصة والعامة.

وإذا كان لكل مجتمع نظام على نحو ما، فإن هذا النظام لابد له من أساس وأصول وأفكار يرتضيها المجتمع ويقوم عليه نظامه الذي يسير بموجبه. والنظام قد يكون صالحاً أو فاسداً تبعاً لصالح أو فساد أساسه وأصوله التي يقوم عليها، وبصلاحه أو فساده يسعد المجتمع وينعم بالأمن والسعادة أو يشقى وتممه الفوضى والقلق والصراع.

(١) - ابن الطفيل (٥٧٥هـ)

- محمد بن طفيل المغربي، حكيم من فلاسفة الإسلام، من آثاره: أسرار الحكمة، رسالة حي بن يقظان، رسالة الطبيعات، ورسالة النفس.
- أنظر: هدية العارفين للبغدادي، أسماء المؤلفين ٩٨/٢.
- ومعجم المؤلفين ١٠/١٠٤.
- (٢) - مبادئ علم الاجتماع تأليف الدكتور السيد محمد بدوي ص (١٨٢).
- (٣) - أنظر أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٩٦).

وإن الأساس الذي يقوم عليه النظام الصالح والمجتمع الذي يسعد به وفيه الناس جميعاً في الإسلام هو العقيدة الإسلامية التي تطهر المجتمع من الزيف والضلال والانحراف وفساد الخلق والسلوك.

واعتبار الإسلام هذا الأساس لقيام المجتمع ونظامه، يعتبر تكريماً للإنسان ووضاً للأمر في نصابها، فليس من اللائق بالإنسان بناء مجتمعه على أساس الجنس أو القبيلة أو اللون أو الأقليم، كما كانت تفعل المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام، لأن أصل البشر واحد، ولا يمكن حجب هذه الحقيقة باختلاف الناس بالأنساب والأجناس . . . قال تعالى: ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة)) (١)

والمجتمع الذي تحكمه عقيدة صالحة ينبثق عنها تشريع ينظم علاقات الناس، وأخلاق وقيم تبني عليها أعرافهم وعاداتهم، هو المجتمع الذي يضمن له الوحدة والتماسك، ويسوده العدل والنظام، وتتكافل جماعته وأفراده، وتحكمه الطمأنينة والسلام. (٢)

وإن الإسلام في تنظيمه لمجتمعه وبنائه له يهدف إلى إقامة الحياة المتوازنة التي تتجلى فيها خصائص الفطرة وتتسق مع دور الإنسان في الحياة.

وفي هذا البحث سوف أتناول دراسة العوامل التي تنظم المجتمع وتحثيه من الصراعات المدمومة بين أفراد من المسلمين وبينهم وبين غيرهم من الطوائف الأخرى التي تعايشهم في مجتمعهم الإسلامي، وتحقق لكل من الحاكم والمحكوم الحياة الآمنة والحب والألفة.

* * *

(١) - سورة النساء الآية (١).

(٢) - أنظر أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٩٧-٩٨) بتصرف.
والمجتمع المتكافل في الإسلام للدكتور عبد العزيز الخياط ص (١١-١٢) بتصرف.

المسألة الثالثة

مفهوم الصرع وتنوعه وتسرده
ببين الممدوح والمذموم

الصَّرْعُ : الطرح، يقال صرعه صرعاً. (١)
والصَّرْعَةُ: حالة المصروع. (٢)
ورجل صريع: أي مصروع، وقوم صرعى.
قال تعالى: ((فترى القوم فيها صرعى)) (٣)
وهما صِرْعَان كقولهم: قِرْنَان. (٤)
(وصرعى: جمع صريع. قال مقاتل: يعني موتى، يريد أنهم صرعوا بموتهم) (٥)
وتصارع الرجلان واصطرعا: حاولا أيهما يصرع صاحبه. (٦)
وصارعه مصارعة وصراعاً: غالبه في المصارعة. (٧)
وفي الحديث: ((مثل المؤمن كالخامة من الزرع تصرعها الريح مرة وتعدها
أخرى)) (٨).

أي تميلها وترميها من جانب إلى جانب. (٩)
والصَّرْعَةُ: الغلاب في المصارعة، يقال: رجل صرعة وقوم صرعة. (١٠)

جاء في الحديث: ((ماتعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعه
الرجال. قال: ليس بذاك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)). (١١)

-
- (١-٢) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٢٨٠).
 - (٢) - سورة الطاقة الآية (٧).
 - (٤) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٢٨٠).
 - (٥) - تفسير الفخر الرازي ١٠٥/٢٠.
 - (٦) - المنجد في اللغة ص (٤٢٢).
 - (٧) - المعجم الوسيط ٥١٢/١، والمصباح المنير للرافعي ٢٢٨/٢.
 - (٨) - أخرجه البخاري بنحوه/كتاب المرض/باب ما جاء في كفارة المرض ٢/٤.
 - بلفظ (تغيثها). وعند مسلم: ((تغيثها تصرعها مرة وتعدها أخرى)).
 - (٩) - فتح الباري ١٠٦/١٠.
 - (١٠) - المعجم الوجيز ص (٢٦٢).
 - (١١) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٨٢/١. وأورده أحمد البنا عن عبد الله ابن مسعود.
- قال أحمد البنا: أخرجه مسلم وغيره، الفتح الرباني ٨٩/١٩.

ومن هذا يمكننا أن نقول إن الصراع هو محاولة كل شخص التغلب على صاحبه وطرحه.

(ويشير الصراع إلى نوع عنيف من التنافس، وهو في أقصى صورته عبارة عن العملية التي عن طريقها تحاول الجماعة - أو الفرد - أن تدمر وتعرقل أو على الأقل أن تقلل من مركز جماعة أخرى (١)

(ويقسم بعض العلماء الصراع إلى مباشر: كاعتداء الأفراد بعضهم على بعض إلى حد الضرر والأذى وباستخدام القوة والعنف. وغير مباشر: يتمثل في سعي كل فرد أو فريق إلى تحقيق مصلحته بما يعوق تحقق المصلحة للآخرين خصوصاً إذا كان الهدف المنشود واحداً). (٢)

ومن هنا يمكن أن نحدد مفهوم الصراع كمصطلح فنقول:
الصراع هو محاولة تحقيق الرغبات والأهداف بأسلوب يضر الآخرين ويؤذيهم مادياً أو معنوياً دون مراعاة لحقوقهم المشروعة.

* * * * *

-
- (١) - أنظر كتاب علم الاجتماع تأليف محمد عاطف غيث ص (٢٠٧)
(٢) - أنظر كتاب الاجتماع ودراسة المجتمع للأستاذ كمال دسوقي ص (١٥٥-١٥٦).

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد للحق أهله الذين يحملونه ويعملون به، ويدعون إليه ويجاهدون في سبيله، وأن يوجد للباطل -كذلك- أهله الذين يحملونه ويعملون به ويدعون إليه ويقاتلون في سبيله، وعلى رأس أهل الحق الأنبياء والرسل منذ خلق الله آدم إلى أن بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى رأس أهل الباطل إبليس منذ أن وجد الشيطان إلى أن تقوم الساعة. فالصراع قائم بين أهل الحق وأهل الباطل قديماً وحديثاً.

ولقد اضطرع آدم وإبليس فضعف أمام إغراء عدوه في أول الأمر، ولكنه رجع إلى ربه وندم على خطيئته فتاب الله عليه ولمن عدوه وجعل عز وجل هداه وقاية لمن اتبعه والنار جزاءً وعقاباً لمن كفر به وكذبه. قال تعالى: ((وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) . (١)

واشتدت عداوة الشيطان لآدم وذريته فأقسم لربه على أن يستولي عليهم ويصدهم عن سبيل الله فهدده الله تعالى هو ومن اتبعه بالمعاب الشديد وأطلق له الزمام على إخوائه من شياطين الإنس وأياسه من عباد الله المتقين فلا سلطان له عليهم لأنه تعالى كافيهم شره.

قال تعالى: ((وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً، قال أربيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً، قال أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً. واستغزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا)) . (٢)

(١) - سورة البقرة الآيات (٢٤-٢٩).

(٢) - سورة الإسراء الآيات (٦١-٦٥).

واستمر الصراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل فلم يأت رسول من الرسل إلا وقف من يعاديه ويكفر به ويصد عن دينه..

قال تعالى: ((ألم يأتكم نبياً الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليعفركم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى؟ قالوا إن أتمم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا، فأتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون، وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)). (١)

وهذا الحوار بين أهل الحق وأهل الباطل يدل على الصراع القديم والدائم بينهما.

والذي يتأمل حياة البشرية يجد الصراع بين الحق والباطل بين كل رسول وقومه وبين كل أمر بالمعروف ناه عن المنكر وأهل المنكر الذين يرتكبونه أو يأمرون به، لا بل بين الأسرة الواحدة بعضهم أهل حق يجاهدون لإحقاقه وبعضهم أهل باطل يجادلون وينصرون الباطل إلا أن الباطل قد يصل إلى درجة الكفر وقد يكون معصية، لهذا كان لزاماً على أهل الحق أن يكونوا مستعدين دائماً لنصر حقتهم ودحض باطل غيرهم ومحاربتة. (٢)

(١) - سورة إبراهيم الآيات (٩-١٥).

(٢) - انظر كتاب الجهاد في سبيل الله للدكتور عبد الله بن أحمد القادري ١٩٦/٢

قال سيد قطب (١): (إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض
والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان
وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان، والشر جامع والباطل مسلح وهو يبطش
غير متحرج ويضرب غير متورع، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه وعن
الحق إن تفتحت له قلوبهم، فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش
وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم، ولم يشأ الله أن يترك الإيمان
والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل اعتماداً على قوة الإيمان في
النفوس وتغلغل الحق في الفطر وعمق الخير في القلوب، فالقوة المادية التي يملكها
الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر وللصبر حد وللإحتمال أمد
وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم ومن ثم لم يشأ أن
يترك المؤمنين للفتنة إلا ريشماً يستعدون للمقاومة ويتهيأون للدفاع ويتمكنون من
وسائل الجهاد). (٢)

* * *

(١) - سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٧م)

سيد قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصري تقلد وظائف الدولة ثم
استقيل وانضم إلى الإخوان المسلمين فترأس نشر الدعوة وسجن
ثم عكف على التأليف واشهر كتبه (في ظلال الدعوة) وأعدم عام ١٩٦٦هـ.
* الأعلام ج ٢/١٤٧.

(٢) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٤/٢٤٢٤.

وتظهر أزية الصراع متمثلة في قصة ولدي آدم، حيث قتل الأخ أخاه
حقداً عليه وحسداً.

يقول الله تعالى: ((واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من
أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين. لنسن بسطت
إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد
أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاؤ الظالمين. فطوعت له نفسه
قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين)). (١)

وقد ذكر المفسرون أنه كانت بينهما خصومة، فتقربا بقربانين، وكان قربان قاييل
حزمة من سنبل، لأنه كان صاحب زرع، واختارها من أردأ زرعه، حتى أنه وجد فيها
سنبل طيبة فتركها وأكلها، وكان قربان هاييل كبشاً لأنه كان صاحب غنم أخذ من
أجود غنمه، فتقبل قربان هاييل فرفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به
الذبيح عليه السلام، ولم يتقبل قربان قاييل فحسدهم قتلته. (٢)

وهذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان، ونموذجاً لطبيعة الخير
والسماحة، وتقنهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته، وتتبنى كذلك عن حق في
الفترة البشرية وإستعدادها للصراع المتمثل في العدوان الصارخ، وفي الطبيعة
والتقوى والوداعة. (٢)

* * *

- (١) - سورة المائدة الآيات (٢٧-٢٠).
(٢) - أنظر تفسير ابن كثير ٤١/٢، وتفسير فتح القدير للشوكاني ٢٠/٢.
وتفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢٢٢/٢.
(٢) - أنظر تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٨٧٤/٢ بتصرف.

والصراع أنواع: صراع إسلامي، وصراع جاهلي.

أما الصراع الإسلامي فهو الصراع الذي يكون لإصلاح الأرض ولتمكين الخير ولهداية البشر بالكفاح مع الشر، ويكون بالتنافس في المسابقة في الخيرات وقضاء حوائج الناس وتفريج الكربات، ويكون بمجاهدة النفس للتغلب على قوى الشر والسلب والتفوق عليها.

قال تعالى: ((وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)). (١)

(والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على مصيبة، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والإستفكار والتوبة، فقلل في دائرة الطاعة.

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى. فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته. ولكنه كلفه أن ينهها ويكبحها ويمسك بزمامها. وأن يستعين في هذا بالخوف. الخوف من مقام ربه الجليل. وكتب له بهذا الجهاد الشاق، الجنة مثابة وماوى. ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى). (٢)

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ((ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)). (٣)
الصرعة: بضم الصاد وفتح الراء، هو القوي الشديد الذي يصرع غيره، والمراد به هنا الحليم عند الغضب. (٤)

وفي الناس من إذا خاسم أو غضب فقد قوته، وذهب عنه حلمه، وهو أضعف الناس، وأقلهم قدرا، وإنما يظهر الرجل بقوته على نفسه، وكبح جماحها وسيطرته عليها إذا غضب.

(١) - سورة النازعات الآيتان: (٤٠-٤١).

(٢) - تفسير في ظلال القرآن ٢٨١٩/٦.

(٣) - زواه البخاري في صحيحه / كتاب الآداب / باب الحذر من الغضب ٦٨/٤.

(٤) - سبل السلام للصنعاني ١٨٢/٤.

(وهذا هو المراد بالشديد في الحديث. وهو هنا شدة القوة المعنوية وهي مجاهدة النفس وإساکها عن الشر ومنازعتها للجوارح للإنتقام ممن أغضبها، وفي الحديث إشارة إلى أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو، لأنه صلى الله عليه وسلم جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوة. كما أن في الحديث إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الإنتقام ممن أغضبه أن يجاهدها ويمنعها عما طلبت). (١)

وأفضل الإيمان جهاد النفس لما يتطلبه من مصاعب ويستلزمه من قدرة على المقاومة والمراقبة والحذر والتجرد.. ولهذا كان الحلم في مواطن الغضب سيادة على النفس وضبط لها، ودليل على قوة الشخصية، وثمره من ثمار التدين الصحيح. ولا يستغني عنه الإنسان الذي يعيش في مجتمع تتصارع فيه الأهواء، وتتضارب فيه الآراء، وتختلف فيه وجهات النظر.. (٢)

ولهذا كانت النصيحة الذهبية التي لاتعدلها نصيحة أخرى، قول الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأله العظة قال: ((لاتغضب.. فكررها مراراً وهو يقول: ((لاتغضب)). (٣)

وقد أمر الله تعالى في كتابه العزيز، بالحلم، ومعاملة الناس بالحسنى، وإحتمال الأذى، والصبر على الأعداء، وبين ما يترتب على ذلك من الفضل في العاجل والآجل، فقال تعالى: ((ولاتستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)). (٤)

(فالحسنة لا يستوي أثرها - كما لاتستوي قيمتها- مع السيئة والصبر والتسامح، والإستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتقلب من الخصومة إلى الولاء، ومن الجحاح إلى اللين). (٥)

- (١) - سبل السلام للصنعاني ١٨٢/٤ - ١٨٢.
- (٢) - أنظر دعوة الإسلام تأليف السيد سابق ص (١٤٩).
- وإصلاح المجتمع تأليف العلامة محمد البيهاني ص (١٩٨).
- (٢) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الأدب/ باب الحذر من الغضب ٦٨/٤.
- (٤) - سورة فصلت الآيتان (٢٤-٢٥).
- (٥) - تفسير في ظلال القرآن ٢١٢٢/٥.

ومن أبرز صور الصراع الإسلامي (الجهاد) .. وهو يتضمن كل أشكال الصراع الخارجي على الإطلاق: المذهبي، السياسي، العسكري، الأخلاقي، الاقتصادي، والحضاري. (١)

إن الجهاد صراع مع أهل الشرك والباطل لإعلاء كلمة الله تعالى، وصراع لإصلاح الأرض وتمكين الخير ولهداية البشر بالكفاح مع الشر قال تعالى: ((الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، قاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً)). (٢)

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، لتحقيق منهجه، وإقرار شريعته، وإقامة العدل بين الناس باسم الله، لاتحت أي عنوان آخر، إقراراً بأن الله وحده هو الإله.

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، لتحقيق مناهج شتى - غير منهج الله - وإقرار شرائع شتى غير شريعة الله، وإقامة قيم شتى غير التي أذن بها الله، ونصب موازين شتى غير ميزان الله. (٢)

يستمر هذا الصراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل محققاً سنة من سنن الله العامة في المجتمع الإنساني كله .. ثم يجيء النصر في النهاية لصالح الخير وصالح الحق بعد أن يصارع أتباعه ضد الشر وضد الباطل.

يقول الله تعالى:

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)). (٤)

-
- (١) - التفسير الإسلامي للتاريخ للدكتور عماد خليل ص (٢٤٧).
 - (٢) - سورة النساء الآية (٧٦).
 - (٣) - تفسير في ظلال القرآن ٧٠٩/١.
 - (٤) - سورة التوبة الآيتان (٢٢-٢٣).

وحينئذ يقر الإسلام هذا النوع من الصراع، ويعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى المتضادة.

إنه الصراع لتحقيق منهج الله وتنفيذ شرعه وإقامة العدل بين الناس وإقرار الخير والحق والسلام في الأرض .

((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير)). (١)

وقد أوضح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الهدف من الجهاد في كلمة جامعة شاملة نابذاً كل هدف لا يدخل في معناها، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)). (٢)

قال ابن تيمية (٢) رحمه الله: (والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين لله، فمقصوده إقامة دين الله، لا استيلاء الرجل حظه، ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة). (٤)

-
- (١) - سورة الأنفال الآية (٢٩).
- (٢) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الجهاد والسير/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ١٢٩/٢.
- (٢) - ابن تيمية (٦٦٢-٧٢٨ هـ):
- أحمد عبد الحليم بن عبد السلام الحرائي الدمشقي الحنبلي أبو العباس، ولد بخران ونشأ واشتهر بدمشق، برع في التفسير وسائر الفنون مصنفاته تربو على ٤٠٠ كراسة أفتى وهو دون العشرين، ترجم له الشيخ مرعي الحنبلي وغيره، سجن بمصر لإجل فتوى واعتقل بعدها بدمشق ستة (٥٧٢٠هـ) ثم أطلق ثم اعتقل بقلعة دمشق ومات فيها شهدت دمشق كلها جنازته * - البداية والنهاية ١٤١/٤ . * تراجم الحنابلة ٢٨٧/٢.
- (٤) - الفتاوى لابن تيمية (١٧٠/١٥).

أما الصراع الجاهلي:

فهو ما كان على عرض من أعراض الدنيا الزائلة التي تشتجر فيها الأطماع وتتعارض فيها المصالح وتختلف فيها الاتجاهات.. والمنافسة للوصول إلى تحقيق الرغبات والشهوات المادية والمعنوية وفق أسلوب بعيد عن منهج الله تعالى.. فهو وراء المرأة والخمرة والكسب الحرام، واللهو والزينة، والفخر والحياة، وكل ما يعتبر نافعاً أو رافعاً أو مبهجاً.

وللوصول إلى تحصيل ذلك والسبق إليه، فهو يظلم ويأثم ويتعدى حدود الله وحرماته في النفس والمال والعرض، في سبيل تحصيل شيء من المال أو الشهرة أو أي غرض دنيوي زائل.

صور الصراع الجاهلي:

وللصراع الجاهلي صور كثيرة:

منها: الصراع الطائفي: الذي ينشأ بسبب الاختلاف في الدين بين الطوائف المختلفة التي تعيش في المجتمع.

ومنها: الصراع المنصري: الذي ينشأ بسبب الاعتقاد بتفوق جنس على آخر بسبب اللون أو اللغة أو الجنس أو الأرض أو الأصل.

ومنها: الصراع الطبقي: الذي ينشأ بسبب تعالي طبقة الأغنياء على الفقراء أو حقد الفقراء على الأغنياء، بسبب حرمانهم حتى من ضروريات الحياة وتكديس الثروات الطائلة في أيدي الأغنياء.

ومنها: الصراع حول الوصول إلى الحكم والسلطة والزعامة والشهرة، وتولي أي منصب قيادة في المجتمع دون الإهتمام بتوافر الشروط المطلوبة فيمن يتولى منصب زعامة وعدم علم ودراية بالمهام والمسؤوليات المنوطة بذلك المنصب أيضاً كان.. فينشأ من ذلك تصارع الأفراد على ذلك المنصب، فتثور الفتن ويعم الخوف والفوضى والإضطراب أفراد المجتمع.

ولكل صورة من هذه الصور المدمومة من الصراع مضاره وآثاره الملموسة في تمزيق وحدة المجتمع وإختلاف الصف وتقطيع روابط الأخوة وأواصر المحبة والألفة بين الأفراد، وإنعدام وسائل التعاون والتكافل والتراحم بينهم.. كما سيوضح ذلك معنا بالشرح والتفصيل والبيان من خلال أبواب وفصول هذا البحث.

والدراسة التي أقدمها في هذه الرسالة تدور حول منهج الإسلام في القضاء على الصراع الاجتماعي بمختلف صوره المذمومة، بهدف حماية المجتمع من الفوضى والاضطراب وتحقيقاً للأمن والسلام بين أفراد وفق ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وبالله التوفيق

*

*

*

الباب الأول

حماية الإسلام للمجتمع من الصراع الحنصري والطائفي
وفيه تمهيد وأربعة فصول :

التمهيد * في بيان مفهومي الحنصرية والطائفية وخطورة
الصراع حولهما . والإشارة إلى موقف الإسلام
منهما .

الفصل الأول * رعاية الكرامة الإنسانية ودورها في حماية
المجتمع من الصراع .

الفصل الثاني * تحقيق المساواة بين المسلمين ودورها في حماية
المجتمع من الصراع .

الفصل الثالث * تحقيق الأخوة بين المسلمين ودورها في حماية
المجتمع من الصراع .

الفصل الرابع * تنظيم الخلافة بين المسلمين وغيرهم من
الطوائف الأخرى ودورها في حماية المجتمع
من الصراع .

تمهيد

العنصرية والطائفية

لفظ العنصر يطلق على مجموعة من البشر أو النباتات، يشترك أفرادها في خصائص معينة (١).

وفي الاستعمال العلمي: ينحصر في أمور طبيعية معينة، كالقامة ولون البشرة والشعر والعيون وشكل الرأس والأذن والشفتين والفصيلة الدموية، وأى جماعة من المخلوقات تصنف كنوع: إذا كان يمكن تمييزهم بوضوح من أفراد نوع آخر، بعدد من المزايا التي ورثوها والتي توجد بينهم بشكل مشترك عادة (٢).

والعنصرية:

هي الاعتقاد بتفوق جنس على آخر بسبب اللون أو الأرض أو الجنس، كالعنصرية من جانب البيض ضد السود، لأنهم يبررون اضطهاد واستغلال السود بسبب لونها، ويؤمنون بتفوق الجنس الأبيض، وحقه في استعباد الجنس الأسود وإملاك أرضه (٣).

والصراعات الطائفية:

هي التي تنشأ بسبب الاختلاف في الدين أو في غير ذلك وتمزق الوحدة وتفرق الصف (٤).

وكان من أهم ماتمخضت عنه النهضة في أوروبا، الإقبال على إرتياد المجهول والكشوف الجغرافية، وقد وجد الأوروبيون أنفسهم بعد أن وضعوا أقدامهم في المناطق المكتشفة في أمريكا وأفريقيا وجهاً لوجه أمام شعوب تختلف عنهم في اللون واللغة والعقائد والعادات.

وكان بين الأوروبيين وبين هذه الشعوب تباين في المستوى الاجتماعي والثقافي، كما وجدوا أنفسهم في أرض ذات جبال شاهقة وأنهار عظام وخيرات معدنية ونباتية وحيوانية ليس لها نفاذ، فراحوا يسخرون أهل البلاد في أفريقيا والأمريكيتين فسي استصلاح الأراضي وزراعتها، وجسني ثمار الغابات، وفي بناء المساكن وشق الطرق.

(٢٠١) - انظر كتاب الإسلام والتميز العنصري تأليف صلاح الدين الأيوبي ص (١٥٠١٢).

(٢) - الثورة الفلسطينية تأليف محمد جادل كشك ص (٧٤٠٧٢).

(٤) - نفس المرجع السابق ص (٧٥) بتصرف.

كان الأوربي يشعر بتفوقه الثقافي والاجتماعي تجاه أي واحد من الهنود
البحر في أمريكا، والزنوج في أفريقيا، وقد حمله هذا الشعور الاستعلائي على أن
يسبب معاملته هذا الإنسان الذي سخره لمنافعه ومطامعه، فلم يكن يتيح له أدنى مستوى من
الحياة اللائقة من حيث الغذاء والكساء والماوى، بل لم يكن ينظر إليه كأنسان يحس ويشعر
ويعقل، ويختص بما لا يخلو عنه أحد من بني آدم، من الآمال والآلام والاهتمام .

ثم رأى البيض أن الملونين من حيث العدد كثرة هائلة بالنسبة لسددهم في
المستعمرات، فإذا ما سرى بينهم وبين البيض في الحقوق العامة، وإذا ما منحوا من الانتخاب
وكان لهم صوت مسموع في أداة الحكم والإدارة، فسيفرق البيض طوفان السود والعناصر
الملونة، لذلك شرعوا في إقامة الحواجز والسدود ليصدوا ذلك التيار الملون، ونشأ من ذلك
ما يعرف بـ ((حاجز اللون))، وهو نظام يقوم على حالة نفسية يعبر عنها بكراهية إنسان لآخر
بسبب اللون، ويشتد معها صاحبها في الاعتداد بالعنصر الذي ينتمي إليه ويبالغ في إبراز
محاسنه وتجاهل عيوبه وتفاضيله له على سواه من العناصر (١) .

والعنصرية بما تشيره من صراع حاد في العلاقات بين البشر، من أبرز مشكلات هذا
العصر، فهي من أكبر عوامل نزعات الكراهية والبغض بين الناس، واهتداد حقوق
الإنسان، وسحق كرامته، ومصادرة حريته، والهبوط إلى الحضيض في معاملته كما عرفنا ذلك من
خلال مفهوم العنصرية.

وهي على صورتها تلك تتصادم - وما يصدر من تمييز ظالم بين الإنسان وأخيه - مع
ما ينبغي أن يسود العلاقات الإنسانية، من تعاون مشر يحقق الخير لجميع الناس في المجتمع، على
إختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم، ومن توفير حياة طيبة آمنة مطمئنة، يسودها العدل
والسلام .

لذلك فُرضت هذه المشكلة الخطيرة التي تتسم بحدة الصراع، وتشغل حيزاً
ضخماً من وقائع التاريخ الإنساني - في القديم والحديث - على القادة والمصلحين ورجال
الفكر والسياسة، وعلماء الاجتماع والمهتمين بالدراسات الإنسانية، حتى يتصدوا لها بالبحث
والدراسة والتحليل، ورسم المناهج، واقتراح الحلول التي تستأصل شأفتها وتغضي عليها

(١) - انظر كتاب نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري ، تأليف عمر عودة
الخطيب ص (١٠٧-١٠٨-١١٠-١١١-١١٤)
وكتاب الإسلام والتمييز العنصري تأليف صلاح الدين الأيوبي ص (٥١-٥٤) .

والحل الذي تتوافر فيه عناصر الحسم الكامل لهذه المشكلة، هو الحل الإسلامي وخدمه، وهو حل ينبثق عن رفضه نزع الاستعملاء العنصري والطائفي بكل صورهما وأشكالهما وصيغهما، بباعث من نوازع التعصب لجنس أو طبقة أو لون، سبب ما تورثانه من الإحن والأحقاد، وتدفعان إليه من الجور والاستبداد (١).

وينطلق رفض المنهج الإلهي لنزعة الاستعملاء العنصري، ومنطق أصحابها وسلوكهم من حقيقة إنسانية عالية، ذلك أنه يمتدح أن للإنسان كرامة يجب أن تراعى، وأن هناك رابطة أخوية تربطه بغيره من بني جنسه باعتبار وحدة الأصل ووحدة الفطره، والوحدة المعيشية.

كما يمتدح بالمساواة الإنسانية بين البشر، ولا يميز ويقاضل بينهم إلا التقوى والعمل الصالح، ويرى أن الحقوق في شتى المجالات حق يتمتع به الجميع على وجه المساواة، حتى غير المسلمين اعترف الإسلام لهم بحقوقهم في المجتمع الإسلامي.

* * *

(١) - أنظر كتاب نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري ؛
تأليف عمر عودة الخطيب ص (١٢٠١١) بتصرف

وفي هذا الباب سوف أتناول ما وضعه الإسلام من ضوابط للقضاء على هذا الصراع:

ولهذا جاءت فصوله على النحو التالي :

الفصل الأول - رعاية الكرامة الإنسانية .

الفصل الثاني - تحقيق الأخوة بين المسلمين .

الفصل الثالث - تحقيق المساواة بين الناس .

الفصل الرابع - تنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الطوائف في المجتمع الإسلامي .

وسوف أتناول دراسة هذه الفصول بنفس الترتيب .

الفصل الأول

رعاية الكرامة الإنسانية

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول * بيان مفهوم الكرامة الإنسانية .

المبحث الثاني * أسس الكرامة الإنسانية

المبحث الثالث * عوامل المحافظة على الكرامة الإنسانية .

المبحث الرابع * دور المحافظة على الكرامة الإنسانية

في القضاء على الصراع العنصري .

الفصل الأول

رعاية الكرامة الإنسانية

تحقيق كرامة الإنسان عامل أساسي في إيجاد التآلف الاجتماعي، والمحافظة على الترابط بين الناس، ذلك أن الإنسان إذا عاش مكرماً، يؤدي ما عليه، ويأخذ ماله، ياد عنت، وبلا عناء يكون راضياً سعيداً الأمر الذي يؤدي إلى حماية المجتمع من الصراع والخصومة.

وللأسف منهجه في تحقيق كرامة الإنسان ليعيش هائناً بالحب والتآلف، بعيداً عن البغضاء والتنافس.

وفي هذا الفصل سأتناول باذن الله تعالى دور الكرامة الإنسانية في حماية المجتمع من الصراع، ولذلك سيأتي مشتملاً على المباحث التالية:

- المبحث الأول - بيان مفهوم الكرامة الإنسانية .
- المبحث الثاني - أسس الكرامة الإنسانية .
- المبحث الثالث - عوامل المحافظة على كرامة الإنسان .
- المبحث الرابع - دور المحافظة على كرامة الإنسان في تحقيق الوحدة والتضام على الصراع المنصري .

المبحث الأول

مفهوم الكرامة الإنسانية

كلمة الكرامة مشتقة من مادة الكرم، والكرم بفتح حين - في اللغة ضد اللوم (١)، وضد الذل والهوان (٢).

والكرامة اسم يوضع للأكرام، كما وضعت الطاعة موضعاً لاطاعة والفارة موضع الإغارة (٢).

والمتبع لكتب اللغة العربية يجد أن لكلمة كرامة في اللغة العربية معان كثيرة منها: الشرف، والعزة، والنزاهة، والعظمة، والثفاسة، والطيب، والوفرة .
مثال : أكرم القوم - شرفهم ، وكرم الله وجهه شرفه .
ويقال : له عليّ كرامة : أي عزازة .
وأكرم فلان نفسه عن الخنا: أي صانها ونزهها عما لا يليق بها .
وكرم فلان : سلك في حياته مسلكاً، وعز في ذاته وصار نفيماً .
وكرم فلان فلاناً: أي عظمه ونزهه .
والكريم هو الشريف أو المنعم أو رضي الخلق .
ورزق كريم أي طيب موفور (٤).

ومن التشريف لفضيلة الكرامة أن من أسماء الله تعالى وصفاته ((الكريم))، وهو الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، وهو الكريم المطلق، لا يشبهه في كرمه مخلوق (٥)

وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه كريم ، فقال في سورة الواقعة :

((إنه قرآن كريم)) (٦).

لأنه كثير الخير والنفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، ولأنه مطهر عن الخطأ والسوء (٧).

(١) - مختار الصحاح ص (٤٦٨)

(٢) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٤٢٨).

(٣) - لسان العرب المحيط لابن منظور ٢٤٨١٢ .

(٤) - انظر : القاموس المحيط ١٧٢١٤ ، ولسان العرب ٢٤٨١٢ ،

وقطر المحيط ١٨٤٢١٢، والراند ص ١٢٢٢ .

(٥) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٤٢٨ .

(٦) - سورة الواقعة الآية ٧٧ .

(٧) - الموسوعة في أخلاق القرآن للشرباصي ٢٦٦١٢ .

وكذلك وصف الله تعالى رسوله جبريل عليه السلام بأنه كريم، فقال تعالى: ((انه لقول رسول كريم)) (١) .
أي أن القرآن يبلغه رسول الله عن الله لامن عند نفسه (٢) .

ويقول الله تعالى عن موسى عليه السلام في سورة الدخان: ((ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم)) (٣) (أي صاحب كرامة وتكريم عند الله تعالى، وهو كريم على المؤمنين، أو كريم في نفسه، لشرف نسبه وفضل حسبه، ومثل هذا يحرس على الكرامة ولا يرتكب ما يباب) (٤) .

ووصف سبحانه الملائكة بأنهم كرام مكرمون . . فقال عن ضيف إبراهيم من الملائكة ((هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين)) (٥) .
(أي مكرمين عند الله عز وجل، أو عند إبراهيم عليه السلام حيث لم يعرضهم لإهانه أو مذلة، بل خدمهم بنفسه ومعه زوجته فسان بذلك حقوقهم) (٦) .
وقال تعالى في سورة الانفطار ((وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين)) (٧) .
أي كراماً عند الله تعالى (٨) .

وبالنظر في هذه المعاني اللغوية لكلمة الكرامة، وبالوقوف على مختلف استعمالات القرآن الكريم لها يتبين أن الكرامة بصورة عامة تشتمل على صفات العزة، والشرف، والمظمة، وكثرة العطاء والخير، والبعد عن الدنيا، وتجنب العدوان والإساءة إلى الغير، جاء في موسوعة أخلاق القرآن الكريم: (أقرب المعاني إلى معنى الكرامة الشرف والعزة لأن الكرامة يوجد فيها معنى الترفع عن الخسيسة والتباعد عن المذلة، والتأني على الضيم والهوان، والعزة فيها هذه المعاني فلا يصدر عن المرء الكريم العزيز قول أو فعل أو سلوك مشين، وبالتالي لا يقبل الإنسان لنفسه أن يتعرض لما يسيء إلى شرفه أو سمعته في قليل أو كثير) (٩) .

-
- (١) - سورة التكويد الآفة (١٩) .
 - (٢) - تفسير البيضاوي ص (٧٨٦) .
 - (٣) - سورة الدخان الآفة (١٧) .
 - (٤) - تفسير البيضاوي ص (٦٥٦) .
 - (٥) - سورة الذاريات الآفة (٢٤) .
 - (٦) - تفسير البيضاوي ص (٦٩١) .
 - (٧) - سورة الانفطار الآيتان (١٠-١١) .
 - (٨) - انظر تفسير الكشاف للزمخشري ٢٢٨١٤ .
 - (٩) - موسوعة أخلاق القرآن الكريم للدكتور أحمد الشرباصي ٢٦٦/٢ .

ويمكن تعريف الكرامة بأنها:
(تمتع الإنسان بحقوقه الإنسانية إلتزامه بالمحافظة على حقوق الآخرين في إطار منهج الله تعالى)

ومن المعلوم أن الحقوق الإنسانية تتضمن كافة صور التقدير والخير والعدل، ومادام الفرد يتمتع بها ويؤديها لغيره، فهي صفة ذات صبغة إجتماعية، حيث يرتبط بها الفرد بالجماعة، وترتبط الجماعة بالفرد .

وسوف نتبين خلال هذا الفصل أن الاسلام قد حافظ للإنسان على كافة الصفات المندرجة تحت الكرامة ليمش فرداً له دوره في النفع والاستقرار .

* * *

المبحث الثاني

أسس الكرامة الإنسانية

- أولاً * التكريم بالخلقة .
- ثانياً * التكريم بالعقل .
- ثالثاً * التكريم بالمخلوقات المسخرة لخدمة الإنسان .
- رابعاً * التكريم بالخلافة في الأرض .
- خامساً * التكريم بالتكليف بالدين والعبودية لله .

المبحث الثاني

أسس الكرامة الإنسانية

لم يحفظ مخلوق من مخلوقات الله مثلما حظى الإنسان من الكرامة، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد أن خلق الله لأشياء محكوم بقضائه وتقديره سبحانه وتعالى، وأن الصفة الغالبة والحاكمة لوصف كل أفعال الله هي الأحكام، والإبداع، والابتقان بما يتناسب مع قدرة وحكمتها واحاطتها بكل شيء علماً، يقول الله تعالى :

((صنع الله الذي أتقن كل شيء)) (١).

((الذي أحسن كل شيء خلقه)) (٢).

((ماترى في خلق الرحمن من تفاوت)) (٣).

((إنا كل شيء خلقناه بقدر)) (٤).

ثم يقرر القرآن الكريم بعد إثبات هذه الحقيقة كرامة الإنسان بصورة خاصة حيث يقول الله تعالى :

((ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)) (٥).

يقول الإمام القرطبي (٦) عند تفسيره لهذه الآية الكريمة (كرّمنا) :تضعيف كرم، أي جعلنا لهم شرفاً وفضلاً، وهذا هو كرم نفي النقصان لاكرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصلح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصدته وتربيته وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم، والنطق والكلام والخط.

(١) - سورة النمل الآية ٨٨ .

(٢) - سورة السجدة الآية ٧ .

(٣) - سورة الملك الآية ٢ .

(٤) - سورة القمر الآية ٤٩ .

(٥) - سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٦) - القرطبي : (... ، ٦٧١ هـ) .

محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي صالح متعبد من كبار المفسرين متفنن متبحر في العلوم، حسن الحفظ، مليح النظم ثقة حافظ وكثرة تصانيفه تدل على كثرة إطلاعه ووفور عقله وفضله وإمامته زاهد يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية، توفي بمدينة ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال ودفن هناك . * الديباج المذهب ٢٠٨/٢ .
* طبقات المفسرين ٥٦/٢ . * نفع الطيب ٢١٠/٢ .

ثم يقول : والصحيح الذي يصول عليه أن التفضيل إما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعِثَت الرسل وأنزلت الكتب (١).

وجمهور المفسرين يرى أن الآية الكريمة تتسع لكل ألوان التكريم التي ذكرها العلماء إضافة إلى العقل كما سيتضح معنا من خلال هذا المبحث الذي يشتمل على أسس تكريم الإنسان وأهمها مايلي :

أولاً - التكريم بالخلقة:

من أهم أسس التكريم الإلهي للإنسان خلقتة على نحو خاص، وهناك آيات عديدة تتحدث عن خلق الإنسان، وأن الله صورته فأحسن صورته، وفيها معنى التسوية الإلهية وقدرة الخالق سبحانه، فكل آيات الخلق تنطق بأنه سبحانه خلق فسوى، وقدر فهدى، وصور الإنسان على خير وجه.

يقول سبحانه: ((خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير)) (٢).

ويقول تعالى: ((ياأيهاالإنسان ماغرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك)) (٢).

ويقول تعالى: ((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)) (٤).

ويقول تعالى: ((ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين)) (٥).

فهذه الآيات ومايماثلها تبرز العناية الإلهية بشكل الإنسان وتركيب أعضائه، وتناسقها بما يمكنه من أداء دوره الذي أراده الله له .
ففي تفسير الآية الأولى يقول الشهيد سيد قطب :

(تثبت الآية الكريمة حقيقة تشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه في تحسين صورته: صورته الخَلقية وصورته الشعورية، فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجشmani كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري وإستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة، ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه) (٦).

-
- (١) - تفسير القرطبي ٢٩٤/٥ .
 - (٢) - سورة التغابن الآية (٢) .
 - (٣) - سورة الانططار الآيات (٦-٨) .
 - (٤) - سورة التين الآية (٤) .
 - (٥) - سورة الأعراف الآية (١١) .
 - (٦) - تفسير في ظلال القرآن ٢٥٨٥/٦ .

وفي تفسير الآية الثانية يقول ابن عباس (١) : (قوله: (الذي خلقك فسواك فعدلك) أي جعلك سريعاً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، وقوله (في أي صورة ما شاء ركبك) أي أن الله عز وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وعلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدلاً تام حسن المنظر والهيئة) (٢).

وفي تفسير الآية الثالثة يقول أبو السعود (٢) : (لقد خلقنا الإنسان) أي جنس الإنسان، في أحسن تقويم، أي كأننا في أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى، حيث برأه الله تعالى مستوي القائمة متناسب الأعضاء متنصفاً بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والتكلم والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات التي هي من أنموذجات من الصفات السبحانية وآثار لها) (٤).

وهكذا جاء في تفسير بقية الآيات الكريمة ما يقرب من هذا التفسير، مما يدل على أن الإنسان مخلوق مكرم على سائر الخلق في الأرض بما خلقه الله وأوجده على تلك الهيئة الحسنة من اعتدال القائمة والقدرة على العمل والجمال مما سهل له أداء دوره الذي خلقه الله من أجله في هذه الحياة .

ثانياً - التكريم بالعقل :

أن الله تعالى زود الإنسان بالعقل، وجعله ميزة تميزه عن الحيوانات كلها ومسئولية تقوده إلى ما خلق من أجله، فهو يهدي إلى الفضائل وينفر من الرذائل ويعرف الخير من الشر ويوازن بين الأشياء، وهو كذلك يميز بين الهداية والضلال، يقول القرطبي في قوله تعالى : ((وفضلناهم على كثير ممن خلقنا)) :

(١) - ابن عباس: سبقت ترجمته.

(٢) - تفسير ابن كثير ٤/٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٢) - أبو السعود (٨٩٨ - ٩٨٢ هـ).

محمد بن محمد بن مصطفى العمادي تركي الأصل مستعرب، سريع البديهة حاضر الذهن يتكلم العربية والفارسية والتركية، وله شهر جيد، تولى قضاء بروسة فالقسطنطينية فالروم ايلي وأضيف إليه الأفتاء عام ٩٥٢ هـ أشهر كتبه - أرشاد العقل اسليم الى مرايا الكتاب الكريم .

* شذرات الذهب ٨/١٩٨ .

(٤) - تفسير أبي السعود ٩/١٧٥ .

(إن التفضيل يكون بالعقل الذي به تتم معرفة الله، ويفهم كلامه، وبصديق رسله) (١).

ويقول الماوردي (٢):

(ولما كان الهوى عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوفاً، جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً، يلاحظ عشرة غفلة، ويدفع بادرة سلوته، ويدفع خداع حيلته، لأن سلطان الهوى قوي، ومدخل مكره خفي، ومن هذين الوجهين يوتى العاقل. فإذا استعان العقل بالنفس النور، فأشعرها مافي عواقب الهوى من شدة الضرر، وقبح الأمر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثام، إذا أشعرها بذلك فانقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى، لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحوراً، ثم له الحظ الإوفى في ثواب الخالق، وثناء المخلوقين) (٢).

وإذا كان العقل وازعاً يعقل صاحبه عن الشر ويقلب النظر ويصده عن الهوى، ويوازن بين الأشياء، وهو كذلك رشد يميز بين الهداية والضلال، إذا كان العقل بهذه المنزلة والمكانة، فإنه مرصول بكل حجة تكليفية، وكل أمر بمعروف، ونهي عن محظور. والعقل حجة على المكلفين فيما يعينهم من أمر السماء والأرض ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء لأنهم به يحتملون ((ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك)) (٤). ((أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق)) (٥).

إذاً العقل بكل هذه المعاني وهذه المهام يعتبر مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي للإنسان الذي ميزه به على سائر المخلوقات وأثره به عليها.

(١) - تفسير القرطبي ٢٩٤/٥.

(٢) - الماوردي (٢٦٤-٤٥٠ هـ).

علي بن محمد بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي نسبة لبيع ماء الورد ألقى قضاة عصره من العلماء الباحثين، به ميل إلى الاعتزال صنف في الفقه الشافعي وعلوم الدين وعلوم السياسة وأدب الوزارة، له الأحكام السلطانية، وقانون الوزارة وغيرها.

* شذرات الذهب ٢/٢٨٥. * طبقات الشافعية ٥/٢٦٧.

(٢) - أدب الدنيا والدين للماوردي ص (٢٦٠، ٢٥).

(٤) - سورة آل عمران الآية (١٩١).

(٥) - سورة الروم الآية (٨).

ثالثاً: التكريم بالمخلوقات المستخرجة لخدمة الإنسان:

ومن أسس تكريم الله للإنسان أيضاً، تهيئة الحياة له وتسخير العوالم لمنفعته: السماء والأرض، الشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والنبات والحيوان والجماد، كلها وغيرها مستخرجة لمصلحة الإنسان وخدمته وتحقيق سعادته، وكرامة من الله له، ونعمة منه سبحانه وفضلاً ((والله ذو الفضل العظيم)) (١)

فالأرض أودعها الله تعالى خصائص ومواقف كثيرة تسمح لهذا المخلوق المكرم بالحياة عليها وتسخيرها لمنفعته وخدمته. يقول الله تعالى ((هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)) (٢).

(قاله تعالى جعل الأرض ذلولاً بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى، كما جعل لها ضغطاً جويّاً يسمح بسهولة الحركة فيها، ولو كان الضغط الجوي أثقل من هذا لتمذر على الإنسان أن يسير ويتنقل حسب درجة ثقل الضغط، فإما أن يسحقه أو يعوقه، ولو كان أخف لأضطربت خطى الإنسان وتنجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله .

والله تعالى جعل الأرض ذلولاً ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح، ولو كانت صخوراً صلدة لتمذر السير فيها، ولتعذر النباتات، ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتت هذه الصخور الصلدة، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة، وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق.

والله تعالى جعل الأرض ذلولاً بأن جعل الهواء المحيط بها محتوياً للعناصر التي تحتاج إليها بالنسب الدقيقة التي لو اختلفت ما قامت الحياة، وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس، فنسبة الأكسجين فيه هي ٢١ × تقريباً، ونسبة التروجين هي ٧٨ × تقريباً والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى، وهذه النسب هي اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض .

والله جعل الأرض ذلولاً بأن جعل كتلة الماء الضخمة التي تكونت على سطح الأرض من المحيطات والبحار كافية لامتصاص الغازات السامة التي تنشأ من التفاعلات التي تتم على سطحها، والاحتفاظ بجوها دائماً في حالة تسمح للأحياء بالحياة .

(١) - سورة الحديد الآية (٢١) .

(٢) - سورة الملك الآية (١٥) .

والله تعالى جعل الأرض ذلولاً بآلاف من هذه المواقفات الضرورية لقيام الحياة، ومنها: حجم الأرض وحجم الشمس والقمر، وبعد الأرض عن الشمس، وسمك قشرة الأرض ودرجة سرعتها، وميل محورها، وكثافة الهراء المحيط بها، إلى آخره، إلى آخره.

وهذه المواقفات مجتمعة جعلت الأرض مهداً للإنسان، وجعلت فيها رزقا وهي التي سمحت بوجود الحياة، وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص.

وفي ظل هذا التسخير وهذا التذليل يعيش الإنسان مطمئن القلب، مستروح النفس في كون مانوس ينهض فيه بالخلقة في الأرض التي أعانه الله عليها بما أودع فيها من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات التي توفر له الكثير من الرقي والراحة والمتاع (١).

هذا عن المكان وهو كوكب الأرض، أما الزمان فالله تعالى جعله الليل والنهار يتعاقبان ليحققا للإنسان إطار الحياة التي تناسبه، ويستحيل تماماً أن يستطيع الإنسان العيش لو كان الحال ليلاً دائماً أو نهاراً دائماً.

يقول الله تعالى: ((وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار)) (٢).

(فأله تعالى جعل الزمان لعباده مقسماً إلى قسمين: أحدهما: مظلم وهو الليل لأجل أن يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب، وثانيهما: مضي لأجل أن يسمى العباد فيه بما يعود على نفهم وتوفير معاشهم لا يخفى عليهم في ضوء كبير ولا حقيير) (٣).

يقول الله تعالى: ((هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً)) (٤).

ويقول تعالى: ((وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب)) (٥).

-
- (١) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١٦/٢٦٢٨.
 - (٢) - سورة إبراهيم الآية (٢٢).
 - (٣) - تفسير فتح القدير ١٢/٤٦٠.
 - (٤) - سورة يونس الآية (٦٧).
 - (٥) - سورة الإسراء الآية (١٢).

وهذه مزية أخرى تخدم حاجة الإنسان ومعيشتة، فمحرآية الليل التي هي القمر بأن لم يخلق الله تعالى له شمعاً كشمع الشمس فترى به الأشياء رؤية بيئة، وجعل الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء، ليتوصل الناس ببياض النهار إلى إستبانة أعمالهم والتصرف في معاشهم، وليعلموا باختلاف الجديدين عدد السنين وجنس الحساب وما يحتاجون منه إليه، ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات وتعتلت الأمور (١).

فاله تعالى سخر الليل والنهار وفق حاجة الإنسان وتركيبه، وما يناسب نشاطه وراحته:

(ولو جعل الله تعالى الليل دائماً على عباده سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولسئمتهم النفرس وانحصرت منه، وأنه تعالى لو جعل النهار سرمداً أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم وتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال) (٢).

يقول الله تعالى: ((قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتاكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)) (٣).

وهكذا ومن خلال هذه الآيات الكريمة (يمتن الله على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفة بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعيش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجارات وغير ذلك، ولهذا قال: ((لتبتغوا فضلاً من ربكم))، أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ((وتعلموا عدد السنين والحساب)) فإنه لو كان الزمان كله نساً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك (٤).

وهذا غاية التكريم الإلهي في تسخير الليل والنهار له حتى يحقق حياته ونشاطه، وعمله وما كلف به.

-
- (١) - تفسير الكشاف للزمخشري ٤٤٠/٢.
 - (٢) - تفسير ابن كثير ٢٩٨/٢.
 - (٣) - سورة القصص الآيات (٧١-٧٢).
 - (٤) - تفسير ابن كثير ٢٦/٢.

أما بالنسبة لأهم ضروريات الإنسان من طعام وشراب ونار، فلقد كان من فضل الله وتكريمه للإنسان أن يسر له هذه الحاجات كما يسره الهواء للتنفس والأرض للسكن والشمس والقمر والليل والنهار للسكن والراحة والسعي والكد...

فوجود الماء وتوزيعه في الأرض رحمة من الله وفضل منه كبير إذ أنه سبب الحياة يقول تعالى: ((أفأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون)) (١).

ويقول تعالى: ((أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)) (٢).

ويقول تعالى: ((الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)) (٣).

ويقول تعالى: ((وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)) (٤).

ومن خلال تدبير هذه الآيات ندرك مدى التكريم الإلهي للإنسان حيث هيأه سبحانه أسباب الحياة على الأرض، ومن أهمها وأعظمها الماء الذي هو حياة الأبدان ونماء الحيوان والنبات .

وهذا من رحمة الله تعالى بهذا المخلوق الصغير حيث يسر له أسباب الحياة على الأرض وهيأها له وسخر له الانتفاع بالخلائق الهائلة حيث البحار والأنهار والمحيطات كلها مسخرة للإنسان وخدمة الإنسان .

(فمساء الأنهار عذب سائغ للشراب، وماء البحار والمحيطات صالح مرمته تستمد الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل، فينتفع منه باللحم الطري في الغذاء وهي الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها، واستخراج الحلية من اللؤلؤ والمرجان للبس والزينة، واستخدام السفن للسفر والتجارة والمعرفة والتجربة، كل هذا وغيره مما هدى الله الإنسان إليه وسخره له فأمكنه أن ينتفع به) (٥)

(١) - سورة الواقعة الآيتان (٦٨-٦٩).

(٢) - سورة السجدة الآية (٢٧).

(٣) - سورة الجاثية الآية (١٢).

(٤) - سورة فاطر الآية (١٢).

(٥) - تفسير في ظلال القرآن (٥/٢٩٢٤، ٢٢٢٦) بتصرف .

والنار أيضاً هي من ضروريات صلاح حياة الإنسان، وهي تتاج إنبات النبات ،
ووجود الشجر الذي منه مادتها، يقول الله سبحانه وتعالى :
((أفرايتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها
تذكرة ومتاعاً للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم)) (١)
ويقول أيضاً: ((الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون)) (٢)

(قال حاضر والبادي من غني وقيير الجميع محتاجون إلى النار للخبز والإصطلاب
والإضاءة وغير ذلك من المنافع التي أودعها الله تعالى في الأحجار وخالص الحديد ليتنفع
بها الناس مسائلاتفاعات) (٢).

ولم يقتصر الأمر على توفير ضروريات الإنسان في الأرض التي ذللها الله له بل يشمل
التكريم الإلهي والرعاية الإلهية للإنسان توفير كل أسباب المتعة والزينة .
يقول الله سبحانه وتعالى ((أولم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها
مالكون، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا
يشكرون)) (٤).

ويقول تعالى أيضاً: ((وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم
إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين)) (٥).
ويقول تعالى: ((والأنعام خلقها لكم فيها دافئ ومنافع وأكلون، ولكم فيها جمال حين
تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن
ربكم لرؤف رحيم)) (٦).

وقوله تعالى: ((والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا
تعلمون)) (٧).

إن هذه الأنعام التي خلقها الله للإنسان، وملكه إياها، وذللها له يركبها ويأكل
منها، ويشرب البانها، ويتنفع بها منافع شتى، لم يقتصر استخدامها ونفعها على تلبية
ضرورات الإنسان فقط، بل تعدى هذا النفع إلى تلبية أشواق الإنسان أيضاً، ففي الأنعام
دافئ من الجلود والأصواف، وبيوت من الأشعار والأوبار، وفرش وأغطية وأدوات، وفيها
منافع من اللحم واللبن والسمن، ومنافع في حمل الأثقال إلى البلد البعيد، وفيها كذلك تلبية
لحاسة الجمال في الزينة.

(١) - سورة الواقعة الآيات (٧١-٧٤).

(٢) - سورة يس من الآية (٨٠).

(٣) - تفسير ابن كثير ٢٩٧١٤.

(٤) - سورة يس من الآيات (٧١-٧٢).

(٥) - سورة النحل الآية (٨٠).

(٦) - سورة النحل الآيات (٥-٦-٧).

(٧) - سورة النحل الآية (٨).

يقول الإمام القرطبي : (ملكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذلها لنا، وأباح لنا تسخيرها والإتفاع بها رحمة منه تعالى لنا، وجعلها زينة وهو ما يميز به، وهذا الجمال والتزين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله تعالى لعباده فيه) (١).

ويقول ابن كثير (٢) : (يمتن تعالى على عباده بما خلق من الأنعام وهي الإبل والبقرة والغنم، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويقتربون، ومنها يشربون، ويأكلون من أولادها، ومالهم فيها من الجمال وهو الزينة) (٢).

* * *

وبعد : فهذه بعض نماذج تبرز مدى العناية الإلهية البالغة في تكريم ذلك المخلوق الصغير - الإنسان - بتسخير الكون وما فيه لخدمته ومنفعته، وتهيته كافة سبل حياته عليها زماناً ومكاناً، وضروريات حياة . دون أن يهمله في جانب المتاع والزينة وما زاد عن الضرورة.

- (١) - تفسير القرطبي ٧٤/٥ - ٧٩.
- (٢) - ابن كثير سبقت ترجمته.
- (٢) - تفسير ابن كثير ٥٦٢/٢ .

رابعاً- التكريم بالخلافة في الأرض:

((الخليفة في اللغة من يخلف غيره في أمر من الأمور، والخلافة النيابة عن الغير إما الفية المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله تعالى أولياءه في الأرض.

قال تعالى: ((وهو الذي جعلكم خلائف الأرض)) (١) ((٢)).

والخلائف جمع خليفة.

قال تعالى: ((يادادانا جعلناك خليفة في الأرض)) (٢).

وقال تعالى: ((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون)) (٤).

(والخليفة المراد في الآية هو آدم عليه السلام، فهو خليفة في إمامة أحكام الله وتنفيذ أوامره، وهو أول رسول إلى الأرض) (٥).

يقول الشهيد سيد قطب في قوله تعالى: ((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة))

(إن هذه المنزلة العظيمة تمثل التكريم لهذا الإنسان في أعلى صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة، لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق، إن ازدواج طبيعته وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، وإضطراده بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة إن هذا كله بعض أسرار تكريمه) (٦).

وذكر آدم يعني ذكر بنيه، يقول ابن كثير :

(والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذا لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة :

((أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)) فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل

هذا) (٧).

وهذه كرامة عظيمة منحها الله تعالى للإنسان إذ اعتبره خليفة في الأرض وهياً لهذه الخلافة، وهذه منزلة تطلعت إليها أعناق الملائكة وتشوقت إليها أنفسهم، فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان.

-
- (١) - سورة الأنعام الآية (١٦٥) .
 - (٢) - سورة ص الآية (٢٦) .
 - (٣) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (١٥٥-١٥٦) .
 - (٤) - سورة البقرة الآية (٣٠) .
 - (٥) - تفسير القرطبي ٢٦٢/١ بتصرف .
 - (٦) - تفسير في ظلال القرآن ٥٧/١ .
 - (٧) - تفسير ابن كثير ٦٩/١ .

(وإذا كان في الناس من يسلك نهجاً بعيداً عن سمت الخلافة فليس ذلك لأنه لم يوهل لها، ولم يكلف شيئاً من تبعاتها، بل لأنه أتبع شهراته وهواه فانسلخ مما آتاه الله، وما لم مع دواعي الحس إلى مآمال إليه، على مثل ما نقرأ في قوله تعالى ((واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الفاوتين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه، فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)) (١).

فالآية حين تضرب المثل للناس كافة، إنما تدعوهم إلى معرفة ما في أنفسهم من آيات الكرامة والمواهب، حتى لا يكرن حالهم من الهوان حال من أنسلخ منها وعموم المثل يدل على عموم المواهب في كافة البشر، وهو آية الترشيح للخلافة .

فركون بعض الناس أو كثير منهم إلى أهوائهم أنساهم أنفسهم وما أريد لهم من الخير، فأقام الله فيهم رسوله -رحمة منه- يدعوهم إلى مانسوه ويذكرهم إياه ويقيم بينهم نموذج الخلافة التي نيطت بهم، على مثل ما نقرأ في قوله تعالى: ((ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)) (٢) (٣).

يقول الامام القرطبي: ((إنا جعلناك في الأرض خليفة)) : أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء، والأئمة الصالحين (٤).

ومن هذا يتضح أن الخلافة وصف عام أو تكليف يشمل البشر كافة، ولا يقتصر على فرد أو بيت من البيوتات أو طبقة من الطبقات، وإنما يشمل الناس جميعاً لافرق في ذلك بين شعب وشعب ولا بين جماعة وجماعة، أو فرد وفرد.

(١) - سورة الأعراف الآيتان (١٧٥-١٧٦).

(٢) - سورة ص الآية (٢٦).

(٣) - كتاب آدم عليه السلام للبهي الخولي ص (١٢١، ١٢٢) باختصار.

(٤) - تفسير القرطبي ١٨٨/٨ .

اذن فهذا التكريم بالخلقة في الأرض هو تكريم لمعنى الإنسانية وحدها، لافرق فيه بين عربي وعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غني وفقير، فليس هناك ثمة آرامية أو سامية أو حامية، ليس هناك ثمة شعب الله المختار، بل الإنسانية كلها هي الخليفة المختار في هذه الأرض بمقتضى الإرادة الأزلية (١).

* * *

(١) - كتاب القرآن وبناء الإنسان لصالح البكري ص (٥٤).

خامساً - التكريم بالتكليف بالدين والعبودية لله:

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يخلق الإنسان مسؤولاً مكلفاً يقول الله تعالى:
(أيحسب الإنسان أن يترك سدى)) (١).

وقوله تعالى: ((أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)) (٢).

كما اقتضى عدل الله سبحانه ألا يكلف نفساً إلا وسعها يقول الله تعالى:
(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)) (٣).

ومن خلال هذين الأصلين حكمة الله سبحانه وعدله يتبين أن تكليف الإنسان بالدين وعبوديته لله أحد أسس التكريم الإلهي للإنسان!

ولقد تحدثت آيات كريمة عن هذه المسؤولية التي من أجلها كرم هذا الإنسان منها قوله تعالى:

((اناعرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)) (٤).

والأمانة هي المسؤولية والتكليف بأمر الله، قال ابن عباس:

((إن الأمانة هي الطاعة، عرضها الله على السموات والأرض والجبال قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: أني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ فقال: يارب وما فيها؟ قال إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فحملها، فذلك قوله: ((وحملها الإنسان))).

وقال أيضاً: (الأمانة: الفرائض، ((وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً))، أي غراً بأمر الله).

وقال قتادة (٥) (الأمانة: الدين والفرائض والحدود)) (٦).

(١) - سورة القيامة الآية (٢٦).

(٢) - سورة المؤمنون الآية (١١٥).

(٣) - سورة البقرة الآية (٢٨٦).

(٤) - سورة الأحزاب الآية (٧٢).

(٥) - قتادة (٦١ - ١١٧ هـ).

قتادة بن دعامة الدوسي، أبو الخطاب البصري الأعمى الأكمه أحد كبار

علماء التابعين، أحفظ أهل البصرة فكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه، مفسراً

لكتاب الله، إماماً في العربية وأيام العرب وأنسابهم مات بطاعون واسط

* البداية والنهاية ٢٢٥/٩. * تهذيب التهذيب ٢٥١/٨.

(٦) تفسير ابن كثير ١٤٠/٢.

ويقول أبو السعود في تفسيره: (أن الله تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال لها: إنني فرضت فريضة وخلقت جنّة لمن أطيعني وناراً لمن عصاني، فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لانحتمل فريضة ولا تبغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله) (١).

وكل هذه الأقوال لاتنافي بينها، إذ أنها متفقة، وترجع إلى أنها التكليف بالدين، وقبول الأوامر الشرعية، وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وحيث أن الأوامر كذلك كانت كلها مرادة، وكان معنى الأمانة: التكليف بالدين كله. يقول الإمام القرطبي (الأمانة تعم جميع وظائف الدين وهو قول الجمهور) (٢).

وهذا التكليف تكريم للإنسان، وسمو بمقامه ومكانته، إلا أنه لضعف ينتابه يجهل ويظلم نفسه. (فهو مظلوم: لأن الإنسان يظلم بالمسيان، وجهول لأنه يجهل ما عليه من العقاب) (٣).

ومعظم المفسرين على أن (حملها) بمعنى - تحملها - أي لا يعطيها إلا لصاحبها، أو بمعنى تكبد تبعاتها، ويفسرون ظلمه وجهله نظراً لضعفه باعتبار الغالب من أفراد الإنسان. (٤).

ومن الآيات القرآنية التي تبرز تكريم الله للإنسان بتكليفه بالدين وعبوديته لله، قوله تعالى ((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)) (٥).

يقول الحافظ ابن كثير: (أي إنما خلقتهم بعبادتي للاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة (٦) عن ابن عباس: ((الا ليعبدون)): أي ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً.

- (١) - تفسير أبي السعود ٧٢/٤.
 - (٢) - تفسير القرطبي ٢٥٧/٧.
 - (٣) - تفسير الفخر الرازي ٢٢٦/١٢.
 - (٤) - تفسير القرطبي ٢٥٧/٧.
 - (٥) - سورة الذريات الآية (٥٦).
 - (٦) - أبو طلحة (٢٦ ق ٥-٥٢٤هـ): زيد بن سهل بن الأسود البخاري الأنصاري، صحابي من الشجوان الرماة المعدودين في الجاهلية والإسلام، مولده في المدينة، ولما ظهر الإسلام كان من كبار أنصاره، فشهد العقبة ويدرأ وأحد والحنديق، وسائر المشاهد، قال عنه صلى الله عليه وسلم: ((لصوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة رجل)، قتل يوم حنين عشرين رجلاً، وقد تصدق أبو طلحة بحائط له اسمه (بيرحاء) وهو عم أنس وزوج أمه أم سليم، وقيل توفي في البحر غازياً.
- * طبقات ابن سعد ٦٤/٢ * شذرات الذهب ٤٠/١.
* العبر في خبر من غير ٢٥/١.

وقال ابن جريج : الإلغيرفون .
وقال الربيع عن أنس : (الإلعبدون، أي للعبادة) (١) .
وقال عكرمة : (الإلعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد .

وقيل : (المعنى إلا لأستعبدهم، والمعنى متقارب، فالعبودية الخضوع والذل .
والتعبيد التذليل، فمعنى : ((لعبدون)) : ليدلوا ويخضعوا) (٢) .

والتوجه إلى الله بالعبادة ومعركة الله حق معرفته، يحقق للإنسان الكرامة التي
تحرره من عبادة الأطماع والأهواء والشهوات الدنيوية وترتقي به من حضيض الحيوانية إلى
علياء التكريم المسئول .

(عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله
تعالى، جاء لينهض بها فترة طاعة لله وعبادة له لأرب له فيها، ولا غاية له من
ورائها إلا الطاعة، وجزاءها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن
أنس برضى الله عنه، ورعايته له يجد تكريماً ونعياً وفضلاً عظيماً في الدنيا وفي
الآخرة . وعندئذ يكون قد فرأى إلى الله حقاً، فر من أهواك هذه الأرض وجواذبها
المعوقة ومغرياتنا الملقنة، ويكون قد تحرر بهذا الفرار من الأهواك والأثقال، وخلص
لله، واستقر في الوضع الكوني الأصل، عبداً لله، وقام بما خلق له، وحقق غاية وجوده، فمن
مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض وينهض بتكاليها، ويحقق أقصى
ثمراتها، وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها، خالص القلب عن جواذبها ومغرياتها، ذلك أنه
لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولذاتها، ولكن ليتحقق معنى العبادة فيها، ثم
الفرار إلى الله منها) (٣) .

وهناك أيضاً آيات أخرى فيها معنى التكريم بالتكليف بالدين والعبودية لله منها قوله
تعالى :
(كنتم خيرامة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون
بالله) (٤) .

-
- (١) - تفسير ابن كثير ٢٢٨/٥ .
(٢) - تفسير القرطبي ٥٦/٩ .
(٣) - تفسير في ظلال القرآن ٢٢٨٧/٦، ٢٢٨٨ .
(٤) - سورة آل عمران الآية (١١٠) .

وقوله تعالى: ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) (١).

وقد أجمع المفسرون لهاتين الآيتين وغيرهما على أنهما تنطقتان صراحة بالمسؤولية التي يجب أن يتحملها الإنسان في نشر الحق والخير .

ذكر الإمام الشوكاني (٢) في تفسير قوله تعالى: ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))

قال: (في الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع مقامها) (٢).

ويقول الإمام الجصاص: (أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخبار متواترة عنه فيه، وأجمع السلف وقهاء الأمصار على وجوبه) (٤).

ويقول الإمام الفزالي: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهمة التي ابتعث لها النبيون جميعاً، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله تعطلت النبوة، واضمحلت الديانة وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد واتسع الخرق، وهلك العباد، وخربت البلاد) (٥).

(١) - سورة آل عمران الآية (١٠٤).

(٢) - الشوكاني (١١٧٢ - ١٢٥٠ هـ) :

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولد بشوكان باليمن ونشأ بصنعاء، وولي قضاءها، وتوفي حاكماً بها، وكان يرى تحريم التقليد.

* معجم المؤلفين ٥٢/١١ . * طبقات الأصرلين ١٤٤/٢ .

(٢) - تفسير فتح القدير للشوكاني ٢٦٩/١ .

(٤) - أحكام القرآن للجصاص ٥٩٢/٢ .

(٥) - إحياء علوم الدين ٢٦٩/٢ .

كما تحمل هذه المعاني أحاديث شريفة منها قوله صلى الله عليه وسلم :
(والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف وتتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث
عليكم عذاباً منه فتدعون فلا يستجاب لكم)) (١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع
فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)) (٢) .
وقوله صلى الله عليه وسلم : ((ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر
عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده)) (٣) .

من هذا كله يفهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق لتحقيق رسالة الإنسان
في هذه الأرض حيث يصلح نفسه، ويسعى إلى إصلاح غيره ويبلغ نور دعوته
للعالمين، ويتحمل في سبيلها وفي الحفاظ عليها ما يجعله خليفة ينقل الدين من جيل إلى جيل
خلفاً عن خلف وبذلك تتحقق أمانته ورعايته لها، ويتحقق معنى العبادة المراد.

وبذلك يحقق هذا الإنسان بمقتضى تكليفه بالدين وقيامه بهذه التكاليف وبمقتضى
عبوديته لله وتحقيقه لمعنى العبادة الواسع الشامل، يحقق مناط تكريمه الذي أراده الله
له جلّت قدرته .

ومن خلال هذا الأساس وغيره من الأسس السابقة التي ذكرناها تتجلى لنا
صورة الإنسان المكرم من بين مخلوقات الله جميعاً .

إلا أنه أيفاءً لهذا المبحث تبقى معنا نقطة أخيرة لا بد من إيضاحها وبيانها لأن
البعض قد يخالط ذهنه أنها تشوب تكريم الله للإنسان، إلا وهي إرسال الرسل .
وحقيقة الأمر غير هذا الوهم تماماً (زيادة تكريم ورعاية من الله تعالى للإنسان شاء
إرسال الرسل، إذ بعد أن كرم الله الإنسان في تكوينه جسماً و عقلاً وإرادة وهياً له الكون
للحياة تسخيراً وانقياداً .

-
- (١) - أخرجه الترمذي في سننه/كتاب الفتن/باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر/٤٦٨، كنز العمال رقم الحديث (٥٥٢٩) ٧٠/٢ .
قال الترمذي: هذا حديث حسن /تحفة الأحوذى ٢٩١/٦ .
- (٢) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان/باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر/٤٦٨ .
- (٣) - أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الملاحم/باب الأمر والنهي/٤٧٦/٢ .
هذا الحديث مروى عن ابن جرير وقد روى المنذري عن ابن جرير عن
أبيه أحاديث واحتج به مسلم/انظر مختصر سنن أبي داود ١٨٧/٦ .

ما كان لرحمته وفضله أن يترك الإنسان يتعامل مع هذا الكون بعقله وحده، وعقله جزء من جسمه يخضع لبعض هواه أحياناً، فكان إرسال الرسل ترشيحاً لهذا التعامل مع الكون، وسيجاً يحمي العقل من الانحراف وبخاصة أن العقول تختلف من شخص إلى آخر فليس فيها ما يمثل المقياس للحكم فضاءً عن عدم إحاطتها بحكم محدوديتها (١).

وقد أشار إلى هذا الإمام القرطبي حين فسر قوله تعالى :
((ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)) (٢) وذكر (أن العقل لما لم ينهض بكل المراد من العبد بمشت الرسل وأنزلت الكتب) (٣).

وقد بسط القرآن الكريم في تكريم الله للإنسان بإرسال الرسل رحمة به وفضلاً من الله، منها قوله تعالى :
((وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً)) (٤).

وقوله تعالى: ((رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)) (٥).

فإنه (لما علم سبحانه أن العقل آتاه تعالى للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى، بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة، لما علم الله سبحانه هذا، شاء بحكمته وشاء برحمته أن يبعث للناس بالرسل، وألا يواخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ) (٦).

ولعل في هذه الإشارة البسيطة ما يكفي في الإيمان إلى بيان كون إرسال الرسل مظهراً من مظاهر تكريم الله للإنسان، وليس شأبة تقدر في تكريم الله للإنسان.

* * *

- (١) - حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم للدكتور أبو اليزيد العجمي ص (١١٢).
- (٢) - سورة الإسراء الآية (٧٠).
- (٣) - تفسير القرطبي ٢٩٢/٥.
- (٤) - سورة الإسراء الآية (١٥).
- (٥) - سورة النساء الآية (١٦٥).
- (٦) - تفسير في ظلال القرآن ٨٠٦/٥ - ٨١١.

المبحث الثالث

عوامل المحافظة على الكرامة الإنسانية

أولاً * الطرق الوقائية للمحافظة على المقاصد الشرعية
ثانياً * الطرق العلاجية للمحافظة على المقاصد الشرعية

المبحث الثالث

عوامل المحافظة على الكرامة الإنسانية

لقد حظي الإنسان بكرامة فضّلته على سائر المخلوقات، فكان أكرم مخلوق كما صرح بها قوله تعالى: ((ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)) (١).

وهي في حقيقتها سياج من الصيانة والحرمة والحصانة، تصون صاحبها من أن يهون على الناس أو يضيعوا حقاً من حقوقه أو ينتهكوا حرمة من حرّماته، فتجمله أيّاً كان لونه أو جنسه أو دينه، في حمى محمي وفي حرم محرم، ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه، أو ينزع بيده هذا الستر المضروب عليه .

ولذلك كانت تعاليم الإسلام كلها تدور حول هذا القطب الذي يرمي إلى العمل والمحافظة على كرامة الإنسان كما أرادها الله له، وظهر ذلك في الأحكام الشرعية المتعددة التي ترجع إلى حفظ المقاصد الضرورية للناس .

ومجموع المقاصد الضرورية للجسد وللروح معاً خمس (٢) هي الدين والعقل والنفس والمال والنسل.

وهذه كلها ضرورات تتعلق بها مصالح الدنيا والآخرة، وبالمحافظة عليها تتحقق كرامة الإنسان و ينتشر السلام .

يقول الشاطبي (٣) (ومجموع الضرورات خمسة وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وهذه الضرورات لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين) (٤).

(١) - سورة الإسراء الآية (٧٠).

(٢) - وهذا عند المتقدمين من علماء الأصول ، فقد عدوا المقاصد الضرورية خمسة وذلك يهدف مقصد حفظ العرض حيث جعلوه جزءاً من حفظ النسل، أما عند المتأخرين من علماء الأصول فهي ستة بإضافة مقصد حفظ العرض .
أنظر المقصد من عقد الزواج رسالة ماجستير للدكتورة صالحة الحليس ص (٢٨)

(٣) - الشاطبي (٥٨٥ - ٦٧٢ هـ)

محمد بن سليمان بن محمد السعافري أبو عبد الله ، مولده شاطبة ، تفقه وروى الحديث وبرز في علم القراءات فالف فيه ونظم ، أنقطع للعبادة بمصر وبها نالته المنية . * نفع الطيب ١٩٠/٢ . * طبقات الشافعية ١٩٢/١ .

(٤) - المواقفات في أصول الأحكام للشاطبي ٨/٢ .

وللمحافظة على هذه المقاصد الشرعية طرق وقائية وطرق علاجية.

أولاً- الطرق الوقائية للمحافظة على المقاصد الشرعية:

شرع الإسلام من الأحكام ما يحقق هذه الضرورات ويوجد لها طيبة حسنة..

١- فيالنسبة للدين :

شرعت لتقريره وحفظه احكام العبادات والمعاملات، فهو يشتمل على مفهومي العقيدة والعبادة، فقد أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه وبعث أنبياءه بدينه لينظم به علاقة الناس بربهم وعلاقتهم ببعضهم، وعلاقتهم بمجتمعهم، وقرره بمراتبه الإسلام والإيمان والإحسان (١).

(١) - ولقد ورد النص في بيان تعريف هذه المراتب وأركانها حديث جبريل عليه السلام عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل علينا رجل شديد بياض من ن ن ن الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه ، قال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال صدقت قال فمجبنا له يسأله ويصدقه، قال فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالتقدير خيره وشره، قال صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ((.....

والحديث أخرجه مسلم في صحيحه /كتاب الإيمان/ باب تعريف الإيمان والإسلام ١٥٧/١-١٥٨.

كما شرع الله تعالى الجهاد لحماية الدين من المعارضين المعاندين الذين ييغون هدم دعوة الله وإزالتها، وتأمين تلك الدعوة والدعاة إليها من الاعتداء.

يقول الله تعالى :

((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير)) (١).

ذلك لأن عدم جهادهم لرد ظلمهم ومنع إفسادهم يعرض الدين للزوال ويحول بينه وبين إنتشاره وتبليغه للعالمين كافة .
هذا بالنسبة لحفظ الدين كمقصد شرعي .

٢- وبالنسبة للنفس:

فقد حفظ الإسلام حقها في الحياة باتباع المنهج التالي:

أولاً - حمايتها من الأمراض، وذلك بإبعادها عن أسبابه:

فالاسلام يوسع نظامه في حماية النفس من المرض حيث لا يتركها فريسة له ثم يعالجها، فنلاحظه ابتداءً يضع أسس وقائية متينة تعني بصحة الأبدان وتقيها من الملل وتحفظها من الأمراض، لأن صاحب الجسد العليل لاتتاح له الفرصة للسير في مضار الحياة، والقيام بواجبه الإنساني كعضو نافع في المجتمع .
كما أن الانسان المريض ضعيف، واهي الأعضاء، مضطرب التفكير، لا يستفيد منه المجتمع كما يستفيد من الأصحاء الأقوياء، لذلك مدح الله تعالى في القرآن الكريم قوة البدن مع سلامة النفس ومثانة الأخلاق في قوله تعالى على لسان ابنة شعيب عن موسى عليه السلام.

((ياأبت أستاجرهُ إن خير من أستاجرت القوي الأمين)) (٢).

كما أشار الحديث الشريف إلى منزلة المؤمن القوي في قوله صلى الله عليه وسلم :

((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)) (٣).

(١) - سورة الحج الآية (٢٩).

(٢) - سورة القصص الآية (٢٦).

(٣) - أخرجه مسلم في صحيحه/كتاب القدر/باب الإيمان بالقدر والإذعان له ٢١٥/١٦.

والمتبع للتشريعات الوقائية التي إتبعها الإسلام لحماية النفس من الأمراض يجدها
تتخصر في الأمور التالية:

أولاً: النظافة: وقد عني بها الإسلام عناية فائقة.

====

ويظهر حرص الإسلام عليها في تشريع الوضوء، والغسل،
وتنظيف الأسنان بالسواك، وقص الأظفار والشعر، والتطهير من النجاسة.

ثانياً - البعد عن كل ما يضر بالإنسان :

فقد نهى الإسلام عن ارتكاب كثير من الأفعال التي تضر بالنفس وتمرضها، كما
حرم عليها تناول بعض المأكولات والمشروبات التي تحمل نفس العلة منها:

١- النهي من إتيان الحائض والنفساء.

يقول الله تعالى: ((ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في
المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب
التوايين ويحب المتطهرين)) (١).
فالآية القرآنية نهت عن مباشرة النساء وقت الحيض لأنه دم فاسد يضر بالرجل والمرأة
كليهما .

٢- النهي عن الشراهة.

وقاية للجهاز الهضمي من الأمراض، يقول الله تعالى :
((وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)) (٢).

وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((مامأأ ابن آدم وعاء شراً من
بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لأبد فثلك لطمامه وثلك
لشراهه، وثلك لنفسه)) (٢).

(١) - سورة البقرة الآية (٢٢٢).

(٢) - سورة الأعراف الآية (٢١).

(٢) - أخرجه الترمذي في سننه/كتاب الزهد/باب ماجاء في كراهية كثرة الأكل ٥٩٠/٤.

وابن ماجه في سننه/كتاب الأطعمه/باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع ١١١١/٢

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح /تحفة الأحوزي ٥٢/٧.

٢- النهي عن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

فقد نهى القرآن الكريم عنها في قوله تعالى:

((حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت)) (١)
يقول الإمام الرازي: (إن تحريم هذه الأشياء موافق لما في العقول لأن الدم جوهر لطيف جداً فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله ضرر عظيم، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتبهات فحرم الله أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية، والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة كالميتة لأنها تموت حتف أنفها) (٢).

٤- النهي عن شرب الخمر.

جاء ذلك في قوله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)) (٢)

ويقول صلى الله عليه وسلم: ((كل مسكر خمروكل خمراً حرام)) (٤).
وذلك لأن الخمر تعوق الإنسان عن الحركة المنتظمة والعمل النشط وتسبب الإرتعاش في الأطراف والشلل في الأعصاب وتمزق خلايا الجسم.

(١) - سورة المائدة الآية (٢).

والمنخقة هي الحيوانات التي تموت خنقاً ، فالاختناق يجعل الحيوان
المخنوق أسرع إلى التعفن ،

والموقوذة: هي المضروبة حتى تشرف على الموت ، فترك حتى تموت ،
أو هي ماتت فعلاً من أثر الضرب فوراً .

والمتردية : هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت من أثر صدمة الوقوع .

والنطيحة: هي التي ماتت من أثر عراكها مع مثيلاتها من الحيوانات

وغالباً ما يحدث الموت من أثر النطح ، ولهذا خصصه النص بالذكر

أنظر كتاب هذا حلال هذا حرام ، عبد القادر أحمد عطا ص (١٤٥) .

(٢) - تفسير الفخر الرازي ٥٢٣/٢ ، ٥٢٤ .

(٣) - سورة المائدة الآية (٩٠) .

(٤) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب المعازي/باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن

قبل حجة الوداع ٥٠/٢ ، ومسلم في صحيحه/كتاب الأشربة/باب بيان أن كل

مسكر خمرو وأن كل خمراً حرام ١٧٢/١٢ .

وأنسجته وتحرق الكبد وتضعف الكلية)) (١).

٥ - النهي عن مخالطة بعض المرضى :

في البعد عن موطن المرض نلاحظ أن الإسلام يأمر بمحاصرة المرض وعزله وخاصة ما كان معدياً، وقد سبق الإسلام الطب الحديث في وضع قانون الحجر الصحي حيث يقول صلى الله عليه وسلم :
((إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا نزل وأتم بأرض فلا تخرجوا منها)) (٢).

((فقد أمر صلى الله عليه وسلم بأن تحاصر المنغمة الموبوءة فلا يدخلها أحد أو يخرج منها أحد حتى ينتهي الوباء)) (٣).
ومن تعاليم الإسلام للوقاية قول النبي صلى الله عليه وسلم :
((فرمى المجدوم فرارك من الأسد)) (٤).

وهكذا نلاحظ أن الإسلام ينهى عن إتيان وإرتكاب كل ما يضر بنفس الإنسان حفظاً لهذه النفس من الزوال والفساد .

- (١) - عناية الإسلام بالصحة - تعليم مجموعة القاهرة ، بنشر قسم الرعظ الإرشاد بالأزهر ص (١٩) ، نقلا عن كتاب الدعوة الإسلامية للدكتور أحمد غلوش ص (٤٩ - ٥٠) .
- (٢) - رواء البخاري في صحيحه ١ كتاب الطب 1 باب ما يذكر في الطاعون ١١/٤
- (٣) - ولو علمت أوروبا بهذا القانون وعملت به حين أجتاحتها الطاعون في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لخفت الخسائر التي منيت بها في الأرواح ، فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا المرض ب/٥٢/ مليون نسمة ، وكان سبب انتشار المرض نقل التار إلى جنوب روسيا سنة ١٢٤٦م ، وبدأ ينتشر حتى سنة ١٢٧٠م - ١٢٧٤م ، فبينما كان الطاعون يجتاح أوروبا نفذت ميلانو والبندقية بعض القوانين الصارمة فأنشأت المآوى بعيداً عن المدينة ليقيم بها القادمون المشتبه فيهم ليقوموا معزولين لمدة ٢٠ يوماً .
- (٤) - أنظر كتاب روح الدين الإسلامي لعفيف طيارة ص (٤٤٢) .
رواء البخاري في صحيحه /كتاب الطب /باب الجذام/٩/٤ .

ثالثاً - عدم إرهاق الجسد بالتكاليف الشرعية:

=====

لقد وضع الاسلام التكاليف الشرعية - فعلاً وتركاً - من أجل مصالح العباد والمحافظة على سلامة النفس وسعادتها في الدنيا والآخرة، إلا أنه قد يصاحب هذه التكاليف ما يشق على النفس ويرهقها ويخرج بها عن معناها الحقيقي .

وهنا نجد المشرع محافظاً منه على سلامة النفس وحمايتها من مشقة التكاليف يسقط هذه التكاليف بالكليّة أو يستبدلها بغيرها .

فمثلاً: الصلاة عبادة يجب أن يقوم بها الصحيح والسقيم على السواء ولما كان المريض لا يمكنه القيام بجميع حركاتها، لهذا خفف الله عنه ، فقد روى عن عمران بن حصين (١) أنه قال: كانت بي بواسير فسألت النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال :

((صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب)) (٢) .

أيضاً: الأصل في الوضوء والغسل أن يكونا بالماء الطاهر المطهر، لكن إذا وجد الماء عند عدو مخيف أو تحت سيطرة حيوان مفترس أو كان استعمال الماء ضاراً بالصحة أو مؤخرراً للشفاء أو كان الماء قليلاً لا يكفي إلا للشرب والطعام ...

(١) - عمران بن حصين (٥٢٠ هـ)

هو عمران بن حصين بن عبيد الخزاعي الكعبي يكنى بأبينة نُجيد أسلم عام خيبر غزا مع الرسول صلى الله عليه وسلم الفزوات كلها، بعثه عمر ليقته أهل البصرة واستنضاه عليها عبد الله بن عامر ثم استنضى قاعفي كان مجاب الدعوة ولم يشهد الفتنة وكانت الملائكة تسلم عليه في مرضه الذي طال به ونالته منيته وهو في البصرة .

* أسد الغابة ١٢٨/٤ . * الإصابة ٢٦/٢ .

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الكسوف/باب التفسير/باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب ١٢٩/١ .

ففي هذه الأحوال يرشد الشرع إلى التيمم (١) بدلاً من الغسل والوضوء
يقول الله تعالى: ((وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الماء أو لأمستم
النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً
غفوراً)) (٢).

وروى عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم في سفر، فصلى بالناس، فإذا برجل معتزل قال: ((مامنعك أن تصلي؟))
قال: أصابتي جنابة، ولأماء، قال: ((عليك بالصعيد فإنه يكفيك)) (٣).

- (١) - وصفته أن يضرب بيديه على الصعيد الطيب ضربة واحدة فيمسح بهما
وجبه وكفيه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم (إنما كان يكفيك هكذا)
وضرب بيديه الأرض فمسح بهما وجهه وكفيه، وإن تيمم بأكثر من ضربة أو
مسح أكثر جاز، وله شروط أربعة: (أحدهما) العجز عند استعمال
الماء، إما لعدمه أو لخوف الضرر من استعماله لمرض أو برد شديد
أو لخوف العطش على نفسه أو رفيقه أو بهيمة، أو خوف على نفسه أو
ماله في طلبه أو تعذر إلا بشمن كثير (والثاني): دخول الوقت فلا يتيمم
لفريضة قبل وقتها، ولانقضاء في وقت النهي عنها، (والثالث): النية
فإذا تيمم لنافلة لم يصل بها فرضاً، وإن تيمم لفريضة فله فعلها
وفصل ما شاء من الفرائض والنوافل حتى يخرج وقتها. (والرابع) التراب
فلا يتيمم إلا بتراب ظاهر له غبار، ويبطل طهارة الماء، وخروج
الوقت، والقدرة على استعمال الماء وإن كان في الصلاة.
* كتاب العدة شرح العدة في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل.
تأليف بهاء الدين عبد الرحمن المقدسي ص (٤٩-٥٠-٥١).
- (٢) - سورة النساء الآية (٤٣).
- (٣) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب التيمم/باب الصعيد ٥٢/١.

أيضاً: الصوم يستقط أو يُوْجَل بسبب عذر يلحق بالمكلف يقتضي الإسقاط أو التأجيل.

يقول الله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تمسوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون)) (١).

وعن جابر بن عبد الله (٢) رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم، وصام الناس معه قليل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإن الناس ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدر من ماء بعد العصر، فشرب، والناس ينظرون إليه، فأفطر بعضهم، وصام بعضهم، فبلغه أن ناساً صاموا، فقال : أولئك العصاة)) (٣)

كما أنه استقط فرض الحج عن من ليست له أية قدرة جسمية أو مالية أو أمنية، يقول الله تعالى :
((ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)) (٤).

وهذه كلها وغيرها إسقاطات تتعلق بالفرائض والواجبات من أجل المحافظة على النفس، كما أن هناك أشياء محرمة يبيحها الشارع عندما تتعلق الضرورة بإباحتها .

(١) سورة البقرة الآيتان (١٨٢-١٨٤).

(٢) - جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري السلمي ، يكنى بأبي عبد الله شهد المشاهد كلها ولم يتخلف عن غزوات الرسول إلا بداراً وأحد حيث منعه أباه ، وشهد العقبة الثانية مع أبيه صغيراً وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد العقبة الثانية ، وكان أميراً على المدينة توفي سنة (٧٤) وعمره (٩٤) سنة

* الإصابة ٢١٢١١ . * أسد الغابة ٢٥٨١٥١ .

(٣) - رواه مسلم في صحيحه/كتاب الصيام/باب جواز الصوم والفطري شهر رمضان للمسافر ٢٢٢/٧ .

(٤) - سورة آل عمران الآية (٩٧) .

يقول الله تعالى: ((فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا اثم عليه، إن الله غفور رحيم)) (١) .

ومعنى هذا: أن الله أباح للمسلم أن يتناول من المحرم عند الضرورة، بشرط ألا يكون باغياً ولا عادياً، ما يسد به رمته خشية هلاكه، ولضمان حياته .

وهناك أمثلة كثيرة استقصتها كتب الفقه، ومنها تتبين أن التكاليف الشرعية (فعاد وتركاً) وضمت من أجل المحافظة على النفس وسلامتها ورعاية مصلحتها .

وهكذا حفظ الإسلام للنفس حقها في الحياة في أمن وسعادة وسلام

٢- أما بالنسبة لمقصد حفظ النسل :

ققد وضع الإسلام من التكاليف ما يضمن حفظه وبقاء النوع الإنساني وقد أتبع لذلك عدة أمور :

* * *

(١) - سورة البقرة الآية (١٧٢) :

(والمراد بالبغي والعدوان: ألا يكون المضطر في ممية وألا يكون متشبهاً للحرام يملأ بطنه، وألا يتعدى قدر ما يحفظ الحياة بزيادة في الأكل، وأما حد الضرورة ففسرها مجاهد: بأن يغلبه ظالم فيكرهه على أكل الخنزير مثلاً، وقال الجمهور: أن يسيره الفقر والجوع الذي يخشى منه الهلاك إلى الضرورة

* كتاب هذا حلال وهذا حرام تأليف عبد القادر أحمد عطا ص (١٥٢) .

الأمر الأول:

الحث على الزواج والترغيب فيه:

الزوجيه سنة من سنن الله في الخلق والتكوين، وهي عامة مطردة، لا يشذ عنها عالم الإنسان، أو عالم الحيوان، أو عالم النبات .
يقول الله تعالى: ((ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)) (١) .

والزواج في الإسلام هو الزواج الذي شرعه الله في وضعه الصحيح للمحافظة على النوع الإنساني، واستمرار الحياة، وهو سكن نفسي، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء.

لذا كان خطاب القرآن الكريم في أمر الزواج موجهاً إلى أفراد الأمة لتيسيره فقال تعالى:
(وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) (٢) .

فهذه الآية خطاب للأولياء - وتعم غيرهم مطلقاً - بأن يزوجوا العزاب من النساء والرجال، وأن لا يكون ققرهم داعياً للحيلولة دون تزويجهم ، لأن الله تعالى قد تكفل بإغنائهم من فضله .

أما التقيير المدقع العاجز عن الأنفاق، فعليه بالعفة إلى أن يرزقه الله تعالى المال الذي يمكنه من الزواج :

يقول الله تعالى: ((وليستغف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله)) (٣) .

(١) - سورة الذاريات الآية (٤٩) .

(٢) - سورة النور الآية (٣٢) .

(٣) - سورة النور الآية (٣٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم: ((الدينيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)) (١)

كما بين صلى الله عليه وسلم في حديثه أن اعتزال النساء وعدم الزواج مناف للفترة، وخرج عن هديه صلى الله عليه وسلم .
روى البخاري (٢) ، ومسلم (٢) ، عن أنس (٤) رضي الله عنه قال:

((جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد عُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .



- (١) - رواه مسلم في صحيحه / كتاب الرضاع/ باب إستحباب نكاح البكر ٥٦/١٠ .
(٢) - البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ):
الأمام محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، أبو بعد الله،
حبر الإسلام وحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولد ببخارى، ونشأ بها يتيماً قام برحلات كثيرة لطلب العلم
والحديث فسمع نحواً من (١٠٠٠) شيخ وهو أول من صنّف في الحديث
على النحو ووافته المنية بسمرقند.
* تهذيب التهذيب ٤٧/٩ * تذكرة الحفاظ ١٢٢/٢ .
* وفيات الأعيان ١٨٨/٤ .
(٢) - الأمام مسلم (٢٠٤-٢٦١هـ):
مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسن
ولد بنيسابور ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، حافظ
متقن من أئمة الحديث ورجاله عارف بالجرح والتعديل، وصنّف
في العلل والتراجم وأشهر كتبه صحيحه.
* تهذيب التهذيب ١٢٦/١٠ . * تذكرة الحفاظ ٥٨٨/٢ .
(٤) - أنس بن مالك (٢٩هـ) بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري .
خدم المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشر سنوات وكان فخرأ له
يبيّن أقرانه ، شهد بدر والمشاهد كلها ، دعا له الرسول
بكثرة المال والميال ، وهو آخر من توفي بالبصرة ، من
الصحابة وله من العمر مائة وثلاث سنين ، صلى عليه قطف بن
مدرك الكلابي .
* أسد الغابة ١٢٨/١ - ١٢٩ . * الإصابة ٧١/١ - ٧٢ .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتم الذين قلمت كذا وكذا؟ أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فممن رغب عن سنتي فليس مني)) (١).

وإن المتتبع لأحكام الزواج في الإسلام يجد أن من مقاصده (٢): تحصيل النسل، يقول ابن الجوزي (٣):
(تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه فرأيت أن الأصل الأكبر في وضعه وجود النسل) (٤).

ويقول ابن تيمية: (والاعراض عن الأهل والأولاد ليس مما يحبه الله ورسوله ولا هو من دين الأنبياء) (٥).

(وفي تحصيل النسل وتكثيره من المصالح العامة والمنافع الخاصة ماجمل الأمم تحرص على تكثير سواد أفرادها باتخاذ الوسائل المشجعة والمرغبة في الدعوة إلى إيجاده وتحصيله وتكثيره.

-
- (١) - رواء البخاري في صحيحه / كتاب النكاح / باب الترغيب في النكاح ١٦٩/٢ .
وأخرجه مسلم في صحيحه / كتاب النكاح / باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه ووجد مؤنة ١٧٥/٩ ، ١٧٦ ، بلفظ أن نقرأ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي عن عمله في السر ؟
- (٢) - وقد عدوا مقاصد الزواج جملة خمسة وهي : النسل ، والعصمة من الاتصالات المحرمة ، ورفع الدرجات الأخروية ، والتكامل بين الزوجين والتعاون على الحياة ، وتحصيل المتع الدنيوية / المقصد مزعوم الزواج / رسالة ماجستير للدكتورة صالحة الحليس ص (٦٢) .
- (٣) - عبد الرحمن بن علي الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج (٥٠٨-٥٧٩ هـ) علامة عصره في التاريخ والحديث مولده ووفاته ببغداد له نحو من ثلاثمائة مصنف منه غريب الحديث ، الذهب المسبوك في سيرة الملوك وغيرها . * البداية والنهاية ٢١/١٣ . * تذكرة الحفاظ ٤/١٢٤٤ .
- (٤) - صيد الخاطر لابن الجوزي ص (٤٦) .
- (٥) - الفتاوى الكبرى ١١٨/٥ .

ذلك أن الشريعة الإسلامية تحث على مبادئ القوة والعزة، وإتباع الفمزان، وعموم السلطان، وكثرة الأيدي العاملة في عمارة الكون، وتقويم الحياة ورفقيها، وهذه غايات لا يمكن الحصول عليها إلا بالنسل وتكثيره به تضاعف قوتها وتوجد عزتها) (١)

فإن الزواج في الإسلام لم يشرع لإشباع الغرائز وتوجيهها فقط، بل له وظائف أخرى سامية لا بد من الإهتمام بها إلى جانب الإهتمام بمطالب الفريضة، فهو سنة وهو وسيلة لإيجاد النسل الذي تعلق به بقاء العالم وعمارة الكون، ولهذا قدمه بعض الفقهاء على سائر المعاملات، وجعله بعد العبادة مباشرة حتى أن بعضهم قال: إن الإشتغال به أفضل من التخلي عنه لمجرد التطوع في العبادة لأنه سبب لوجود العابدين ونسلهم (٢).

وبهذا يظهر أن تشريع الزواج وسيلة سهلة ومضمونة لإيجاد النسل وبقاء النوع الإنساني وحفظه كمتصد شرعي رغب فيه الإسلام ودعا إلى تحصيله والمحافظة عليه..

* * *

-
- (١) - أنظر كتاب الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص (٢٠٦)
(٢) - أنظر المقصد من عقد الزوج - رسالة ماجستير -
للدكتورة صالحة الحليس ص (٦٧).

الأمر الثاني: الاستعداد الحسن لوجود الولد:

وذلك عن طريق إتقاء الزوجة ذات الدين، (ويُقصد بالدين، عند إطلاق لفظه، الفهم الحقيقي للإسلام، والتطبيق العملي السلوكي لكل فضائله السامية، وآدابه الرفيعة، ويُقصد به كذلك الالتزام الكامل بمناهج الشريعة، ومبادئها الخالدة على مدى الزمان والأيام) (١). فعندما يكون أحد الزوجين، أو كليهما، على هذا المستوى من الفهم والتطبيق والالتزام، يمكن أن يطلق عليه أنه ذو دين وذو خلق.

ولقد أرشد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم راغبي الزواج بأن يظفروا بذات الدين، فقال: ((تنكح المرأة لأربع: لعالمها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)) (٢).

وذلك لأن صاحبة الدين تقوم بواجبها الأكمل في أداء حق الزوج وأداء حق الأولاد، وأداء حق البيت على النحو الذي أمر به الإسلام. فعلى الزوج أن يختار زوجة على أساس الدين كي تعينه على المحافظة على ولده وتنشئته التنشئة الفاضلة.

الأمر الثالث: العناية بالولد بعد مولده:

وضمت الشريعة الإسلامية من الأحكام والمبادئ ما يكفل توفير العناية التامة بالولد، والمحافظة عليه من أجل سلامته والإبقاء على استقراره النفسي.

(١) - تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله علوان ٢٥/١.

(٢) - رواء البخاري في صحيحه في كتاب النكاح /باب الأكناف في الدين ١٧٢/٢ ١٨٢.

منها: رضاعة الولد وحضاته، حيث أوجب الإسلام على الأم إرضاع طفلها إن يقنت له بأن لم يقبل سوى ثديها وأعدمت المراضع غيرها، أو عجز الوالد عن دفع أجره لمرضعة أخرى (١).

يقول الله تعالى: ((والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة)) (٢)
فقوله تعالى (يرضعن) خبر في معنى الأمر (٢)، والمعنى يجب على الوالدات إرضاع أولادهن.

وكلف الإسلام الوالد أن يستأجر حاضنة لولده تتولى تديير ملبسه ونومه ونظافته، وقد وضع الشرع للحاضنة شروطاً تضمن صيانتها للولد وحسن رعايته (٤).

ومنها: إيجاب النفقة على الوالد حتى يشب الابن عن الطوق ويصبح قادراً على الاكتساب يقول الله تعالى :
(وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف)) (٥).

الأمر الرابع : تحريم فاحشة الزنا:

يقول الله تعالى: ((ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً)) (٦).
يقول حجة الإسلام أبو بكر الجصاص في تفسيره هذه الآية :
(فيه الإخبار بتحريم الزنا وأنه قبيح لأن الفاحشة هي التي قد تفاحش قبحها، وفيه دليل على أن الزنا قبيح في العقل قبل ورود السمع لأن الله سماه فاحشة ولم يخص به حالة قبل ورود السمع أو بعده) (٧).

- (١) - تفسير أبي السعود ٢٥٠١١.
- (٢) - سورة البقرة الآية ٢٢٢.
- (٣) - تفسير الكشاف للزمخشري ٢٦٩١١.
- (٤) - أنظر فقه السنة للسيد سابق ٢٩١١٢.
- (٥) - سورة البقرة الآية (٢٢٢).
- (٦) - سورة الإسراء الآية (٢٢).
- (٧) - أحكام القرآن للجصاص ٢٠٠١٢.

وذلك لأن في الزنا ضياع النسب وضياع النسل بالتالي، لأن ولد الزنا ينشأ مشرداً بعيداً عن تربية والديه فينحرف ويرتكب المخاطر التي تؤدي بحياته .

جاء في ظلال القرآن: (إن الزنا قتلاً من نواحي شتى، إنه قتل ابتداءً لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق، قبل مولده أو بعد مولده، فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة، أو حياة مهينة، فهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء.. وهو قتل في صرورة أخرى، قتل للجماعة التي يفسد فيها فتضيع الأنساب، وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في المرض والولد وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات. وهو قتل للجماعة من جانب آخر، إذ أن سهرة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لاداعي إليها، والأسرة هي المحضن الصالح الناشئة لاتصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه) (١).

الأمر الخامس : بمنع تحديد النسل:

إن فكرة تحديد النسل تتصادم مع مقصد ضروري من مقاصد الزواج في الإسلام وهو حفظ النوع الإنساني واستمرار الحياة الإنسانية . كما أنه يؤدي في النهاية إلى قحط بشري مع مرور الوقت ، لأن نسبة المواليد تبقى في انخفاض مستمر مع ثبوت نسبته الوفيات، وهذا يؤدي في النهاية إلى ضياع النسل وفنائه .

لذلك نرى أن الإسلام بمبادئه السامية وقواعده الكلية ومقاصده التي تحقق الصلاح للمسلمين في كل زمان ومكان، يرفض هذه الفكرة كحركة عامة تشمل الأمة كلها، فحرمها وشدد في تحريمها حفظاً للنسل في نفس الوقت الذي أعطى فيه زمام الأمر لصاحب الحق وحده وأبعده عن اليد الاجتماعية الموجهة ففتح له نافذة الرخصة والتيسير، بناءً على عوارضه وضروراته الخاصة.

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢٢٢٤/٤.

يقول أبو الأعلى المودودي (١): ((ونحن إذالم نأخذ بالاعتبار الأقواله صلى الله عليه وسلم التي تدل على إباحتها العزل فإنما يمكن الاستدلال بها على إباحتها العزل للأفراد بصفتهم الفردية وفي ظروفهم الشخصية الخصوصية ولا يمكن بحال الاستدلال بها على إباحتها القيام بحركة شعبية عامة لمنع النسل) (٢).

وترتبط فكرة تحديد النسل ارتباطاً وثيقاً بعادة قتل الأولاد في الجاهلية والتي حرّمها الإسلام وهي عادة كان يمارسها بعضهم إما لخوف الفقر والرغبة في التخلص من تكاليف تربية الأولاد، وهذا عام في الإناث والذكور. وبعضهم كان يمارسها خشية العار، وهذا في الإناث خاصة .

ومما يدل على ذلك :

١- أن من المفسرين من ربط بين آيات القتل وبين العزل إستناداً إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي سئل فيه عن العزل فقال : (ذلك الرأد الخفي) (٢).

(١) - أبو الأعلى المودودي :

ولد ونشأ في الهند وتلقى تعليمه على يد والده فأخذ عنه القرآن والفقه والحديث واللغة العربية والفارسية ثم دخل المتوسطه وعمره لاتزيد عن إحدى عشر سنة حتى أخذ الثانويه ثم عمل في الصحافة وعمره ستة عشر سنة واستمر في طلب العلم فألف كتابه الأول الجهاد في سبيل الله - راداً فيه على دعوة غاندي النابذه للوحده الإسلامية وكان في الخامسة والعشرين ، ثم أصدر مجلة ترجمان القرآن سنة ١٢٥١ ثم عين رئيساً لجريدة (مسلم) في دلهي ثم أسس الجماعة الإسلامية وكان أميراً لها ولما انفصلت باكستان عن الهند حكم عليه بالإعدام ثم خفف إلى السجن المؤبد لما أصدر كتابه (المسألة القاديانية) وفي سنة ١٢٨٤ عند قيام الحرب بين الهند وباكستان حبس المسلمين على الجهاد مع رئيس باكستان أيوب خان عن طريق الإذاعة وهو عضو في رابطة العالم الإسلامي وعضو المجلس الاستشاري للجامعه الباكستانيه وله بضع وثلاثون كتاباً.

*المجلة الإسلامية عدد (٤٥) عام ١٤٠٠هـ بخط الشيخ محمد شريف الزنبيق ص (٢٢٩).

(٢) - أنظر حركة تحديد النسل للمودودي ص (١٥٩).

(٢) - أخرجه مسلم /كتاب التكااح / حكم العزل ١٧/١٠.

يقول ابن كثير: قوله تعالى: ((وإذا المأزودة سئلت)) (١)، أي سألت، أي طالبت بدمها، وقد وردت أحاديث تتعلق بالمأزودة، منها قوله صلى الله عليه وسلم عندما سأله عن العزل: ذلك الواد الخفي، وهو المأزودة سئلت (٢)

٢- ذكر أبو الأعلى المودودي في تفسير قوله تعالى: ((قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله إفتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين)) (٣) قال:

(إن قدماء المفسرين إنما بينوا قوله تعالى ((وحرموا ما رزقهم الله)) قالوا: إن المقصود أنهم يحرمون على أنفسهم ما قد أحله الله من المأكولات، والسبب في ذلك أنه لم تكن ثمة حركة لتحديد النسل في زمانهم، ولكن الله تعالى الذي أحاط بعلمه كل ما كان وكل ما سيكون ما استعمل إلا كلمات عامة لا تشمل تحريم المباحات من المأكولات فحسب، وإنما تشمل أيضاً تحريم كل نعمة أنعمها الله على عباده، وكلمة (رزق) لا تستعمل في معاجم اللغة وكلام العرب لمجرد المأكولات والمشروبات، وإنما تستعمل لكل نعمة بما فيها نعمة الذرية، ولما جاء ذكر تحريم (الرزق) عقب قتل الأولاد فمعناه الواضح: أنه قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم، كذلك قد خسر الذين حرّموا على أنفسهم نعمة التناسل وإنجاب الأولاد (٤)

٢- جاء في اللغة من معاني كلمة (الإملاق) الواردة في قوله تعالى: ((ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم)) (٥)؛ أنها تعني الإفساد يقال أملق ما عنده الدهر: أي أفسده (٦) وعليه يمكن أن يقال أن المراد بقوله تعالى (من إملاق): أي من إفساد لمكان الذرية باستعمال وسائل تفسد الصحة وتفسد النسل أيضاً (٧).

٤- إن الذين يحددون النسل مخافة الفقر أو لظروف اقتصادية يشتركون مع الذين يقتلون أولادهم مخافة الفقر في النية الباعثة على القتل، وما دامت النية في كليهما واحدة فيكون الحكم واحداً أيضاً فيكون التحديد للظروف الاقتصادية محرماً.

-
- (١) - سورة التكويد الآية (٨).
 - (٢) - تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٧، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب النكاح / باب حكم العزل ١٧ / ١٠.
 - (٣) - سورة الأنعام الآية (١٤٠).
 - (٤) - كتاب حركة تحديد النسل للمودودي ص (٧٩).
 - (٥) - سورة الأنعام الآية (١٥١).
 - (٦) - لسان العرب لابن منظور ٢٤٨ / ١٢.
 - (٧) - كتاب قضية تحديد النسل في الشريعة الإسلامية لأم كلثوم الخطيب ص (١١١)

يقول الشيخ المودودي: (لقد نعى القرآن الكريم في غير موضع من آياته على الذين كانوا يقتلون أولادهم خشية الإملاق - أي القتر - أيام الجاهلية : ((ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم وإياكم)) (١) . ((ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم)) (٢) ؛ وماالزجر لهم في هاتين الآيتين لجريمة واحدة وإنما هو لجريمتين: الأولى : أن كانوا يقتلون أولادهم، والأخرى أن كانوا يرون في ولادة أولادهم سبباً لقتلهم ويؤسهم لذا فقد زجرهم على جريمتهم الأولى وندد بسوء اعتقادهم ببيانه لهم : لماذا ترون أنفسكم مسئولين عن الرزق، فإنما نحن الذين نرزقكم وأولادكم .

واليوم إذا كان الناس لا يقتلون أولادهم لمنع الزيادة في أفراد النسل ، ويستعملون طرقاً تحول دون وقوع الحمل، فإنما ذلك اجتناباً منهم للجريمة الأولى مع بقاء الجريمة الأخرى قائمة على حالها إذ كان خطر ضيق الأرض ونفاذ موارد الرزق هو الباعث لهم على منع الزيادة في أفراد النسل (٢) وفي هذا الموضوع تعترضني شبهة أرى استيفاءً للبحث توضيحها دفعاً للتوهم والمغالطة، وهي أن أنصار حركة تحديد النسل كثيراً ما يستدلون على إباحة العزل بروايات يحدونها في كتب الحديث منها:

- ١- ما أخرجه الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله قال ((كنا نمزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل، وفي رواية الإمام مسلم : فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا)) (٤) .
- ٢- ومنها ما رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري (٥) قال ((غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بني المصطلق، فسيينا كرائم العرب فطالت علينا الغربة ورجبنا في الفداء، فأردنا أن نستمتع ونعزل، وقلنا نفعل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا لانسأله؟ فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ((لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نعمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون)) (٦) . وغيرها من الأحاديث .

-
- (١) - سورة الأنعام الآية (١٥١) .
 - (٢) - سورة الإسراء الآية (٢١) .
 - (٣) - كتاب حركة تحديد النسل للمودودي ص (١٧٢) .
 - (٤) - أخرجه البخاري / كتاب النكاح / باب العزل / ١٨٧/٢ . وأخرجه مسلم في صحيحه / كتاب النكاح / باب حكم العزل ١٤/١٠ .
 - (٥) - أبو سعيد الخدري : سعد بن مالك بن سنان بن ابجر الخزرجي الأنصاري من الملازمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والعلماء الفضلاء المقلاء رده الرسول يوم الخندق لصغر سنه وغزا معه غزوة بني المصطلق وعمره ١٥ خمسة عشر سنة وشهد مع الرسول اثنتا عشرة غزوة . * أسد الغابة ٢٨٩/٢ . * الإصابة ٢٥/٢ .
 - (٦) - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب النكاح / باب حكم العزل ١٠/١٠ .

ورد أعلى هؤلاء نقول: (إن أنصار حركة تحديد النسل يصرفون النظر عن حقيقة مهمة بشأن هذه المرويات، وهي أنه لم تكن هناك في بلاد العرب وفي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حركة عامة قائمة لدعوة الناس إلى تحديد النسل، ولا جاء أحد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليسأله عما إذا كان يجوز له القيام بحركة مثل هذه، وكل ما في الأمر أن نفرًا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم جاءوا إليه على أحيان مختلفة يعرضون عليه ظروفهم الشخصية المخصوصة، ويسألونه عما إذا كان من المباح لهم كمسلمين في مثل هذه الظروف أن يعزلوا؟ والرسول صلى الله عليه وسلم في رده على سؤال بعض هؤلاء قد نهى عن العزل، وفي رده على سؤال بعضهم عد العزل فعلاً عبثاً لا طائل تحته، على أنه صلى الله عليه وسلم قد سكت في رده على سؤال بعضهم أو قال ما يمكن الاستدلال به على إباحة العزل، وإنما يمكن الاستدلال بها على إباحة العزل للأفراد بصفتهم الفردية وفي ظروفهم الشخصية المخصوصة، ولا يمكن بحال الاستدلال بها على إباحة القيام بحركة عامة لمنع الحمل، وفرق كبير بين محاولة الأفراد لمنع الحمل بصفتهم الشخصية الفردية وبين أن تقام لهذا الغرض حركة عامة) (١).

ثم إن الحركة العامة لتحديد النسل أساس فكرتها أن زيادة السكان تسبب قلة موارد الرزق وتصعب الحياة (٢)، وهذه فكرة تصادم العقيدة الإسلامية، لأن مؤيديها ينسبون الإله الخالق الرازق ويظنون أن الإنسان هو الرازق لنفسه ولأولاده .
في حين أن الإسلام بمختلف أساليبه البليغة يبين أن الرزق بيد الله الذي قد خلق الإنسان وأنه ما خلق الإنسان بدون ما تدبير ولا تقدير، ولا قد وكل الرزق إلى غيره بعد أن خلق الإنسان بنفسه .

- يقول الله تعالى: ((وكأين من دابةٍ لاتحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم)) (٢)
ويقول تعالى: ((وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)) (٤).
وقوله تعالى: ((إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)) (٥).
وقوله تعالى: ((وما كنا عن الخلق عافلين)) (٦).

-
- (١) - حركة تحديد النسل للمودودي ص (١٦٩).
(٢) - أنظر كتاب مسألة تحديد النسل وقاية وعلاجاً للدكتور محمد سعيد رمضان البرطي ص (٢٨).
(٣) - سورة العنكبوت الآية (٦٠).
(٤) - سورة هود الآية (٦).
(٥) - سورة الذاريات الآية (٥٨).
(٦) - سورة المؤمنون الآية (١٧).

أنما المهمة التي يجعلها الله تعالى من وظيفة الإنسان بعد بيانه له حقيقة الرزق في هذه الآيات وغيرها، هي أن يبذل سعيه للبحث عن رزقه من خزائنه الماثورة على وجه الأرض وباطنها.

يقول الله تعالى : ((هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)) (١).

من هذا نخلص إلى أن الرزاق هو الله، وأن الأولاد يشكلون مصدراً منفصلاً إضافياً للرزق حسب تقرير القرآن الكريم، ولا يمثلون عبئاً اقتصادياً على العالم، لأن الله تعالى تكفل بالرزق :

((يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض)) (٢).

ومن هنا منح الإسلام تحديد النسل والوسائل التي تؤدي إليه حفظاً للنوع الإنساني من الانقراض .

٤ - وبالنسبة للمال :

قد وضعت الشريعة الإسلامية نظاماً لحفظه والإبقاء على وجوده، يمكن إجماله في الأمور التالية :

الأمر الأول : إباحة الأسباب المشروعة للتملك :

حدد الإسلام طرقاً لاكتساب المال وتملكه ، ووضع شروطاً للتملك وللاستفاد بالملكية، ويبين أن الاستفاد بالمال المملوك مقيد بسلطان الشارع في الإباحة، لأنه سبحانه هو الذي أعطى الإنسان الملك، مرتباً على السبب الشرعي في إباحة الكسب، وإعمال الجهد في تحصيل المال، فالملكية على هذا الترتيب : إباحة ثبتت بإثبات الشارع الحكيم وتقريره ، والملكية إنما هي استخلاف من الله لعباده، منوط بحسن التصرف، فالمالك الفردي مستخلف على ما يملكه، محاسب على هذا الاستخلاف في كسبه، وفي تصرفه (٣).

ويمكننا أن نجمل طرق اكتساب المال وتملكه المعترف بها في الإسلام فيما يأتي:

(١) - سورة الملك الآية (١٥).

(٢) - سورة فاطر الآية (٢).

(٣) - الملكية الخاصة وحدودها في الإسلام ، مجمع البحوث الإسلامية للدكتور محمد عبد الله العربي ٥٢/١ . وكتاب الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام للشيخ علي الخفيف ص (١٢).

أولاً - إحياء موات الأرض (٤) :
(والأرض الموات هي أرض خارج البلد لم تكن ملكاً أو حقاً خاصاً لأحد) (٢) .
وقد اعتبر إحياء الأرض الموات من أسباب ملكية الأرض باتفاق العلماء، وذلك توسيعاً
لرقعة الأرض المنزرعة، وتشجيعاً للعمل . والأصل في مشروعية إحياء الموات قول النبي
صلى الله عليه وسلم :
((من أحيأ أرضاً ميتة فهي له)) (٣) .
ثانياً - الصيد :

ويشمل إباحة امتلاك الإنسان لما اصطاده من طائر أو حيوان ومن
صيد البحر أسماكه وحيثانه ولؤلؤه وأسفنجه ونحو ذلك . (٤)
يقول الله تعالى : ((أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرم
عليكم صيد البر ما دمتم حرماً)) (٥) .
وقال أيضاً سبحانه : ((وإذا حللتم فاصطادوا)) (٦) .

ثالثاً - استخراج ما في باطن الأرض من معادن :
(وهي دقائن الأرض من الكنوز، فهي لمن عثر عليها، وعليها الخمس لبيت
المال باتفاق الفقهاء، والباقي لو وجد الكنز) (٧) .

رابعاً - إقطاع ولي الأمر مسلماً بعض الأرض التي لامالك لها مما آل إلى بيت
مال المسلمين من أراضي المشركين، أو من الأرض الموات التي لامالك لها .

- (١) - إحياء الموات معناه إعداد الأرض الميتة التي لم يسبق تعميمها
وتهيئتها وجعلها صالحة للاقتناع بها في السكنى والزرع ونحو ذلك / فقه
السنة للسيد سابق ١٩٤/٢ .
- (٢) - بدائع الصنائع للكاساني ١٩٢/٦ .
- (٣) - أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ (من أحيأ أرضاً مواتاً) كتاب الحرث / باب من أحيأ
أرضاً مواتاً ٢٢/٢ .
- (٤) - وأخرجه الترمذي في كتاب الأحكام باب ما ذكر في إحياء الأرض الموات ٦٥٢/٢ .
أنظر فقه السنة للسيد سابق ٢٦٩/٢ ، وكتاب نظرية الإسلام الاقتصادية
للامتاذ عبد السميع المصري ص (٤٥)
- (٥) - سورة المائدة الآية (٩٦) .
- (٦) - سورة المائدة الآية (٢) .
- (٧) - الملكية في الشريعة الإسلامية مع مقارنتها بالقوانين العربية للشيخ
علي الخفيف ١٤٨/٢ - ١٤٩ .

فالأقطع سبب للتملك (ولادمام أن يقطع من كل موات، ومن كل ماليس فيه مالك لأحد، ويعمل فيه بما يرى أنه خير للمسلمين وأعم نفعاً) (١).

والأصل فيه مارواه ابن عمر (٢) رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقطع الزبير (٢) أرضاً، وقد ثبت أن أبا بكر رضي الله عنه قد أقطع الزبير كذلك أرضاً، وأن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قد أقطع علياً (٤) رضي الله عنه ينبع (٥).

- (١) - وقد نقله الشيخ علي الخفيف : المرجع السابق ١٧٤/٢ عن حاشية ابن عابدين على الدر المختار معزواً لأبي يوسف .
- (٢) - عبد الله بن عمر بن الخطاب (ولد بعد البعثة - ٧٢ هـ) أسلم مع أبيه وهو لم يبلغ الحلم وهاجر قبل أبيه كان كثير الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع شأنه، أفتى الناس ن ن ن في الموسم بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ستين سنة كثير الصدقة أول مشاهده الخندق ثم موته ثم اليرموك ثم فتح مصر وإفريقيا مات برمية سهم مسموم بعد موت ابن الزبير بثلاثة أشهر وعمره أربعة وثمانين ، صلى عليه الحجاج ، وأختلف بموطن دفنه . * أسد الغابة ٢٢٧/٢ . * الإصابة ٢٤٧/٢ .
- (٣) - عبد الله بن الزبير بن العوام (٢- ٧٢ هـ) أمه ذات النطاقين وهو أول مولود يولد بالإسلام بعد هجرة المهاجرين ، حنكه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بايعه الرسول وهو ابن سبع سنين ، كان فتح أفريقيا على يده ، شهد الجمل مع أبيه ، بويج بالخلافة بعد موت يزيد ، حاصره الحجاج بمكة الى أن قتل في النصف من جمادى الآخرة . * أسد الغابة ١٦٢/٢ . * الإصابة ٢٠٩/٢ .
- (٤) - علي بن أبي طالب : (ولد قبل البعثة - ٤٠ هـ) ابن عم رسول الله ورابع الخلفاء الراشدين ، وأول من أسلم من الصبيان ، هاجر الى المدينة المنورة وشهد بدرأ والمشاهد كلها الا تبوك لمرض فاطمه رضي الله عنها ، دعا له الرسول عندما وصل المدينة مهاجراً وعندما حمل لواء خيبر وعندما ارسله لليمن ، بويج بالخلافة سنة ٢٥ هـ بمسجد رسول الله قتله ابن ملجم بالكوفة لأحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان وقد ناهز الثالثة والستين من عمره . * أسد الغابة ١٦/٤ . * الإصابة ٥٠٧/٢ .
- (٥) - الخراج ليحيى بن آدم القرشي ص (٧٢ - ٧٤) ، والخراج لأبي يوسف ص (١٦)

خامساً - الميراث :

سبب كذلك من أسباب التملك، تتحقق فيه ملكية الوراثة بالنقل من المورث بعد وفاته (١) والأصل فيه قول الله تعالى :
(يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) (٢).

سادساً - العمل :

وهو عنصر أساسي من عناصر طرق الكسب التي أباحها الإسلام، فأوجب السعي لطلب الرزق، قال تعالى :
(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) (٢).

وقد قسم ابن خلدون طرق كسب المعاش إلى اثنين : فبين أن هناك طرقاً طبيعية للكسب، وطرقاً غير طبيعية.

فمن طرق الكسب الطبيعية: الفلاحة والتجارة والصناعة. يقول ابن خلدون (أما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي طرق طبيعية للمعاش) (٤).

وهناك طرق أخرى للتمليك كالهبة والوصية، وما يأخذ المحتاج من حقه من أموال الزكاة والصدقات وغيرها) (٥).

- (١) - أنظر كتاب أنيس الفقهاء للشيخ قاسم القونوي بتحقيق الدكتور أحمد الكبيسي. ص (٢٠٢ - ٢٠٤).
- (٢) - سورة النساء الآية (١١).
- (٣) - سورة المائدة الآية (١٥).
- (٤) - المقدمة لابن خلدون الفصل الخامس في وجوه المعاش وأصنافه ص ٢٦٢ وقد ذكر ابن خلدون طرقاً غير طبيعية للكسب منها: الإمارة وابتغاء الأموال من الدقائن والكنوز، والأشتغال بالسحر والتمويه بالكيماه نفس المرجع ص (٢٦٤).
- (٥) - الهبة: ما تنازل عنه المسلم عن طيب نفس لغيره دون مقابل، والوصية : هبة الإنسان غيره عيناً أو ديناً أو منفعة على أن يملك الموصى له الهبة بعد موت الموصي، وعرفها بعضهم بأنها تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع/ أنظر كتاب فقه السنة لسيد سابق ٢/ ٢٨٨، ٤١٤.

والمهم من كل هذا أن الإسلام يوفر حقوق الملكية للأفراد بحرية وبلاد حدود ما دامت لاتلحق ضرراً بأحد، وهي حقوق تكفل لصاحبها دوام المال معه بشكل حقيقي، وهذه الحقوق يحفظها الإسلام وينظمها ويحميها من الضرر .

الأمر الثاني : تقييد حق التملك :

تعتبر غريزة حب التملك من الغرائز الفطرية الثابتة التي فطر الله عباده عليها ، كما يعتبر السعي في طلب المال وحيازته والاستزادة على المعاش والرزق الضروري استجابة لغريزة حب التملك والإحتياز، وليس هناك من حد يقف عنده رغبته في طلب المزيد والمزيد ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((لو كان لابن آدم واديان من المال لأبنتى ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)) (١) . ويقول أيضاً صلى الله عليه وسلم: ((يهرم ابن آدم وتشب معه أشتان : الحرص على المال والحرص على العمر)) (٢) .

وشريعة الإسلام، وهي من رب العالمين، قد راعت فطر البشر وغرائزهم التي وضعها الله فيهم، فأقرت حرية التملك دون تقييدها بحد تنتهي إليه فلا تتجاوز، بل أباح للناس أن يملكوا ماشعوا من الأموال وأن يمضوا في تملكهم لها إلى حيث يشاؤون مالم يضر بالآخرين أو يجاوز بها الحدود إلى ما حرم الله (٣) . ولكن إقرار الإسلام لحرية التملك وعدم تحديده مقدار الملكية لا يعني بالضرورة خلو الأمر من قيود تفرض على الملكية وعلى المالك الفردي في تصرفه في ماله، لمنع الإستغلال والإحتكار والتحكم .

ومن هنا وضع الإسلام حول التملك قيوداً تحفظه من الفساد والانحراف . ذلك أن حقوق التملك أربعة: (٤) هي حق الدوام، وحق التصرف، وحق إمتلاك النوع، وحق حرية المقدار .

-
- (١) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الأمان/باب ما يتقى من فتنه المال ٨٤/٤ وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب كراهة الحرص على الدنيا ١٢٨/٧ .
 - (٢) - أخرجه مسلم في صحيحه /كتاب الزكاة/باب كراهة الحرص على الدنيا ١٢٨/٧ .
 - (٣) - الملكيه الفردية وتحديدها في الإسلام للشيخ علي الخفيف ص (٢١) .
 - (٤) - أنظر كتاب الدعوة الإسلامية للدكتور أحمد غلوش ص (٦٥ - ٦٩) .

١- فأما حق الدوام :
فقيده الإسلام بأن أوجب على الأغنياء أعباء مالية كثيرة يدفعونها
لمستحقيها .

منها: الزكاة المفروضة، حيث ألزم المالك دفع زكاة ماله إذا زاد ما يملكه المالك
الفردى عن مقدار معين من المال، لأنها كما صرح القرآن الكريم حق للفقير، حيث قال:
(والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)) (١) .

ومنها: الصدقات الواجبه والنافله والضرائب التي يفرضها ولي الأمر عند الحاجة إليها

ومنها: الكفارات التي يدفعها المسلمون من أموالهم دفعاً لإثم بعض الأخطاء التي يتعمون فيها .

ومنها: نظام الميراث الذي يوزع المال توزيعاً عادلاً على أقارب الميت رجالاً ونساءً
ويمنع عدم دوامه وتكديسه في يد واحد .

٢- وأما حق حرية التصرف :
إيجاباً أو سلباً فقد قيده الإسلام بما يكفل عدم الإضرار بحقوق
الآخرين .

من ذلك: الحجر على السفه والصبى والمجنون لأنهم يتلفون ثروتهم
ويسئون التصرف فيضرون أنفسهم وغيرهم، إما لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم أو لسوء
تدبيرهم .

يقول الله تعالى: ((ولاتؤتوا السفه أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها
واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً)) (٢) .

فالآية نهت المسلمين أن يطلقوا أيدي السفه في الأموال يبعثونها ولا يحسنون
التصرف فيها ، وفيها إشارتان بليفتان إلى حث المسلمين على المحافظه على أموال
السفه وصيانتها من إسرافهم وتبذيرهم :

الأولى: في قوله تعالى: ((أموالكم)) فلم يقل الله تعالى: ولاتؤتوا السفه
أموالهم بل قال: ((ولاتؤتوا السفه أموالكم)) ليفت أنظار المسلمين إلى أن مال
السفيه هو في الوقت نفسه مال الأمة، فيجب المحافظه عليه وعدم إعطائه للسفيه .

(١) - سورة المارج الآيتان (٢٤ - ٢٥) .

(٢) - سورة النساء الآية (٥) .

الثانية : في قوله تعالى: ((التي جعل الله لكم قياماً)) أي أن الأموال جعلها الله لتقوم بها معاشكم وتبنى عليها مصالحكم ، فهي قوام وعماد الحياة الاقتصادية، ففي تضييع السفيه لها تضييع لهذا العماد الذي هو قوام الحياة (١) .

فالسفيه إذا بدد ماله وأنفقته على الفساد فكانما بدد مال الأمة جميعاً ، وعرض حياته وحياة مجتمعه للخطر والفقر .

لذلك يجب رفع أمر هؤلاء إلى الحكام ليحجروا عليهم ويمطوهم من أموالهم قدر حاجتهم ، فليس لأحد أن يقول : المال مالي أتصرف به كما أشاء ، فالمال مال الكل ينتفعون به في الطرق المشروعة حتى إذا أخل أحد بذلك فأسرف وبذر أو احتكر حُجر عليه .

أيضاً من قيود حرية التصرف : تحريم طرق الكسب غير المشروع لأنها تعتمد على الفسح واستغلال الناس وابتزاز أموالهم بالباطل . فحرم الربا بجميع أنواعه، لأن الربا يمثل كسب دون عمل يذكر، واستغلال حاجة المحتاجين والفقراء، ويقتل كل مشاعر الثقة في الإنسان، فالمرابي لا يتردد في تجريد المدين من أمواله إذا كان في ذلك إضاعة قرش واحد إلى الوفاء.

لذلك ورد النص الكريم بتحريم الربا في قوله تعالى ((الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) (٢) .

(١) - أنظر تفسير الفخر الرازي ١٩٠/٩ - ١٩١ .

(٢) - سورة البقرة الآية (٢٧٥) .

ومنها: تحريم التطفيف في الكيل والميزان وذلك حفظاً لأموال الأفراد ونيل حقوقهم .

يقول الله تعالى: ((ويل للمطففين الذين إذا أكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين)) (١) .
وقال تعالى: ((وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)) (٢) . ويقول صلى الله عليه وسلم: ((الييمان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما)) (٣) .

ومنها: تحريم الاحتكار منعاً للتحكم في أسعار الضرورات التي يفتقر إليها الناس في حياتهم .

وهناك العديد من الأحاديث الصحيحة المشهورة الدالة على ذلك التحريم .
منها قوله صلى الله عليه وسلم: ((من أحتكر فهو خاطئ)) (٤) .
وقوله صلى الله عليه وسلم: ((الجالب مرزوق والمحتكر ملعون)) (٥) .

(وحكمة تحريم الاحتكار تكمن في المصرة الشديدة التي تلحق بالناس ، وأن الكسب بالاحتكار فيه معنى الكسب بالانتظار وهو محرم) (٦) .

- (١) - سورة المطففين الآيات (١ - ٦) .
- (٢) - سورة الرحمن الآية (٩) .
- (٣) - رواء مسلم في صحيحه / كتاب البيوع/باب ثبوت خيار المجلس للمتابعين ١٧٦/١٠ .
- (٤) - رواء مسلم في صحيحه/كتاب المساقاة/باب تحريم الاحتكار في الأقوات ٤٢/١١ .
- (٥) - رواء ابن ماجة في كتاب التجارات/باب الحكرة والجلب ٧٢٨/٢ .
والدارمي في /كتاب البيوع باب النهي عن الاحتكار ٢٤٩/٢ .
- (٦) - المجتمع الإسلامي للشيخ أبو زهرة ص(٦٢ - ٦٤) .
ومؤدى الكسب عن طريق الانتظار : أن يدفع المال لأجل معلوم في مقابل أن تؤدى في نظير الأجل فائدة للدافع ، وهذه الفائدة زيادة على أصل المبلغ المدفوع وهي ربا ، والربا محرم في الإسلام / نفس المرجع السابق ص(٤٢) .

ومنها: النهي عن الإسراف والتقتير:

قيد الإسلام حرية تصرف المالك بالكف عن الإسراف والتقتير، وذلك حفظاً لأموال الناس من أن تنفق في غير مواضعها، أو أن تمنع عن مواضعها فالإسراف يودي صاحبه فيؤدي به إلى الإفلاس .

والقرآن الكريم قد شبه المسرفين بالشياطين الذين يعملون على اضلال الناس ويعيشون في الأرض فساداً، قال تعالى :
(ولاتبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً)) (١).

فالمبذرين يفسدون نظام معيشتهم بإسرافهم ، ويكفرون بالنعمة التي ينبغي حفظها ووضعها في موضعها وذلك بالاعتدال في الإنفاق .

وقد جاء الإسلام وسطاً ، محققاً للأمال ، ناهياً عن الإسراف والتقتير ، قال الله تعالى : ((ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً)) (٢).
وهكذا قيد الإسلام حق حرية تصرف المالك في ماله بما يضمن حفظ حقوق الآخرين وعدم إلحاق الضرر بهم .

٢- وأما حق حرية امتلاك النوع :

فقد قيد الإسلام بما يكفل المصلحة للآخرين .
فمشأد: ليس من حق المالك أن يملك ما يحتاج إليه الجميع بشكل ضروري ، وذلك كالمرافق العامة والماء .
يقول عليه أفضل الصلاة والسلام: ((المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكفا والنار)) (٢).

- (١) - سورة الإسراء الآيتان (٢٦ - ٢٧) .
- (٢) - سورة الإسراء الآية (٢٩) .
- (٣) - أخرجه ابن ماجة /كتاب الرهون/باب المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكفا . وأخرجه أبو داود في كتاب البيوع/باب في منع الماء ٢٧٢/٢ .
والحديث سكت عنه المنذري /مختصر سنن أبي داود ١٢٢/٥ .

وذكر هذه الأمور الثلاثة في الحديث للتمثيل وليس للحصر، فيقاس عليها كل ضرورة إجتماعية يحتاج إليها الناس كالمرافق العامة، لأن الأفراد لو تملكوها لتحقق ضرر أكيد. يقول الإمام الشافعي (١) (كل عين ظاهرة كنفط أوقار أو كبريت أو مومياء أو حجارة ظاهرة في غير ملك لأحد فليس لأحد أن يحتجرها دون غيره ولا لسلطان أن يمنعها لنفسه ولا لخاص من الناس لأن هذا كله ظاهر كالماء والكافور ولو تحجر رجل لنفسه من هذا شيئاً أو منعه منه سلطان كان ظالماً) (٢).

وفي شرح أبي عبيد (٣) لمعنى أن الكافور شركة بين الناس يقول: ((وذلك أن ينزل القوم في أسفارهم وبواديهم من الأرض، فيها النبات الذي أخرجه الله للأمنع مما لم ينصب فيه أحد بحرث، ولا غرس، ولا سقي، فليس لأحد أن يحتظر منه شيئاً دون غيره، ولكن ترعاه أعمامهم ومواسيهم، ودوابهم معاً) (٤).

(وفي شركة الماء ذكروا إباحة الأنهار الطبيعية، والعيون ونحوها، والبياء المجتمعة من الأمطار في أرض مباحة، فكل أحد أن يسقي منها ماشاء متى شاء، وليس أحد أحق بها من أحد) (٥).

وواضح أنها شركة قائمة على أن الحاجة إلى الماء عامة، إذ تتعلق به حياة الإنسان والحيوان، والنبات ..

وفي شركة النار في الحديث المذكور، قالوا: (إن المراد بالنار الحطب، وأضافوا إلى الحطب الحجارة التي تندح منها النار، والفحم الحجري والنفط وكل مادة صالحة أو قابلة للوقود والاشتعال، وكلها لها وصف الملكية العامة، فليس أحد أحق بشمها من أحد) (٦).

(١) - الإمام الشافعي: (١٥٠-٢٠٤) هـ :

محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي القرشي المطلبلي أبو عبد الله ولد بمصر بفسطين، رحل إلى مكة وهو ابن ستين زار بغداد مرتين وأستقر بمصر كان ذا ذكاء مفرط ورعي حاذق شاعراً أديباً عارفاً بالفقه والقراءات أفتى وهو ابن عشرين سنة وإليه تنسب الشافعية .
* تذكرة الحفاظ ٢٩٢/١ - * تهذيب التهذيب ٢٥/٩ . طبقات الشافعية ١/١٨٥ .

(٢) - الأثر للشافعي ٤٥/٢ .

(٣) - أبو عبيد (١٥٧-٢٢٤ هـ) : القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزازي الخراساني البغدادي ، من كبار علماء الحديث والفقه والأدب ولي قضاء طرسوس ، رحل إلى مصر ومكة وبها وفاته ، وهو أول من صنف في غريب القرآن .
* وفيات الأعيان ٦٠/٤ - * طبقات الشافعية ١٥٢/٢ * تهذيب التهذيب ٢١٥/٨ .

(٤) - كتاب الأموال لأبي عبيد ص (٩٧) .

(٥) - أنظر كتاب الثروة في ظل الإسلام للدكتور البهي الخولي ص (٩٥) .

(٦) - نفس المرجع السابق ص (٩٧ - ٩٨) .

٤- وأما حق حرية المقدار المتملك، فإن الإسلام لا يمنعه إلا إذا كان في طريق اكتسابه شبهة ، فعندئذ يقضي الإسلام بمصادرته.

مشأد : في الإهداء الى الأمراء وولاة الأمور شبهة، إذ قد تكون الهدية لإنشاء رابطة بين الفرد والوالي مقصود بها محاباة الوالي لصاحب الهدايا فيما يمكن أن ينشأ من خصوماته ومطالبه .

أخرج مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
(يا أيها الناس، من عمل منكم لنا على عمل فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه فهو غل يأتي به يوم القيامة ، ققام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله : أقبل عني عملك، أي أقلني منه، قال: وما ذاك؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: وأنا أقول ذلك، من استعملناه على عمل فليات بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذه، وما نهى عنه انتهى) (١).

وحدث أن استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزديين يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم بها قال : هذا لكم وهذا أهدي لي، ققام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال: ما بال عامل أبعته فيقول : هذا لكم وهذا أهدي الي، أفلا تعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا)) (٢).

وقد صادر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أموال عمرو بن العاص (٢) رضي الله عنه وهو في مصر وكتب له:

- (١) - أخرجه أبو داود/كتاب الأفضية/باب في هدايا العمال ٢٩٤، ٢٩٤/٢ ، وأخرجه أحمد في مسنده ١٩٢/٤، وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ/من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة.
كتاب الإمارة / باب في تحريم هدايا العمال ٢٢٢/١٢ .
- (٢) - رواه مسلم في صحيحه / كتاب الإمارة / باب تحريم هدايا العمال ٢١٩/١٢ .
- (٢) - عمرو بن العاص:

هو أبو محمد عمرو بن العاص الصحابي القرشي أحد سادة قريش في الجاهلية، أسلم يوم الهدنة وهاجر، ثم ولي الإمرة في غزوة الشام لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم افتتح مصر ووليها لعمر بن الخطاب ثم لماوية، كان صاحب دهاء وخبرة توفي سنة (٤٤٢ هـ) بمصر.

(ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال ولم تعدموا
عذراً وإنما تاكلون النار وتتمجلون العار وقد جمعت إليك محمد بن
مسلمة (١) فسلم إليه شطر مالك) (٢)
ولكن إذا أكتسب صاحب المال ماله بلا شبهه وأدى الحق الذي عليه فإن
حرية المقار لا تتقيد.

أيضاً قيود المقدار لا يصح أن تكون دائمة وعامة لإرتباطها بمصلحة الجماعة
ومصلحة الجماعة غير ثابتة .

الأمر الثالث - ربط المال بوظائفه المحددة:

وجه القرآن الكريم نظير الإنسان الى أن المال هو ملك لله ، وأن الإنسان
مستخلف عنه في الإشراف عليه ، فلا يجعل به أن يعصي ربه فيما أستودعه إياه .
يقول الله تعالى: ((ولله ملك السموات والأرض)) (٢) .
ويقول تعالى: ((وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)) (٤) .
وقوله تعالى: ((وآتوهم من مال الله الذي آتاكم)) (٥) .

ومن وظائف المال التي أشار إليها الشرع وعرف بها وحدد طرق صرفها
وإنفاقها على مستحقيها من أفراد المجتمع :

الزكاة: التي جعلها الله تعالى أحد أركان الإسلام وأشار الى أنها حق الفقراء على
الأغنياء، وقضى بأن تم سائر المال سواء أكان نقداً أم عقاراً أم ذهباً أم تجارة، وقضى
أن تم عدداً وقيماً من المحتاجين المحددين في كتاب الله في قوله تعالى:

(١) - محمد بن مسلمة (٠٠٠ - ٤٦ هـ) :

هو محمد بن مسلمة الخزرجي الأنصاري الدوسي ، يكنى ابا عبد الرحمن شهد
بدرأ ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبوك
استخلفه الرسول (ص) على المدينة المنورة في بعض غزواته أحد الذين قتلوا
كعب بن الأشرف ، أستعمله عمر على صدقات جهينة أعتزل الفتنة بعد
مقتل عثمان بن عفان وأخذ سيفاً من خشب وتوفي بالمدينة المنورة .
* أسد الغابة ٤ / ٢٢٠ . * الإصاابة ٢ / ٢٨٢ .

(٢) - تاريخ الطبري ١٦٦ / ٢ .

(٣) - سورة آل عمران الآية (١٨٩) .

(٤) - سورة الحديد الآية (٧) .

(٥) - سورة النور الآية (٢٢) .

((انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغازمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)) (١) .
والزكاة حين يصرفها المسلم في تلك المرافق إنما تؤدي وظيفة اجتماعية كبرى، بحيث تسيّر آثارها من تبيين من تصرف فيهم، حيث أناط الله بالدولة وعلى رأسها ولي الأمر أن تكون الزكاة وسيطة في إعادة التوزيع، وهي بذلك إنما تؤدي وظيفتها الاجتماعية التي فرضتها وحددتها وفصلتها الشريعة الإسلامية، بل جعلتها الوظيفة الأولى لجهازها المالي والإداري.

فتقوم الدولة بموجب تلك الوظيفة باقتطاع جزء من مال الأغنياء لترده على الفقراء، فكان إعادة التوزيع لأغراض اجتماعية كسد خلة المحتاجين والفقراء (٢) .

ومن وظائفه أيضاً: الإنفاق في سبيل الله :

وهو يشمل كل ما ينفق لإعلاء كلمة الإسلام والدفاع عنه ، ونشره بين الناس، وإقامة أحكامه، وما يوصل إلى مرضاة الله، وهو ما كان نفعه عاماً: كإزالة الجهل ونشر العلم، ومساعدة الضعفاء، وترقية الصناعات، وكل ما يرفع مستوى المسلمين من كافة النواحي (٢) .

والآيات القرآنية التي دعت للإنفاق في سبيل الله كثيرة:

منها قوله تعالى:

((مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من قبل ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)) (٤) .

ومن وظائفه كذلك : دفع الضرائب التي يقدرها الحاكم المسلم تبعاً للحاجة، وذلك مشروع، يقول الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام :

(١) - سورة التوبة الآية (٦٠) .

(٢) - أنظر كتاب حقوق الإنسان وحياته الأساسيه للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٤٢٦) .

(٣) - أنظر كتاب روح الدين الإسلامي لعفيف طبارة ص (٢٢٨) .

(٤) - سورة البقرة الآيات (٢٦١، ٢٦٢) .

(إنا إذا قررنا إماماً مطاعاً معتقراً الى تكثير الجنود وسد الثغور وحماية الملك المتسع الأقطار وخلا بيت المال ، وارتفعت حاجات الجند الى مالا يكفيهم فلإمام - إذا كان عدلاً - أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال، الى أن يظهر مال بيت المال ، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمرات وغير ذلك، فإنه لو لم يفعل الإمام ذلك النظام بطلت شوكة الإسلام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار .

فإذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق لهم بأخذ البعض من أموالهم فلا يتمارى في ترجيح الثاني على الأول وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر في الشواهد) (١) .

ويقول المز بن عبد السلام (٢) في كتابه (القواعد) :
(المصلحة العامة كالضرورة الخاصة، لو دعت ضرورة واحد الى غصب أموال الناس لجاز له ذلك، بل يجب عليه إذا خاف الهلاك لجوع أو حر أو برد وإذا وجب هذا لإحياء نفس واحدة، فما الظن بإحياء النفوس، بل إقامة هؤلاء أرجح من دفع الضرورة عن واحد) (٣) .

وربط المال بهذه الوظائف وغيرها مما حددته الشريعة يطهر المال من الشح والفي وينقيه من الحسد والكراهية ويساعد على حفظه ونمائه .

الأمر الرابع - تحريم العدوان على المال :

المال عصب الحياة ، وزينة الدنيا ، وأساس قيمة الأفراد والأمم . وحب تملكه - كما رأينا - غريزة بشرية، وهو - كما يقولون - عديل الروح، ويقول الله تعالى عن الإنسان: ((وإنه لحب الخير لشديد)) (٤) .
وقوله تعالى: ((وتحبون المال حباً جماً)) (٥) .
وهو لا يأتي لصاحبه هباءً، وإنما لا بد له من سعي وكفاح لتحصيله بالطرق المشروعة وتملكه حالاً طيباً .

(١) - الإغنصام للشاطبي ١٢/٢ .

(٢) - المز بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠ هـ) :

عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الملقب بسطان العلماء ، ولد ونشأ بدمشق فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد ، خطيب المسجد الأموي، درس في زاوية الغزالي ، ولي القضاء ثم عزل ورحل إلى مصر وتوفي بالقاهرة ، من تصانيفه ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام .

* طبقات الشافعية ٢٠٩/٨ . * طبقات المفسرين ٢٠٨/١ .

(٢) - القواعد للمز بن عبد السلام ١٦٢/٢ .

(٤) - سورة العاديات الآية (٨) .

(٥) - سورة الفجر الآية (٢٠) .

ولكن في أحيان كثيرة قد يدفع حب المال الشديد بصاحبه إلى أن ينحرف عن الطريق السوي في تحصيله وإقتنائه ، فيرتكب المحرمات التي تضر بالمجتمع وتعود عليه بالسوء والفساد .

نذلك كان شيئاً أساسياً أن يحفظ الإسلام على الإنسان ماله ويحويه من الضياع والزوال ، ومن هنا حرم الإسلام الاعتداء على أموال الفيروذلك :

= بتحريم السرقة: يقول الله تعالى: ((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم)) (١) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((لئن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده)) (٢) .

يقول ابن حجر (٣) :
(لئن الله السارق) :يحتمل أن يكون خبراً ليرتدع من سمعه عن السرقة، ويحتمل أن يكون دعاء (٤) .

= وبتحريم الفصب :
يقول صلى الله عليه وسلم: ((من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين)) (٥) .

يقول ابن حجر : (وفي الحديث تحريم الظلم والفصب وتقليظ عقوبته) (٦) .

- (١) - سورة المائدة الآية (٢٨) .
- (٢) - رواء البخاري في صحيحه في /كتاب الحدود/
باب لئن السارق إذا لم يسم ١٢١/٤ - ١٢٢ .
- (٣) - ابن حجر العسقلاني (٧٧٢-٨٥٢ هـ) :
أبو الفضل ، أحمد بن علي بن الكناني العسقلاني ، أصله من عسقلان بفلسطين مولده ووفاته بالقاهرة ، ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ، ورحل إلى اليمن والحجاز لسماع الشيوخ ، محدث حافظ الإسلام في عصره ، ولي قضاء مصر مرات - فصيح اللسان - عارف بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين * الأعلام ١٧٨/١ . الضوء اللامع ٢/٢٦ . * الدرر الكامنه ٤٩٢/٤ .
- (٤) - فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨١/١٢ .
- (٥) - رواء البخاري في صحيحه/كتاب المظالم/باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض ٤٦/٢ .
- (٦) - فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨١/١٢ .

وقوله صلى الله عليه وسلم ((من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان)) (١).

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((لا يحل لمسلم أن يأخذ عصاً بغير طيب نفس منه، قال ذلك لشدة ما حرم الله من مال المسلم على المسلم)) (٢).

= وبتحريم المحاربة:

وتسمى أيضاً قطع الطريق، وهي خروج طائفة مسلحة في دار الإسلام لإحداث الفوضى، وسفك الدماء، وسلب الأموال، وهتك الأعراض، وإهلاك الحرث والنسل (٢).
يقول الله تعالى:

((انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله عفور رحيم)) (٤).

وبهذا النظام الفريد حفظت الشريعة الإسلامية المال - وقائياً - كمقصد ضروري .

(١) - رواه الإمام أحمد في مسنده تحت رقم ٢٩٤٦، وأخرجه البخاري في صحيحه

/كتاب المساقاة باب الخصومة ٢٤/٢ بلفظ (من حلف على يمين يقتطع بها مال

امرئ هو عليها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان)، وأخرجه مسلم في صحيحه/كتاب

الأيمان/ باب وعيد من اقتطع من مسلم اليمين فاجرة ١٥٨/٢ بلفظ (من حلف

على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر)

(٢) - رواه ابن حبان في صحيحه ٥٨٧/٧، الحديث رقم (٥٩٤٦).

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٢٥/٥ بلفظ لا يحل للرجل أن يأخذ عصا أخيه

بغير طيب نفسه .

قال أحمد البنا: قال عبد الله بن الإمام أحمد رحمه الله:

إن أباه دوى الحديث من طريقه: فرواه باللفظ الأول من طريق أبي

سعيد مولى بني هاشم عن سليمان بن بلال . الخ؛

ورواه باللفظ الثاني من طريق عبيد بن أبي قررة عن سليمان بن

بلال به .

وأخرج اللفظ الثاني منه البيهقي في السنن الكبرى،

وابن حبان في صحيحه، وأورده الهيثمي باللفظين الأول والثاني

وقال رواد أحمد والبخاري والبيهقي . /الفتح الرباني ١٥/١٤٢ .

(٢) - فقه السنة للسيد سابق ٢٩٢/٢ .

(٤) - سورة المائدة الآيتان (٢٢ - ٢٤) .

٥- أما بالنسبة للعقل :

وهو من أعظم النعم الالهية على الإنسان التي تميزه عن سائر المخلوقات به يفكر ويفهم ويدرك ويتصور ، فقد عننت به الشريعة الإسلامية ، فأعطته قدره وأحاطته بما يوفر له القيام بمهامه وظائفه ، وذلك على النحو التالي :

أولاً- جعلته مناط التكليف والخطاب:

يعظم القرآن الكريم من شأن العقل وهو وسيلة التفكير ، ويشق به ثقة تامة ، حيث وجه الدعوة إليه، وخاطبه بالتكليف وأبرز له الأداة الموصلة إلى الحق، وجعل العقيدة الصحيحة في الإسلام هي التي انبنت على اليقين والإقناع العقلي لا التقليد والاتباع، وإهماله التفكير والنظر الحر . (١).

وفريضة التفكير في القرآن تشمل أعمال العقل البشري بكل وظائفه: يقول الله تبارك وتعالى: ((قل أنظروا ماذا في السموات والأرض، وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)) (٢).

ويقول سبحانه: ((ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من في السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيماكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون)) (٣).

وقوله سبحانه: ((أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)) (٤).

-
- (١) - أنظر كتاب حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص(٢٢٢) ، وكتاب الدعوة الإسلامية للدكتور أحمد غلوش ص (٧٢).
- (٢) - سورة يونس الآية (١٠١).
- (٣) - سورة الروم الآيات (٢٥-٢٨).
- (٤) - سورة الأعراف الآية (١٨٥).

فدعوة الناس إلى العقيدة بدأها الحق سبحانه بدعوة أعمال العقل والفكر كما بين تعالى أن السبيل إلى اليقين إنما يكون بأعمال الفكر ، وإعتماد الدليل العقلي .

يقول سبحانه حكاية عن قصة سيدنا إبراهيم والمخاطبة العقلية التي ردها مع نفسه : ((وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السوات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لأحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم اني بري مما تشركون)) (١)

قاله سبحانه قد خص الانسان بالعقل ويميزه بالفكر، وشرفه بهما، وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وأهاب بالناس أن يجعلوا الأصل في عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلي والمنطق العلمي السليم ، ودعا إلى النظر والتفكير قبل القبول والخضوع ، ولذلك حث الله عباده على رفض ما لا يؤيده عقل أو علم ، ولايقوم على تعزيره دليل صحيح .

(١) - سورة الأنعام الآيات (٧٥-٧٨) .

ثانياً - أعطته الحرية في التفكير والتعبير :

يصون الإسلام حرية العقل حتى يقوم بوظائفه حسب طاقته بلا قهر له أو إجبار.

(ويتصد بحرية التفكير والتعبير أن يكون للإنسان الحق في أن يفكر تفكيراً مستقلاً في جميع مايكتنفه من شؤون ومايقع تحت إدراكه من ظواهر، وأن يأخذ بمايهديه إليه فهمه ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير) (١).

وقد أقر الإسلام هذا الحق وكفله لجميع الأفراد في أوسع نطاق، في عقيدته، وفي كل حياته، وقرره على نوعين:

- . الأول - الحرية في الأمور الدينية .
- . الثاني - الحرية في الأمور الدنيوية .

فبالنسبة للنوع الأول :

فقد ضمن له الإسلام الحرية الدينية في أربعة مبادئ هي أسمى مايمكن أن يصل إليه التشريع في الأديان والمعتقدات :

المبدأ الأول:

أنه لايرغم أحداً على ترك دينه واعتناق الإسلام، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)) (٢) .
فلا بد أن يزول كل إكراه في تثبيت العقيدة، نفياً لكل قهر أو عنف بشتى مظاهرها، لأن العنف والتهم والإكراه أمور لاتقرعقيدة فساداً عن أن تفرسها في نفوس الناس .
ولو كان الإسلام يعتمد العنف والتهم والإكراه لترسيخ عقيدته في النفوس ، فلن يكون هنالك أقوى ولاأغلب ولاأقهر من الله سبحانه، ذلك لو شاء أن يكره الناس على عقيدته، وليس في مقدور أحد من خلقه أن يمتنع أو يستنكف عن ذلك (٢) .

-
- (١) - حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص (٢٢٩)
 - (٢) - سورة البقرة الآية (٢٥٦) .
 - (٢) - حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٤٩٨)

قال تعالى: ((ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)) (١).

(وليس هناك من سبب يبرر لشخص ما أن يعتقد أو يزعم أن الأساليب الإسلامية حَمَل الناس على الإيمان بها عن طريق السيف والقتال، أو عن طريق الإكراه والعنف والإلزام ، ذلك لأنه ليس في طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والغموض والمشقة العقلية ما يحتاج إلى إكراه جلي - كالقوة المادية - أو خفي) (٢).

إلى جانب أن العقيدة الإسلامية لاتخالف الفطرة البشرية أو سنن الله الكونية، ولذا كان تقبلها سهلاً ميسوراً ولا حاجة بها إلى إكراه. فرسالة هذه طبيعتها - إلى جانب عدم إحترامها لإيمان المكروه إن وقع (٢) لا يمكن أن تكون شريعة تدعو إلى إكراه الناس على إتباعها وتلك نتيجة يعرفها الناس من القرآن نفسه، والإيمان بها جزء من الإيمان بالقرآن.

يقول الشهيد سيد قطب في قوله تعالى: ((لا إكراه في الدين)): (إن قضية العقيدة قضية إقتناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغضب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة، يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه، في غير قهده حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها إلى الإذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعمقها لأنها فوق الوعي والإدراك.

(١) - سورة يونس الآية (٩٩).

(٢) - الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب للشيخ محمود شلتوت ص ١٤-١٥ ، والإكراه الخفي كفرض الخوارق الحسية التي تخضع لها الأعناق وتذل ، ومن ذلك المعجزات المباشرة التي تلهي الأبصار أو تحير الحواس، أوتدهش المشاعر/رسالة التحيد للشيخ محمد عبده ص(١١٠).

(٢) - ذلك أن اشتراط الحرية في صحة الإسلام أمر معلوم من الدين بالضرورة، وقد إنعقد الإجماع عليه وهو لا يمكن النزاع فيه/حرية الفكر في الإسلام عبد المتعال الصعيدي ص (٦١-٦٢).

وإذا كان هذا الدين لا يواجهه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا إقتناع.

وكانت المسيحية -آخر الديانات قبل الإسلام- قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب واتمعت التي زاوتها الدولة الرمضانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية. بنفس الوحشية والقسوة التي زواتها الدولة الدومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية إقتناعاً وحسباً، ولم تقتصر وسائل القمع والتهمر على الذين لم يدخلوا في المسيحية، بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة، وخالفوها في بعض الإعتقاد بطبيعة المسيح.

فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن -في أول ما يعلن- هذا المبدأ العظيم:
(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، وإحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الإعتقاد، وتحميلة تبعه عمله وحساب تبعته.

وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني (١).

المبدأ الثاني - حرية المناقشات الدينية:

قرر الإسلام لأفراده حرية المناقشة، وقرآن الوصول إلى حرية الإعتقاد إنما يتأتي بأعمال العقل والفكر، وذلك يستتبع بشكل تلقائي ضرورة تبادل الرأي وحرية المناقشة، لتقارع الحجة بالحجة والرأي بالرأي، وصولاً إلى الحقيقة.

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١/٢٩١.

ولذلك يرشد الله تعالى عباده إلى التزام جادة العقل والمنطق في المناقشة..

وقد بين القرآن الكريم أن ذلك كان سبيل الأنبياء والرسل جميعاً في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، ونبذ عبودية المخلوق دون الخالق .
ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ومناقشته للذي حاجه في ربه، قال تعالى :

((ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر)) (١)

(فأنحم سيدنا إبراهيم بالحجة عدو الله النمرود وأقمه الحجر) (٢) .

ومنه قوله تعالى: ((فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، قتل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين)) (٣) .

وقوله تعالى: ((قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟)) (٤) .

وقوله تعالى: ((قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما اعتدي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين)) (٥) .

وهكذا فهذا أسلوب القرآن الكريم في تقرير المناقشات الدينية، ليكون هداية ونبراساً لتقرير هذا المبدأ بين المسلمين من جهة، وبينهم وبين أهل الأديان الأخرى .

-
- (١) - سورة البقرة الآية (٢٥٨) .
 - (٢) - أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة للشيخ محمد الشنقبطي ٨٠/١ .
 - (٣) - سورة آل عمران الآية (٦١) .
 - (٤) - سورة الأنعام الآية (١٤٨) .
 - (٥) - سورة الأنعام الآيتان (٥٦-٥٧) .

فيقول تعالى: ((أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)) (١).

كما يقول تعالى مخاطباً أهل الأديان الأخرى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)) (٢).

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تفرسوا على حرية المناقشة الدينية فيما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي حادثة الحديبية والصلح الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش الدليل على ذلك، حيث كان بعض الصحابة يرون أن في بعض شروط الصلح غبناً في حق الإسلام والدعوة إليه، وكانوا قد اشتكوا من الشرط الثاني والثالث ونصهما:

((أن يرد الرسول صلى الله عليه وسلم من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه)

(وأن لا يلتزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد صلى الله عليه وسلم، فعز ذلك كثيراً على الصحابة رضوان الله عليهم، وخصوصاً عندما جاءهم أبو جندل سهيل بن عمرو (٣)، من عند قريش وهو في أغلاله بعد أن وقع النبي صلى الله عليه وسلم الصلح فرداه إلى قريش وفاءً بعهده لها، وقال صلى الله عليه وسلم وهو يرد أبا جندل:

(١) - سورة النحل الآية (١٢٥).

(٢) - سورة البقرة الآية (١١١).

(٤) - أبو جندل :

أبو جندل بن سهيل بن عمرو العامري، قال الزبير: إسم أبي جندل بن سهيل (العاصي) أسلم بمكة وكان من السابقين إلى الإسلام، ومن عذب بسبب إسلامه، سجنه أبوه وقيدته يوم أن أسلم، فلما كان يوم الحديبية هرب أبو جندل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، إستشهد باليامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

انظر: أسد الغابة لابن الأثير ١٦١/٥، ١٦٢، الإصابة ٢٤/٤.

(ياأبا جندل إصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ولا نفدر به) فتارت نفوس المسلمين، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً (أست رسول الله؟ قال: بلى، قال: أولستنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً)) (١).

وهناك أمثلة كثيرة غير هذه، وكلها تبين كيف كان أسلوب الصحابة والخلفاء رضوان الله عليهم في ممارسة حق المناقشة الدينية مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع عامة الناس .

ومنها نرى كيف أن المناقشة الدينية لحرية تؤدي بأصحابها للوصول إلى الحقائق واختيارها بحرية واقتناع وفهم، وليس هناك ما يمنع من ممارسة هذه الحرية والتمتع بهذا الحق، إلا إذا أدت المناقشة الدينية إلى محظور، كإثارة شقاق أو خلاف أو خروج عن الدين، كان يتصدى للأمر جاهل فيفسد على الناس دينهم، فلا بد حينئذٍ من وضع حد لمثل ذلك الوضع مقدراً بقدره (٢).

المبدأ الثالث - إباحة الاجتهاد (٢) في فروع الشريعة لكل قادر عليه:

تعتبر حركة الاجتهاد التي واكبت تاريخ الإسلام منذ زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى يومنا هذا من أصدق الأدلة على إقرار الإسلام لحرية العلم، كما يدل على اهتمام المسلمين على كل صعيد وقبيل حكاماً ومحكومين بكفالة تلك الحرية وصيانتها .

(١) - سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروفة (بسيرة ابن هشام

(٢/٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٢) وكتاب عمر بن الخطاب للدكتور سليمان الطماوي ص ١١٩

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٢٥/٤، والبداية والنهاية ١٦٩/٤ .

وأخرجه البخاري في صحيحه/باب سورة الفتح/باب قوله تعالى (ييايعونك

تحت الشجرة ١٢٦/٢ . بلفظ: ألت رسول الله؟ فعلام نعطي الدنيا في ديننا .

(٢) - أنظر كتاب حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص

(٣) - الاجتهاد في الأصل : اقتعال من الجهد - بضم الجيم وفتحها - وهو الطاقة ،

فيطلق ويراد به في اللغة بذل المجهود وإستفراغ الوسع في فعل من

الأفعال الشاقة وفي الإصطلاح : أن يبذل القفيه تمام طاقته لإدراك حكم

الشرع في الحادثة (إمتاع العقول بروضة الرسول للشخ عبد القادر

شبية ص (١٩٢) .

وقد ظهر الاجتهاد في الأمور الشرعية منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قول معاذ (١) رضي الله عنه حينما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال: (أجتهد رأيي) (٢) واقرار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .
كما يدل عليه تفويضه صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ (٢) في بني قريظة - قضى فيهم بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم - فقال عليه الصلاة والسلام: (قضيت فيهم بحكم الله) (٤) .
وهذا يمثل اجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم زمن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) .
ولقد ثبت اجتهاده صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل فيه وحي، بدليل قوله تعالى: ((ما كان نبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض)) (٦) .

- (١) - معاذ بن جبل (٥١٨، ٥٠٠هـ) : هو معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن أسلم وعمره ثمانية عشر سنة شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد كلها أرسله المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى اليمن قال عنه المصطفى أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وكان أحد المفتين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإمام العلماء يوم القيامة توفي في طاعون عمواس وعمره ثمان وثلاثين سنة . * أسد الغابة ٢٧٦/٤ . * الإصابة ٤٢٦/٢ .
- (٢) - أخرجه الترمذي في سننه/كتاب الأحكام/باب ماجاء في القاضي يقضي ٦٠٧/٢ . وقال الترمذي: هذا حديث رواه لانعرفه إلا من هذا الوجه وليس من إسناده عندي بمتصل، /تحفة الأحوزي ٥٥٧/٤ .
- وأخرجه أبو داود في سننه كتاب الأقضية/باب اجتهاد الرأي في القضاء ٢٩٧/٢
- (٣) - سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري الاوسي ، أسلم على يد مصعب بن عمير بالمدينة المنورة ، شهد بدرأً وأحداً وأصيب بسهم يوم الخندق ومرض في المسجد النبوي في خيمة رفيدة الأسمية، انفجر جرحه بعد حكمه على بني قريظة بقتل مقاتله وسبي الذرية وقسمت الأموال وجعلت الدماء تسيل على المصطفى عندما احتضنه أهنز عرش الرحمن لموته ، وحضر جنازته سبعون ألف ملك صاحب القولة المشهورة يوم بدر (فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا أحد .
- * أسد الغابة ٢٩٦/٢ . * الإصابة ٢٧/٢ .
- (٤) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب المعازي/باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ٢٤/٢ .
- (٥) - وقال قوم لا يجوز اجتهادهم زمن الوحي ، لقدرتهم على تلقي الحكم ، ولا اجتهاد مع النص ، وقال آخرون : بل يجوز بإذن النبي صلى الله عليه وسلم بدعوى أن من اجتهد زمن النبي من الصحابة كان مأذوناً ، والمأذون لاتسعه المخالفة ، وقيل يجوز للغائب دون الحاضر، وقال قوم : يجوز للولاة والأمراء دون غيرهم من الصحابة/أنظر غاية الوصول شرح الأصول للأصاري ص (١٤٩) وحاشية العلامة البناني ٤٠٥/٢ .
- (٦) - سورة الأنفال الآية (٦٧) .

وقوله تعالى: ((عفا الله عنك لم أذنت لهم)) (١) فعوتب صلى الله عليه وسلم على استيفاء أسرى بدر، كما عوتب على الأذن لمن ظهر نفاقهم في التخلف عن غزوة تبوك، والعتاب لا يكون فيما صدر عن وحي، بل لما ترتب على إجتهد (٢).

ومن أهم الحوافز على الإجتهد ما جاءت به السنة من أن المجتهد مأجور في إجتهد أصاب أو أخطأ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما تعرض لهذا المنصب أحد في الأمور الشرعية على الأقل، ولهذا فهو من أهم ضمانات كفاية حرية التعليم والرأي، كما يعتبر من جهة أخرى حثاً على طلب العلم، ودعوة لفتح باب الإجتهد تقدير للرأي وإقراراً لهذا الحق، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)) (٢).

وقد سار الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم على هذا المبدأ، فكان كل منهم يعتمد على إجتهد الخاص متى كان قادراً على ذلك (٤)، ويبين لغيره الإجتهد، ويحترم رأي غيره متى كان رأي غيره قائماً على دليل من الكتاب أو السنة، بل يرجع عن رأيه ويأخذ برأي غيره إذا تبين له رجحان هذا عن ذلك .

(١) - سورة التوبة الآية (٤٢).

(٢) - غاية الوصول شرح لب الأصول للأصاري ص (١٤٩).

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا إجتهد فأصاب أو أخطأ ١٩٠/٤ .

(٤) - وقد فرق علماء الأصول بين نوعين من المجتهدين ووضعوا لكل شروطاً :

١- المجتهد المطلق : وهو الذي ينظر في كافة القضايا الشرعية التي تحتاج إلى نظر، دون الإختصاص بجزء معين، وأشترطوا فيه أن يكون بالغا، عاقداً بالدليل العقلي والتكليف له إضافة إلى الدليل النقلى عارفاً بعلل الأحكام ووجوده إستنباطها من القواعد الأصولية، عارفاً بعلوم اللغة، ذا دراية بالإجماع، عارفاً بالناسخ والمنسوخ، وبشروط المتواتر والآحاد، والصحيح والضعيف، وحال الرواة، والتجريح والتعديل، وأن يكون عدلاً ليعتمد على قوله.

٢- المجتهد المقيد : ويكون إجتهداه في حكم خاص، ويشترط له ما أشترط للمجتهد المطلق، غير أنه يكتفي فيه أن يكون عالماً في الجزء

الذي تخصص فيه دون ضرورة لمعرفة جميع الأحكام / انظر غاية الوصول

شرح لب الأصول للأصاري ص (١٤٧، ١٤٨) وحاشية البناني ٢/٢٩٩ - ٤٠٤ .

وامتاع العقول ص (١٩٢ - ١٩٢).

(ومواقفهم هذه رضوان الله عليهم كثيرة مشهورة قد زخرت بها كتب التاريخ الإسلامي مسجلة لهم أسمى مبدأ في حرية الرأي والتعبير والحث على الاجتهاد) (١).

وبعد، فإنه يتضح بكل جلاء - وعلى ضوء ماسر - أن الإسلام قد أطلق الحرية في مجال العلم، وأنه قد أطنب في الحث على طلب العلم والاستزادة منه، وأنه قد نادى بحرية الرأي والتعبير حتى في الأمور الدينية، تقديراً للعقل وحفظاً له من التجمد والتحجر.

٤- المبدأ الرابع :

وهو أن الإيمان الصحيح هو ما كان منبعثاً عن يقين واقتناع لاعن تقليد وإتباع وبذلك حطم الإسلام القواعد التي كان يسير عليها التدين في كثير من الأمم من قبله، وهي قواعد التقليد والإتباع وإهمال النظر والتفكير الحر، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم في عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلي والمنطق السليم، ودعا إلى النظر والتفكير، وحث على رفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل (٢).

هذا بالنسبة للنوع الأول في إحاطة العقل بالحرية في التفكير والتعبير في الأمور الدينية .

أما بالنسبة للنوع الثاني - وهو إعطاؤه الحرية في التفكير والتعبير في الأمور الدنيوية :

(فقد قرر الإسلام أن لكل فرد أن يبدي رأيه في الأمور الدنيوية حسبما يراه، وأن يعبر عن هذا الرأي بالطريقة المناسبة له، لاسلطان لأحد عليه، ولا يملك أحد أن يصادر عليه رأيه وفكره، وذلك كالحديث والكتابة وما إلى ذلك) (٢).

وقد حدثت في صدر الإسلام عدة حوادث، كلها تدل على أن الإسلام يحترم حرية الرأي والتعبير إلى أقصى درجات الاحترام.

-
- (١) - حقوق الإنسان علي عبد الواحد وافي ص (٢٢٢).
 - (٢) - حقوق الإنسان علي عبد الواحد وافي ص (٢٢٢) هذا وقد سبق لنا الحديث عن هذا المبدأ عند حديثنا عن كيفية حفظ العقل في النقطة الأولى ، فليرجع إليه للاستزادة .
 - (٢) - عالمية الدعوة الإسلامية للدكتور علي عبد الحليم محمود ص (٢٦٥) .

ومن تلك الحوادث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشار على المسلمين في غزوة بدر الكبرى أن ينزلوا موضعاً معيناً ، فسأله أحد صحابته ، قال : أهذا منزل أنزلكه الله؟ أو هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل هو الحرب والرأي والمكيدة فقال الصحابي للرسول صلى الله عليه وسلم ليس هذا بمنزل، وأشار بإنزال المسلمين منزلاً آخر، فعملاً تحول المسلمون نحو المنزل الذي اقترحه هذا الصحابي الجليل (١)

ومنها أيضاً: حادثة إختلاف أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في حكم الأسرى - في غزوة بدر - حين رأى أبو بكر أن يعفو الرسول صلى الله عليه وسلم عن من يشاء وأن يأخذ فداء الباقيين فيقتوي بأموالهم أمر المسلمين، وكان حجة أبي بكر أنهم أهل الرسول صلى الله عليه وسلم وذوو قرباه، بينما كان رأي عمر أن يضرب الرسول صلى الله عليه وسلم أعناقهم ولا يمنّ ولا فداء - ومحبة أنهم آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأخرجوه والمسلمين عن بلدتهم (٢).

كل هذا النقاش والجدال وإبداء الآراء وحرية التعبير عنها والرسول صلى الله عليه وسلم يسمح مايقولان ، وذلك دليل على إحترام الإسلام لحرية التعبير عن الآراء .

- (١) - أنظر تهذيب سيرة ابن هشام ص (١٦١)
- (٢) - انظر التاريخ الإسلامي تأليف محمود شاكر ٢/٢١٠، ٢١١ .
وأنظر تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص (٢٦) .

ثانياً

الطرق العلاجية للمحافظة على المقاصد الضرورية

لم يقف الإسلام عند الجوانب الإيجابية المحققة للضرورات الإنسانية وحمايتها بالتشريعات المناسبة، بل نراه يتعامل مع البشر على وطبيعته، فقد يحدث عدوان على إحدى هذه الضرورات، وحينئذ يكون العلاج الإسلامي بمقابلة الجريمة بالعقوبة المناسبة، وسأبين هنا العقوبة المقدرة التي شرعت للمحافظة على المقاصد الضرورية.

١- بالنسبة للدين :

نجد أن الإسلام قد أوجب على المسلمين حفظه وحمايته بإتباع المنهج التالي :

أولاً - حمايته من الاعتداء الخارجي :

فحماية الدين وأتباعه تقتضي الاستعداد التام والدائم من المسلمين لرد كل عدوان خارجي يقع على أحدهما، وفي سبيل ذلك شرع الإسلام وامتشاق السلاح لدفع كل عدوان يقع من الخارج، والحماية من العدوان الخارجي إنما تنصرف أساساً إلى حمايته من أعدائه الخارجيين .

إذاً فالإسلام حدد الأغراض التي يجوز من أجلها رفع السيف والقتال في غرضين اثنين هما: (١) .

الغرض الأول - حماية الدين والدفاع عنه :

حتى يصل إلى قلوب الناس وأسماعهم جميعاً، حفظاً له من الفتنة كما حصل من أهل مكة حيث حاولوا وأد هذا الدين وألبوا مشركي العرب على قتال المسلمين (٢) . يقول الله تعالى: ((واقتلوهم حيث تقتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين)) (٢) .

-
- (١) - كتاب الإسلام نظام إنساني للدكتور مصطفى الرافعي ص ١٧٤ .
(٢) - أنظر كتاب العلاقات الدولية في الحروب الإسلامية تأليف علي قراعتص ١٩٠ .
(٣) - سورة البقرة الآية (١٩١) .

ويقول سبحانه: ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)) (١).

ويقول سبحانه: ((فمن أعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وأتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)) (٢).

(وفي هذه الآيات الكريمة يأمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الذين يتصدون للمسلمين بقتال، كما يأمرهم بتبعضهم حيث وجدوا، وتشثيتهم كما شتتوا المسلمين، رداً للعدوان بمثله، حمايه للدين وأتباعه من عدوان الكفار في كل زمان ومكان) (٢).

وفي قوله تعالى: ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)) إشارة الى وجوب منع فتنة الناس عن عقيدتهم ، وتأكيدهم لوجوب قتال من يقف في سبيلها، حتى لا يمنع من يريد الدخول فيها وهو المقصود بالفتنة) (٤).

الغرض الثاني - حماية النفس

وإذا أممنا النظر في النصوص القرآنية التي أمر الله فيها المسلمين بالقتال رأيناها تذكر أن الحرب وسيلة لدفع العدوان، وأن طبيعة البشر كثيراً ما تفضي الى التنازع والبغى والاعتداء على الحريات .

قال تعالى: ((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم تقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)) (٥).

(١) - سورة البقرة الآية (١٩٢).

(٢) - سورة البقرة الآية (١٩٤).

(٢) - أنظر كتاب تاريخ التشريع الإسلامي للمرحوم الشيخ محمد الخضري بك ص (٦٢) وتفسير الكشاف للزمخشري ٤٢٢/١.

(٤) - تفسير فتح القدير للشوكاني ١٩١/١.

(٥) - سورة الحج الآيات (٢٩-٤٠).

(تناولت هاتان الآيتان الإذن بالقتال، وعللت هذا الإذن بما سُني به المسلمون من الظلم والاعتداء، وما أكرهوا عليه من الخروج من الديار والأوطان بغير حق، ثم بين القرآن الكريم أن القتال في سبيل حماية الدعوة والحرية الدينية هو من سنن الله الكونية، ولا بد منه لحفظ النظام وبقاء السلام والعمران، ولولاها لفسدت الأرض، ولهدمت في شريعة كل نبي معابداً أمته، فهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيراً) (١)

ثانياً - حماية الدين وحفظه من الخطر الداخلي :

من الأخطار التي تهدد العقيدة الإسلامية من الداخل، ويمكن أن تؤثر على عقائد المسلمين، الردة بعد الإسلام .

والردة: هي الكفر بعد الإسلام، ولا فرق في ذلك بين من خرج إلى دين آخر أو إلى غير دين معين (٢) .

والمرتد : هو من خرج من الإسلام بعد أن كان فيه، وُسمي مرتدّاً لأنه ارتد إلى الوراء من الهداية إلى الضلال (٢) .

ومن أجل حفظ الدين كمقصد ضروري شرع الإسلام عقوبة الردة ومن الأدلة التي تثبت وجوب عقوبة المرتد ما يأتي :

من القرآن :

قول الله تعالى: ((ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) (٤)

-
- (١) - أنظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/٥٤٧ ، ٥٤٨ .
(٢) - الأحكام السلطانية للماوردي ص (٥١-٥٢) والمغني لابن قدامة (١٠-٧٤)
(٢) - رد المحتار شرح تنوير الأبصار لابن عابدين ٢/٢٩١ .
(٤) - سورة البقرة الآية (٢١٧) .

ومن السنة :

ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ((من بدل دينه فاقتلوه)) (١).

وهذه عقوبة مجملة للمرتد في الدنيا، فضلاً عما ينتظره من عذاب في الآخرة، وهذه العقوبة هي القتل حداً .

ويقول صلى الله عليه وسلم ((لايحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى ثلاث : الشيب الزاني، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة)) (٢).

وحكمة ذلك : أن الإسلام لايسوغ لذوي الأهواء أن يعيشوا بالدين الإسلامي فيدخل في الإسلام لغاية ثم يخرج منه لغاية، بل اعتبر ذلك لعباً بالدين وتضليلاً للمتدينين (٢)، لذلك شرع تلك العقوبة في الدنيا والآخرة للمرتد حفظاً للدين وإبقاء على حرمة .

ومن الإجماع :

وقد ثبت أن قتل المرتد قد ورد عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان (٤) رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، كما ثبت أن أبابكر الصديق رضي الله عنه قد قاتل المرتدين وقتل منهم من قتل وقد وافقه الصحابة على رأيه وأعانوه جميعاً فكان إجماعاً منهم (٥).

(١) - رواء البخاري في صحيحه كتاب الاستنابة/باب حكم المرتد ١٢٨/٤ .

(٢) - رواء مسلم في صحيحه /باب القسامة/باب مايباح به دم المسلم ١٦٤/١١ .

(٣) - أنظر كتاب روح الدين الإسلامي لعفيف طيارة ص (٤٢٥) .

(٤) - عثمان بن عفان (٥٢٥) :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص أمير المؤمنين بن أبي العاص ن ن ن ن

أمير المؤمنين وثالث الخلفاء الراشدين ذو النورين، رابع

ثلاثة في الإسلام هاجر الهجرتين وأحد العشرة المبشرين بالجنة

جهز جيش المسرة من ماله رفيق رسول الله صلى الله عليه

وسلم في الجنة، قتل والقرآن بين يديه ودفن بالبقيع.

أسد الغاية ٢٧٦/٢ . * الإصابة ٤٦٢/٢ .

(٥) - انظر بداية المجتهد لابن رشد القرطبي ٤٤٨/٢، ونيل الأوطار

للسوكاني ٩٧/٧-٩٩، والمغني لابن قدامة ٧٤/١٠ .

٢- بالنسبة للنفس:

فقد قرر الإسلام جملة من الأحكام التي تكفل حماية الإنسان وحفظ نفسه من كل ضرر أو اعتداء يقع عليه، ليتسنى له أن يمارس حقه في الحرية الشخصية وحرية التصرف في شؤنه دون إعاقة أو ضرر.

فإذا ما وقع الاعتداء على النفس بالقتل، فإن الإسلام شرع عقوبة القصاص على الجاني إذا كان القتل عمداً.

يقول الله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عسي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم)) (١)

فجعل الحق سبحانه وتعالى القصاص عقوبة للقتل حفظاً للنفس من الاتلاف والهلاك، وردعاً للمجرمين .
يقول الله تعالى: ((ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلمكم تتقون)) (٢).

(ففي الآية الكريمة إخبار من الله تعالى أن في إيجاب القصاص حياة للناس وسبباً لبقائهم لأن من قصد قتل إنسان رده عن ذلك علمه أنه يقتل به)) (٢).

والحرص على الحياة الإنسانية وحفظ النفس وحماية كرامتها هو ما جعل الجماعة تقتل بالواحد في الشريعة الإسلامية، وجعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين أمضى ذلك الحكم:

(١) - سورة البقرة الآية (١٧٨).

(٢) - سورة البقرة الآية (١٧٩).

(٢) - أحكام القرآن للجصاص ١٥٨/١ .

(والله لو أن أهل صنعاء اشتروا في قتله لقتلتهم جميعاً) (١).

وأذا كان القتل خطأ فإن الإسلام يفرض عقوبة تحميل القاتل الدية (٢) والكفارة (٢) معاً، أو دية ققط، أو كفارة ققط، على حسب التفاصيل الموضحة في كتب الفقه .

يقول الله تعالى: ((وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً خطأ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا. فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً)) (٤).

بل حتى الجنين في بطن أمه حفظ الإسلام حياته من التلف، ففرض عقوبة الدية كاملة في حال إسقاطه من بطن أمه بالضرب عليها .

قد قال العلماء: ((قتل الجنين في بطن أمه وهو أن يضرب بطن أمه فتلقه حياً ثم يموت، قالوا: فيه الدية كاملة في الخطأ والعمد بعد القسامة (٥) وقيل بغير قسامة) (٦).

-
- (١) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الديات / باب إذا أصاب قوم من رجل هل يعاقب أو يقتل منهم كلهم ١٢٤/٤ .
 - (٢) - الدية : مصدر ودى القاتل المقتول إذا أعطى وليه المال الذي هو بدل النفس / أنيس القهاء للقونوي ص (٢٩٢) .
 - (٣) - الكفارة : ما يغطي الإثم، والتكفير مستره وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل . / المفردات للأصفهاني / ص (٤٣٥) .
 - (٤) - سورة النساء الآية (٩٢) .
 - (٥) - القسامة : إيمان تقسم على المتهمين في الدم من أهل المحلة ، وفي الصحاح : هي الأيمان تقسم على أهل الأولياء في الدم / أنيس القهاء بتحقيق الدكتور: أحمد الكبيسي للقونوي ص (٢٩٥) والعدة شرح العمدة بهاء الدين المقدسي ص (٥٤٤) .
 - (٦) - تفسير القرطبي ٢٢١/٥ .

وكما حرم الإسلام الاعتداء على النفس بالقتل، حرم الاعتداء على بعض الجسد أو كله بالضرب أو تعريضه للتلف في جزء من أجزائه بالجرح أو نحوه .
فشرع عقوبة القصاص في الجروح والأعضاء قال تعالى :
((وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسِّنُّ بالسِّنِّ ، والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)) (١) .
ويقول صلى الله عليه وسلم : ((ظهر المسلم حمى إلا بحقه)) (٢) .

وكما حرم الإسلام قتل المسلم لأخيه، حرم أيضاً قتله لنفسه (الانتحار) ،
فقال سبحانه : ((ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً)) (٣) .
وقال تعالى : ((ولا تلتقوا بأيديكم إلى التهلكة)) (٤) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : ((من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)) (٥) .
وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : ((الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعن نفسه يطعنها في النار ، والذي يقتحم يقتحم في النار)) (٦) .

وبهذا يظهر أن الإسلام يحترم النفس الإنسانية، وأنه إتبع منهجاً فريداً من أجل المحافظة عليها، ووضع العقوبات المناسبة التي تكفل حمايتها من التلف والاعتداء، وشرع الأحكام التي تضبط حياة المجتمع وتضفي عليه الأمن والسلام .

- (١) - سورة المائدة الآية (٤٥) .
- (٢) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الديات ، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق ١٢٢/٤ بلفظ ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق .
- (٣) - سورة النساء الآية (٢٩) .
- (٤) - سورة البقرة الآية (١٩٥) .
- (٥) - رواء البخاري في صحيحه/كتاب الطب /باب شرب السم والدواء ١٧/٤ .
ومسلم في صحيحه /كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه .
- (٦) - رواء البخاري في صحيحه /كتاب الصلاة/باب الجنائز ١/١٦٨ ، والفظ الأخير وهو (والذي يقتحم يقتحم في النار) أخرجه أحمد في مسنده ٤٣٥/٢ .

٢- حفظ النسل:

وقد اتبع الإسلام لحفظ النسل تقرير عقوبة الزنا وعدم ثبوت نسب ولد الزاني.

يقول الله تعالى:

((الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)) (١).

يقول القرطبي عند تفسير لهذه الآية (هذا حد الزاني الحر البالغ البكر، وكذلك الزانية البالغة الحرة، وثبت بالسنة تفريب عام، على الخلاف في ذلك، وأما المملوكان فالواجب خمسون جلدة لقوله تعالى: ((فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب)) (٢)، وهذا في الأمة والعبد في معناها.

وأما المحصن من الأحرار فعليه الرجم دون الجلد، ومن العلماء من يقول: يجلد مائة ثم يرجم، والله أعلم (٣). وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجم أصحابه معه الزناء من الرجال والنساء.

فقد أثار عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر برجم ماعز والغامدية وصاحبة العسيف.

روى مسلم في صحيحه قال: ((جاء ماعز بن مالك (٤)، إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: ويحك أرجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ويحك أرجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فيم أطهرك)؟ فقال: من الزنا، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبه جنون)؟ فأخبرانه ليس بمجنون، فقال: (أشرب خمراً)؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أزنيت)؟ قال: نعم، فأمر به فرجم (٥) ٠٠٠٠ الخ.

(١) - سورة النور الآية (٢).

(٢) - سورة النساء الآية (٢٥).

(٣) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/١٥٩.

(٤) - ماعز بن مالك الأسلمي:

كتب له الرسول كتاباً بإسلام قومه، روى عنه ابنه عبد الله حديثاً، اعترف بالزنا فرجمه المصطفى صلى الله عليه وسلم.

* أسد الغابة ٤/٢٧٠. * الإصابة ٢/٢٦.

قال: ((ثم جاءت امرأة من غامد(١) من الأزدي فقالت: يا رسول الله طهرني، فقال: (ويحك، أرجعي فاستغفري الله وتوبيي إليه) فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، قال: وما ذاك؟ قالت: إنها حبلى من الزنا، فقال (أنت)؟ قالت: نعم، فقال لها: (حتى تضعي ما في بطنك، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: لقد وضعت الغامدية، قال: (لانرجمها وندع ولدها صغيراً، ليس له من يرضعه؟ فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعه يا نبي الله، قال: فرجمها)) (٢).

وثبت في الصحيحين من خطبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، التي قالها على المأذ في مسجد المدينة، بعد آخر حجة بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: ((إن الله قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم (٢) في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحسن من الرجال والنساء، إذا قامت البيعة أو كان الحبل أو الاعتراف) (٤).

(وفي إعلان عمر رضي الله عنه بالرجم وهو على المنبر، وسكوت الصحابة وغيرهم من الحاضرين عن مخالفته بالإنكار عليه دليل على ثبوت الرجم وأنه أمر مجمع عليه) (٥).

(١) - المرأة الغامدية التي زنى بها ماعز بن مالك كانت: أمة لهزال وأسمها فاطمة. والحجة في ذلك: عن نعيم بن هزال أن هزالاً كان استراجم لماعز بن مالك، وكان لهم جارية قد أمروها ترعى غنماً لهم، يقال لها فاطمة، وأن ماعزاً وقع عليها، فأخذ بيده هزال فخدعه، فقال: انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره فمسي أن ينزل فيك قرآناً! فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فرجم))
* - أنظر كتاب الأسماء المبهمة في الأنبياء المحكمة .
تأليف أبي بكر الخطيب البغدادي ص (٤٩٦).

- (٢) - رواء مسلم في صحيحه / كتاب الحدود / باب حد الزنا ٢٠٢/١١
(٢) - آية الرجم نسخت تلاوتها وبقي حكمها / فتح الباري ١٢/١٤٨، وأراد بآية الرجم: الشيخ والشيخه إذا زنيا فأرجموهما البتة / صحيح مسلم بشرح النووي ١١/١٩١
(٤) - رواء البخاري في صحيحه / كتاب المحاربيين من أهل الكفر والردة / باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ٤/١٢٧ /
ورواء مسلم في صحيحه في كتاب الحدود / باب حد الزاني ١١/١٩١ .
(٥) - صحيح مسلم بشرح النووي ١١/١٩١ .

وهكذا فإن الشريعة الإسلامية تحرص أشد الحرص على حفظ الأعراس والأنساب من التلوث والأختلاط، وتفرض أشد العقوبات التي تصونها وتحميها من العبث والضياع.

وبالتالي تحمي النسل وتحفظه من التشرد والهلاك.
ذلك أن الزنا لا يثبت نسباً لقوله صلى الله عليه وسلم:
(الولد للفراش وللعاهر الحجر) (١).

(ولأن ثبوت النسب نعمة والجريمة لا تثبت النعمة بل يستحق صاحبها النقمة، ويكون الولد لقيطاً، ولقد قال سحنون (٢)، وابن القاسم (٢)، وغيرهما: إذا علم أن الظلام لقيط لم يثبت فيه دعوى نسب لرجل إلا ببينة بخلاف ما إذا ادعت نسبه امرأة، وأن ادعت أنه من الزنا، لأن ولد الزنا يثبت نسبه من أمه وإن كان لا يثبت نسبه ممن زنى بها) (٤).

وفي هذا ضياع للنسل وحرمانه من أعز حقوق الإنسان وألزامها للحياة.

- (١) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الحدود / باب للعاهر الحجر ١٢٥/٤ .
وأخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الرضاع / باب للولد الفراش ٢٧/١٠ .
(٢) - سحنون (١٦٠-٢٤٠هـ) :

هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي لقب بسحنون لشدة حمرة وجهه أصله من حمص الشام مولده بالقيروان وولي قضاءها سنة ٢٢٤هـ، إلى أن مات بها، كان قتيهاً، قاضياً، أتتهت إليه رئاسة العلم في المغرب، زاهداً لا يهاب في الحق سلطاناً رفيع القدر عفيف النفس أيها، مالكي المذهب.
* وفيات الأعيان ١٨٠/٢ . * الديباج المذهب ٢٠/٢ .

- (٢) - ابن القاسم (١٢٢-١٩١هـ) :
عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، المعروف بابن القاسم، مولده ووفاته بمصر تفقه بمذهب الإمام مالك، جمع بين الزهد والعلم، له المدونة سنة عشر مجلداً، أجل كتب المالكية.
* شجرة النور المالكية ٥٨/١ . * وفيات الأعيان ٢٢٩/٢ .
(٤) - الأحوال الشخصية للإمام محمد أبو زهرة ص (٤٥٤) .

٤- حفظ المال:

وصلت الشريعة في نظام حفظها للمال وحرصها على حق الإنسان ومجهوده في تحصيل ماله إلى أن فرضت أشد العقوبات على كل معتد عليها أيضاً كانت صورة هذا الاعتداء.

فشرعت عقوبة حد السرقة، وعقوبة حد الحراقة..
يقول الله تعالى: ((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم)) (١).

والآية الكريمة وإن جاءت مجملة، إلا أن سنة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بينتها غاية البيان.

أما السنة فقد استفاضت بذلك الأحاديث الصحيحة والحسنة فمن ذلك :

١- أمره صلى الله عليه وسلم بقطع يد المخزومية التي سرقت :
روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن السيدة عائشة (٢) رضي الله عنها: ((أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ومن يجتري عليه إلا أسامة بن زيد (٣) وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛

(١) - سورة المائدة الآية (٢٨).

(٢) - عائشة بنت الصديق أم عبد الله (٧٥) هـ

أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، تزوجها وهي ابنة سبع ودخل بها وهي ابنة تسع ، بعد موت خديجه رضي الله عنها بشاوث سنين واشهر نسائه وأفضلهن كانت عالمة بالفرائض والفقه والمطب والشعر نزلت براءتها في قصة الأفك وكان ينزل الوحي والرسول في لحافها، توفي الرسول وعمرها ١٨ سنة وتوفيت في السابع عشر من رمضان بالمدينة المنورة ونزل قبرها أولاد أخوتها عبد الرحمن ومحمد ابنا أبي بكر الصديق وعبد الله وعروة ابنا الزبير .

* أسد الغابة ٥٠١/٥ . الإصابة ٢٥٩/٤ .

(٢) - أسامة بن زيد (٥٤ هـ) بن حارث بن شراحيل قيل يكنى ابا محمد ،

ولد في الإسلام ومات المصطفى صلى الله عليه وسلم وله عشرين سنة ،
امه أم ايمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم مولى رسول الله
والحب بن الحب ، قائد جيش غزوة مؤته ، أعتزل الفتنة بعد مقتل
عثمان بن عفان ، سكن المزة من أعمال دمشق ثم وادي القرى ثم
المدينة المنورة ، ومات بالجرف زمن خلافة معاوية بن أبي

سفيان رضي الله عنه * أسد الغابة ١٢٨/١ - ١٢٩ . * الإصابة ٧٢٠٧١/١ .

فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ((أتشفع في حد من حدود الله)؟ فقال له أسامة: أستغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختم بفاثتي على الله بما هو أهله ثم قال: (أما بعد فانما أهلك الذين من قبلكم إذا كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، قالت عائشة: (فحسنت توبتها بعد وتزوجت، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)) (١).

٢- أمره صلى الله عليه وسلم بقطع يد سارق المجن على عهده :
روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قطع يد سارقاً في مجن ثمناً ثلاثة دراهم)) (٢).
وغير ذلك من الأحاديث التي تعيد وجوب قطع يد السارق إذا استوفت السرقة أركانها وشروطها (٢) وإلا فلا قطع .

(١) - صحيح البخاري / كتاب الحدود/باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان ١٢٢/٤ .
وصحيح مسلم / كتاب الحدود /باب قطع يد الشريف وغيره ١٨٧٠١٧٦/١١ .

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه /كتاب الحدود /باب حد السرقة ونصابها ١٨٤/١١ .
(٢) - وقد أشتراط الفقهاء لوجوب القطع شروطاً في السارق وشروطاً في المال المسروق ، أما شروط السارق فهي : التكليف بأن يكون السارق بالغاً عاقلاً ، فلا حد على مجنون ولا صغير ، والأختيار : بأن يكون السارق مختاراً في سرقة ، فلو أكره على السرقة لا يعد سارقاً ، وألا يكون للسارق في الشيء المسروق شبهة كأخذ الوالد مال ابنه خفية ، وأما المال المسروق فاعتبرت فيه شروطاً وهي :
١- أن يكون مما يتمرل ويملك ويحل بيعه وأخذ العوض عنه .
٢- أن يبلغ الشيء المسروق النصاب على حسب الخلاف الوارد في تقديره في كتب الفقه .

٢- إعتبار الحرز في الموضع المسروق منه المال عند من يشترطه والحرز هو الموضع المعد لحفظ الشيء ، مثل الدار والدكان والأصطبل ونحو ذلك أنظر : الحدود في الإسلام ومقارنتها بالقوانين الوضعيه /لفضيلة الدكتور محمد أبو شهبة ص (٢١٥ - ٢١٧) ، وكتاب فقه السنة للسيد سابق ٢ /٤١٤ .

وجاء في عقوبة الاعتداء على الأمن بالمحاربة والافساد وقطع الطريق لأخذ المال قوله تعالى:

((إنما جزاؤ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم (((١).

ومن السنة: مارواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((إن ناساً من عُكَلٍ وعرينة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا بالإسلام فاستوخموا المدينة، وفي رواية: فاجتوا المدينة، فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها، وألبانها، فأنطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم، وأستاقوا الذود، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسلموا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم)) (٢)

((وكل هذه الحدود المغلظة التي شرعها الله تعالى على قطاع الطريق وذلك الخزي في الدنيا إنما يدل على شناعة المحاربة وعظم ضررها، وذلك لأن فيها سد باب الكسب على الناس، لأن أكثر المكاسب وأعظمها التجارات، وركنها وعمادها الضرب في الأرض، كما قال تعالى :

((وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)) (٣) فإذا أخيف الطريق انقطع الناس عن السفر، واحتاجوا إلى لزوم البيوت، فانسد باب التجارة عليهم، وأنقطعت أكسابهم، فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المغلظة ردعاً لهم عن سوء فعلهم، وفتحاً لباب التجارة التي أباحها الله لعباده لمن أرادها منهم، ووعد فيها بالعذاب العظيم في الآخرة)) (٤).

وبذلك حفظ الإسلام المال كمقصد شرعي في حياة الإنسان .

(١) - سورة المائدة الآيتان ٢٢٠، ٢١/٢ .

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب المغازي / باب قصة عُكَلٍ وعرينة ٢٤/٢ .

(٢) - سورة المزمل الآية (٢٠) .

(٣) - تفسير القرطبي ١٥٧/٦ .

٥- نظام حفظ العقل :

حرم الإسلام على أبنائه معاقرة أي شراب مسكر، والخمر التي حرمها الله ورسوله وأمر الإسلام بجلدها: كل شراب مسكر من أي أصل كان .

يقول الله تعالى في تحريم شرب الخمر (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم متتهون)) (١) .

قال الأصوليون: إن السكر حرام في كل شريعة ، لأن الشريعة مصالح العباد لا مقاصدهم، وأصل المصالح العقل ، كما أن أصل المقاصد ذهابه ، فيجب المنع من كل ما يذهب أو يشوشه)) (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم ((كل مسكر خمر، وكل خمر حرام)) (٣) . وذلك سداً للذرائع الموصلة إلى الإخلال بالعقل فيفضل ويهان وينحرف، والإسلام يرفض أن يكون العقل في هذا الموضع من النفي والأهانة، حيث جعله في موضع التكريم والتفضيل والذي كان من أسس تكريم الله لبني الإنسان .
ولذا عدت حماية العقل وحفظه بتحريم كل ما يذهب أو يحدث به خللاً مقصداً من المقاصد الضرورية للناس .

لذلك شرع الإسلام عقوبة حد السكر لحفظه والإبقاء على كرامته .
وحد شرب الخمر ثابت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجماع المسلمين، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب الشارب بجريدة نحر أربعين وفعله كذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده، وأن عمر رضي الله عنه ضربه ثمانين وورد غير ذلك .
(عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبو بكر أربعين)) (٤)

(١) - سورة المائدة الآية (٩٠-٩١) .

(٢) - تفسير القرطبي ٢٨٧/٦ .

(٣) - سبق تخريجه

(٤) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الحدود/باب ما جاء في ضرب شارب الخمر/٤/١٢١

وفي رواية للإمام مسلم: ((عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب فجلده بجريدتين نحو أربعين، قال وفعله أبو بكر رضي الله عنه، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبدالرحمن أخف الحدود ثمانين فأمر به عمر)) (١).

وإنما كان ذلك التحريم وكانت تلك العقوبة على شارب الخمر، لما للخمر من أضرار كثيرة على الإنسان من الناحية الخلقية والكرامة الإنسانية .

ذلك أنها تقصد عقل الإنسان الذي كرمه الله به، والإنسان إذا فقد عقله وتمييزه أتى بكل موبقة ، ولم يتورع عن أية فاحشة، مع ما يصيبه من الأذى والقذر الذي يذهب بالكرامة والشرف والحياء .

(ومن هنا حرم شرب الخمر وكل مسكر بالإجماع، وإذا شربها وجب إقامة الحد عليه سواء سكر أم لا) (٢) وذلك لحفظ العقل .

من كل ما سبق بيانه، نرى أن الشريعة الإسلامية في حفاظها على هذه المقاصد الضرورية للناس باتباعها كافة الطرق الوقائية والعلاجية لتحقيق هذا الغرض إنما حققت بذلك مصلحة الفرد وعملت على حمايته .

لأنها بذلك حمت أسس حياته ومقوماتها وبالتالي عملت على تحقيق أفضل الشروط لاستمرارها على الوجه الأمثل الذي أراده الإسلام لتحقيق الحكمة التي أرادها الله تعالى من وجود الإنسان، وهي في الوقت ذاته حفظت بذلك على الإنسان قيمته ومكاتبه محققة الكرامة الإنسانية المقصودة .

* * *

(١) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الحدود / باب حد الخمر ٢١٥/١١ .

(٢) - صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٧١١ ، ٢١٨ .

المبحث الرابع

دور المحافظة على الكرامة الإنسانية
في حماية المجتمع من الصراع

المبحث الرابع

دور الكرامة الإنسانية في حماية المجتمع من الصراع العنصري

كان لتحقيق الكرامة للإنسان وتشريع عوامل المحافظة عليها دور فعال في تحقيق وحدة المجتمع المسلم، والارتقاء بأفراده عن مستوى الطبقات والفروقات العنصرية، وكافة صنوف الاحتكاك والإضطدام والصراعات، إلى مستوى الوحدة العملية والشعورية في إيقاظ الإحساس لدى كل فرد في المجتمع بأن عليه واجبات كما أن له حقوقاً، وفي تحقيق الخير في المجتمع، وفي القيام بطاعة الله نحو نفسه ونحو غيره في مجتمعه .

ففي ظل تحقيق الكرامة الإنسانية لكل بني الإنسان، ينشأ في المجتمع المسلم الفرد الحر الكريم الذي يدرك بمقتضى كرامته التي حتمتها له الإسلام، بأنه مسئول عن البشرية، لأنه فهم من معنى الخلاقة والعبادة والأمانة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم من كل هذا مسئوليته العامة تجاه نفسه وتجاه غيره .

وأول واجبات الإنسان إنما هو واجبه نحو ربه الذي خلقه، فيعبده بالطاعات وبالعلم النافع والعمل الصالح، ويحرم أرضه بالحق والخير.
يقول الله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا أركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)) (١) .

فإلى جانب الأمر بالركوع والسجود وعبادة الله وحده يجب أن يسلك المسلم طريق الخير قولاً وعملاً وبذلاً، ففي العبادة الخالصة والعمل الصالح الفلاح المحقق والنجاح الأكيد .

وإلى جانب الأمر بالصلاة والأعتصام بالله، يجب أن يفعل الخير للغير الذي عن طريقه تنشأ المحبة بين أفراد المجتمع ويتم التآلف وتتحقق وحدة المجتمع بالإرشاد والتوجيه لأنكار المنكر وإقرار المعروف .

(١) - سورة الحج الآية (٧٧) .

وبالتواصي بالحق والتحااض عليه، والتواصي بالرحمة في صفوف الجماعة،
وأخذاه واجباً جماعياً فردياً (١).

إذ في الدعوة إلى كل ذلك في المجتمع تحقيق للإنسانية النابعة من تكريم الله
للإنسان، إذ يستشعر الجميع إذا حققوا هذه الدعوة معاني الوحدة الإنسانية التي
ترتفع بهم عن الفروقات العنصرية والنزعات القبلية محققين بذلك للجمع الأمن
والسلام .

وتحقيق الوحدة الإسلامية النابعة من تحقيق الكرامة الإنسانية لكل بني
الإنسان، أيّاً كان جنسه أو لونه أو دينه، تدعو إلى التوحيد والاتحاد
ونبذ الخلافات والتعالي على أساس العنصر واللون أو الطبقة في المجتمع.

وتقد أكد القرآن الكريم إهتمامه بقيام هذه الوحدة بما قرره بالفاظ قاطمة أن
أمة المسلمين أمة واحدة، وذلك في مثل قوله تعالى
((إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)) (٢) .
((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)) (٣) .

وأكد حرصه الشديد على المحافظة على وحدة المجتمع بتحذيره المسلمين من
التنارع والفرقة، في مثل قوله تعالى :
((وأعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)) (٤) .

وقوله تعالى: ((ولا تكونوا كالذين تفرقوا وأختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)) (٥) .
وقوله تعالى: ((وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وذهب ربكم)) (٦) .

-
- (١) - أنظر كتاب خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص (١٧٥)
وتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٩٦٨/٦ .
 - (٢) - سورة الأنبياء الآية (٩٢) .
 - (٣) - سورة المؤمنون الآية (٥٢) .
 - (٤) - سورة آل عمران الآية (١٠٣) .
 - (٥) - سورة آل عمران الآية (١٠٥) .
 - (٦) - سورة الأنفال الآية (٤٦) .

وإذا قامت الوحدة بين أفراد المجتمع الإسلامي إستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى، وإمثالاً لما دعت إليه آيات القرآن الكريم، وتأصلت هذه الوحدة التي تعتبر طابع المجتمع الإسلامي هانت عندئذ كل تلك الفروقات العنصرية في الجنس واللون والأرض، وبالتالي تزول كل عوامل الفرقه والنزاعات والصراعات القائمة على أساس تلك العنصرية البغيضة في المجتمع، وتحل محلها الوحدة والألفة والأخاء ..

*

*

*

الفصل الثاني

تحقيق المساواة بين الناس

وينقسم إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول * مفهوم المساواة .

المبحث الثاني * أسس المساواة .

المبحث الثالث * أنواع المساواة ومنهج الكتاب والسنة في تحقيقها .

المبحث الرابع * دور المساواة في حماية المجتمع من الصراع العنصري .

مقدمة :

تتضح قاعدة المساواة بين البشر في المجتمع الإسلامي ويرتفع صرحها، فهو مجتمع يرتقي إلى أفق عال في إستمساكه بمبدأ المساواة واتخاذ وعلمه لجميع ما سببه من تنظيم لعلاقات الأفراد بعضهم مع بعض، وطرحه لكل الفروق المصطنعة بين البشر والتي احترمها الإنسان في حق أخيه الإنسان، بحيث نجد أن هناك خطأ بارزاً يفصل بين موقف المجتمع الإسلامي عن قضية المساواة، وبين ما سبقه من مجتمعات قامت على عقائد وفلسفات مختلفة، فلم تنج تلك المجتمعات الماضية من الظلم في معاملتها للبشر، ولم تبرأ من التفرقة التي تقوم على خطأ النظر وسوء القصد.

وفي هذا الفصل سرف نتبين بإذن الله المفهوم الصحيح لمعنى المساواة وأسسها، ومنهج القرآن والسنة في تحقيقها، ودور المساواة في حماية المجتمع من الصراع المنصري.

وبذلك ينقسم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم المساواة.

المبحث الثاني: أسس المساواة ودعائمها.

المبحث الثالث: أنواع المساواة ومنهج الكتاب والسنة في تحقيقها.

المبحث الرابع: دور المساواة في حماية المجتمع من الصراع المنصري.

وإن ذلك يستلزم تمهيداً للفصل يشتمل على مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول: المساواة في التاريخ البشري.

المطلب الثاني: المساواة في النظم المعاصرة.

وذلك حتى نتبين الفرق بين موقف الإسلام من قضية المساواة بين
البشر، وبين موقف النظم الأخرى المخالفة للإسلام من هذه القضية،
وكيف أن الإسلام حققها في عالم الواقع، بينما لم يستطع النظم الأخرى
تحقيقها وبقي مبادئها ينادي بها دون تنفيذها وتحقيقها!!

التمهيد:

المطلب الأول المساواة كمبدأ في التاريخ البشري:

وينقسم إلى فرعين:

الأول: المساواة كمبدأ عند الأمم القديمة:
الثاني: المساواة في الأديان السماوية والوضعية قبل الإسلام.

أولاً: المساواة كمبدأ في الأنظمة القديمة:

١- المساواة عند المصريين القدماء:

لم تكن المساواة بمفهومها الإنساني كحق معروفة لكافة البشر لدى المصريين القدماء، ولم تتقرر عندهم كتشريع.

فقد ساد الظلم الاجتماعي على شعب وادي النيل، من المصريين القدماء، من خلال نظام التمييز الذي مارسه فراعنة المهود الثلاثة في مصر، وهي الدولة القديمة والوسطى والحديثة، ما بين عامي: (٢٥٠٠ ق.م وحتى ١٠٠٠ ق.م) وكان فرعون يعتبر نفسه المالك الوحيد للأرض، بزعم أن الآلهة قد فوضته بذلك. (١)

إضافة إلى أن طبقة الكهنة كانت تمارس إبشع أنواع الظلم والاضطهاد على العامة من أفراد الشعب، ولم تكن هناك محاكم تملك محاكمة هؤلاء الكهنة لأنهم لا يخضعون للمحاكم وللحكومة المحلية، شأنهم في ذلك شأن النبلاء، مما ترتب عليه ازدياد الظلم وظهور الفساد، الأمر الذي يؤكد عدم التساوي، وإقرار التمييز في ذلك المجتمع، فلا مساواة أمام القانون ولأمام القضاء، ولا في الملكية، أو أمام الضرائب أو الوظائف أو المنافع العامة. (٢).

(١) لمحة من تاريخ مصر السياسي والحضاري / بحث في مجلة الحضارة

المصرية والفرعونية للدكتور محمد جمال مختار، المجلد الأول،

العدد الثاني ص (٩٢) / نقلاً عن كتاب حقوق الإنسان للدكتور

عبد الوهاب الشيشاني ص (١٨٧).

(٢) نفس المرجع السابق ص (١٨٨).

٢- المساواة عند اليونان:

لم يكن في المجتمع اليوناني مذهب إجتماعي يتضمن إقراراً لمبدأ المساواة، أو نظام يحقق العدالة الاجتماعية على أساس المساواة، بل كان إنعدام التوازن الإجتماعي طابعاً مميزاً للمدن الإغريقية. (١)

وكان المجتمع يتألف من طبقتين: طبقة الأحرار، وطبقة الأرقاء، وفي بعض المدن إنقسمت إلى ثلاث طبقات هي: طبقة المواطنين الأحرار، وطبقة الأحرار، وهم الذين لا يتمتعون بجميع حقوق المواطنين، وطبقة العبيد الأرقاء، وهم المحرومون من كل حق. (٢)

وأما نظرتهم لغيرهم من الشعوب، فكانت من منطلق اعتقادهم بأنهم شعب كامل الانسانية، وأن غيرهم من الشعوب والأمم ناقصوا الانسانية، لنقص قوى العقل والإرادة لديهم والتي لا تكتمل على حد زعمهم، إلا فيمن كان من أصل يوناني. (٣)

وتلك هي نظرتهم للرقيق، وصرح بذلك كبير فلاسفتهم (أرسطو) حيث اعتبر الرق نظاماً طبيعياً إقتضته الضرورة لتحقيق معادة الأمرة اليونانية، لتدبير المنزل، وهو آلة الحياة لأنه يقوم بالأعمال الآلية التي لا ينبغي للمواطن الحر الكريم أن يقوم بها، فهو لذلك لا يتمتع بأية حقوق مدنية أو سياسية. (٤)

هذا ولم تكن المرأة في الشرائع والنظم والفلسفات اليونانية أسعد حظاً من الرقيق، فتنص قوانينهم على تجريد المرأة من حقوقها المدنية، ووضعها تحت السيطرة الكلية للرجل في مختلف مراحل حياتها، كما أنهم يعتبرونها من (ممتلكات) ولي أمرها، ثم زوجها بعد الزواج.

(١) تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية

للدكتور مصطفى الخشاب ص (٦٧).

(٢) تاريخ الفكر السياسي للدكتور ابراهيم أباطة

والدكتور عبد العزيز الغنام ص (١٩).

(٣) حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص (١٢).

(٤) السياسة تأليف أرسطو ترجمة أحمد لطفي السيد ص (٩٤-١٠٦).

حيث قرر (أرسطو) أن المرأة قد خلقت ولم تزودها الطبيعة بأي اعتماد عقلي يعتمد به، لذلك يجب عليها أن تقصر جهدها في المنزل والأمومة والحضانة، كما أن عليها أن تخضع تماماً لإرادة الرجل. (١)

وقد استمر هذا عند اليونانيين قروناً طويلة، عزلت فيها المرأة عن الحياة العامة، وعن تولي أي عمل، وإذا ما اضطرتها الظروف للعمل سقطت من نظر المجتمع. (٢)

وكل هذه الشواهد في التفرقة في المعاملة بين اليونانيين وغيرهم، وبينهم وبين الأرقاء والنساء، وممارستهم أسلوب التفاضل والاستعلاء على من ليس بليوناني حر، تؤكد بأن اليونانيين لم يعرفوا المساواة كمبدأ إنساني ولم يتحقق منها شيء في واقعهم.

٢- المساواة عند الرومان:

قام المجتمع الروماني عند ظهوره مكوناً من طبقتين: طبقة الأشراف، وطبقة العامة، يميزهم التفاوت في الحقوق والواجبات بينهم. (٢)

فمن الناحية الاجتماعية: لم يكن مباحاً للمامة الزواج من طبقة الأشراف، أو السكنى في منطقتهم. ومن الناحية الاقتصادية: فهم يكونون طبقة الفقراء التي لاحق لها في المساواة عند توزيع الأرض، أو حق امتلاكها كأشراف، وليس لهم إلا العمل بها كأجراء لحساب الأشراف، ولا يتساوون معهم أيضاً في الوظيفة، إذ ليس من حق العامة شغل الوظائف المهمة أو المالية. (٤) ومن الناحية القانونية يبرز التمييز والتفاضل بين طبقة العامة والأشراف بشكل واضح، حيث لا مساواة أمام القانون بين الطبقتين، فليس من حق العامة تولي المناصب الرئيسية، أو المشاركة في المجالس الشعبية.

(١) حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص (٢٨).

(٢) حقوق الإنسان وحرياته الآسامية للدكتور

عبد الوهاب الشيشاني ص (١٩٢).

(٣) الإسلام والإنسان للأستاذ إبراهيم عرويين ص (٢٢٦).

(٤) الوجيز في القانون الروماني للدكتور صوفي أبو طالب ٢٨/١.

ومن ناحية الحقوق المدنية: فلا يعترف للعامة بالمساواة مع الأشراف أمام القضاء، بل كانت تطبق في حقهم قواعد قانونية خاصة، يرجع أصلها إلى تقاليد عرفية، يعرفها ويحكم بها الكهنة، وليس من حق العامة معرفة شيء منها. (١)

كما كانت المرأة في شرائح الرومان محرومة من كثير من حقوقها السياسية في الانتخاب والترشيح، وفي تولي الوظائف العامة، كما جردت عن حقوقها المدنية في مختلف مراحل حياتها. (٢)

ولم يكن وضع الرقيق في روما أحسن حالاً منه عند اليونان أو غيرهم من الأمم القديمة. فكان للسيد على الرقيق حقوق الملكية والاستعمال، والانتفاع والتصرف والإعلام، وليس للمبد في المقابل أي حق فلا مال له ولا ذمة، وليس من حقه أن يتقاضى أو يشتكي. (٣)

وبهذا يتضح أن الرومان لم يعرفوا أيضاً المساواة كمبدأ إنساني وحق طبيعي للبشر، بل كانت التفرقة وكان التفاوت والتمييز مظاهر إتسمت بها مجتمعاتهم.

* * *

-
- (١) التاريخ الدستوري وأهم النظم الحكومية قديماً وحديثاً
للدكتور محمد صبري ص (٥٦)، والوجيز في القانون الروماني
للدكتور صوفي أبوطالب ٢٩/١.
- (٢) حقوق الإنسان للدكتور علي عبد الواحد وافي ص (٢٧).
- (٣) القانون الروماني للدكتور محمد عبد المنعم بدر ص (١٤٠١٢).

ثانياً- المساواة في الأديان السماوية والوضعية قبل الإسلام

ويشتمل هذا الجانب على بيان لموقف كل من الديانات اليهودية والمسيحية والديانات الوضعية من مبدأ المساواة.

١- المساواة في الديانات الوضعية: (١)

أ- الديانة الهندوسية (البرهمية): (٢)

تعتبر الهندوسية أقدم ديانة الجبهة العظمى من الناس في الهند إلى اليوم، ولم تصرف هذه الديانة الهندية القديمة مبدأ المساواة بين البشر، بل على العكس من ذلك اعتمدت أسسها على التمييز والتفاضل بحسب الأصل والنشأة الأولى بين أفراد المجتمع، وصنف البشر إلى طبقات وفئات متميزة ومتفاضلة في الحقوق والواجبات، ولم تحقق المساواة بين أفرادها لافي الحقوق وافي التكليف العامة الاجتماعية.

قسمت قوانين هذه الديانة المجتمع إلى أربع طبقات، خلقها (براهما) من جسده على النحو الآتي:

- ١- فصيلة البرهمنين من فمه.
- ٢- فصيلة الكشترين من ذراعه.
- ٣- فصيلة الفيسانيين من فخذه.
- ٤- فصيلة السودرائيين أو المنبوذين من قدمه. (٢)

-
- (١) نسبت هذه الأديان للوضع، لعدم ورود دليل في نصوص شرائعها تنسبها لخبر السماء، ولأنها لا تتصف بالشبات، فهي عرضة للتغيير والتبديل باستمرار لأنها من وضع الإنسان الذي لا يعلم من أمر المستقبل شيئاً، خلافاً للأديان السماوية التي هي من عند الله العالم بأحوال البشر واحتياجاتهم، وما يضرهم وما ينفعهم في جميع الأحوال والأزمان.
- التشريع الإسلامي أهدافه واتجاهاته للدكتور محمد أنيس عبادة ص (٢٥)
- (٢) سميت بالهندوسية: لأنها قد تمثلت فيها تقاليد الهند وعاداتهم وأخلاقهم وصور حياتهم، ثم أطلق على هذه الديانة من بعد البرهمية نسبة إلى (براهما) الآلهة العظيمة - في نظر معتقديها - التي تتمثل فيها القوة السحرية العظيمة.
- مقارنة الأديان (أديان الهند الكبرى) للدكتور أحمد شلبي ص (٢٩).
- (٣) أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي ص (٥٩).

وقسمت الوظائف بين هذه الطبقات بحسب منزلة كل طبقة وشرفها وطهرها من حيث أصل الخلقة، وشرف الوظيفة وأهميتها، كما تفاوتت العقوبة تبعاً لطبقة الفرد في المجتمع. وعليه: فإذا قتل القاتل من الطبقات الأخرى برهيمياً يقتل، ولا يقتل إذا قتل من غيرهم. (١) كما لا يجوز مساواة البراهمة مع غيرهم من الطبقات الأخرى في المنافع العامة أو التكاليف الاجتماعية ومنها الضرائب. (٢)

أما المرأة فينظر إليها البراهمة على أنها مخلوق ضعيف لاشخصية له، وهي تعيش في مجتمعهم ولا خيار لها في شيء، وعليه أنزلت المرأة منزلة الإماء، ولاتساوي الرجل أبداً وليس لها مثل حقوقه، وإنما تظل تحت سيطرته، وليس لها حق التصرف حتى في شؤونها الخاصة. (٢)

وعلى هذا فلم يعرف المجتمع الهندي المساواة بين أفرادها في الحقوق والواجبات، وقد عانى البؤساء من الطبقات الأخرى وخصوصاً طبقة المنبوذين الظلم والإضطهاد من جراء قوانين الشريعة البرهمية وأحكامها.

ب- الديانة البوذية: (٤)

(١) نفس المرجع السابق ص (٥٥-٥٦).

(٢) نفس المرجع السابق ص (٥٨).

(٣) ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص (٥١)

(٤) ولد مؤسس هذه الديانة عام (٥٦٢ ق.م) في الناحية الشرقية

من الهند، وينحدر من قبيلة (ساكبا) من الطبقة الكشترية،

شب في النعيم والترف والجاه العريض، إلا أنه لم يرضخ

لهذه الحياة الرغيدة، فخرج يبحث عن حقيقة الحياة حتى

استقر رأيه فيما بعد على أن الحياة هي الألم، والألم من

الشهوات، وسبيل وقف الألم هو الانعزال والإنقطاع، وعلى

ذلك دون وصاياها وألقاها على مريديه، وكان اسمه (سفهاتا)

ثم ترهب فسموه (فرتاما) أي أسير الفلسفة، وظل يتنقل فترة

باحثاً عن الحقيقة، حتى الكشف له الغطاء فسمي من بعد

(بوذا) أي المعارف المتيقظ والعالم المتنور.

قصة الحضارة وول ديورانت ٧٢/٢-٧٤.

إن تعاليم هذه الديانة لم تعرف المساواة كمبدأ إنساني، أو حق ثابت من حقوق البشر، حيث قامت تعاليم بوذا ووصاياه على نظام الرهبنة وفكرة التصوف، وهي بذلك لاتخرج عن طابع الأديان القائمة في الهند، والداعية في جملتها إلى التصوف والرهبنة والمزوف عن الدنيا، ومحاربة الشهوة، وترك الدنيا ولذائذها والغناء في عالم الروح، وليس هناك مايدل على أن بوذا قد جاء بتعاليمه هذه ليصلح النظام الاجتماعي القائم، أو أن هدفه الأسمى كان القضاء على الظلم الاجتماعي الذي كان سائداً والنظام الطبقي الجائر الذي كان آخذاً بمقاليد الأمور جميعاً مسيطراً على تصرفات الأفراد وطابع حياتهم. (١)

كما قصر بوذا دعوته للانخراط في الديانة البوذية على الرجال دون النساء، وإن كان قد سمح لهن بعد ذلك بالانضمام إلى جماعته. (٢)

فاستبعاد المرأة وعدم قبولها فترة من الزمن في جماعته، إضافة إلى تصريحه لأتباعه أن يخيروا ويبدلوا مايمتبرونه حجر عثرة في سبيل انتشار تعاليمه، مما يؤكد عقم الأصالة في تعاليمه، ومنافاتها لمبدأ المساواة الإنسانية، لقصره حق المساواة على من دخل البوذية، بمعنى أن من لم يدخل البوذية فليس أهلاً لأن يساوي بهم في الحقوق الإنسانية. (٢)

ج- المساواة في الديانة الكونفوشيوسية:

تنسب هذه الدعوة أو الديانة لفيلسوف صيني اسمه

(١) تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية للدكتور

مصطفى الخشاب ص(١٢).

(٢) حقوق الإنسان للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص(٢٠١).

(٢) أنظر أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي ص(١٧٥).

(كونفوشيوس) (١) وكان لأرائه أعظم الأثر في الحياة الصينية القديمة. (٢)

نادى بالمبادئ الاشتراكية، فدعا إلى إذابة الفوارق بين الطبقات، وتحقيق المساواة، وقرر أن المساواة المنشودة لا تتحقق إلا بالتعليم، الذي به يمي أفراد الشعب الحقائق، ويدرك كل منهم مركزه الاجتماعي، ركز على فكرة العناية بالمعجزة والمقعدين، والقضاء على الحسد والطمع في النفس، ونشر لواء السلم. (٣)

إلا أن مما يناقض مبدأ المساواة التي نادى بها هذه الديانة، أنها أقرت الرق بكل صوره وأشكاله القائم عليها في العالم القديم، واعتبرت الرق أمر ضروري ومألوف (٤)، كما أقرت نظام الإقطاع والسلطة الأبوية في الأسرة، حيث اعتبرت أن من حق الأب - إذا ما اضطرته الظروف - أن يبيع أولاده وزوجته ليكونوا عبيداً (٥).

وهذا يدل على قصر آراء كونفوشيوس في تحقيق مبدأ المساواة كحق إنساني.

(١) ولد هذه الفيلسوف عام (٥٥١ ق.م) في مدينة (تشوفو) إحدى المقاطعة التي تسمى الآن (شان شونج) درس مختلف العلوم التي كانت معروفة في ذلك الوقت، تقلد وظائف هامة في مملكة الأمبراطور (لو) مثل كبير القضاة، ثم وكيلاً لوزارة الأشغال العامة، ثم عين وزيراً للعدل، فاستطاع القضاء على الجريمة فذاع صيته في داخل البلاد وخارجها، توفي عام (٤٧٩ ق.م) عن اثنين وسبعين عاماً.
تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية للدكتور مصطفى الخشاب ص (٤٤-٤٥).

(٢) حقوق الإنسان لعبد الوهاب الشيشاني ص (٢٠٢).

(٣) تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية

للدكتور مصطفى الخشاب ص (٥٠).

(٤) قصة الحضارة وول ديورانت ٦٤/٤.

(٥) مبدأ المساواة في الإسلام تأليف الدكتور

فؤاد عبد المنعم أحمد ص (٥٠).

د- المساواة في الديانة الزرادشتية: (١)

قامت هذه الديانة في بلاد فارس على أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات تتميز فيما بينها في الاستمتاع بالمنافع العامة، كما تتميز في أداء التكاليف الاجتماعية. (٢)

فمن حيث التمتع بالحقوق: فيملك الملوك حق الأمر المطلق، وعلى الجميع الطاعة، يليهم طبقة رجال الدين ثم يليهم الأشراف، حيث يتكون منهم مجلس في خدمة الملك، كما يتألف منهم المجلس التشريعي، والسلطة التنفيذية، كما يتولون تحصيل الضرائب، ويمنحهم الملك الأقطاعات الواسعة من الأراضي الزراعية وغيرها، ثم تأتي بعدهم طبقة العامة، وهم الذين لا يرقون بحال لمساواة من سبقتهم في الحقوق. (٣)

إضافة إلى أن بلاد فارس قد عرفت الرق بكافة صوره وأشكاله المعروفة في العالم القديم، بل ومارسته في أقبح صوره، فأباحت استغلال الأماء للدعارة في معابدها، كما أباحت للسيد قتل عبده إذا رغب في ذلك عند تكرار خطئه، وأغلقت كافة الأبواب التي تشجع على تحرير الرقيق، بل اعتبرت صفة العبودية فرضاً دينياً. (٤)

من هذا يتضح أن الديانة (الزرادشتية) لم تعرف أيضاً مبدأ المساواة كحق إنساني، بل كان كل ما هو قائم من نظم المجتمع، وقواعد هذه الديانة وتعاليمها منافية لهذا المبدأ.

-
- (١) الزرادشتية: نسبة إلى (زرادشت) وهو فليسوف فارسي، كان يدعو إلى إقامة دولة (أهوراموزا) وهو الإله عند زرادشت. حقوق الإنسان لعبد الروهاب الشيشاني ص (٢٠٥).
 - (٢) مبدأ المساواة في الإسلام للدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد ص (٥١).
 - (٣) قصة الحضارة وول ديورانت ٤١٦/٢.
 - (٤) الرق في الإسلام للدكتور أحمد شفيق ص (١٢).

٢- المساواة في الديانة اليهودية والمسيحية:

أ- الديانة اليهودية:

تعتبر هذه الديانة أتباعها من أفضل شعوب الأرض قاطبة، فهم على ذلك الشئب المختار، أما غير أتباع الديانة اليهودية فهم شئب وضيع بحسب النشأة الأولى، وقد خلقتهم الله ليكونوا رقيقاً لإسرائيليين. (١)

كما أن تعاليم اليهود تسمح لليهودي أن يفتش غير اليهودي وأن يسرقه، بل يباح له حتى أن يقتله. (٢)
أما معاملة اليهود للرقيق من غير اليهود، فقد كان طابع التسوة والعنف وسوء المعاملة هو الطابع المميز لتلك المعاملة، واعتبروا رق اليهودي ست سنوات، أما غير اليهودي يظل رقه أبد الآبدين. (٣)

أما المرأة فهي محرومة في شريعة بني إسرائيل من حقوقها المدنية، فلا تملك، ولا تتولى ولاية عامة أو خاصة، وليس لها أن تعمل بالتجارة، ولا تعقد المعاملات، وأن كل ما تملكه أو يهدي لها فهو لزوجها كالرقيق تماماً حيث يرجع المال لسيد. (٤)

ذلك أنها مصدر الخطيئة في إعتبارهم، لأنها دفعت في الأصل آدم للأكل من الشجرة المحرمة في الجنة ومخالفة الرب، وهي بذلك تحمل الخطيئة للرجل دائماً، ولو لم تشترك فيه.

كما أنهم إعتبروها في مكانة من الإهانة والذل، معللين ذلك بأنها نجسة لما يصيبها من حيض ونفاس، فلا يؤكل من طعام صنعته ولا تؤاكل وقت حيضها، ويجب إعتزالها حتى تطهر. (٥)

يتضح من ذلك أن الشريعة اليهودية التي صنعها اليهود شريعة عنصرية قبيحة، لاتصلح بوضعها القائم لبناء أمة، أو تحقيق عدل أو مساواة.

-
- (١) حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص(١٢).
 - (٢) التلمود شريعة بني إسرائيل/ اعداد وترجمة محمد صبري ص(٢٧).
 - نقلاً عن كتاب حقوق الإنسان للشيشاني ص(٢١١).
 - (٣) حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص(٢١٢).
 - (٤) حقوق الإنسان وحياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص(٢١٢).
 - (٥) مقارنة الأديان (اليهودية) للدكتور أحمد شلبي ص(٢٠١).

ب- الديانة المسيحية:

كانت في بدايتها دعوة روحية بحتة، يدعو إلى محبة الله، ومحبة الإنسان لأخيه الإنسان، والتساوي بين أبناء الجنس البشري، وهدم التمسك الإقليمي الذي ساد الشعوب التي سبقتها. (١)
ثم مالبت أن أخذت تغيير في هذا الاتجاه، وتدعو إلى إثبات نظام الرق كطبقة واقعة مماثلة لأنظمة التي سادت في الشعوب القديمة، حتى أصبح نظام العبودية في نظر المسيحية ضرورة في المجتمع. (٢)

أما المرأة فقد كانت نظرة الديانة المسيحية إليها استمراراً للأصل الذي استندت إليه الديانة اليهودية بأنها سبب الخطيئة. وعليه فقد جعلت الشريعة المسيحية المرأة خاضعة لسلطة الرجل ودونه في المركز القانوني من حيث سلطة التملك أو الحيازة المالية. (٢)

ما مر يتضح أن الديانة المسيحية ما عرفت المساواة كمبدأ إنساني وضروري لإقامة العدالة بين البشر وتحقيق سمادتهم.

* * *

-
- (١) تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية للدكتور مصطفى الخشاب ص (٢٢٤)
(٢) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٢١٢)
(٣) أنظر الحجاب للشيخ أبو الأعلى المردوي ص (٢٨).

المطلب الثاني

المساواة في النظم المعاصرة

حتى يتبين مفهوم مبدأ المساواة في النظم المعاصرة، ومدى تحقيق هذا المبدأ في عالم الواقع وهل استوفى كل المجالات الإنسانية التي تستدعي المساواة فيها، أم اقتصر على بعضها، وأغفل البعض الآخر، فيما نادت به النظم الديمقراطية في فرنسا والولايات الأمريكية المتحدة في وثقائها وإعلاناتها لحقوق الإنسان، وأيضاً في الفكر الاشتراكي والفكر الماركسي الشيوعي.

فإننا -باذن الله- سوف نقسم هذا المطلب إلى فرعين رئيسيين نعرض فيهما لموقف تلك الدول، عن مبدأ المساواة، مع إشمال كل فرع على جوانب، وذلك ضمن الترتيب الآتي:

أولاً- المساواة في النظم الديمقراطية:

- ١- المساواة في فرنسا.
- ٢- المساواة في الولايات الأمريكية المتحدة.

ثانياً- المساواة في النظم الاشتراكية:

- ١- مبدأ المساواة في الفكر الاشتراكي.
- ٢- مبدأ المساواة في الفكر الشيوعي.

* * *

أولاً- المساواة في النظم الديمقراطية:

تستند نظم الديمقراطيات الغربية في فلسفتها إلى المذهب الفردي، والذي يقوم على تقديس الفرد، وجعله المحور الأساسي في بحث الحقوق، وأن المجتمع لم يتم إلا لخدمة الأفراد وحماية حرياتهم، وتقرير المساواة بينهم في ممارسة الحريات، والتمتع بكافة الحقوق الطبيعية للإنسان. (١)

وقد تبلورت تعاليم المذهب الفردي وتأكدت في إعلانات الحقوق الفرنسية والأمريكية.

(حيث نص الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان الصادر عام ١٧٨٩م على (أن الناس يولون ويعيشون أحراراً ومتساوين في الحقوق، ولا يمكن أن تقوم الفروق الاجتماعية إلا على المنفعة العامة).

كما نصت وثيقة الاستقلال الأمريكي في مقدمتها على (أننا نعد هذه الحقائق واضحة من تلقاء نفسها، وهي أن جميع الناس خلقوا متساوين، وأن خالقهم قد وهبهم حقوقاً معينة لا يمكن تجريدهم منها. وأن الحكومات قد قامت بين الناس لضمان هذه الحقوق)). (٢)

وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن القول بثقة بأن المساواة أمام القانون قد تحققت في تلك الفترة في تلك الدول، لبناء بعض الظواهر الدالة على قدم تحقيقها، إلى جانب أن طبيعة المساواة التي تؤدي بها كانت المساواة القانونية وليست المساواة الحقيقية أو الواقعية القائمة على تكافؤ الفرص وتمادل الإمكانيات والوسائل لتحقيقها.

وذلك كالأبقاء على امتياز الإبن الأول للاحتفاظ بلقب الأسرة وملكيته، وكإباحة القانون في فرنسا إعطاء امتياز لبعض الفئات رفيعة المستوى بأخذ رواتب عالية وزائدة عن المألوف، كما بقي قانون الانتخاب يحمل في طياته وتطبيقه شروطاً تتنافى ومبدأ الاقتراع العام، كقصر الانتخاب على دافعي الضرائب لخزينة الدولة، وبذلك اقتصر حق الانتخاب في الأغنياء دون الفقراء. (٢)

(١) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية لدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص(٢٢٢)

(٢) نفس المرجع السابق ص(٢٢٥).

(٣) مبدأ المساواة في الإسلام للدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد

ص(٢٥٥-٢٥٦).

وبذلك يلحق التصور مبدأ المساواة مواد الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان.

وأستمر الوضع على ذلك إلى أن جاء دستور فرنسا عام ١٩٤٦م ودستور عام ١٩٥٨م، حيث أقرت فيهما المساواة في كافة الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، كما قرر تكافؤ الفرص بين الأفراد، إلى جانب أن الدستور الأخير قد اعترف بحقوق المرأة السياسية ومساواتها بالرجل في حق الانتخاب والترشيح. (١)

أما عن المساواة في الولايات المتحدة الأمريكية، فهناك عدة صور ومظاهر تدل على الإخلال بمبدأ المساواة التي أعلنتها في وثائقها من حيث التطبيق في مختلف شئون الحياة والتعامل في المجتمع الأمريكي، وأكثر ما تبرز تلك الصور والمظاهر في المجالات التالية:

١- الحقوق السياسية:

لم يكن الزوج الأمريكيين على قدم المساواة عن مجتمع البيض في ممارسة حقوقهم السياسية في الانتخاب، هذا إلى جانب ممارسة البيض أشد أساليب العنف والتعذيب الجسدي والتقتيل والإحراق بالنار ضد السود الذين يمارسون حقهم في الانتخاب.

وثل الأمر كذلك حتى صدر قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٤م حيث أقر حق التصويت للزوج بالتساوي مع البيض دون قيود. (٢)

٢- المرافق العامة:

ومن أهم المرافق العامة التي حصلت فيها التفرقة العنصرية بين السود والبيض في الولايات المتحدة الأمريكية: مجال التعليم؛ حيث مارست معظم الولايات التي يتكون منها الاتحاد وعلى رأسها الولايات الجنوبية سياسة العزل في التعليم، فالبيض مدارسهم، وللسود مدارسهم، وليس لأسود اللون أن يشارك البيض في هذا المرفق، إلى جانب أن مدارس البيض تمتاز في كل شيء عن مدارس السود؛ وخاصة في نوعية التعليم ومستواه، ومستوى الاستعدادات الهيا لمدارس البيض. (٣)

(١) نفس المرجع السابق ص (٢٥٨).

(٢) التفرقة العنصرية للدكتور أحمد سويلم العمري ص (٧٤).

(٣) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٢٢٩).

وعن المرافق العامة التي تمارس فيها أيضاً التفرقة العنصرية بين البيض والسود في الولايات المتحدة: مرفق خدمات النقل، حيث خصصت مقاعد للبيض ومقاعد للسود في وسائل النقل. (١)

وهكذا نلاحظ الوضع الغريب الذي أوجده الأمريكيون البيض في الولايات المتحدة، والذي يدل على رغبتهم الأكيدة في ممارسة العداة والظلم والكرهية والاستملاء ضد الزوج، فالأمريكي الأبيض لا ينظر إلى السود إلا على اعتبار أنهم عبيد أفلتوا من يده وسيطرته بالتعديلات الدستورية، وقوانين الحقوق المدنية في بلاده، فهم لذلك لا يستحقون أية رحمة أو شفقة منه.

وهناك صور أخرى كثيرة من التفرقة العنصرية التي يمارسها البيض في الولايات المتحدة مع الزوج في مرافق شتى، كالمستشفيات والفنادق والجيش والمواصلات ومناطق الإسكان وغيرها: حيث يحرم الزوج عن الفرص المتكافئة فيها مع البيض. (٢)

٢- التفرقة في مجال العمل والكسب والوظائف:

وتمارس التفرقة في مجال العمل والكسب، بحرمان السود من مزاولة أي عمل ذا دخل مجز، بسبب أصلهم ولونهم، وذلك بفض النظر عن كفاءتهم أو مقدرتهم التي تماثل أو قد تفوق مقدرة الرجل الأبيض على القيام بنفس العمل.

ولذا فإن الرجل الأسود تواجهه مشكلة البحث عن عمل بشكل مستمر، فإذا التجأ إلى النقابات فإنه يصادم بتقوايتها وأوضاعها العمالية، حيث لاتأخذ بعض تلك النقابات بسياسة المساواة والاندماج بين جميع العمال في تنظيم عمالي واحد، وخاصة في ولايات الجنوب، مما ترتب عليه انخفاض في أجر العامل الأسود في المتوسط عن العامل الأبيض. (٢)

-
- (١) حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص(٤٢).
 - (٢) ثورة الزوج في أمريكا للدكتور عبد الملك عودة ص(١٦٠).
 - (٣) أنظر الإسلام والتمييز العنصري تأليف صلاح الدين الأيوبي ص(٧٠).

٤- التفرقة في مجال الحماية القانونية:

تمارس أجهزة البوليس في الولايات المتحدة التفرقة بين السود والبيض، فلا تهني للزواج إلا أقل قدر من الحماية القانونية، كما تمارس ولايات أمريكية إجراءات قضائية غير عادية مع السود، فمن ذلك منع بعض الولايات أن يكون أحد أعضاء هيئة المحلفين في محاكمة الزوج زنجياً، مهما كانت كفاءته ومقدرته بسبب لونه.

وقد دفعت تلك الأوضاع بالزواج الأمريكيين لشن حرب لاهوادة فيها من أجل الحصول على المساواة القانونية، في الوقت الذي يعلمون فيه -ومن تجارب سابقة- أن القانون كما تتضمنه سجلات التشريع أو أحكام المحاكم قد لا ينفذ المسائل من الناحية العملية، ولكنه يرسم إطاراً للعمل)). (١)

يتضح من كل ما سبق بيانه، أن أمريكا لم تعرف مبدأ المساواة كمبدأ إنساني على أرض الواقع والتطبيق إلا في مجتمع الرجل الأبيض، وبين البيض وحدهم، أما غير البيض فلم يعترف بأهليتهم كبر في استحقاق المساواة مع البيض.

(إلى جانب استمرار تعصب البيض ضد السود وإزدراءهم، وما يتبعونه من وسائل لاغتصاب الحقوق وإزهاق الأرواح، وكبت الحريات، والضرب بالدستور وتعديلاته عرض الحائط، مما يعد وصمة عار في جبين الإنسانية). (٢)

* * *

-
- (١) حقوق الإنسان وحياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٢٤٥)، والتفرقة العنصرية للدكتور أحمد سويلم العمري ص (٨٤).
- (٢) التفرقة العنصرية للدكتور أحمد سويلم العمري ص (١٠٦).

ثانياً- المساواة في النظم الاشتراكية:

من الأسس الرئيسية التي تقوم عليها المذاهب الاشتراكية على اختلاف اتجاهاتها تحقيق المساواة بين الناس، وإن كانت تختلف فيما بينها في الأساليب التي يعتمدها كل اتجاه لتحقيق ذلك الهدف تبعاً لاختلاف نظرة كل مذهب لأولويات التي يجب أن يبدأ منها، ولاختلافها في مفهوم المساواة التي يجب أن تتحقق. (١)

وسأتكلم هنا بإيجاز عن مبدأ المساواة في الفكر الاشتراكي، وفي الفكر الشيوعي.

١- مبدأ المساواة في الفكر الاشتراكي:

اختلفت نظرة المذاهب الاشتراكية في تحديد مفهوم مبدأ المساواة الذي يجب أن يتحقق بين أفراد المجتمع: وإن كانت جميعها قد قصرت المساواة في المجال المادي، وأغفلت في نفس الوقت العامل الروحي والإنساني لمفهوم هذا المبدأ الذي لا يمكن أن يستقيم بدونهما. ويتضح ذلك معنا من خلال عرض نظرة كل اتجاه لمفهوم مبدأ المساواة على النحو التالي:

١- فإتجاه يرى أنه يجب أن يتساوى أفراد المجتمع في الجهود الذي يقومون به للحصول على منافع متساوية، وأخذوا بما أسماه (بالمساواة في الجهود)، إذ لا ينبغي في نظرهم إلزام فرد ما بجهود يزيد على ما يقدمه الآخرون في المجتمع في سبيل الحصول على وسائل الانتفاع اللازمة للجماعة. (٢)

ودعوى هذا الاتجاه عديمة الفائدة، لأنها تدعو إلى تحقيق المساواة في مقدار العمل المطلوب من كل فرد في المجتمع، وهذا يؤدي إلى قتل الحوافز، وبالتالي إلى إلحاق الضرر الجسيم بتقدم المجتمع، ذلك لأن قدره الأفراد وكفاياتهم واستعداداتهم ليست متساوية، وهذه حقيقة ماثلة في كل مجتمع من المجتمعات البشرية.

(١) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص(٢٦٥).

(٢) تاريخ الفكر السياسي للدكتور ابراهيم إباضة، والدكتور عبد العزيز الغنام ص(٢٠١).

ب- وإتجاه يرى وجوب إتاحة الفرصة لكل إنسان في المجتمع للحصول على وسيلة إنتاج تتلائم وعمله الذي يعمل فيه، سواء أكانت علمية أو عملية أو فنية، وأخذوا بما أسموه (بالمساواة في وسائل الإنتاج). (١)

وفي هذا الإتجاه أيضاً تصور واضح في فهم مبدأ المساواة، حتى على مستوى المبدأ المادي والمساواة المادية، إذ ليس من المفروض في كل إنسان عامل في المجتمع أن يكون بحاجة إلى وسيلة إنتاج تخصه، بحيث لا يتم العمل إلا بها. (٢)

ج- وإتجاه ثالث أخذ بما يسمى (بالمساواة الحسابية) بمعنى أن تتم وسائل الإنتاج في الجماعة تقسيماً حسابياً بعدد أفراد الجماعة بالتساوي. (٣)

وهذه الدعوى غير عملية، ولا يمكن تحقيقها على الشكل الأمثل، وقد أثبتت التجارب المتكررة فشلها على مستوى قرية أو قرى، فكيف بالمجتمعات الكبيرة؟ إضافة إلى أنها تقضي على روح التحفز والمبادرة من قبل القادرين على عمل أفضل من حيث الكيف أو الكم، خصوصاً إذا كان معلوم لديهم منه البداية بتساوي الجميع في الكسب، وليس هناك أمل في الحصول على كسب أكبر. (٤)

ومجمل القول: أن المساواة في الفكر الاشتراكي قد قُصرت على المجال المادي، وبذلك شجعت الأنانية الفردية وهي داء المجتمع وعدوه اللدود، وعجز الفكر الاشتراكي عن تحقيقها في كل المجالات بين الناس في المجتمع.

*

*

*

(١) نفس المرجع السابق ص(٢٠١).

(٢) حقوق الإنسان للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص(٢٦٩).

(٣) تاريخ الفكر السياسي للدكتور ابراهيم أباطة،

والدكتور عبد العزيز الغنام ص(٢٠١).

(٤) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب

الشيشاني ص (٢٦٨).

٢- مبدأ المساواة في الفكر الشيوعي:

يمر مبدأ المساواة في نظر الشيوعيين بطورين رئيسيين تبعاً لما تمر به الشيوعية:

ففي الطور الأول:

(يقرر المذهب الشيوعي في هذا الطور أن مبدأ المساواة يحمل الطابع البرجوازي، حيث يتم فيه توزيع الدخل على العمال تبعاً لما يقدمونه من عمل، حيث يكون من حق كل فرد أن ينال من المجتمع بقدر ما قدمه من عمل له، ولكن بعد استقطاع جزء من هذا الدخل للحاجات الاجتماعية الأساسية.

ويرى ماركس (١) أن توزيع مواد الاستهلاك في هذا الطور، إنما يكون حسب العمل الذي يقدمه العامل (لحسب الحاجة). (٢)

ولذلك كانت المساواة في هذا الطور مساواة شكلية، لأنها لاتراعي الظروف الاجتماعية المتغيرة للعامل كزواجه وعدد الأولاد والإعالة.

-
- (١) ولد كارل ماركس بمدينة (تريف) بألمانيا عام ١٨١٨م، وتلقى العلم في جامعة (بون دبرلين) حيث درس القانون والفلسفة والتاريخ، اقتحم ماركس ميدان السياسة لأول مرة عام ١٨٤٢م، ذهب إلى باريس وهناك أسس مجلة (الحوليات الفرنسية الألمانية)، ثم طردته الحكومة الفرنسية، فرحل إلى إنجلترا واشترك مع مفكري الإنجليز في وضع بيان الحزب الشيوعي عام ١٨٤٨م، ومن أهم مؤلفاته: (رأس المال) و (بؤس الفلسفة) و (نقد الاقتصاد السياسي) توفي ماركس عام ١٨٨٢م.
- المذاهب والنظم الاقتصادية للدكتور محمد حلمي مراد ص (١٠٢) وتاريخ الفكر السياسي للدكتور ابراهيم أباطة، والدكتور عبد العزيز الغنام ص (٢٠٩).
- (٢) انظر كتاب نقد برنامج غوتا، تأليف ماركس، طبعة دار التقدم بموسكو ١٩٦٨م، ص (١٦-١٨)، نقلاً عن كتاب حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٢٧٢)

وفي الطور الثاني:

تتحقق على حد زعم ماركس المساواة المطلوبة في النظام الشيوعي، وهي المساواة الواقعية، اعتماداً على الظروف الاقتصادية.

فالمساواة التي يؤمن بها الشيوعيون هي المساواة المادية (١). ويقولون: يتداعي النظام الطبقي في المجتمع الذي يحوي المشقفين والعمال كطبقتين، بتشقيف العمال من جهة، وقيام المشقفين بالعمل من جهة أخرى فينشأ من جراء ذلك مجتمع يتكون من عمال مشقفين، ومن شأن ذلك الدمج أن يؤدي إلى زيادة الإنتاج، ورفع كفايته، كما يؤدي -في نظر ماركس- إلى أن يتساوى الكل طوعاً في العمل، لأنه سيئال من الإنتاج ما يكفي حاجاته بحرية، وبذلك يقضي على الطبقات بفضل الأوضاع الاقتصادية الجديدة. (٢)

(يتضح مما سبق أن المساواة التي يسمى الشيوعون -وعلى رأسهم ماركس- إلى تحقيقها، إنما هي مساواة في الشهور العام بين أفراد المجتمع بأنهم متساوون، وذلك بالقضاء على مظاهر التمايز بينهم، وبالقضاء على إمكانية التملك لأي فرد في المجتمع، لأن الملكية الفردية هي التي خلقت لدى الأفراد الشهور بعدم التساوي.

كما أن المساواة التي نادى بها كارل ماركس قد أغفلت طبيعة الإنسان، والنوازع النفسية منها والفريزية، لأنه اعتمد في بناء نظريته على ما أسماه (بالوجدان المثالي) أي الثابت غير المتغير أو المتطور.

كما أن ماركس قد أغفل تماماً عامل الحرية الذي يفصل بين الإنسان وغيره، حين ادعى فيه التمتع بوجدان مثالي، ثم ثباته على قبول الأوضاع الاقتصادية الجديدة دون دوافع أو حوافز.

(١) تاريخ الفكر السياسي للدكتور ابراهيم أباطة،

والدكتور عبد الميز الغنام ص(٢٢٦).

(٢) المذاهب والنظم الاشتراكية للدكتور محمرد عاطف البنا

ص(٥٢٧-٥٢٨).

وهذا المفهوم يسمح على غير الإنسان وغير العامل، كالحيوان مثلاً، لأنه لا يتمتع بحرية، ويمكن ترويضه بالقوة لتقبل أوضاع معينة تغيّر طبيعته.. أما الإنسان فهو غير ذلك ولا يمكن ترويضه على ما يناقض حريته المفظور عليها). (١)

ومن هنا ندرك أن المساواة التي يسمى الشيوعيون بتحقيقتها بوسائل القهر والعنف وكبت الحريات ليست هي المساواة الحقيقية التي تنشدها البشرية كحق إنساني..

*

*

*

(١) انظر حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٢٧٧) وما بعدها بتصرف وإختصار.

المبحث الأول

مفهوم المساواة

المبحث الأول:

مفهوم المساواة

- مساواة مساواة: أي مائله وعادله قدرأ وقيمة، ومنه قولهم :
(هذا يساوي درهما) أي تعادل قيمته درهماً،
(واستوى القوم في المال إذالم يفضل منهم أحد على غيره) (١).
وسواء الشيء: وسطه، وغيره، ومثله. (٢)
وجمعها أسواء وسواسية وسواس. (٣)
والسواء: العدل، قال تعالى: ((فأنبذ إليهم على سواء)) (٤)
(أي عدل من الحكم) (٥)

(وتستعمل لفظة المساواة بمعان شتى كالمشابهة والمماثلة والتكافؤ ونحو ذلك) (٦).
ومنه قوله تعالى: ((قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا)) (٧).
ومن معنى المماثلة قوله تعالى ((قل إنما أنا بشر مثلكم)) (٨).
ومن معنى التكافؤ قوله صلى الله عليه وسلم: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم)) (٩).
ويختلف مفهوم المساواة في الإسلام عن مفهومه في المذاهب المختلفة، لأنها في
الإسلام تعني المماثلة والتكافؤ في الحقوق والواجبات الشرعية، بحيث يكون التمايز على
أساس الالتزام بمنهج الله في هذه القضايا وترك أي تمايز بغير ذلك.
أما عند أصحاب المذاهب المعاصرة فيختلف مفهوم المساواة تبعاً لفلسفة كل مذهب.

-
- (١) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٢٥١) والمعجم الوسيط ٤٦٦/١ .
 - (٢) - مختار الصحاح للرازي ص (٢٢٢).
 - (٣) - مقاييس اللغة ١١٢/٢، والمعجم الوسيط ٤٦٦/١ .
 - (٤) - سورة الأنفال الآية (٥٨)
 - (٥) - زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢٧٢/٢ .
 - (٦) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٥٢١).
 - (٧) - سورة البقرة الآية (٦٨).
 - (٨) - سورة فصلت الآية (٦).
 - (٩) - أخرجه أبو داود في سننه/كتاب الديات/ باب إيقاد المسلم والكافر ٥٢٢/٢ .
وأخرجه النسائي في سننه/كتاب القسامة/باب القود بين الأحرار والمماليك في
النفس ١٩/٨. قال المنذري: وأخرجه أيضاً ابن ماجه. وقد أخرج
البخاري في صحيحه من حديث أبي جحيفة وهب عن عبدالله السوائي
قال: سألت علياً رضي الله عنه: هل عندكم شيء مما ليس في
القرآن؟ فقال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر
مختصر سنن أبي داود ٢٢٩/٦ .

(فهي في المذهب الفردي (١) :

المساواة القانونية وليست المساواة الفعلية، بمعنى أن يكون الأفراد جميعاً متساوين في حماية القانون لهم، كما أنهم يتساوون في التكاليف أمام القانون، وذلك دون اعتبار لعوامل الثروة أو الجنس أو اللون أو الدين .

ويدخل في هذا المعنى أيضاً أن المساواة لا تستلزم تدخلاً إيجابياً من الدولة، بل هو التزام سلبي إزاء جميع الأفراد على قدم المساواة .

أما في المذهب الاشتراكي :

فتعني المساواة التقريب في الفوارق المادية بين الأفراد وتحقيق تكافؤ الفرص بينهم (٢) .

* * *

-
- (١) - يقوم المذهب الفردي على تقديم الفرد ، وجعله المحور الأساسي في بحث الحقوق ، وأن المجتمع لم يقم إلا لخدمة الأفراد وحماية حرياتهم ، وتقرير المساواة بينهم في ممارسة الحريات والتمتع بكافة الحقوق الطبيعية للإنسان ، وتستند نظم الديمقراطيات الغربية في فلسفتها السياسية إلى المذهب الفردي / حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٢٢٢) .
- (٢) - أنظر الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام للدكتور عبد الحليم حسن العيلي ص (١٠) .

البحث الثاني

أسس المساواة ودعائمها

وينقسم إلى مطلبين :

المطلب الأول * أسس المساواة في الإسلام .

١ - وحدة الأصل .

٢ - وحدة التكليف .

٣ - الجميع محاسب أمام الله .

المطلب الثاني * أهم مواطن التفاوت بين البشر حسب معايير
وقيم الإسلام .

١ - التفاوت بسبب الكفر والإيمان .

٢ - التفاوت بسبب العلم .

٣ - التفاوت بسبب الجهاد .

٤ - التفاوت في الخلق والسلوك .

٥ - التفاوت في الرزق .

المبحث الثاني :

أسس المساواة ودعائمها

جاء الإسلام بمبادئه السامية وهدية المييز، ووضع الأسس والدعائم الكبرى المعتبرة التي تساوي بين البشر جميعاً، وتجعل منهم كياناً واحداً ينبثق عن أصل واحد ليس فيه إلا ما يوجب هذا الرباط من أخوة ومودة ومحبة، وكل من ادعى ميزة على غيره بحكم الجنس أو اللون أو الأرض أو غير ذلك من الأمور العارضة، فدعواه باطل وزور وبهتان .

كما بين لهم الإسلام أن هنالك سنة إلهية من سنن الله تعالى في الحياة لا جدوى من إنكارها ولا خير في تجاهلها، تستلزم التفاوت في العلم والبذل والفداء وفي المواهب والملكات ، وما يتبع ذلك من تفاوت في حظوظ الرزق ومناصب الحياة المختلفة .
وعلى هذا يمكن تقسيم هذا البحث إلى مطلبين :

المطلب الأول : أسس المساواة في الإسلام .

المطلب الثاني : مواطن التفاوت المعتبره في الإسلام بين البشر.

ومن هنا ننتهي المقياس الجديد للفضل والإمتياز بين البشر الذي وضعه الإسلام ثم نتبين أن ذلك التفاوت الذي أقره الإسلام بين البشر، لا ينقص من قيمة المساواة بين البشر ولا يعاب الإسلام بإقراره .

المطلب الاول : أسس المساواة في الإسلام

أقام الإسلام مجتمعاً إسلامياً استطاع أن يهدم فيه قواعد التفرقة الزائفة بين البشر، وأن يضع المعيار والميزان الحق للتفاضل بين الأفراد والجماعات، والترجيح بين مختلف الطبقات والهيئات وهو مقياس الإيمان واليقين والعمل الصالح يقول تعالى:

((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) (١).

فسوى بينهم جميعاً في الواجبات والحقوق والحدود والعبادات، ومائر النواحي التي تقتضي المساواة أن تصب في شئونها، وذلك على اعتبار أسس ثابتة ودعائم صلبة.

وهذه الأسس والدعائم التي ساوى بها الإسلام بين البشر هي:

١- وحدة الأصل:

أكد الإسلام حقيقة أن الناس جميعاً خلقوا من أصل واحد حيث قال الله تعالى:

((ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً)) (٢).

(فهي نفس واحدة وزوجها منها، ومنهما ابث الرجال والنساء، فهم من أصل واحد، وهم إخوة في النسب وهم متساوون في الأصل والنشأة) (٢).

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره :

- (١) - سورة الحجرات الآية (١٢).
- (٢) - سورة النساء الآية (١).
- (٣) - العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص (٥٨).

(ينبئ الله تعالى خلقه على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة وهي آدم عليه السلام، (وخلق منها زوجها)) وهي حواء عليها السلام، وذراً من آدم وحواء (رجالاً كثيراً ونساءً) ونشرهم في أقطار العالم على إختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر) (١)

ويوضح النسفي (٢) أيضاً وحدة أصل البشر فيقول في تفسيره :
(المعنى: فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أيكم، وأنشأ هذه النفس من تراب وخلق منها زوجها حواء ونشر منها نوعي جنس الإنس وهما الذكور والإناث) (٣).

ويبين أبو السعود أن من شأن هذا التفريع من أصل واحد مشترك أن يحمي البشر من آفة الصراع والنزاع ويوجب مراعاة الحقوق الأخوية بينهم، فيقول :
(إن جعله تعالى الناس صنواً منفرعة من أرومة واحدة هي نفس آدم عليه السلام من موجبات الإحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق) (٤).

(وما أحق كلمة (الأرحام) المذكورة في الآية الكريمة أن تفسر بحيث تشمل بعمومها الرحم الإنسانية العامة لتتسق مع بداية الخطاب :
بـ ((يا أيها الناس))، ومع ذكر النفس الواحدة التي خلق الله منها جميع الناس رجالاً ونساءً وهي نفس آدم عليه السلام، وعطفها على لفظ الجلالة (الله) في هذا المقام يدل على أن لهذه الأرحام شأناً أي شأن) (٥).

يقول أبو السعود : ((الأرحام) عطفاً على الاسم الجليل أي إتقوا الله والأرحام وصلوها ولا تقطعوها فإن قطيعتها مما يجب أن يتقى :

-
- (١) - تفسير ابن كثير ٤٤٨/١ .
 - (٢) - النسفي (٦٠٠ - ٦٨٧ هـ) محمد بن محمد أبو الفضل برهان الدين ، عالم بالتفسير والأصول والكلام من سادة الأحناف ، سكن بغداد وتوفي بها له تصانيف كثيرة جليلة .
 - * طبقات المفسرين ٢/٢٥٠ . * الجواهر المضية ١/٢٧٠ .
 - (٢) - تفسير النسفي ١/٢٠٤ .
 - (٤) - تفسير أبي السعود ٢/١٢٨ .
 - (٥) - الخصائص العامة للإسلام للدكتور القرضاوي ص (٨٥) .

وهو قول مجاهد (١) وقتادة والسدي (٢) والضحاك (٣) والفراء (٤) والزجاج (٥) ولقد نبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل على أن صلتها بمكان منه كما في قوله تعالى:

((ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً)) (٦). وعنه عليه الصلاة والسلام: ((الرحم معلقة بالهرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله (٧) (٨)).

-
- (١) - مجاهد :
- (٢) - السدي (١٢٧٠٠٠٠ هـ)
- هو اسماعيل بن عبد الرحمن السدي مفسر مشهور كوفي حجازي الأصل إماماً بارعاً عارفاً بالوقائع وأيام الناس .
- * طبقات المفسرين ١٠٩/١ * تهذيب التهذيب ٢١٢/١ .
- (٣) - الضحاك (٠٠٠ - ١٠٢ هـ)
- الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم الخراساني المفسر، روى عنه تفسيره عبيد بن سليمان، قال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ثقة مأمون، وقال ابن معين وأبو زرعة: ثقة.
- أنظر ترجمته في تهذيب التهذيب ٤٥١/٤، شذرات الذهب ١٢٤/١.
- (٤) - الفراء (١٤٤ - ٢٠٧ هـ)
- يحيى بن زياد الديلمي - أبو زكريا المعروف بالفراء، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة قبيهاً عالماً بأيام العرب وبالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال كان مؤدباً لأولاد المأمون .
- * طبقات النحويين ١٢١ - ١٢٢ * وفيات الأعيان ١٨٢/٦ .
- (٥) - الزجاج (٢١٤ - ٢١١ هـ)
- ابراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة له مناقشات مع ثعلب، من تصانيفه الأمل في الأدب واللغة، معاني القرآن .
- * طبقات النحويين واللفويين ١١١/١ .
- * طبقات المفسرين ٧/١ * الأعلام ٤٠/١ .
- (٦) - سورة الأسراء الآية (٢٢).
- (٧) - رواء مسلم /كتاب البر والصلة/ باب صلة الرحم وتحريم قطعيتها ١١٢/١٦.
- (٨) - تفسير أبي السمود ١٢٩/٢ .

ويكرر القرآن الكريم ذكر حقيقة أن البشر جميعهم يتسبون لآدم وحواء في مواضع كثيرة ليقر في خلد الإنسان وحدة أصله ونشأته، كما ذكر القرآن المادة التي خلقوا منها، فالناس جميعاً يتساوون في أصل خلقتهم والمادة التي تكونوا منها، يقول الله تعالى :

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)) (١) .
وهكذا فإن الناس جميعاً خلقوا من ذكر وأنثى، فليس ثمة ما يبرر أن يدعي بعضهم سمو على بعض لأنه ينتسب إلى جنس أسمى مما عدا من الأجناس، وأنهم وإن تفرقوا مكاناً واختلّفوا ألواناً وأجناساً فليهم أن يتعارفوا، والتعارف يدعو إلى التآلف والتواد والتعاون .

وإذا كان جميع البشر من جوهر واحد فالفرق الوحيد في الإسلام، الذي يمكن اعتباره هو التمييز بين المؤمن وغير المؤمن (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالفاضل لا يكون إلا بالتقوى، وتلك مسألة لاعلاقة لها بالأصل والنشأة .

جاء في الظلال (ينادي الله تعالى الإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردها إلى أصل واحد وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق .
((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) (٢)

يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً المتفرقون شعوباً وقبائل ، إنكم من أصل واحد فلا تختلفوا ولا تفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا ببدأ، والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى، وهو يطعمكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل، أنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الأسنان والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات فتتوزع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله .

(١) - سورة الحجرات الآية (١٢) .

(٢) - سورة الحجرات الآية (١٢)

إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس :
((إن أكرمكم عند الله أتقاكم))، والكريم حقاً هو الكريم عند الله (١).
وقد سئل صلى الله عليه وسلم (أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم) (٢).

ويقول الله تعالى في بيان المادة التي خلقوا منها جميعاً :
((ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون)) (٣)
ويقول تعالى في آية أخرى ((والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من ممسر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير)) (٤).

يقول الإمام الرازي (٥) في تفسير الآيتين ((إما أن يكون المراد من قوله ((خلقكم من تراب)) أنه خلق أصلكم، وأن نقول: أن كل بشر مخلوق من التراب، أما آدم فظاهر، وأما نحن فلأننا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الأعضاء، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها، وإما من النبات، والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات، والنبات من التراب، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الشجرة لاتصير شجرة إلا بالتراب، وينضم إليها أجزاء مائة ليصير ذلك النبات بحيث يفذي)) (٦).

-
- (١) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢٢٤٨/٦ .
(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب التفسير / باب تفسير سورة يوسف ١٠٢/٢ .
(٣) - سورة الروم الآية (٢٠) .
(٤) - سورة فاطر الآية (١١) .
(٥) - الرازي (٥٤٤-٥٦٠٦) :

محمد بن عمر بن الحسن البكري القرشي - أبو عبد الله، الإمام
المفسر أو حد زمانه في المعقول وعلوم الأوائل، أصله من
طبرستان، مولده في الري، رحل إلى خوارزم، أقبل الناس على
كتبه في حياته يتدارسونها وكان واعظاً بارعاً باللغة العربية
والفارسية.

* طبقات المفسرين ٢/٢١٤ . * وفيات الأعيان ٤/٢٤٨ .

- (٦) - تفسير الفخر الرازي ٢٥ / ١١٠ .

وتقد كرر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة ذكر وحدة أصل البشر جميعهم بإتسابهم إلى أبيهم آدم عليه السلام وزوجه حواء، وبخلقتهم جميعاً من مادة واحدة وهي التراب ، فيقول عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع :

((أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى)) (١).

وبهذا جعل الإسلام وحدة الأصل والمصير سبباً في التآخي بين الناس فهم أبناء رجل واحد وإمراة واحدة... وهذا يدفع الناس إلى التآلف ونبذ الخلافات والتنازع على أساس اللون أو الجنس أو الأصل...

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تقر وحدة الأصل الذي صدر عنه الناس جميعاً وتردهم إلى نفس واحدة خلقتوا منها جميعاً، وكلهم يحملون خصائصها البشرية وينتمون إليها على سواء.

٢- وحدة التكليف:

ومن الأسس التي ساوى الإسلام بها بين البشر جميعاً وحدة التكليف من الله الواحد للجميع.

(فإن الله تعالى كلف الخلق متعبداته، والزامهم مفترضاته، وبعث إليهم رسلاً، وشرع لهم دينه، وأنزل لهم كتبه، يبين لهم شريعته فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره، واستحبه وكرهه، وأمر به ونهى عنه، وما وعد به من الثواب لمن أطاعه، وأوعده به من العقاب لمن عصاه).

(١) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب القسامة/ باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض ن ن والأموال ١١/١٦٩ .

وجعل ماكلفهم به أقساماً ثلاثة: قسماً أمرهم بإعتقاده، وقسماً أمرهم بفعله، وقسماً أمرهم بالكف عنه.

فما أمرهم بإعتقاده: إثبات توحيدهم وصفاته، وإثبات بعثته رسوله، وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، ونفي الصاحبة والولد والحاجة والقبح أجمع .
وأما ماأمرهم بفعله: فكالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد .
وماأمرهم بالكف عنه: نهيته تعالى عن القتل، وأكل الخبائث، وشرب الخمر المؤدية إلى فساد العقل وزواله، ونهيته عن الغضب والغلبة والظلم، والزنا ونكاح ذوات المحارم (١).

(فهذه التكليف وغيرها مما هو واجب على كل بالغ عاقل قادر لايسقط عن أحد مهما كانت مكاتته، ولو كان يجوز استثناء أحد لكان أحق الناس بذلك أشرف الرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه وهو الرسول المبلغ للشريعة المبشر بها لم تسقط عنه التكليف أبداً، حتى أنه تحامل على نفسه وهو مريضه مرضه الذي لقي الله تعالى بعد، حتى صلى الصلاة المفروضةعليه، بل إنه صلى الله عليه وسلم كان يكلف بتكليف زائدة عن التكليف المكلف بها سائر أفراد أمته، كما يظهر ذلك جلياً في وجوب التهجيد عليه صلى الله عليه وسلم) (٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى وحدة التكليف في قوله تعالى:

((إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)) (٢).

(وقد كان الإنسان مكلفاً لأنه يملك إرادة حرة يستطيع بها أن يختار طريقه ضمن نطاق السنن والقوانين والأقدار التي أحيط بها، ووجود هذه الإرادة هي التي ترتب مسئولية الإنسان عن جميع أعماله التي يكسبها بنفسه، وإرتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليفة وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين) (٤).

-
- (١) - أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي ص (٩٥ ، ٩٦).
 - (٢) - الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام للدكتور محمد رأفت عثمان ص (٥٤) وانظر مختصر الشامل المحمدية للإمام أبي عيسى الترمذي أختصره وحققه محمد ناصر الدين الألباني ص (١٤٥ - ١٤٧).
 - (٣) - سورة الأحزاب الآية (٧٢).
 - (٤) - معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص (١٥٨).

وقد دلت نصوص من القرآن الكريم على أن النفس الانسانية مكلفة في هذه الحياة الدنيا ضمن حدود الاستطاعة، وأن تكليفها يرتفع متى فقدت الاستطاعة، منها قوله تعالى: ((لا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِجْدًا وَرِجَالًا)) (١) .
وقوله تعالى: ((لا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَأْتَاهَا)) (٢) .
وقوله تعالى: ((لا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَمِعَهَا)) (٣) .

(إنها العقيدة التي تعترف بالإنسان كما هو بما فيه من ضعف وقوة، وتأخذه وحده شاملة مؤلفة من جسد ذي نوازع، وعقل ذي تقرير، وروح ذي أشواق، وتفرض عليه من التكليف ما يطبق، وتراعي التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إغناء، ومنها يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض، وفي ابتلائه في أثناء الخلافة، فلا يتبرم بتكليفه، ولا يضيّق بها صدره، ولا يستثقلها كذلك، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته، ولولم تكن في طاقته ما فرضها الله عليه) (٤) .

والتكليف يستتبع المسؤولية، وقد أشار القرآن الكريم إلى وحدة الشمول في مبدأ المسؤولية على جميع المخلوقات العاقلة، دون أدنى تفرقة بين عامة الناس والصالحين منها، في عدة آيات من القرآن الكريم منها

قوله تعالى : ((إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً)) (٥)
وقوله تعالى ((فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)) (٦)
وقوله تعالى ((فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين)) (٧) .
كما دلت آيات أخرى على أن مسؤولية كل نفس مسئولية شخصية، منها قوله تعالى: ((ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه، وكان الله عليماً، حكيماً)) (٨)

- (١) - سورة البقرة الآية (٢٢٢) .
- (٢) - سورة الطلاق الآية (٧) .
- (٣) - سورة البقرة الآية (٢٨٦) .
- (٤) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١/٢٤٤ .
- (٥) - سورة مريم الآية (٩٢) .
- (٦) - سورة الحجر الآيتان (٩٢-٩٣) .
- (٧) - سورة الأعراف الآية (٦) .
- (٨) - سورة النساء الآية (١١١) .

وقوله تعالى:

((قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ)) (١) .

وقوله تعالى :

((قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل

فإنما يضل عليها، وما أنا عليكم بوكيل)) (٢)

ولما كانت مسؤلية كل إنسان مسؤلية شخصية فردية، فليس من العدل أن يتحمل أمرؤ نتائج خطيئة لم يرتكبها، ولا من العدل أن يثاب إنسان بحسنات الآخرين، فلا تجزى نفس عن نفس شيئاً.

يدل على ذلك قول الله تعالى: ((واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعَةٌ ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون)) (٢) .

وقوله تعالى: ((ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)) (٤) .

وقوله تعالى: ((تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما

كانوا يعملون)) (٥) .

وقوله تعالى: ((قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون)) (٦)

(فالتبعة فردية والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولكل عمله ولكل تبعته ولكل جزاؤه، وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم، مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله، وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته وقيمه الإنسانية) (٧)

من هذا نرى كيف أن الإسلام ساوى بين البشر في التكليف والمسؤلية وجعل ذلك اسماً من أسس المساواة بين البشر ولم يفرق فيه بين أحد منهم مما يدل على أن البشر جميعاً متساوون وليس هناك ما يفضل بينهم من ميزة أو نسب إلا التقوى والعمل الصالح .

- (١) - سورة الأنعام الآية (١٠٤) .
- (٢) - سورة يونس الآية (١٠٨) .
- (٣) - سورة البقرة الآية (٤٨) .
- (٤) - سورة البقرة الآية (٢٨١) .
- (٥) - سورة البقرة الآية (١٢٤) .
- (٦) - سورة سبأ الآية (٢٥) .
- (٧) - انظر تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١/٧٠ ، ٥/٢٩٠٥ .

٢-الجميع محاسب امام الله تعالى :

الحساب والجزاء أساس من أسس المساواة بين البشر .
ذلك أن كل إنسان سيحاسب على أعماله التي يعملها ويجازى عليها، لافرق في ذلك بين
أسود وأبيض ولا بين فقير وغني ولا بين ذكر وأنثى، هم جميعاً متساوون في الحساب وفي
الثواب والعقاب يقول الله تعالى :
(وكل إنسان أزمانه طائر في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ،
اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً)) (١) .
(فكل إنسان مكلف خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به) (٢) .

ويقول تعالى: ((ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم
أحداً، وعرضوا على ربك صفات قد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل
لكم موعداً، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب
لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً)) (٢)
(فكل هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد، تحشر مجموعة مصفوفة، لا يتخلف
منها أحد، ويوضع أمامهم سجل أعمالهم، شامل دقيق لم يترك شاردة ولا واردة إلا ضبطها
وأحصاها) (٤) .

والله تعالى يبين قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار :
(من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى فاولئك يدخلون
الجنة يرزقون فيها بغير حساب) (٥) .
الحساب والجزاء الذي يتساوى فيه الجميع: الصغير والكبير، والفني والفقير، الذكر
والأنثى: ((ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، قالوا يا ويلنا من بعثنا
من مردنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع
لدينا محضرون، فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون)) (٦) .
هكذا يعلن الحساب والجزاء على الجميع، إن خيراً فخير ينالهم من الأجر والثواب، وإن
شراً فشر ينالهم من العذاب والعقاب.

(١) - سورة الأسراء الآيات (١٢-١٤) .

(٢) - انظر تفسير ابي السعود ١٦١/٥ وتفسير القرطبي ٢٢٩/٢٠ .

(٣) - سورة الكهف الآيات (٤٧-٤٩) .

(٤) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢٢٧٤/٤ .

(٥) - سورة غافر الآية (٤٠) .

(٦) - سورة يسن الآيات (٥١-٥٤) .

((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)) (١). إنه الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها.

وقد وعد الله المؤمنين والصالحين الجنة ونعيمها، ووعد الكفار والمنافقين النار وجحيمها

يقول الله تعالى :

((وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم)) (٢).

((وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم)) (٢).

إنه لجزاء إلهي الحق الذي ينتظر كل من المحسنين والمسيئين مما يؤكد أن الجميع محاسب أمام الله، وهذا يقتضي المساواة بين البشر .

* * *

(١) - سورة الزلزلة الآيتان (٧ ، ٨) .

(٢) - سورة التوبة الآيتان (٧٢) .

(٢) - سورة التوبة الآيتان (٦٨) .

المطلب الثاني

أهم مواطن التفاوت بين البشر التي أقرها الإسلام

تلك كانت أسس المساواة المعتبرة بين البشر في الإسلام، والتي أثرت حياة المجتمع بالإخاء والتواضع والعمل الصالح - كما سيتضح معنا في مبحث قادم - ولم تترك للأحساب والأنساب والجاه والسلطان باباً إلا أوصدته، وتركت باب السبق في الخيرات ميداناً سيعايتنافس فيه المتنافسون، فأقرت بذلك مبدأ التفاوت في المواهب والقدرات، مما ترتب عليه التمايز في الدرجات ومناصب العلم والجهاد .

(لكن هذا التفاوت لم يكن في منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسيلة للاستعلاء والسيطرة وإستلاب الحريات وفرض الإرادات ، إنما هو لخدمة المجموع في جو من المودة الإنسانية والأخوة الرحيمة .
ذلك أن الحياة تفتقر إلى المزايا التي تزخر بها وتستزيد من ملكاتها المتعددة كلما كان بين أفرادها تفاوت في الصفات وتفاوت في الأنصبة، وكان للتفاوت بينهم فضل يحرسون عليه ويتطلعون إلى بلوغه والتقدم فيه)) (١) .

إذن، فالتمييز بين البشر على أساس المواطن التي اعتبرها الإسلام ، سنة إلهية من سنته تعالى في الحياة بامتتضى الحكمة الإلهية، وأساس ذلك إختلاف الناس في المواهب والصفات والاتجاهات، وفي الذكاء والإستعداد للعمل .
فترى القرآن الكريم يعود بالتفاوت إلى مبادئ واضحة فلاحرة لا يمكن تجاهلها بحال من الأحوال .

من ذلك: التفاوت بسبب الكفر والإيمان يقول الله تعالى:

((أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوتون)) (٢) .

فهذا تفاوت يرجع إلى إختلاف العقيدة ، ويفرق بين المحسنين والمسيئين في الدنيا أو في الآخرة .

(وما يستوي المؤمنون والفاستون في طبيعة ولا شعور ولا سلوك، حتى يستوا في الجزاء في الدنيا والآخرة .

(١) - منهج القرآن في تربية المجتمع للدكتور عبد الفتاح عاشور ص(١٤٧) .

(٢) - سورة السجدة الآية (١٨) .

والمؤمنون مستقيموا الفطرة متجهون إلى الله، عاملون على منهاجه التويم ، والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون في الأرض لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق مع نهج الله للحياة، وقانونه الأصل، فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين في الآخرة، وأن يلتقى كل منهما الجزاء الذي يناسب رصيده وما قدمت يداه ((أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون (١) (٢)

* - ومنها: التفاوت بسبب العلم :

يقول الله تعالى: ((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)) (٢) .
فهذا تفاوت يرجع إلى إختلاف الحظ من العلم ، وليس تمييزاً في الحقوق والواجبات الأصلية ، بل هو إختلاف في التقدير والتكريم أو في النظرة والمنزلة .
(فلا يستوي العالمون والجاهلون، والاستفهام للتنبه على أن كون الأولين في أعلى معارج الخير وكون الآخرين في أقصى معارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى ذلك على أحد من منصف ومكابر) (٤) .

* - ومنها: التفاوت بسبب الجهاد :

يقول الله تعالى : ((لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً)) (٥) .

(فهذه الآية الكريمة تقرر قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس - غير أولي الضرر الذين يقدمهم العجز عن الجهاد بالنفس، أو يقدمهم الفقر عن الجهاد بالنفس والمال - عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم .

ولا يترك القرآن الكريم هذه القاعدة هكذا مبهمه، بل يوضحها ويقررها ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين :

((فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجه)) .

وهذه الدرجه يمثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامهم في الجنة :

(١) - سورة السجدة الآية (١٩-٢٠) .

(٢) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢٨١٢/٥ .

(٣) - سورة الزمر من الآية (٩) .

(٤) - تفسير أبي السعود ٢٤٥/٧ .

(٥) - سورة النساء الآية (٩٥) .

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)) (١) (٢).

وهناك تفاوت يذكره القرآن الكريم في الخلق والسلوك :
يقول الله تعالى: ((أم حسب الذين أخرجوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون)) (٢)
وهذا عدل واجب، فإدّاد يمكن أن يستوي المصلحون والمفسدون، أو المسيئون والمحسنون، أو البائتون والهدامون عند الله تعالى في الآخرة، وفي نظر المجتمع، أو أن يسوى بينهم في الحكم، وهم مختلفون في ميزان الله، والله تعالى قد أقام السموات والأرض على أساس العدل والحق .

(ويجوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب، الذين إنحرفوا عن كتابهم، واجتروا السيئات وظلوا يحسبون أنفسهم في صفوف المؤمنين، ويجعلون أنفسهم أكفأ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، أنداد لهم في تقدير الله سواء في الحياة أو بعد الممات، كما يجوز أن يكون حديثاً عاماً بقصد بيان قيم العباد في ميزان الله، ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح، وإستنكار التسوية بين مجترحي السيئات وفاعلي الحسنات، سواء في الحياة أو بعد الممات، ومخالفة هذا للقاعدة الثابتة الأصلية في بناء الوجود كله، والذي يتحقق في التفرقة بين المسيئين والمصلحين في جميع الأحوال، وفي مجازاة كل نفس بما كسبت، وفي تحقيق العدل للناس أجمعين) (٤).

كما يذكر القرآن الكريم أن هناك تفاوتاً بين البشر في الرزق :
يقول الله تعالى ((والله فضل بعضكم على بعض في الرزق، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيما نهم فهم فيه سواء أفبئعتم الله يجحدون)) (٥).
وهذا التفاوت في الرزق لا يملك المجتمع من أمره شيئاً .
(فالتفضيل في الرزق أسبابه خاضعه لسنة الله فليس شيء من ذلك جزافاً ولا عبثاً، فقد يكون الإنسان مفكراً عالماً، ولكن موهبته في الحصول على الرزق وتنميته محدودة، لأن له مواهب في ميادين أخرى.

-
- (١) - رواء البخاري في كتاب فضل الجهاد والسير/باب درجات المجاهدين في سبيل الله
 - (٢) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢/٧٤٠ .
 - (٣) - سورة الباقية الآية (٢١) .
 - (٤) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٥/٢٢٢٠ .
 - (٥) - سورة النحل الآية (٧١) .

وقد تكون بسطة الرزق ابتلاء من الله، كما يكون التضيق فيه لحكمة يريد بها ويحققها بالابتلاء، وعلى أية حال فإن التفاوت في الرزق ظاهرة ملحوظة تابعة لاختلاف في المواهب، وذلك حين تمتنع الأسباب المصطنعة الظالمة التي توجد في المجتمعات المختلفة (١).
وكم من فرص متساوية أمام البشر لاتنتهي بهم إلى مقادير متساوية في الرزق ولايملك الفرد ولاالمجتمع إزاء ذلك شيئاً، ولابد من التسليم في ذلك بدورالقدر الأعلى: ((نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفقنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخيراً)) (٢).

وهذا الاختلاف لايمكن القضاء عليه لأنه ضرورة يتوقف عليها صلاح حياة البشر واستقامة نظامها، ولايمكن أن تسير الحياة سيرها المعتدل إلا بهذا التفاوت الحق الذي يقوم على سباق شريف في الحياة .

كما أنه لايمكن لأي مذهب مهما كان أن يجعل الناس نماذج متشابهة لاتختلف في شيء، أو أن يساوي بينهم في التقدير والتكريم إلا إذا قضى على مواهبهم ومشاعرهم وآرائهم، وهذا مستحيل .

من كل ما سبق بيانه وعرضه عن مواطن التفاوت بين البشر التي أقرهاالإسلام، نرى كيف أن الإسلام أنصف قضية المساواة وأعلى رايها في مجتمعه، ببيانه أن ذلك التفاوت بين البشر هو سنة طبيعية إلهية من سنن الله في الكون لصلاح حياة البشر واستقامة نظامها، وليس هو لازدراءالبشر بعضهم بعضاً أو سلب كراماتهم وحقوقهم الأصلية بناءً على هذا التفاوت الذي بينهم، وإنما هو تفاوت لخدمة بعضهم بعضاً عمارة للكون وتحقيقاً لخلافة الله في الأرض .

(وليس في هذا غض من شأن المساواة التي وضع الإسلام أسسها ودافع عنها وحض على تطبيقها، إذ أن التفاوت بين الناس مادام قائماً على مبدأ عادل فهو لاينقص المساواة ولايزري بها .

فلا يعاب الإسلام حين قرآن هناك تفاوتاً بين البشر يرجع في أصله إلى مبدأ الموهبة والجهد الفردي، بل إن الإسلام بإقراره هذا التفاوت نجاً من شذوذ المبادئ المنحرفة التي تصورت أن بإمكانها أن تجعل الناس سواء من كل وجه، وتسفت في ذلك حتى بان لها الخطأ والضلال في هذا التصور .

(١) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٤/ ٢١٨٢ ، ٢١٨٢ .

(٢) - سورة الزحرف الآية (٢٢) .

فقد فشلت الشيوعية في محاولتها أن تطبع الناس في مجتمعا بطابع واحد، وأن تجعلهم يحيون في مستوى واحد وينالون من التقرير حقاً متساوياً، وذلك لأن تلك المحاولة هي على خلاف سنة الحياة الطبيعية التي تقتضي التفاوت بين البشر بناءً على أسباب محددة، فأصيب شعوبها بالكبت ومصادمة دوافع الحياة (١).

أما الإسلام فقد قرر أمر التفاوت بين البشر على أساس المواهب والقدرات والجهود التي تبذل في ميدان العمل، وهذا التفاوت لا يؤدي إلى صراع بين أفراد المجتمع وفئاته لأنه شرع الله تعالى، وإنما ينشأ الصراع من مخالفة التشريع الإسلامي المالي والاقتصادي، ومن ثم يصبح المال دولة بين الأغنياء ويكثر المجرمون في المجتمع ومن ثم يبدأ الصراع.

* * *

(١) - المجتمع الإسلامي أهدافه ودعائمه
للدكتور مصطفى عبد الواحد ص (٨٥) بتصرف وإختصار .

المبحث الثالث

أنواع المساواة في الإسلام

- المطلب الأول * أنواع المساواة في الإسلام
- المطلب الثاني * وجوه التفرقة بين الرجل والمرأة بالإسلام
- المطلب الثالث * موقف الإسلام من الرق

المبحث الثالث

أنواع المساواة في الإسلام

لقد عجزت النظم المعاصرة بجميع اتجاهاتها المختلفة من تحقيق مبدأ المساواة في عالم الواقع في كل مجالات الحياة التي تستدعي المساواة فيها، فأخذت بها في جانب وأغفلت جرائب أخرى مع التفريق في تطبيقها على أفراد المجتمع بسبب العنصرية البغيضة التي تمارسها تلك النظم ضد مخاليفها في الجنس واللون والأصل والمذهب أو العقيدة، مما جعل المساواة غير معروفة في تلك المجتمعات كمبدأ إنساني .

هذه الصور القبيحة في المعاملة اللاإنسانية من الظلم والإضطهاد والاستغلال والاستعباد ، يقابلها ماكفله الإسلام لأهله وللإنسانية جميعاً من مساواة واقعية تامة تناولت الجميع وفي كل مجالات الحياة دون تفريق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو لأصل .

وقد ادعى أعداء الإسلام والمتربصين به أن الشريعة الإسلامية لم تراع جانب المرأة في التساوي مع الرجل في الحقوق، وكذلك الشأن في موضوع الرق

وفي هذا المبحث سأبين مجالات المساواة في المجتمع وموقف الإسلام من قضية مساواة المرأة بالرجل وكذلك موقفه من الرق .

من هنا يمكن تقسيم هذا المبحث إلى المطالب الرئيسية التالية :

المطلب الأول : أنواع المساواة في الإسلام .

المطلب الثاني: وجوه التفرقة بين الرجل والمرأة في الإسلام
والموامل التي دعت إليها.

المطلب الثالث: موقف الإسلام من الرق .

المطلب الأول -

أنواع المساواة

قرر الإسلام مبدأ المساواة بين الناس في أكمل صورته وأمثل أوضاعه، واتخذ دعامة لجميع ما شرعه من عداقات الأفراد ومعاملاتهم بعضهم مع بعض وطبقه في جميع النواحي والمجالات التي تقتضي المساواة أن يطبق في شؤونها . فأخذ به فيما يتعلق بالحقوق المدنية كحق التعاقد والتملك، وأخذ به فيما يتعلق بالحقوق والواجبات العامة، كما أخذ به فيما يتعلق بشؤون المسؤولية والجزاء . ولقد أقامه في كل جانب من هذه الجوانب على أسس واضحة وقواعد مبنية تكفل تحقيق الخير والمنفعة للأفراد والجماعات وتحمي المجتمع المسلم من ألوان الصراع والتفرقة العنصرية .

وسأورد بإذن الله فيما يلي أهم المظاهر الدالة على تقرير الشريعة الإسلامية للمساواة في هذه النواحي، ومنهج الإسلام في تحقيقها بين الناس في المجتمع، وذلك على النحو التالي:

١- المساواة أمام الشريعة والقضاء:

وضع الإسلام أرسخ قاعدة لكفالة حق البشر في المساواة أمام أحكامه وتشريعاته، وذلك بنزعه السيادة التشريعية من يد البشر، وتقريره أن صاحب التشريع هو الله وحده سبحانه وتعالى، وأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من تشريعات، فأصلها ما أمر به الشارع سبحانه، وما النبي صلى الله عليه وسلم إلا ناقل له ومبين . وبذلك يمكن القطع بأن أي نظام يضعه البشر يعتبره النقص والتصور في تكوينه وصلاحيته لكل الجوانب وفي كل الأوقات ولجميع الناس . فالقاعدة القانونية في الشريعة الإسلامية هي من عند الله، وهو سبحانه مصدرها الحقيقي (١) .

(١) - العقوبة للشيخ أبو زهرة ص (٢٤٧) ، والسياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف ص (٥٤) .

ومبدأ المساواة بين الناس أمام شرع الله مقرر في الإسلام بأحلى بيان، أخذاً من المساواة العامة للمسلمين، ومن نصوص أخص تحتم ضرورة تطبيق الأحكام الشرعية وتنفيذها على مرتكبي الجرائم والمخالفات الشرعية دون اعتبار لأي ميزة من حسب أو نسب أو شهرة أو جاه أو سلطان أو جنس أو أصل أو لون أو لغة .

من هذه النصوص التي تقرر مبدأ المساواة أمام التشريع الإسلامي وتمنع من أن يحابي الحسيب النسيب، ويعاقب الضعيف الوضيع، الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها: أن امرأة من بني مخزوم سرقت حلياً وقطيعة فبعث قومها أسامة بن زيد بن حارثة ليشفع فيها، فردده الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً : ((أتشفع في حد من حدود الله؟ وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)) (١).

(ففي الحديث ترك المحاباة في إقامة الحد على من وجب عليه ولو كان ولداً أو قريباً أو كبير القدر، والتشديد في ذلك، والإنكار على من رخص فيه أو تعرض للشفاعة فيمن وجب عليه) (٢).

وفي قوله تعالى: ((وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن والجروح قصاص، فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)) (٣)

(يظهر أن أول ما تقرر شرعية الله في القصاص، هو مبدأ المساواة في الدماء، والمساواة في العقوبة، ولم تكن شرعية أخرى - غير شرعية الله - تعترف بالمساواة بين النفوس، فنقتصم بالنفس بالنفس، ونقتصم للجوارح بمثلها، على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والدماء والأجناس، لا تميز ولا عنصرية ولا طبقية، ولا حاكم ولا محكوم، كلهم سواء أمام شرعية الله .

أما الشرائع الوضعية فقد تختلف عن هذا المستوى في المساواة في التحاكم إلى شرعية واحدة وقضاء واحد عشرات من القرون حتى ارتفعت إلى بعض مستواء من ناحية النظريات القانونية، وإن ظلت دون هذا المستوى من ناحية التطبيق العملي) (٤).

-
- (١) - رواء البخاري في صحيحه في كتاب الحدود / باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع ٧٢/٤ .
- (٢) - فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٦/١٢ .
- (٣) - سورة المائدة الآية (٤٥) .
- (٤) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٨٩٩/٢ .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم من بعده صلى الله عليه وسلم في عهد أبي بكر وعمر وعثمان (١) رضي الله عنهم يطبقون ذلك النوع من المساواة أكمل تطبيقاً حتى أن عمر رضي الله عنه يعلن في وسط الصحابة (القوي منكم ضعيف حتى أخذ الحق منه، والضعيف قوي حتى أخذ الحق له) (٢) وقد نفذ ذلك القول تنفيذاً دقيقاً.

ومن مظاهر المساواة أمام القضاء، حادثة اليهودي الذي خصم علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوج أخته) فحضر الخصمان مجلس القضاء، فنادى عمر رضي الله عنه علياً بقوله: قف يا أبا الحسن - ليقف إلى جانب اليهودي - فبدى الغضب على وجهه لي رضي الله عنه، فقال عمر: أكرهت أن نسري بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ فقال: لا ولكني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب وناديتني بكنتيتي (٣).

وهناك أمثلة كثيرة - غير هذا - تبين ممارسة الخلفاء والأمراء وولاة الأمور للقضاء وتسويتهم بين الخصوم أمامه في مختلف عصور الإسلام الزاهرة، مما يثبت أن الجميع سواء أما القضاء في شريعة الإسلام، أكتفي عن ذكرها بالمشال الذي ذكرت.

(٣) - المساواة في حق العمل والتملك:

سواءً الإسلام بين الناس في العمل، فأعطى كل فرد الحق في أن يزاوِل أي عمل مشروع يروق له، وتكون لديه الكفاية للقيام به.

يقول الله تعالى: ((هو الذي جعل لكم الأرض ذلواً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)) (٤).
فهو سبحانه ذلّل الأرض ومهدّها، ومكّن الإنسان من العيش عليها، وجعلها صالحة لكسب الرزق والعمل فيها لكل إنسان.

(١) - عثمان بن عفان، سبقت ترجمته.

(٢) - التاريخ الكبير للطبري ٤٢٢/٢.

والكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٠٨/٢).

(٣) - الحريات العامة / للدكتور عبد الحلیم العلي ص (٢٧٥)

(٤) - سورة الملك الآية (١٥).

وأباح له حق تملك الأموال والتصرف فيها، في حدود حددها الله تعالى له، وأحكام وضحا لا يجوز له أن يتجاوزها، وجعل المقياس في ذلك الحلال والحرام بل قرره الإسلام هذا الحق في التملك والكسب من الطيبات، كما جاء في قوله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون)) (١)

وقد جاء الإسلام في تقريره لحق التملك متمشياً مع طبيعة الإنسان وفطرته، ذلك لأن الفرد مخلوق محب للمال والتملك، والرضن بما يملك .
منها على سبيل المثال، قوله تعالى ((وتأكلون التراث أكاذ لما وتحبون المال حبا جما)) (٢).

ومنها قوله تعالى: ((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)) (٣).

فهذه النصوص وأمثالها تدل على مدى حب الناس للمال باعتبار ذلك غريزة فطرية، لذا فإن الإسلام عندما أقر حق التملك فإنه كان يلبي أشواق الفرد ويرضي ميوله، وهذه نظرة عادلة لأن تقرير حق التملك الفردي يحقق التوازن بين الجهد والجزاء.

ولا يقصد الإسلام حين قرر المساواة بين الناس في حق التملك، أن يكون الناس سواسية كأسنان المشط فيما يملكون وفيما ينعمون به من متع الحياة المادية، إذ يستحيل تحقيق هذا المعنى في أي عصر وفي أي مجتمع، ولا يمكن أن يتحقق في مستقبل النوع الإنساني، لأن الناس فطروا مختلفين في مواهبهم وكفاياتهم وقدراتهم الجسمية والعقلية وفيما يستطيع أن يحققه كل منهم لنفسه ولغيره من منفعة .

- (١) - سورة البقرة الآية (٢٦٧).
- (٢) - سورة الفجر الآيات (٢٠، ١٩).
- (٣) - سورة آل عمران الآية (١٤).

وإنما يقصد الإسلام بالمساواة في حق التملك أن يكون ثم من النظم ما يحقق تكافؤ الفرص بين الناس في النواحي الاقتصادية، وبذلك لكل فرد سبيل الحصول على المال، ويعطي كل مجتهد جزاء إجهاده من ثمرات الحياة الدنيا، ويعمل في الوقت نفسه على تحقيق التوازن الاقتصادي، وتقليل الفروق بين الطبقات وتقريبها بعضها من بعض، ويحول دون تضخم الثروات ودون تجمعها في أيدي قليلة .

وهذه المساواة بهذا المعنى لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل النظام الإسلامي، لأنه نظام وسط بين نظامين متقابلين، وهما النظام الشيوعي الذي يحول بين الفرد وبين ملكية الأشياء، فلا يذلل أمامه سبيل الحصول على المال، والنظام الرأسمالي الذي يطلق العنان لرأس المال فيطغى على ماعداه ويسيطر على شؤون الاقتصاد، وتتضخم من جرأته الثروات في يد بعض الناس، وتتسع الفروق المالية بين الطبقات والأفراد .

فالنظام الاقتصادي في الإسلام ليس نظاماً شيوعياً، لأنه يقر الملكية الفردية ويحميها، وليس نظاماً رأسمالياً لأنه لا يطلق العنان لرأس المال، بل يحرس على تجريده من وسائل السيطرة والنفوذ، دون أن يشل حركته ويعوقه عن القيام بوظيفته بوصفه عاملاً هاماً من عوامل الإنتاج (١) .

(٢) ك- المساواة في حق التعليم والثقافة :

أعطى الإسلام كل فرد الحق في أن ينال من العلم والثقافة ما يشاء، وما يتيح له إمكانياته وظروفه، وما يتيح له استعداداته، بل جعل ذلك فرضاً عليه في الحدود اللازمة لأمر دينه وشؤون دنياه :

يقول صلى الله عليه وسلم ((تعلم العلم فريضة على كل مسلم)) (٢) .
ويقول تعالى: ((فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)) (٢) .

(١) - انظر حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص (٥٧،٥٥) بتصرف واختصار .

(٢) - أخرجه أبو داود/كتاب العلم/باب الحث على طلب العلم ٢/٢١١، وأخرجه البخاري/كتاب العلم/باب العلم قبل القول ١/١٩ بلفظ (ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهّل الله له به طريق الجنة) .
(٢) - سورة التوبة الآية (١٢٢) .

ولذلك هدم الإسلام تقاليد الجهالة، وجعل للعلم المكان الأول في التقدير والاعتبار ((فلا اعتبار عنده للجنس أو للسن أو للنسب، ولكنه يجعل التقديم للفقهاء والمعرفه، وقد كان الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم يتعلمون عن الصغار الفاقهين كابن عباس وابن عمر، وكان كثير من السادة يتلقون عن الموالى والأتباع)) (١)

(ولقد أضاء في أفق تاريخ الإسلام علماء من الموالى والعبيد وأهل البلاد المفتوحة، لم يحرمهم الإسلام من العلم للوئهم أو جنسهم، إنما أحيوا فيهم إنسانيته الرحيمة، فتفوقوا وبرزوا في مجالات العلم وفروعه وتولوا الفتن وتديون العلوم والفنون وتأسيس القواعد لكثير من علوم اللغة العربية والإسلام، بل كانت دولة الفقه للمولى في بعض الأمصار كالبصرة، حيث كان على رأسهم الحسن البصري، وفي مكة كان مجاهد بن جبير وعطاء بن أبي رباح (٢) وطاووس بن كيسان (٣)، وهذا الليث بن سعد (٤) كان أهل بيته يقولون: نحن من الفرس من أصبهان .

-
- (١) - المجتمع الإسلامي للدكتور مصطفى عبد الواحد ص (٢٤٠).
- (٢) - عطاء بن أبي رباح (٢٧ هـ - ١١٤ هـ).
- من كبار التابعين وسادتهم فقيه أهل الحجاز وكان بنو أمية يتنادون في الحج أن لا يفتى أحد غيره ، نشأ وتعلم بمكة وسمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس قال أبو حنيفة ما رأيت أفضل منه .
- * تهذيب التهذيب ١٩٩/٧ . * شذرات الذهب ١٤٧/١ .
- (٣) - طاووس بن كيسان اليماني الخولاني (٢٢) هـ
- أبو عبد الرحمن ، أخذ عن عائشة ، فارسي الأصل ، ولد سنة (٥٢٢) هـ صاحب فقه ، ورواية في الحديث من أكابر التابعين وأعلمهم بالحلال والحرام، جرى عليه وعظ الملوك والخلفاء .
- * شذرات الذهب ١٢٢/١ - ١٢٤ * البداية والنهاية ٢٤٤/٩ - ٢٤٥ .
- (٤) - الليث بن سعد (٩٤ ، ١٧٥ هـ)
- الليث بن سعد الفهمي أبو الحارث فارسي الأصل من أصبهان أمام عصره كثير الفقه والحديث ثقة شديد التبعية لآثار النبي صلى الله عليه وسلم كريماً يطعم كل يوم ٢٦٠ مسكيناً ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الشعر .
- * تذكرة الحفاظ ٢٢٤/١ . * تهذيب التهذيب ٤٥٩/٨ .

وهذا ابن حنبل (١) أصله من مرو، والطبري من أهل بطبرستان، وابن جريج (٢) رومي المنبت وريسة الرأي (٢) فارسي الأصل، والشعبي (٤) علامة التابعين كانت أمه من جلولا، وهذا سيبويه (٥) فارسي الأصل يضع قواعد النحو.

(١) - ابن حنبل (١٦٤ هـ)

الإمام أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي اليه ينسب المذهب الحنبلي ، أحد الأئمة الأربعة أصله من مرو ، ولد ببغداد رحل في طلب العلم ، أجل كتبه المسند ، سجن في محنة القرآن ثم أطلق سنة ٢٢٠ هـ رجم له ابن الجوزي وأبو زهره وغيرهما .
* البداية والنهاية ١٠/٢٤١ . * شذرات الذهب ١/٩٦ .
* وفيات الأعيان ١/٦٢ . * طبقات الحنابلة ١/٤ .

(٢) - ابن جريج (٨٠ - ١٥٠ هـ)

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، من موالي قريش ، ققيه الحرم المكي وإمام أهل الحجاز في عصره ، أول من صنف التصانيف بمكة .
* تذكرة الحفاظ ١/١٦٩ . * الأعلام ٤/٦٦٠ . * طبقات الفقهاء (٤٧) .

(٣) - ربيعة الرأي (١٣٦ هـ)

ربيعة بن فروخ المدني التميمي أبو عثمان ، إمام حافظ ققيه مجتهد ، لقب بالرأي لأنه يأخذ به حيث لا حديث ولا أثر ، مفتي المدينة المنورة ، قال ابن الماجشون ما رأيت أحفظ للسنة من ربيعة ، تفقه به الإمام مالك ، وكان منقياً جواداً ، وتوفي بالهاشمية من أرض الأنبار .
* تذكرة الحفاظ ١/١٤٨ . * تهذيب التهذيب ٢/٢٥٨ .

(٤) - الشعبي (١٩ هـ)

عامر بن شراحيل بن معبد الشعبي الحميري ، التابعي ، كان مولده لست سنين مضت من خلافة عثمان سنة (١٩ هـ) ، يضرب به المثل في الحفظ ، من أهل الحديث والرواية والفقہ والشعر ، كان نديم وسمير عبد الملك بن مروان ورسوله إلى ملك الروم ، استنضاه عمر ابن عبد العزيز .
* شذرات الذهب ١/١٢٦-١٢٧ . * حلية الأولياء ٤/٢١٠ .

(٥) - سيبويه (١٤٨ - ١٨٠ هـ)

عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، صحب أهل الحديث والفقہ ثم لزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو وفاق شيخه وناظر الكاساني ، كان له سبق في تصنيف وتبسيط علم النحو ذاع صيت كتابه وعكف العلماء على شرحه ، وعاد الشيخ إلى الأهواز وهناك اخترمته المنية .
* البداية والنهاية ١٠/١٢٦ . * طبقات النحويين واللفويين (٦٦) .

والكسائي(١) وارث علماء البصرة في اللغة، فارسي الأصل وتلميذه القراء(٢)(٢).

من هذا نرى أن الإسلام ساوى في حق التعلم والثقافة بين جميع البشر، ولم يقصره على طبقة معينة أو جنس معين، وإنما فتح المجال لكافة العناصر والطبقات والأجناس لينالوا حقهم الشرعي منه، وليبلغوا أقصى مراتب المجد في كل اتجاه، ليس من ناحية علوم الدين فقط بل يحثهم على تحصيل العلوم والفنون والآداب بمختلف فروعها، وبفضل ذلك نبغ في مختلف هذه الفروع عدد كبير من علماء المسلمين، ولم يفادروا أي فرع منها إلا ألفوا فيه كتباً قيمة لا يزال كثير منها يعد من أمهات المراجع .

وخلاصة القول :

أن الشريعة الإسلامية قد أقرت المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة في وحدة الأصل والمنشأ، وفي وحدة التكليف، وجعلت الكل محاسب أمام الله، كما أقرت أن المسلمين بعضهم من بعض وهم لذلك متساوون أمام المنافع العامة، في حق العمل، وحق التملك، وحق التعلم والثقافة، وأنهم سواء أمام شريعة الله وأمام القضاء .

وذلك يقتضي تقرير مبدأ المساواة الواقعية كحق أنساني في المجتمع بين الناس حيث أريد للحق أن يسود، وللعدل أن يستقر .

وبذلك يكفل الإسلام للمجتمع الحماية من الصراع الذي ينشأ بين الأفراد نتيجة عدم المساواة بينهم في كل هذه الحقوق.

* * *

(١) - الكسائي: (٠٠٠ - ١٨٩هـ)

هو شيخ القراءات والنحو الإمام أبو الحسن علي بن حمزة الأسدي الكوفي الكسائي أحد القراء السبعة ومؤدب الرشيد وولده .
* شذرات الذهب (٢/٢٢١) . * الأعلام (٤/٢٨٢) .

(٢) - يحيى بن زياد الديلمي، سبقت ترجمته.

(٣) - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام للأستاذ عبد الحلیم الجندي ص ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣)

المطلب الثاني

وجوه التفرقة بين الرجل والمرأة والأسباب التي دعت إليها

بزع نور الإسلام على العالم في وقت كانت قد أرهقت البشرية فيه المظالم واكتنفت جوانب الحياة الإنسانية فيه أشكال من الاستعباد والقهر بالفة المدى، وكان نظام الطبقات ونظام التفرقة العنصرية أساس التعامل البشري والسلوك الإنساني .

وفي وسط هذا الجو المظلم من الفوضى والاضطراب والاستبداد والقهر كانت المرأة موضعاً للإهانة والإذلال، فلم تكن أكثر من كونها سلعة تنتقل بين الأيدي ، وخطماً يورث مع المال والماشية وتباع وترهن(١) .

(١) - فعند الأمم القديمة : كان اليونانيون ينظرون إلى المرأة نظرة التسلط والغلبة والقهر فهي تابعة لأبيها بنتاً ، ثم هي تابعة لمالكها زوجة ، ثم هي خاضعة لابنها أرملة ، وقد يهبها أو يقوم ببيعها في السوق ، أو يوصي بها لشخص آخر قبل موته 1 أنظر المرأة بين الفقه والقانون لمصطفى السباعي ص(١٢-١٧) .

* - وكان الرومان ينظرون إليها نظرة المتعة والتسري ، ولاتعدو المرأة في نظرهم من كونها نوعاً من أدوات الزينة في المنزل ، وللرجل عليها حق الوصاية ، وحق السيطرة ، وعند موته يقذف بها في النيران معه ، وكانوا يعتقدون أن المرأة وسيلة من وسائل الإغراء الشيطانية يستخدمها إبليس للوصول إلى مآربه ، أنظر / حقوق الإنسان للدكتور علي عبد الواحد وفي ص(٢٧) .

* - أما المرأة في الهند فهي لاتعدو أن تكون عبداً للرجل طول حياتها وليس لها حق التصرف في أي أمر من الأمور إلا بأذن الرجل واراادته في شؤونها الخاصة/ انظر كتاب ماذا خسراالعالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص٥٥٥ .

* - وأما في اليهودية فهي أشبه ماتكون بالسائمة، فهي تحت وصاية والدها، ولليهودي المحسر أن يبيع ابنته ببيع الرقيق لقاء ثمن بخس دراهم معدودة، وهي عندهم محرومة من حقوقها المدنية ، فلا تملك ولا تتولى ولاية عامة أو خاصة وليس لها أن تعمل بالتجارة ولا عقد المعاملات وكل ماتملكه أو يهدى لها فهو لزوجها كالرقيق حيث يرجع المال لسيدة / انظر حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص ٢١٢) .

* - وكذلك شأن المرأة في المسيحية ، فهي خاضعة لسلطة الرجل ودونه في المركز القانوني من حيث سلطة التمليك أو الحيازة المالية .

/ انظر الحجاب لأبي الأعلى المودودي ص(٢٨) .

ثم جاء الإسلام ليضع أسس المساواة الحققة بين الناس عامة، وبين المرأة والرجل خاصة في القيمة الإنسانية المشتركة بينهما، فأكد في سبيل ذلك أن الله سبحانه قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، ثم بث منها الخليفة، فقرر وحدة الأصل والمنشأ بين البشر جميعاً فيهم المرأة:
قال تعالى: ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء)) (١).

(ولقد ساوى الإسلام في جميع تلك الحقوق بين الرجل والمرأة، ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة مراعاة طبيعة كل من الجنسين المتعلقة بالاستعداد أو الدربة أو التبعة مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الإنساني للجنسين، واعترف للمرأة بجميع حقوقها الثابتة، وأزال عنها ما لحقتها من ظلم وهوان لف حياتها ووجودها دهوراً طويلة، فأعلى من منزلتها وكرمها، وسوى بينها وبين الرجل في دعامتي التعامل البشري (الحقوق والواجبات).

فمن الناحية الإنسانية: ساوى الإسلام المرأة مع الرجل، وظهر ذلك في كثير من نواحي التشريع الإسلامي: فكان دمها مساوياً لدمه، والحكم بينهما واحد وهو القصاص.

((وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس)) (٢)

((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى)) (٣)

ولذلك كان الجزاء الأخروي في الاعتداء على حياة المرأة من نوع الجزاء في الاعتداء على حياة الرجل:

((ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً)) (٤).

(فرتب الله تعالى الجزاء الأخروي على وصف الإيمان وهو مشترك - دون شك - بين الرجل والمرأة).

وقد اتفق علماء التشريع على أن مثل هذا يناط بالوصف أينما وجد، وأنه يعم الصنفين الذكر والأنثى على حد سواء (٥)

(١) - سورة النساء الآية (١).

(٢) - سورة المائدة من الآية (٤٥).

(٣) - سورة البقرة الآية (١٧٨).

(٤) - سورة النساء الآية (٩٢).

(٥) - الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص (٢٢٥).

ومن الناحية الدينية والروحية يتساويان:

((ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً)) (١).

((من عمل صالحاً من ذكراً أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)) (٢).

((فاستجاب لهم ربهم أني لأضيق عمل عامل منكم من ذكراً وأنثى بعضكم من بعض)) (٣). ففي هذه الآيات سوى الله تعالى بين الرجل والمرأة في المسؤولية الدينية والجزاء إذا أدت ما فرضه الله عليها مثل الرجل، وقد أجمع المفسرون على هذا عندما تعرضوا لتفسير هذه الآيات، فيقول الإمام الزمخشري (٤).

(إن هذه الجملة بينت شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين) (٥). ويقول المفسر الرازي: (المعنى أنه لاتفوت في الإجابة وفي الثواب بين الذكر والأنثى إذا كانا جميعاً في التمسك بالطاعة على السوية، وهذا يدل على أن الفضل في باب الدين بالأعمال لا بسائر الصفات للعاملين، لأن كون بعضهم ذكر أو أنثى، أو من نسب خسيس أو شريف لا تأثير له في هذا الباب) (٦).

* - وكما ساءى الإسلام المرأة أمام تطبيقات الشريعة :

يقول الله تعالى: ((الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)) (٧). ويقول تعالى:

((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبانكلاً من الله)) (٨).

* - وسأوى بينهما كذلك من ناحية الأهلية للملك والتصرف الإقتصادي: يقول الله تعالى:

((للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون)) (٩).

(١) - سورة النساء الآية (١٢٤).

(٢) - سورة النحل الآية (٩٧).

(٣) - سورة آل عمران الآية (١٩٥).

(٤) - الزمخشري (٤٦٧ - ٥٥٢٨ هـ): هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي

جار الله أبو القاسم، ولد بزمخشري من خوارزم جاور مكة المحمية مدة وإليه

نسبة اللقب، طاف البلدان واستقر بجزائيه فتوفي بها وكان مجاهراً بالاعتزال

* وفيات الأعيان ١٨٤/٥ ، * طبقات المفسرين ٢/٢١٤ ، * الأعلام ٧/١٧٨.

(٥) - الكشف للزمخشري ٤٨٩/١ ، ٩٤٠ .

(٦) - تفسير الرازي ١٥٦/٩ .

(٧) - سورة النور الآية (٢).

(٨) - سورة المائدة الآية (٢٨).

(٩) - سورة النساء الآية (٧).

وقوله تعالى: ((للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)) (١).

* - كما ساوى بينهما في حق العمل :

(فأباح للمرأة أن تضطلع بالوظائف والأعمال المشروعة التي تحسن أداءها ولا تتنافر مع طبيعتها، ولم يقيد هذا الحق إلا بما يحفظ للمرأة كرامتها، ويصونها عن التبذل، ويثأى بها عن كل ما يتنافى مع الخلق الكريم، فاشتراط أن تؤدي عملها في وقار وحشمة وفي صورة بعيدة عن مظان الفتنة، وألا يكون من شأن هذا العمل أن يؤدي إلى ضرر اجتماعي أو خلقي، أو يعوقها عن أداء واجباتها الأخرى نحو زوجها وأولادها وبيتها، أو يكلفها مالا طاقه لها به، وألا تخرج عن حدود الشريعة الإسلامية في زيارتها وزيتها واختلاطها بغيرها في أثناء أداء عملها في الخارج) (٢).

وقد كانت النساء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يقمن بكثير من الأعمال في داخل بيوتهن وفي خارجها، فقد كانت أسماء بنت أبي بكر الصديق (٢) وهي أخت عائشة، أم المؤمنين وزوجة الزبير - كانت تقوم بكثير من الأعمال اللازمة لزوجها وأسرتها في داخل بيتها وخارجها، وفي ذلك تقول هي نفسها (كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكنت أسوس فرسه وأعلمه وأحتش له، وكنت أحرز الدلو وأستي الماء، وأحمل النوى على رأسي من أرض له على ثلثي فرسخ) (٤).

بل لقد اضطلمت المرأة المسلمة ببعض شئون الحرب نفسها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم تخل غزوة من غزواته من نساء يقمن بمساعدة الرجال.

- (١) - سورة النساء الآية (٢٢).
- (٢) - حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد الوافي ص (٢٥).
- (٣) - أسماء بنت أبي بكر الصديق: رضي الله عنهما؛ أسلمت قديماً بمكة، تزوجها الزبير بن العوام، هاجرت وهي حامل منه بولده عبد الله، فوضعه بقاء، كانت تلقب ذات النطاقين، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث وهي في الصحيحين والسنن، روى عنها ابنها: عبد الله وعروة وأحفادها، ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، ماتت بعد أن قتل ابنها عبد الله بقليل.
- * الإصابة ١١٥/١٢ * الأعلام ٢٠٥/١.
- (٤) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٥٢/٦.

وشؤون الاسعاف للجرحى(١).
وايضاً ساوى بينهما في حق التعلم والثقافة، فأعطى المرأة نفس الحق الذي أعطاه
الرجل في هذا الشأن، وأباح لها أن تحصل على ماتشاء الحصول عليه من علم وأدب وثقافة
وتهذيب بل إنه ليجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن
قيامها بوظائفها في الحياة .

(ولقد ضرب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أروع مثل في تحقيق المساواة
بين الرجل والمرأة في حق التعلم والثقافة وفي حرصه على تعليم المرأة وتثقيفها، بما فعله مع
زوجة حفصة أم المؤمنين(٢). فقد روى البلاذري(٢) في كتابه(فتوح البلدان) أن
الشفاء العدوية(٤) وهي سيدة من بني عدي رهدط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانت كاتبة
في الجاهلية، وكانت تعلم الفتيات، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل
زواجها بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب الى الشفاء
العدوية أن تتابع تثقيفها وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة . (٥)

- (١) - فهذا أنس بن مالك يقول : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو
بأم سليم، ونسوة معها من الأنصار، يستمين الماء ويداوين الجرحى) رواه
مسلم ١٩٦١٥. وتقول أم عطية الأنصارية (غزوت مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم وأصنع لهم الطعام، وأداوي
الجرحى وأقوم على الزمنى) رواه مسلم ١٩٩١٥ .
- (٢) - حفصة أم المؤمنين (٤١هـ): بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه عرضها عمر
بعد موت زوجها خنيس بن حذافة على أبي بكر وعلي وعثمان لكن تزوجها
المصطفى صلى الله عليه وسلم سنة ٢هـ بعد عائشة أم المؤمنين وكانت صوامة
قوامه توفيت حين بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان في جمادى الأولى
* الأصابة ٢٧٢١٤ - ٢٧٤ . أسد الغابة ٤٢٥١٥ - ٤٢٦ .
- (٢) - البلاذري : هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، مؤرخ - نسابة شاعر
من أهل بغداد - كان يجيد الفارسية، أصيب في آخر عمره بالجنون توفي ٢٧٩ هـ
* البداية والنهاية ٦٩/١١ * تذكرة الحفاظ ٢٩٢/١ .
- (٤) - الشفاء العدوية القرشية أم سليمان: الشفاء بنت عبد الله بن عبد
شمس العدوية القرشية أم سليمان، صحابية فاضلة بايعت الرسول صلى
الله عليه وسلم أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعلم السيدة
حفصة أم المؤمنين الكتابة والرقيه من النملة، أسلمت قبل الهجرة، كان
يقتل عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عمر رضي الله عنه
يقتل عندها في الرأي، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم ٢٠ حديثاً
وإسمها ليلي، والشفاء لقبها. * أسد الغابة ٤٨٦/٥ - ٤٨٧ . * الأصابة ٣٤١/٥ .
- (٥) - فتوح البلدان للبلاذري ٢٩/٤ .

وهناك شواهد كثيرة تدل على أن أبواب التعلم والثقافة بمختلف صنوفها كانت مفتحة على مصاريعها للمرأة العربية منذ عصر بني أمية وأنه نبغ في هذا المجال بفضل ذلك عدد كبير من النساء المسلمات، وبرزن في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون، بل لقد كانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام (١).

هذا ماقرره الإسلام بشأن المساواة بين الرجل والمرأة، وهذه هي حقوقها الشرعية التي ضمنها لها بروح تكريمية خالصة لا يشوبها ضغط الاقتصاديات والماديات، حيث حارب فكرة أن المرأة عالة يحسن التخلص منها وهي وليدة، فحرم الواد الذي كان متبعاً في بعض القبائل العربية، فنهى عن القتل عامة، قال تعالى: ((ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)) (٢).

ونهى عن قتل الأولاد خاصة، قال تعالى:

((ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم)) (٢).

والإسلام حين منح المرأة هذه الحقوق كان ينظر إلى صفتها الإنسانية، ويسير مع نظرتة إلى وحدة الإنسان، قال تعالى:

((هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها)) (٤).

* - وأما وجوه تفضيل الرجل على والمرأة والتي ترجع في الأصل إلى طبيعة كل من الجنسين فتظهر في الأمور التالية :

١- الميراث:

فللرجل ضعف نصيب المرأة في الميراث قال تعالى:

((يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)) (٥).

وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التبعية التي يضطلع بها الرجل في الحياة، فالرجل هو رب الأسرة وهو القوام عليها والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها، وتقع عليه وحده تبعة الديات والتعويضات، على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها، بل كفل لها من أسباب الرزق ما يصونها عن التبذل ويحميها من شرور الكدح في الحياة، فأعفاها من كافة أعباء المعيشة وألقاها جميعها على كاهل الرجل:

فما دامت المرأة غير متزوجة ولا معتدة من زوج فنفقتها واجبة على أصولها أو فروعها أو أقربائها، فإن لم يكن لها قريب قادر على الإنفاق عليها فنفتتها واجبة على بيت المال .

(١) - حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد الوافي ص (٢٢)

(٢) - سورة الأنعام الآية (١٥١).

(٣) - سورة الاسراء الآية (٢١).

(٤) - سورة الأعراف الآية (١٨٩).

(٥) - سورة النساء الآية (١١).

وكذلك شأنها في جميع مراحل الزوجية: سواء في ذلك مرحلة الإعداد للزواج، حيث يتحمل الزوج في هذه المرحلة طائفة من الواجبات الاقتصادية أهمها مقدم الصداق، وإعداد منزل الزوجية .
أو مرحلة الزوجية، حيث أن للمرأة شخصيتها المدنية الكاملة و ثروتها الخاصة المستقلتان عن شخصية الرجل و ثروته، ومع هذا فهي غير مكلفة بالإنفاق على الأسرة مهما كانت موسرة، بل تلقى جميع هذه الأعباء على كاهل الزوج .
أو في حالة انفصام الزوجية بالطلاق، حيث على الرجل مؤخر صداق زوجته، وعليه نفقتها من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن مادامت في العدة، وعليه نفقة أولاده وأجور حضانتهم ورضاعتهم في فترة الحضانة، وعليه وحده نفقات تربيتهم بعد ذلك، ولا تكلف المرأة أي عبء اقتصادي في هذا الشأن (١).
وفي ذلك يقول الله تعالى في واجب الأزواج نحو مطلقاتهن ((أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن، وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى)) (٢).
وعلى هذا كان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث ضعف حظ المرأة حتى يكون في ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التي وضعها الإسلام على كاهله وأغنى منها المرأة رحمة بها ورعاية لها، وهذه عين، المساواة.

٢- القوامة:

وقد أشر الله تعالى بها الرجال على النساء، يقول الله تعالى:
((الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)) (٣).
(فوجه التغضيل هو الاستعداد والدربة والمرانة فيما يختص بالقوامة، فالرجل بحكم تخلصه من تكاليف الأمومة يواجه أمور المجتمع فترة أطول، ويتهيأ لها بقوة الفكرة جميعاً، بينما تحتاج هذه التكاليف المرأة معظم أيامها، فوق أن تكليف الأمومة تنمي في المرأة جانب العواطف والانفعالات، بقدر ما ينمو في الرجل جانب التأمل والتفكير، فإذا جعلت له القوامة على المرأة فبحكم الاستعداد الدربة لهذه الوظيفة، فوق أنه المكلف بالإنفاق.

- (١) - انظر حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص (١٠١، ١١٠).
وكتاب حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٦٩٢) والمجتمع الإسلامي للشيخ محمد أبو زهرة ص (٧٧) وما بعدها ، حيث أورد المذاهب الأربعة في شأن النفقة .
(٢) - سورة الطلاق الآية (٦).
(٣) - سورة النساء الآية (٢٤).

وللناحية المادية صلة قوية بالقوامة، فهو حق مقابل تكليف، ينتهي في حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف في محيط الجنسين ومحيط الحياة (١).

٢- الشهادة :

حيث جعل شهادة رجل واحد تعدل شهادة امرأتين، يقول الله تعالى :
((واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)) (٢).
(وفي الآية نفسها بيان العلة، فالمرأة بطبيعتها وفائف الأمومة والحضائفة ينمو في نفسها جانب العواطف المرهفة والوجدان الرقيق، مما يجعل عاطفتها تطفئ أحياناً على ما وصل إلى إدراكها وتمتزج بعناصره، فتشكله صورة أخرى وتغير حقيقته من حيث لا تشعر هي بذلك، لذا استبعدت شهادتها في الأمور المؤدية إلى نتائج خطيرة كالشهادة على الزنا، ولم يعتد بشهادة النساء وحدهن إلا في الأمور النسوية الخالصة التي لا يعرفها غير النساء، وجعل شهادة المرأتين فيما عدا هذا وذاك معادلة لشهادة رجل واحد على شرط أن يشهد معهما رجل بما شهدتا به.
(وذلك أنه إذا نسيت إحداهما أو إنجرفت وراء الانفعالات كانت الثانية مذكرة لها، فالمسألة هنا مسألة ملبسة عملية في الحياة، لا مسألة إشار جنس لذاته على جنس وعدم مساواة) (٢).

٤- الوظائف السياسية :

(احتلت مسألة مساواة المرأة بالرجل في الحقوق السياسية مكان الصدارة في مقالات وكتابات الباحثين وعلماء المسلمين في هذا العصر، وهذه المسألة لم تشر مثل هذا الأهتمام والتوسع في البحث والاستطراد في المناقشة عند الفقهاء القدامى (٤) وذلك لأن موضوع إشتراك المرأة في الأمور السياسية لم يكن من القضايا الأساسية في حياة المجتمع، ولم تقتضيها الضرورة عندهم، ولو كان لإشتراك المرأة في الولايات العامة ومساوتها بالرجل فيها من ضرورة للمرأة أو مصلحة أكيدة للأمة، لوجدنا ذلك في الإسلام وعند أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين، ولما أغفلته أحكام الشريعة الإسلامية التي جاءت لتقر حقوق الإنسان وحياته الأساسية بما تضمنته من مبادئ تكفل تمتع جميع البشر على وجه المساواة) (٥).

(١) - العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص (٦٠ - ٦١).

(٢) - سورة البقرة الآية (٢٨٢).

(٣) - أنظر كتاب العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص (٦١).

(٤) - إلا ما ورد عند الطبري وابن حزم من القول بجواز تقلد المرأة لمنصب القضاء مطلقاً، وما ورد عن جواز تقلدها لقضاء الأموال نظراً لقبول ولايتها وشهادتها فيها/فتح القدير لابن الهمام (٤٨٥/٥) والمحلل لابن حزم ٦٢١/١٠

(٥) - أنظر حقوق الإنسان للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٦٨٦)

ويقصد بالولايات العامة: ما يشمل نظر متقلدها أمور الدين إلى جانب أمور الدنيا للجماعة (١)، وذلك كالخلافة، ووزارة التفويض وولاية المظالم، والإمارة على الجند، والإمارة العامة على الأقاليم، وولاية الحسبة، وولاية القضاء.

وقد اتفق الفقهاء على عدم جواز تقلد المرأة منصب الخلافة (٢)، وذلك لما يقوم عليه منصب الخلافة من إختصاصات دينية وسلطات سياسية تخرج عن قدرة المرأة .

(وذلك كإمامة الجمع والجماعة، وتدير أمور المسلمين، والعمل على جلب المنافع ودفع المضار عنهم، وقسمة الأموال بينهم- أخذها ممن وجبت عليهم وردها إلى مستحقيها وإعداد الجيوش للحفاظ على أمن الدولة والجماعة من كل خطر داخلي أو خارجي، وذلك يتطلب ثبات العزم والرأي، والظهور في مباشرة هذه الأمور أمام الناس، والمرأة لا يتأتى منها الظهور في تلك المجالس، ولا تتخالط الرجال، ولا تناوضهم مفاوضة النظير للنظير، لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت كبيرة يجوز إنفرادها بالرجال في مجالسهم وزحامها) (٢).

كذلك لآتلي المرأة وزارة التفويض أو التنفيذ، ولأن تتسلم كذلك الإمارة على الأقاليم، والإمارة على الجند، وولاية المظالم، وولاية القضاء، وولاية الحسبة) (٤)

وسند عدم جواز تقلد المرأة هذه الوظائف ، قوله صلى الله عليه وسلم :
(لن يفلح قوم ولوا أمرهم إمراة) (٥).

وفيه يشير صلى الله عليه وسلم إلى أن الخلافة التي شرعها الله لقيادة الجماعة وحفظ مصالح الدين لا يمكن أن توتي نتائج الفلاح تلك إلا إذا نصب من هو أهل لها وهو الرجل، وإن وُلِّيت إمراة فإنها تخفق في تحقيق تلك النتيجة، فإذا كانت أحكام الدين لم تشرع إلا لحفظ مقاصدها ومن تلك الأحكام الأمر بتولية الولاة وتوزير الوزراء فلا يكون تنصيب غير الرجل إلا مخالفة لتلك الأحكام، وتضييقاً لحسن الظن بتلك المقاصد .

-
- (١) - الأشباه والنظائر للسيوطي ص (٢٧٨).
 - (٢) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٧/٥ ، والمعني لابن قدامة ٢٧٥/١١ .
 - (٣) - والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص (١٩).
 - (٤) - الأحكام السلطانية للماوردي ص (٢٧).
 - (٥) - نفس المرجع السابق ص (١٢٠، ٢٥٠، ٧٠٠).
 - (٥) - أخرجه البخاري في صحيحه /كتاب المعازي /باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر ٦٥/٢ .

إضافة الى أنه لم يرد في فترة زمن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ما يدل على تولية المرأة ولاية عامة أو قضاء، (١) خصوصاً وأن هنالك الفضليات من النساء في ذلك الزمن اللاتي اشتهرن بالعلم، ورجاحة العقل، وحسن المشورة كأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

ثم إن هناك أعراض خلقية وتكوينية تتاب المرأة وتكرر عليها في حالات خاصة، تشغلها عن النظر في مصالح الماديين من الناس التي أثقلت بأعباء النظر فيما تقتضيه مصلحتهم، ومبدأ المصلحة يقتضي عدم تعريض مصالح جماعة المسلمين للمفاسد والأضرار من جراء إنشغال ولي الأمر عنهم بنفسه أو بشي آخر .

ومن جهة أخرى، فإن المرأة بحكم تكوينها الفطري تتحمل أعباء جساماً، فكان من المنطق والمعقول ألا تكلف إلا بما يدخل ضمن طاقتها مما خف من الأعمال والالتزامات (٢) .

وختلاصة القول :

أنه على ضوء جميع الحقائق السابقة قد فرق الإسلام بين الرجل والمرأة في تولي الوظائف السياسية، وعليه فالمرأة غير مكلفة بأعباء تقلد الولايات العامة، وليست مهيأة للإشتراك الفعلي في الأمور السياسية، ولا حق لها في ذلك .

وحسب الإسلام ما كفل للمرأة من مساواة بالرجل من الناحية الدينية ومن مساواة في حق التملك والكسب وفي سائر الحقوق المدنية مما لم تصل إلى مثله أحدث القوانين في أعرق الأمم الديمقراطية الحديثة، وقد رأينا من العرض السابق مكانة المرأة عند الأمم القديمة وفي النظم الحديثة، وتبيننا من خلالها أن المرأة عندهم أشبه شيء بحالة القصور المدني، فقد جردها القانون من صفة الأهلية في كثير من الشؤون المدنية، حتى اقتضى الأمر أن المرأة الغربية بمجرد زواجها تفقد اسمها وإسم أسرتها وتحمل إسم زوجها واسرته، على حين أنه بحسب النظام الإسلامي تحتفظ المرأة بعد زواجها بإسمها وإسم أبيها واسرتها، ولا تحمل إسم زوجها مهما كانت مكاتته، فزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أنفسهن كن يسمين بأسمائهن وأسماء آبائهن وأسرتهن، فكان يقال: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وما كن يحملن إسم زوجهن مع أنهن زوجات لخير خلق الله .

تلك هي أوجه المساواة وأوجه تفضيل الرجل على والمرأة في الإسلام، والتي راعى فيها طبيعة كل من الجنسين، وبها حفظ للمرأة كرامتها وإنسانيتها وأنوثتها الكاملة من غير أن تتبذل أوتهان .

(١) - المعني لابن قدامة ٢٨٠/١١ .

(٢) - انظر حقوق الإنسان وحياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني

ص (٦٩١ - ٦٩٢) باختصار وتصرف .

وبذلك يتضح أن القضية هي عبارة عن تمييز للرجال على النساء وليس تفريقاً بينهم بحيث ينشأ الصراع في المجتمع بين الرجال والنساء، وإنما بين الإسلام وأوجه التفضيل بينهم وبين أسبابه التي تدعو إليها طبيعة كل من الجنسين، وبذلك يحمي الإسلام المجتمع من الصراع المنصري بين الرجال والنساء.

* * *

المطلب الثالث موقف الإسلام من الرق

الحرية هي الدعامة الأساسية لحياة الإنسان، وبها يظهر سر تكريم الله للإنسان على غيره من المخلوقات .

والعبودية في واقعها هي الوجه المناقض والمعاكس لمعنى الحرية، وهي ذاك الجانب المظلم الذي اكتنف حياة البشرية منذ القدم .
والمساواة هي محور التنظيم الأمثل للحقوق والواجبات بين الناس، وقانون التطبيق العملي لتلك الحقوق والواجبات بينهم .
والرق هو وضع قانوني يجرد الفرد تجریداً كاملاً من حريته المدنية، فلا يجوز له اجراء العقود أو تحمل الالتزامات، بل تنزع عنه أهلية التملك بحيث يجعله مملوكاً لغيره، فينتزله منزلة السلطة التي يتصرف بها صاحبها كيف شاء (١) .

ولقد كفلت عدالة الإسلام حماية حرية الإنسان وكرامته من خلال المنافذ الكثيرة التي فتحتها أمامه الإسلام .
كما عملت شريعة الإسلام على إغلاق كافة الأبواب المؤدية إلى الرق، باب واحد اقتضاه أمر الدفاع عن العقيدة، وحماية المسلمين وديارهم، حتى لاتصبح ديار الإسلام مطعماً لكل قاصد، وهذا الباب هو باب رق الحرب .

وسأعرض في هذا المطلب لتوضيح ذلك ضمن ثلاث نقاط أساسية وهي :

- أولاً - تضييق الإسلام أبواب الاسترقاق .
- ثانياً- توسيع الإسلام منافذ العتق والحرية .
- ثالثاً- أوضاع الرقيق ومعاملته في الإسلام .

أولاً - تضييق الإسلام أبواب الاسترقاق :

جاء الإسلام وبزغ نوره على العالم حاملاً في طياته رسالة الحرية والمساواة إلى الناس ، في وقت كان نظام الرق فيه سائداً أنحاء المعمورة كلها، بل كان دعامة ترتكز عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية وفروع الإنتاج، لذلك لم يكن من قبيل الإصلاح الاجتماعي في شيء أن يحرم الإسلام الرق تحريماً قاطعاً في محاولته لتقرير مبدأ المساواة بين الناس - مرة واحدة ولأول وهلة.

(١) - انظر حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي وافي ص ٢٢٠، وحقوق الإنسان للشيشاني ص (٧٠٢) .

لذلك أقر الإسلام نظام الرق تحت تأثير ضرورات اقتصادية وإجتماعية، قاهرة، ولكنه أقره في صرورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج، دون أن يحدث أية زلزلة أو اضطراب كانا مؤكدين بمحاولة إلغاءه مرة واحدة، كما كان من المؤكد كذلك بأن مثل تلك المحاولة السريعة كان محتملاً عليها الفشل والإخفاق (١).

وقد أخذ كثير من المشككين في الإسلام ومثيري الشبهات حوله على الإسلام أنه أباح الرق، وأن كثيراً ممن تملكوا الرقيق قد أقدموا خصائص إنسانيتهم بسوء معاملتهم لهم، وفي هذا نقض لمبدأ الحرية والمساواة التي ينادي بها الإسلام (٢).

وللرد على هذا الادعاء نقول أولاً: إن الإسلام قد جاء وهناك روافد كثيرة ومتعددة للرق في جميع أنحاء العالم، ومقررة في جميع نظمها المعروفة في ذلك الوقت . ومن أبرزها مايلي :

- ١- الرق المترتب على إتمام الشخص إلى طبقة أو جماعة معينة، فقد كان مجرد الإلتزام سبباً للإسترقاق عند شعوب كثيرة (٢).
- ٢- القرصنة والخطف والسبي، فقد كان الضحايا في مثل هذه الجرائم يسترقون.
- ٣- أسارى الحروب بجميع أنواعها - أهلية كانت أم خارجية - كانوا يسترقون أو يقتلون.
- ٤- تجريم شخص جرم خطير كان يبيح إسترقاقه، كالمقاتل والسارق والزاني .
- ٥- عجز المدين عن دفع دينه كان يعتبر سبباً كافياً لإسترقاقه.
- ٦- بيع الوالد لولده أو إبنته .
- ٧- بيع الإنسان نفسه لقاء ثمن معين .
- ٨- الرق المباشر للميلاد، فكان ولد الأمة يولد رقيقاً، ولو كان أبوه حراً أو كان السيد نفسه (٤).

-
- (١) - انظر : الإسلام والإنسان للأستاذ إبراهيم عوضين ص (٢٤٥، ١٢٢) ، والإسلام نظام إنساني للدكتور مصطفى الرافي ص (١٠٨) وما بعدها، والمجتمع الإسلامي للدكتور مصطفى عبد الواحد ص (٨٢) وما بعدها .
 - (٢) - حقوق الإنسان وحياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٧٠٤) .
 - (٣) - كاليهود واليومان والرومان والبراهمة وغيرهم على ما سلفناه في تمهيد الفصل
 - (٤) - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للمقاد ص (٢٩٤) ، والإسلام نظام إنساني للدكتور مصطفى الرافي ص (١٠٨ ، ١٠٩) وحقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي الوافي ص (٢٠٢ ، ٢٠٣) .

تلك هي أهم صرر الاسترقاق التي كانت متبعة عند الأمم عند ظهور الإسلام، وكانت كل يوم تقذف في تيار الرق الآلاف المولدة من البشر ذكوراً وإناثاً، حتى كانت نسبة الرقيق تزيد عن نسبة الأحرار بكثير في بعض المجتمعات القديمة.

وأيضاً فإنه لم يرد في كتاب الله الكريم نص صريح يدل على فرض الرق، بل حثت نصوص القرآن الكريم على العتق وما يرد ضمناً مما يدل على وجوده قليل، كقوله تعالى: ((والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا)) (١). وحتى عند إشارته إلى الصورة الوحيدة التي أباح فيها الاسترقاق عبر عنها بلفظ العتق، ولم يشير إلى الرق، قال تعالى: ((حتى إذا أئتمتهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)) (٢).

فذكر طرق عتقهم: المن دون مقابل أو الفداء بمقابل، ولم يذكر الثالث وهو الاسترقاق (٢).

وبذلك يبطل ذلك الإدعاء الباطل القائل بكون الإسلام أباح الرق. ويسمى الإسلام على سد منافذ الرق وتضييق قاعدته، فحرم كل تلك الأبواب المتبعة للاسترقاق عند الأمم عند ظهور الإسلام، عدا ما بين إثني قنضتهما الضرورة، وهما: رق الحرب، ورق الوراثة، عمد إليهما الإسلام قتيدهما بقيود تكفل القضاء عليهما في وقت وجيز.

الأول - رق الحرب :

جاء الإسلام وكان رق الحرب سنة متبعة، وديناً مقتدياً، فلم يحرم القرآن في ذلك الحين الرق عن طريق الحرب مادام العدو لا يتورع عن ذلك. فقد كان أعداء الله من المجوس في الشرق، والروم في الغرب يسترقون من يقع في أيديهم من أسرى المسلمين، ويسومونهم سوء العذاب، وفي مقابل ذلك فقد استرق المسلمون من أسراهم أعدائهم معاملة بالمثل، ولكن المسلمين لم يعذبوا أسراهم ولم ينكلوا بهم كما كانوا يفعلون بأسرى المسلمين لأنهم قد وجهوا من دينهم إلى الإحسان في معاملة أسراهم (٤).

(١) - سورة المجادلة الآية (٢).

(٢) - سورة محمد الآية (٤).

(٣) - أنظر تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

للألويسي ١٠١/٨ ، ١٠٢ ، وتفسير الكشاف للزمخشري ٤٥٢/٢ .

(٤) - آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي ص (١٢٧ ، ١٢٨).

ومن أهم القيود التي قيد بها رق الحرب في الإسلام: استثناء الذين يؤسرون في قتال بين طائفتين من المسلمين، فهؤلاء لا يضرب عليهم الرق من أي الفريقين كانوا (١).

وحتى الحروب التي تقع بين المسلمين وغيرهم لا يسترق فيها غير المسلم إلا بشروط أهمها :

- أن تكون الحرب مشروعة يجيزها الإسلام وأن تنفذ وفق تعاليمه، وأن تكون بأذن مسبق من الخليفة (٢).

وبهذا عمل الإسلام على تضييق أبواب الاسترقاق إلى أقصى حد ممكن، ولم يترك منها إلا ما اقتضته المصلحة .

الثاني - رق الرراثة:

نقصد برق الرراثة تنازل الرقيق.

وكان من أهم القيود التي قيد بها الإسلام رق الرراثة تمهيداً للقضاء عليه، أنه استثنى منه أولاد الجوارى، وكان المبدأ السابق على الإسلام أن الولد يتبع أمه في الرق والحرية، ولكن الإسلام قرر أن الولد الذي تلده الجارية لسيدتها يولد حراً، وقد كان الغالب في أولاد الجوارى أنهم من صلب الموالى أنفسهم، لأن الأغنياء كانوا يقتنون الجوارى لتمتعهم الخاصة، وبهذا يتبين لنا أن هذا التقييد كفيلاً بإنهاء رق الرراثة والقضاء عليه، كما أن أم الولد تصبح حرة بمجرد الولادة، فلا يجوز بيعها أو هبتها من قبل السيد، كما تصبح حرة كاملة الحرية بموت سيدها (٢).

ثانياً - توسيع الإسلام منافذ العتق (٤) :

رأينا كيف أن الإسلام قد ضيق أبواب الاسترقاق، حصرها لمصادر الرق ومنعاً لانتشاره وتكاثره، وحتى يكفل الإسلام سرعة القضاء نهائياً على الرق، عمد إلى فتح منافذ العتق والحث عليه، وذلك أبلغ دليل على حرص الإسلام على تصفية الرق وإشاعة الحرية بين الناس .

(١) - بدائع الصنائع للكاساني ١٤١/٧ وما بعدها .

(٢) - لتفصيل هذه الأحكام ينظر: تاريخ التشريع الإسلامي لمحمد الخضري ص (٦٧٠٥٤)

والعلاقات الدولية في الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة ص (٩٩،٩٤)

والبدائع للكاساني ٩٧/٧ ، ١٤٢ .

(٢٠) - بداية المجتهد لابن رشد ٤٢٤/٢ ، والمحلى لابن حزم ٢٤٩/١٠ ،

وبدائع الصنائع للكاساني ١٢٥/٤ .

(٤) - العتق في اللغة : هو الخلو من الرق ، وقيل الخلو

وفي الاصطلاح : إسقاط الحق بالحرية تقريباً إلى الله تعالى

مجمع مفردات ألفاظ القرآن للراغب الإصفهاني ٢٢٢/١

وكانت منافذ العتق قبل الإسلام ضيقة ، فلم يكن له إلا طريق واحد يتمثل في رغبة السيد تحرير عبده ، وإذا لم يرغب السيد في ذلك فمعنى هذا أن يظل العبد مدى الحياة في أغلال العبودية يرسف تحت قيودها ، ولكن بفضل الله تعالى جاء الإسلام ، وفتح للعبيد أبواب الحرية على مصاريعها ، وأتاح لتحريره فرصاً كثيرة متعددة ومن أهمها :

١- تلفظ السيد بما يدل على العتق مطلقاً :

فإذا جرى على لسان السيد ما يدل على عتق عبده في أية صورة من الصور فإن عبده يصبح حراً ، سواء أكان جاداً أو هازلاً ، قاصداً بمعنى ما تلفظ به أو غير قاصد ، مكرهاً أو مختاراً ، في حالة الصحو وتمام العقل أو كان مخموراً (١) .

٢- التدييسر :

والعبد المدبّر: هو من وعده سيده بالحرية بمجرد موته ، ويكون وعد السيد هنا وصية ، وبها يكفل للعبد العتق بعد وفاة سيده ، ولضمان ذلك فقد حظر الإسلام على سيده بيعه أو رهته أو هبته ، أو أن يتصرف به أي تصرف ينقل ملكيته إلى غيره . وإن كان المدبّر أمة فإن حكمها يسري على من تلده بعد تدييرها ، فيعتق معها بمجرد وفاة السيد ، وليس للورثة الاعتراض على ذلك (٢) بشرط أن يكون السيد المدبّر بالغاً جائز الأمر (٣) .

٢- المكاتبه :

ومن أسباب العتق في الإسلام مكاتبه السيد لعبده باتفاقهما على مبلغ من المال يستحق للسيد مقابل عتق عبده ليصبح العبد بالمكاتبه حراً غير مملوك الرقبة . وقد حث الإسلام السيد بقبول مكاتبه العبد إذا طلب ذلك منه ، قال تعالى : ((والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم)) (٤) .

وعلى المولى أن يسهل الأمر على العبد بعدم مغالاته بالسعر ، بل يقدر قيمة المثل ، وليس للمولى أن يمنعه من الكسب ، كما لا يجوز له أن يتصرف في المكاتب أي تصرف يعيق وصوله إلى الحرية بالبيع أو الرهن أو الهبة ، ويلحق بعتق المكاتب عتق أولاده . (٥)

-
- (١) - بدائع الصنائع للكاساني ٤٦/٤ .
 - (٢) - سبل السلام للصنعاني ١٤٤/٤ .
 - (٣) - المغني لابن قدامة ٢٨٦/٩ .
 - (٤) - سورة النور الآية (٣٢) .
 - (٥) - تحفة الفقهاء للسمرقندي ٤١٨/٢ .

٤- التبعية :

وهو أن يعتق السيد بعض العبد ، فيحرر جزءاً منه أو عضواً فيه ، فإذا ثبت ذلك عن السيد عتق العبد كله (١)

ذلك لأن العتق لله سبحانه وتعالى وحق الله لا يتجزأ، وإذا كان للعبد مالكان فأعتق أحدهما نصيبه منه فإن على الثاني أن يختار أحد الأمور التالية :
إما أن يعتق نصيبه قربة لله تعالى، وإما أن يكاتبه على شيء معين، وإما أن يشترط عليه عملاً يستأديه منه ويعتق به، وإما أن يلزم شريكه بقيمة نصيبه إن كان مليئاً، وإما أن يدبره (٢)

٥- أم الولد :

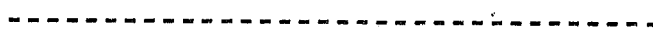
وهذا هو الاسم الشرعي الذي يطلقه الفقهاء على كل جارية أتى سيدها منها بولد، ففي هذه الحالة يعتبر الولد حراً من يوم ولادته، وتصبح الأم مستحقة للحرية بموت سيدها، حتى أن بعض الفقهاء يقررون أن الولد يعتبر حراً منذ حملها به، فإذا ادعت الأمة أن ابنها من مولاه وأقامت البينة على ذلك وادعى غريمها أنه اشتراها أخذ بيينة الأمة، لأن فيها إثبات حق الحرية لها (٣).

٦- العتق كفارة عن الجرائم والأخطاء :

يجعل الإسلام العتق مطهرة من الآثام وتكفيراً عن الأخطاء التي تتكرر من كثير من الناس، في الوقت الذي كانت الجرائم فيه عند الأمم السابقة سبباً لاسترقاق الأحرار .
ومن الأخطاء التي إذا ارتكبتها المسلم كان طريق الخلاص من إثمها سبيل تحرير الرقيق ما يلي :

أ- القتل :

جعل الإسلام تحرير الرقيق تكفيراً للقتل الناشئ عن خطأ، قال تعالى ((وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة)) (٤).



- (١) - المحلى لابن حزم ١٨٩/١٠ وما بعدها .
- (٢) - تحفة الفقهاء للسمرقندي ٢٨٩/٢ .
- (٣) - المبسوط للسرخسي ١٠٧/٧ .
- (٤) - سورة النساء الآية (٩٢) .

- ب - كفارة الإفطار عند أفسي رمضان :
- وسند ذلك مارواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هلكت يارسول الله، فقال هل تجد ماتت رقبة؟)) (١).
- ج - كفارة حنث اليمين : وسنده قول الله تعالى: ((لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة)) (٢).
- د - كفارة الظهار :
- يقول الله تعالى: ((والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا)) (٣).
- ه - إعتداء السيد على عبده بالضرب المبرح :
- يقول صلى الله عليه وسلم: ((من لطم مملوكاً أو ضربه فكفارته أن يعتقه)) (٤).

٧- الحث على العتق :

وبجانب كل هذا حيب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق، ورغب فيه وحبه عليه، وذلك تأكيداً لمنهج الإسلام في السعي لتحرير الأرقاء، وبياناً لما في كتاب الله الكريم من الحث عليه، فقد قال تعالى:

((فادأقتحم العتبة، وما أدراك ما العتبة، فك رقبة)) (٥)

فأقحام العتبة الكبرى التي لا بد من إقحامها للوصول إلى الجنة يبيلفها الإنسان بأعمال البر الجليلة كتحرير الرقيق.

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله وعمله، وسارع المؤمنون لعتق مواليتهم، فمن أبي ذر (٦) رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي الرقاب أفضل؟ قال: ((أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً)) (٧).

- (١) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الصوم / باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكن ٢٣٤/١.
- (٢) - سورة المائدة الآية (٨٩).
- (٣) - سورة المجادلة الآية (٢).
- (٤) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الإيمان / باب صحبة المماليك ١٢٧/١١.
- (٥) - سورة البلد الآيات (١٢، ١١، ١٢).
- (٦) - أبو ذر الفقاري : جندب بن جنادة بن قيس على الأكثر أسلم خامس أربعة ومن الذين جاهاوا بإسلامهم أرسله المصطفى إلى قومه حتى يأتيه خبر سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم قال عنه المصطفى أبو ذر في أمتي على زهد عيسى بن مريم وقال أيضاً رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويحشر وحده. * أسد الغابة ١٧٦/٥ * الإصابة ٦٢/٤.
- (٧) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب العتق / باب أي الرقاب أفضل ٥٢/٢.

وعن أبي موسى الأشعري (١) رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أيما رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها واعتقها وتزوجها، فله أجران)) (٢).

ولم يكتف الإسلام بهذا كله، بل خصص كذلك أهم جزء من موارد الدولة - وهو الزكاة - بدفع سهم منه في الإنفاق على تحرير الأرقاء وعتقهم ومساعدة من يحتاج منهم إلى مساعدة لتحريره كالمكاتبين ومن إليهم، فقال تعالى: ((إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب)) (٣).

أي في فك قيود الرق عن رقاب العبيد (٤).

وهكذا نلاحظ أن الإسلام قد شرع العتق ولم يشرع الرق، وشرع بقوة إلى تحرير الرقيق الذي ظل في صدر الإسلام فترة اقتضتها الضرورة، وفي سبيل ذلك نراه قد إتبع طريق التضييق من أبواب الرق وأسبابه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وسع المنافذ التي تكفل القضاء عليه في أمد قصير، وقد أفلح في ذلك تماماً، إذ هو الطريق الوحيد الذي سعى جاداً وصهد السبيل أمام البشرية للقضاء عليه، ولم تكن هنالك أية محاولة جادة من أحد - غير الإسلام - للقضاء على الرق وإنهاء حالة عبودية الإنسان للإنسان.

ثالثاً: أوضاع الرقيق ومعاملته في الإسلام :

لم يترك الإسلام الرقيق - حتى يتم نهائياً القضاء عليه - تحت رحمة سيده ولا تحت رحمة القوانين التي كان يسير عليها نظامه، بل نراه قد سن قوانين أخرى تمنحه كثيراً من الحقوق المدنية، وتحث على حسن معاملته، وتحميه من إعتداء الآخرين عليه، بما يحقق له حرمة الإنسانية ويوفقه جميع ضمانات الحرية والكرامة.

١- وما سنه في سبيل ذلك: أنه أعترف بإنسانية الرقيق ومنحه طائفة من أهم الحقوق المدنية التي ينعم بها الأحرار.

* - ومن ذلك: أنه أباح له الزواج من أمة مثله ومن حره، وأباح للأمة الزواج من رقيق ومن حر بنفس الأوضاع والشروط والعقود التي يتم بها زواج الأحرار، فيما عدا إشراف السيد على عقد الزواج لعبده أو أمته (٥).

(١) - أبو موسى الأشعري (٥٥٢هـ): هر عبد الله بن قيس بن عامر الأشعري

أسلم بمكة ورجع إلى بلاده، ودخل المدينة المنورة والرسول

راجع من خيبر مع جعفر بن أبي طالب، استعمله عمر بن الخطاب

على البصرة، أحد الحكمين بين علي ومعاوية رضي الله عنهم

وسار إلى مكة معتزلاً الفتنة ومات بها وهو ابن ثلاث وستين

سنة. * أسد الغابة ٢/٢٤٥. * الإصابة ٢/٢٥٩.

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب العلم/باب تعليم الرجل أمته وأهله ١/٢٢.

(٣) - سورة التوبة الآية (٦٠).

(٤) - زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/١٧٩.

(٥) - حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي الوافي ص (٢١٢).

قال تعالى: ((وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله)) (١).

وقال تعالى: ((ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض، فأنكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجرهن بالمعروف)) (٢).

على حين أنه لم يكن للرقيق الحق في تكوين أسرة بالمعنى القانوني الكامل في جميع الشرائع السابقة للإسلام.

* - ومن ذلك أيضاً: أن شريعة الإسلام جعلت طلاق زوجة العبد من حقه هو نفسه لا من حق مولاه، لحديث: أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله: سيدي زوجني أمته، وهو يريد أن يفرق بيني وبينها، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر، فقال: ((يا أيها الناس ما بال أحدكم يزوج عبده أمته، ثم يريد أن يفرق بينهما، إنما الطلاق لمن أخذ بالساق)) (٣).

ويقصد بذلك أن حق الطلاق في هذه الحالة لا يكون إلا للزوج نفسه لالسيدة (٤).

ومن ذلك: أباح للسيد أن يأذن لعبده في التجارة (٥).

إضافة إلى هذا أن الإسلام منح العبد المكاتب حق البيع والشراء والهبة والتملك وأجراء مختلف العقود التي تذلل له الحصول على المال، لتحرير رقبته من سيده (٦).

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام قد منح الرقيق جميع الحقوق المدنية شأنه في ذلك شأن الأحرار.

٢- حبس الإسلام على حسن معاملة الرقيق :

أوجب الإسلام على الموالي حسن معاملة عبيدهم وإمائهم، وأوصى بهم خيراً فقد جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى:

((واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم)) (٧).

(١) - سورة النور الآية (٢٢).

(٢) - سورة النساء الآية (٢٥).

(٣) - أخرجه ابن ماجه في سننه / كتاب الطلاق / باب طلاق العبد ٦٧٢/١ . وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٤) - أنظر العدة شرح العدة تأليف بهاء الدين المقدسي ص (٤٠٩).

(٥) - ينظر لذلك في كتب الفقه اباب العبد المأذون له في التجارة .

(٦) - بدائع الصنائع للكاساني ١٢٢١٤ وما بعدها .

(٧) - سورة النساء الآية (٢٦).

قد قرن الله تعالى في هذه الآية وجوب الإحسان إلى ملك اليمين وهو الرقيق بوجوب عبادته وعدم الشرك به، وجعلهما في منزلة واحدة .

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يأكل، وليلبسه ما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه)) (١)

فوضع صلى الله عليه وسلم العبيد ومواليهم في مرتبة واحدة ، وجعل أولئك إخواناً لهؤلاء، وأوصى الموالي بأن ينعموا على عبيدهم بما ينعمون به من مأكلاً ومشرباً وملبساً، وما إلى ذلك .

٣- حماية الإسلام للرقيق من سيده ومن غيره :

وقد حمى الإسلام العبيد من ظلم الموالي وتعسفهم وإساءة معاملتهم، بأن حرم على الموالي إيذاء عبيدهم وأجاز للعبد الذي يلحظه أذى من سيده أن يتظلم إلى القضاء لاتخاذ ما يكفل حمايته من عسف مالكة) (٢)

بل جعل الإسلام إيذاء السيد لعبد إيذاءً بليفاً أو التمثيل به طريق يؤدي إلى عتقه تلقائياً بدون أي إجراء قضائي) (٣).

وحماية للعبد من اعتداء الآخرين عليه سرى الإسلام في معظم الأحوال بين عقوبة الاعتداء على العبد من غير سيده وعقوبة الاعتداء على الحر، فقد ذهب جماعة من الفقهاء (٤) إلى أن الحر يقتل بالعبد عملاً بقوله تعالى : ((وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس)) (٥).

وهكذا سرى الإسلام بين العبيد والأحرار في المكانة الاجتماعية وفي الحقوق والواجبات تحقيقاً لإنسانيتهم وكرامتهم، الأمر الذي يؤدي إلى حماية المجتمع من الصراع العنصري بين الأفراد.

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الإيمان / باب المعاصي من أمر الجاهلية ١٢/١ .

وأخرجه مسلم في صحيحه /كتاب الإيمان/باب صحبة المماليك ١١/١٣٤ .

(٢) - أنظر المغني لابن قدامة ٩/٢١٥ ، وحقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي وافي ص (٢١٧) .

(٣) - أنظر فقه السنة للسيد سابق ٢/٨٩ .

(٤) - منهم الإمام أبو حنيفة /ينظر بدائع الصنائع للكاساني ٧/٢٢٢ .

(٥) - سورة المائدة الآية (٤٥) .

البحث الرابع

دور المساواة بين المسلمين

في حماية المجتمع من الصراع الحنصري

المبحث الرابع

دور المساواة بين المسلمين في حماية المجتمع من الصراع العنصري

استطاع الإسلام بتحقيقه للمساواة بين الناس كحق إنساني لهم، أن يحمي مجتمعه من كل أنواع الصراعات العنصرية التي تقوم على أساس التفرقة في الحقوق والواجبات بين الأفراد في المجتمع، وذلك بسبب اللون أو الجنس أو الطبقة أو اللغة أو الأصل .
وإن تحقيق المساواة وتطبيقها في دولة الإسلام كان الأمانة التي عجز التاريخ البشري كله قبل الإسلام وبعده من تحقيقها أو تحقيق بعضها .
وهناك الكثير من مفكري الشرق والغرب من غير المسلمين من أدركوا ذلك بجلاء يقول المستشرق (جب) :

(إن الإسلام مازال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة جلى، فليس ثمة عقيدة أو سلطة تستطيع أن تنجح في تأليف الأجناس البشرية المتباينة، وتحقيق المساواة بينها إلا الإسلام) (١) .

إن تجربة الإسلام الرائدة في مجال تحقيق مبدأ المساواة الذي نأى بالصراع العنصري عن مجتمعه، ولم يترك له إليه سبيلاً، مما اعترف به العدو قبل الصديق، وأقر به كتاب الغرب ومفكروه، كقول أحدهم : (إن الإسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين، وعلى الغرب أن يأخذ بهذا المبدأ الإسلامي لتتجر المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر الهداء) (٢)

ويقول آخر: (الإسلام يوحد بين أهل العقيدة المشتركة، دون أن يجعل أي فرق بينهم بسبب أوطانهم وألوانهم وجنسياتهم، وهو المبدأ الذي لم يعرف عند الروم السابقين، ولا عند الأوروبيين والأمريكيين الحاضرين) (٢) .

وإن تاريخ المسلمين لصفحات ناصحة تثبت أن فهم الإسلام للمساواة كان الفهم الأمثل، وأن تطبيقه لها من أول يوم في بناء المجتمع الإسلامي ربط قلوب الشريبيعض أحراراً وعبيداً وموالي، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً في كل زمان ومكان .
ذلك هو منهج الإسلام الحكيم في تحقيق المساواة الإنسانية الحقبة التي حمت مجتمعه بروح الإخاء والعدالة والرحمة من الصراع العنصري الممقوت .

(١) - نقلاً عن كتاب السلام العالمي والإسلام للشهيد سيد قطب ص (١٨٤)

(٢) - الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني للأستاذ أنور الجندي ص (٢٢٦) .

(٢) - نفس المرجع السابق ص (١٢٢) .

الفصل الثالث

تحقيق الأخوة الإسلامية بين المسلمين

وينقسم إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول * مفهوم الأخوة في ضوء الكتاب والسنة .

المبحث الثاني * أسباب الأخوة الإسلامية .

المبحث الثالث * وسائل تحقيق الأخوة الإسلامية .

المبحث الرابع * دور تحقيق الأخوة في حماية المجتمع من

الصراع العنصري .

مقدمة:

من العوامل الأساسية التي ترقى بالعلاقة بين المسلمين وتفضي على كل نوازع الشر ودواعي الخصومة تحقيق الأخوة الإسلامية بين الأفراد في المجتمع المسلم، ذلك أن هذا العامل يولد لدى كل أخ مسلم أصدق العواطف وأخلص الأحاسيس في اتخاذ مواقف إيجابية نحو أخيه المسلم من التعاون والإيثار والرحمة والعتو والتكافل، وفي اتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يضره في نفسه وماله وعرضه وكرامته الإنسانية .

وبهذا يأمن المجتمع المسلم الصراع والنزاع بين أفرادهِ حيث أن كل فرد فيه عرف حقوقه التي هي لكل المسلمين وعليه واجباته التي يطالب بها الجميع .

وقد جعل الإسلام لهذه الأخوة أسباباً، وأخذ لتحقيقها وسائل ، فكان لذلك أكبر الأثر في حماية المجتمع من الصراع العنصري . وعلى ذلك يمكن تقسيم مباحث هذا الفصل على النحو التالي :

المبحث الأول : مفهوم الأخوة في ضوء الكتاب والسنة .

المبحث الثاني : أسباب الأخوة الإسلامية .

المبحث الثالث : وسائل تحقيق الأخوة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة .

المبحث الرابع : دور تحقيق الأخوة الإسلامية في حماية المجتمع المسلم من الصراع العنصري .

المبحث الأول

مفهوم الأخوة الإسلامية

المبحث الأول

مفهوم الأخوة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة :

الأخ أصله (أخو) بالتحريك (وهو المشارك آخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صفة أو في معاملة أو في صودة وفي غير ذلك من المناسبات (١).

قال تعالى ((لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم)) (٢) أي لمشاركيهم في الكفر. وقال سبحانه: ((إنما المؤمنون إخوة)) (٣).

وقال تعالى أيضاً: ((إخواناً على سرر متقابلين)) (٤) تنبيهاً على إبتغاء المخالفة بينهم .

والأخت تأنيده الأخ، وجعل التاء فيه كالعرض عن المحذوف منه. وقوله تعالى: ((يا أخت هارون)) (٥) يعني أخته في الصلاح لافي النسبة. وذلك كقولهم: (يا أخا تميم) سمي أخاً تنبيهاً على إشقاقه عليهم شقة الأخ على أخيه، وعلى هذا قوله تعالى :

((وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها)) (٦)

أي من الآيات التي تقدمتها، وسماها أختاً لها لإشتراكهما في الصحة والإبانة والصدق (٧).

وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين، والأنصار.

-
- (١) - معجم صقاييس اللغة لأبي الحسن بن زكريا ٧٠/١ .
 - وقطر المحيط للمعلم بطرس البستاني ١٥/١ .
 - (٢) - سورة آل عمران الآية (١٥٦)
 - (٣) - سورة الحجرات الآية (١٠) .
 - (٤) - سورة الحجر الآية (٤٧) .
 - (٥) - سورة مريم الآية (٢٨) .
 - (٦) - سورة الزخرف الآية (٤٨) .
 - (٧) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (١٢) .

روى البخاري أنهم (لما قدموا المدينة، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف (١) وسعد بن الربيع (٢) قال لعبد الرحمن إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انتقضت عدتها فتزوجها قال : بارك الله لك في أهلك ومالك (٢) .
(ومعنى آخى بينهم أي ألقى بينهم بأخوة الإسلام والإيمان) (٤) .

(وكلمة أخ في العقيدة تطلق على من يشارك آخر في معتقده، وقد يعبر عنه بلفظ (أخ في الدين) أو (أخ في الله) وهي الأخرى الإيمانية التي لا تقاربها رابطة مهما كانت وشائج القرى متينه، لذلك ميزها بالإسلام عن أخوة الدم .

وإذا ما اجتمعت أخوة الدم وأخوة العقيدة فقد بلغت الأصرة أشدها، وهذا ما تجده في سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشد عضده بأخيه هارون عليه السلام: ((واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي، اشدد به أزري)) (٥) .

(١) - عبد الرحمن بن عوف بن كلاب القرشي ، ولد بعد عام الفيل ب ١٠ سنوات ، ثامن سبع أسلموا ، هاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها واحد العشرة المبشرين بالجنة ، جرح في أحد ، وكان تاجراً كثير الإنفاق ، توفي الرسول وهو عنه راض ، ودفن بالمدينة وعمره خمساً وسبعين سنة .

* أسد الغابة ٢/٢١٢ . * الإصابة ٢/٤١٦ .

(٢) - سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي ، شهد العقبة الأولى والثانية، أحد نقباء بني الحارث ، شهد بدرأ واستشهد باحد ، ودفن معه خارجه بن زيد في قبر واحد ، قال الرسول عنه رحمه الله نصح لله ولرسوله حياً وميتاً آخى الرسول بينه وبين عبد الرحمن بن عوف . * أسد الغابة ٢/٢٧٧ . * الإصابة ٢/٢٦ .

(٢) - رواء البخاري في صحيحه / كتاب المناقب / باب إخوان النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ٢/٢١٢ .

(٤) - لسان العرب لابن منظور ١٨/٢٢ .

(٥) - سورة طه الآيات (٢٩ ، ٢٠ ، ٢١) .

والأنبياء إخوة في الإيمان بالله، وقد وردت بعض أحاديث عن رسولنا صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالأنبياء الذين سبقوه أنه أخ لهم. منها أنه لما استقبله الأنبياء في السموات العلى عند عروجه إليها قالوا له: ((مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح، ويقولهم: مرحباً بك من أخ ونبى)) (١).

وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى الأخوي عندما وصف ما بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه من محبة خالصة مبنية على هذه العقيدة الإيمانية فقال في حقه: ((إن آمن الناس عليّ في صحبتي وماله أبو بكر، لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته)) (٢). وفي رواية: ((ولكن أخي وصاحبي)) (٣) أي هو أخي في الدين وصاحبي في السراء والضراء والحضر والسفر (٤) وقال صلى الله عليه وسلم: ((المسلم أخو المسلم)) (٥) وهذه أخوة الإسلام فإن كل إتفاق بين شيئين يطلق عليهما اسم الأخوة، ويشترك في ذلك الحر والعبد والبائع والمميز (٦).

من هذا يمكن أن نفهم معنى الأخوة ونعرفها بأنها الموافقة بين الشيئين أو المشاركة بين شيئين سواء كان في المعتقد، أو في النسب، أو في الصفة، وتكون متجهة للتناصر والوحدة والمماثلة.

-
- (١) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم ١٤٢/٢ .
 - (٢) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب المناقب / باب مناقب المهاجرين وفضلهم باب قول النبي صلى الله عليه وسلم سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر ١٩٧/٢ .
 - (٣) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الفضائل / باب فضل أبي بكر ١٥٠/١٥ .
 - (٤) - عمدة القاري شرح صحيح بخاري للعيني ١٧٨/١٦ ، وهي الرواية الأقوى من الشرح .
 - (٥) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب البر والصلة/ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ١٢٠/١٦ .
 - (٦) - فتح الباري ٩٧/٥ .

البحث الثاني

منهج الكتاب والسنة في تحقيق الأخوة الإسلامية

الوسيلة الأولى الإلتزام بأداء العبادات المفروضة .

الوسيلة الثانية الإلتزام بالإخلاق الإسلامية .

الوسيلة الثالثة التوجيه بالكلمة الطيبة .

المبحث الثاني :

منهج الكتاب والسنة في تحقيق الأخوة الإسلامية

لقد كان هدف الدين الإسلامي من وقت أن بدأت أنواره تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مجتمعاً متضامناً متآلفاً متآخياً، وكان من أهدافه المثلى أن يربط بين متبعيه بأسمى علاقات الود والتعاون والأخاء، وأن يزيل من نفوس أهل الجاهلية ماركز فيها من العصية البغيضة والعنصرية الهوجاء التي اججت الصراعات البشرية وأحدثت الانقسامات بين الناس وقطعت رباط الألفة بينهم .

جاء الإسلام ليسوي بين الناس ويرفع من شأنهم حتى يحس كل فرد منهم بالكرامة الآدمية والأخوة الإسلامية، فاتهج لذلك كل السبل الممكنة التي تهدف إلى وحدة الصف وجمع الشمل وتقوية الروابط وإيجاد الألفة، ونشر المساواة، ووضع الأسس الصحيحة للأخوة الإيمانية الصادقة، والوسائل العملية والإيجابية التي تعمل على تحقيق هذه الأخوة بين أفراد المسلمين في المجتمع .

وسأتناول بالحديث في هذا المبحث - بإذن الله- بعض هذه الوسائل التي إتهجها الكتاب والسنة لتحقيق الأخوة الإسلامية مرتبة على النحو التالي :

الوسيلة الأولى : الإلتزام بأداء العبادات المفروضة .

الوسيلة الثانية : الإلتزام بالأخلاق الإسلامية .

الوسيلة الثالثة : التوجيه بالكلمة الطيبة .

الرسيلة الأولى: أداء العبادات المفروضة على وجهها الصحيح:

ومن أجل تحقيق الأخوة الإسلامية إتهج الكتاب والسنة وسائل تشريعية أمر بالالتزام بها، ووضع قواعد دعا إلى الأخذ بها لوضع الإيمان موضع التطبيق، ولا يبرز العمل الصالح عن طريقها، لأن الإيمان الحقيقي هو ما صدقه القلب وعملت به الجوارح، وهذا ما يدعو إليه الإسلام ويريد من أتباعه ومجبيه .

وإن من أبرز هذه القواعد التطبيقية لتحقيق الأخوة الإسلامية بين المسلمين هو ما شرعه الله تعالى من عبادات لها أكبر الأثر في ترابط المجتمع وتماسكه وإقامة علاقة الإخاء بين أبنائه .

من هذه التشريعات ما هو بدني يصل الإنسان بخالقه ويقوي علاقته بإخوانه المؤمنين كالصلاة، ومنها ما هو روحي يعمل على تصفية القلوب ونقاؤها، ويبعث على الشفقة والعدل بالقرءاء والمحتاجين كالصيام ومنها ما هو مالي يعمل على تصفية النفوس من الشح والبخل والطمع ويقيم فيما بين الأفراد التكافل الاجتماعي كالزكاة، ومنها ما يجمع بين النواحي البدنية والروحية والمالية كالحج .

وسأتناول - بإذن الله - أهم الجوانب التشريعية مبيئة أثرها في ترابط المجتمع، وإرساء علاقات الود والصفاء والحب والإخاء بين أفراد المجتمع الإسلامي وذلك فيما يلي :

١- الصلاة وأثرها في تحقيق الأخوة الإسلامية :

الصلاة في مظهرها وحيثيتها نمط كامل من الوحدة والترابط والتآخي ويتجلى ذلك واضحاً في أدائها جماعة في المسجد، حيث يلتقي المسلمون من سكان الحي خمس مرات في اليوم يشتركون جميعاً في عبادة الله الواحد الأحد وفي التوجه إلى قبلة واحدة، وفي الإنقياد إلى إمام واحد، لأداء شطائر عبادية في حركات وسكنات واحدة: يقفون جميعاً صفوفاً مترابطة تذيب الفوارق الدنيوية وتنسي كلاً مركزه المادي والاجتماعي لأنهم جميعاً في حضرة قدسية عظيمة .

وحرصاً على هذا المظهر الإسلامي النظامي الموحد دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى تسوية الصفوف وتنظيمها كمثل للوحدة والمساواة .

يقول عليه الصلاة والسلام: ((استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)) (١). ومظهر المصلين بهذه الصورة الشرعية المتكاملة المتكررة خمس مرات في اليوم الواحد، يبين أثر الصلاة ودورها العظيم في وحدة المسلمين وتآلفهم وتعارفهم، حيث يعرف كل منهم الآخر، وبالتالي في معرفة بعضهم بعضاً إذا تقيب أحدهم عن الحضور، سارعوا إلى السؤال عنه ونجدته إن كان في حاجة إلى ذلك .

وهذا من المقاصد السامية لهذا الركن العظيم من أركان الإسلام! كما يؤكد هذا التعارف والتآلف ذلك اللقاء الأسبوعي في صلاة الجمعة واللقاء السنوي بين المسلمين في صلاة عيد الفطر وعيد الأضحي .

يقول الشيخ المودودي رحمه الله: (إن الله تعالى أكد تأكيداً شديداً أن يؤدي المسلمون فريضة الصلاة جماعة واقترض عليهم أن يؤديوا صلاة الجمعة في كل أسبوع بالجماعة على الوجه الخاص، فالصلاة جماعة تنشئ الإتحاد والمحبة والإخاء بين المسلمين، وتجعل منهم كتلة مترابطة، فإنهم عندما يجتمعون ويقفون لربهم ويسجدون ويركعون معاً تأتلف قلوبهم، وينشأ فيهم الشعور بأنهم إخوة فيما بينهم، ثم إن الصلاة تنشئ فيهم المساواة والتراحم والمواساة والإستفاف، فتراهم جميعهم غنيهم وفقيرهم، وكبيرهم وصغيرهم، وأعلامهم وأدناهم، يقرمون جنباً إلى جنب، فلا شريف فيهم ولا دنئ، ولا رفيع ولا وضيع) (٢).

ولاعجب بمد هذا أن تكون الصلاة زاداً لكل الأجيال :
يوصي الله تعالى بها عيسى عليه السلام: ((وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً)) (٢).

ويأمر بها إسماعيل عليه السلام قومه:
((واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً)) (٤).

-
- (١) - رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الصلاة /باب تسرية الصفوف وإقامتها ١٥٤/٤ .
(٢) - مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المودودي ص (١١٥) .
(٣) - سورة مريم الآية (٢١) .
(٤) - سورة مريم الآيتان (٥٤ ، ٥٥) .

ويوحى الله تعالى لموسى عليه السلام أن يأمر بها بني إسرائيل لتكون من أسباب القوة التي يواجهون بها فرعون وكيدته ((وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تسبوا القوم كما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشرا المؤمنين)) (١).

وكانت أول شيء يطلبه خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام من ربه لنفسه ولذريته فيقول: ((رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي)) (٢) كما أنه عليه السلام أخذ ابنه إسماعيل وزوجته هاجر لتلك الصحراء في مكة تنفيذاً لأمر ربه وذلك لتقيم هذه الأسرة حول بيت الله الحرام شعائر الصلاة والنسك قال تعالى: ((ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)) (٣).

جاء في تفسير أبي السمود: في قوله تعالى: ((ربنا ليقيموا الصلاة)) يقول: (متوجهين متبركين به، وتخصيص الصلاة بالذكر من بين شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة والاهتمام بعرض أن الغرض من أسكانهم بذلك الوادي البلعج ذلك المقصد الأقصى والمطلب الأسنى) (٤).

وهكذا أمر بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قال تعالى :
((أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً)) (٥).

وأمره أن يأمر بها أهله ويصبر على مشاقها: ((وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسالك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى)) (٦).

و يأمر بها المؤمنين: ((قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعادنية من قبل أن يأتي يوم لا يبغ فيه ولا خذل)) (٧)

(١) - سورة يونس الآية (٨٧).

(٢) - سورة إبراهيم الآية (٤٠).

(٣) - سورة إبراهيم الآية (٢٧).

(٤) - تفسير أبي السمود ٥٢/٥.

(٥) - سورة الإسراء الآية (٧٨).

(٦) - سورة طه الآية (١٢٢).

(٧) - سورة إبراهيم الآية (٢١).

وبها يستحق الإنسان أخوة المؤمنين : ((فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخراكم في الدين) (١) .

(ومن ثمرات الصلاة - حين تؤدي على الوجه الذي طلبه الله من إقامتها - أنها تكف صاحبها عن كل فحش، وتقضيه عن كل منكر كما جاء ذلك في قوله تعالى ((وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)) (٢) .

جاء في تفسير أبي السمود: ((وأقم الصلاة)) أي داوم على إقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة للصلوات المكتوبة بالجماعة وكان أمره صلى الله عليه وسلم بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى: ((إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)) كأنه قيل وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نهىها عنهما أنها سبب لإلانتها عنهما لأنها مناجاة لله تعالى، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض لكلي عن معاصيه.

قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: في الصلاة منتهى ومزدجر عن مجاصي الله تعالى: فمن لم تأمره صلواته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلواته من الله تعالى إلا بعداً، وقال الحسن وقتادة: من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر فصلواته وبال عليه، وروى أنس رضي الله عنه أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له صلى الله عليه وسلم فقال: إن صلواته مستتهمة، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله)) (٣) .

إنها تعود المؤمن على الاستهانة بالشدائد، وتحملها بقلب مطمئن وعزيمة صلبة، يشير إلى ذلك قوله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين)) (٤)

-
- (١) - سورة التوبة الآية (١١) .
(٢) - سورة العنكبوت الآية (٥٤) .
(٣) - تفسير أبي السمود ٤٢/٧ .
(٤) - سورة البقرة الآية (١٥٢) .

جاء في تفسير المنار في هذه الآية (أي استيمنوا على إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلى سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة، بالصبر، وهو: توطين النفس على احتمال المكاره، وبالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله تعالى، وتصفر بمناجاته كل المشاق). (١)

وأنها تمحو الخطايا والسيئات قال تعالى:

((واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)) (٢).

يقول السيد رشيد رضا في قوله تعالى: ((إن الحسنات يذهبن السيئات)): الجملة تعليل للأمر قبلها مبين لحكمته وفائدته، ومعناها: إن لأعمال الحسنات من تزكية النفس وإصلاحها، ما يمحو منها تأثير الأعمال السيئة وإفسادها، روى عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما تفسير الحسنات فيها بالصلوات الخمس). (٣)

(وأنها تضع بين صاحبها وبين التذبذب في دائرة الجزع والبخل سداً منيعاً، يقول تعالى: ((إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون)) (٤)

وإذا كان للصلاة تلك المنزلة وتلك الثمرات والفوائد، فقد جعل القرآن الكريم تركها وسيلة للانحطاط الخلقي والوقوع في أسرار الشهوات

قال تعالى: ((فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً)) (٥). كذلك كان تركها سبباً للخلود في النار، قال تعالى:

((كل نفس بما كسبت رهينة، إلا أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون، عن المجرمين، ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين)) (٦). (وبعد هذا الترغيب والترهيب في الصلاة ندرك أن القرآن الكريم ما أفاض فيها وجعلها ركناً أساسياً في دين الله إلا لما تحمله من قوة التأثير في مجتمع الإسلام وما تفرسه في النفوس من صفات نبيلة طاهرة) (٧)

(١) - مختصر تفسير المنار للسيد رشيد رضا ١١٧/١.

(٢) - سورة هود الآية (١١٤).

(٣) - مختصر تفسير المنار ٥٠٦/٢.

(٤) - سورة المعارج الآية (١٩-٢٢).

(٥) - سورة مريم الآية (٥٩).

(٦) - سورة المدثر الآيات (٢٨ - ٤٧).

(٧) - منهج القرآن في تربية المجتمع / للدكتور عبد الفتاح عاشور ص (٢٠٢)

٢- الزكاة وأثرها في تحقيق الأخوة الإسلامية:

تعتبر الزكاة من أبرز أنواع العبادات وأقواها تأثيراً في تحقيق الأخوة بين المسلمين ودليلاً عليها، حيث تتجلى في أدائها ووضوح صور التكافل وأساليب التضامن، بل إن تحقيق هذا التكافل والتضامن هو الحكمة من تشريعها وجعلها ركناً من أركان الإسلام، كما أنها الأسلوب العملي لتنقية النفس من الشح وتطهيرها من البخل، وتزكية المال وتنميته، والانتصار على شهوة حبه والعبودية له، وحين يتحقق ما شرعت الزكاة لأجله يتحقق التأخي في أروع صوره بين المسلمين ويبرز التكافل في أجمل صورة في المجتمع الإسلامي .

والزكاة فريضة على الأغنياء وهي حق للفقير فلا تسول للأغنياء أنفسهم أن يمتنعوا على الفقير بما يقدمونه له لأن المال مال الله، كما جاء في قوله تعالى: ((وآتوهم من مال الله الذي آتاكم)) (١)

يقول أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: ((معنى آتوهم أقرضوهم، وقيل هو أمر لهم بأن ينفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا، وإضافة المال إليه تعالى ووصفه بإيتائه إياهم للحث على الإمتثال بالأمر بتحقيق الأمور به، كما في قوله تعالى: ((وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقي له من أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها)) (٢).

والأغنياء مستخلفون فيه، فليهم أن يحسنوا الخدافة بقوله تعالى: ((آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير)) (٣).

(بهذا المفهوم الرفيع يعرف الفني وضعه فلا يتعالى على الفقير ولا يتكبر عليه، بل يدرك أنه والفقير سواء إلا أنه يختلف عنه بما استخلفه الله عليه من هذا المتاع الدنيوي، وحينئذ تسود بينهما علاقة الأخوة والصلة الطيبة فيكون مجتمع متآلف متعاون متحاب متأخ، يعرف الفني فيه واجبه فحوربه فيطبعة فيما أمر، ويعرف واجبه نحر أخيه الفقير

(١) - سورة النور الآية (٢٢) .

(٢) - تفسير أبي السعود ١٧٢/٦ .

(٣) - سورة الحديد الآية (٨) .

فيسارع إليه بالبذل والعطاء، كما يحسن الفقير في الوقت ذاته أن هناك من إخوانه الأغنياء من يسأل عنه ويقف إلى جانبه ويرفع من معنوياته. (وهكذا يلتقي الفريقان على الود والصفاء والإخاء، وبذلك تقضي الزكاة على الفوارق التي تملأ المجتمع حقدًا وكرهية وتتسبب في قطع وشائج القربى بين أبنائه، وتموت بها الطبقة الاقتصادية القاتلة ويتواضع الأغنياء ويرتقي الفقراء وتزول من بينهم أسباب الفرقة وينشأ التكافل الاجتماعي بين الأفراد وحينئذ يصلح المجتمع ويسود الترابط والتآخي بين أفراده ويحسن الجميع بسمو التشريع الإسلامي ونبيل مقصده وعظيم عنايته) (١).

لذلك كان في إيجاب الزكاة مواصلة للفقراء، ومعرفة لذوي الحاجات تكفهم عن البغضاء، وتمنعهم من التقاطع، وتبعثهم على التواصل) (٢).

يقول الشيخ المردودي: (ومن فوائد الزكاة في الدنيا أن يتناصر المسلمون في الدنيا ويتكافأوا بينهم، حتى لا يبقى فيهم عار ولا جأنع ولا مهين ويكفل غنيهم فقيرهم، ويعاف فقيرهم أن يبسط يده إلى الفني بالاستمداد، ولا ينفق أحد أمواله في البذخ والترف، ويعلم أن في أمواله حقًا لليتامى والأيتام والفقراء والمساكين من أبناء أمته، وأن فيها حقًا للذين يقدرون على العمل ولكن لا يجدون إليه سبيلا لما يعوزهم من المال، وأن فيها حقًا للأطفال الذين فطروا على الذكاء والفضيلة ولكن لا يقدرون على تحصيل العلم بسبب فقرهم، وأن فيها حقًا للمعززة الذين لم يعودوا قادرين على العمل، فكل غني لا يعترف في ثروته بهذه الحقوق ظالم، وفيه أثر من شيمة الكفار، الذين تعلمهم مدنيتهم أن يدخروا عندهم كل ما تصل إليه أيديهم من الثروة ويربوا بها، أما المسلمون فيعلمهم دينهم أنه إذا وهب الله لكم من الرزق ما زاد عن حاجتكم، فلا تكنزوه وأعطوه إخوانكم الذين يفتقدونه ليسدوا حاجاتهم ويعودوا قادرين على كسب معيشتهم كما تكسبون معيشتكم أتم) (٢).

ولا يكتفي التشريع الإسلامي في إقامة التضامن والتكافل بين المسلمين عن طريق الزكاة فقط، وإنما يضيف إليها دعوته الدائمة للانفاق في سبيل الله، ومد يد العون والتراحم إلى جميع المحتاجين، وإقامة جسور من صلوات الرحمة والرفقة والأخوة معهم والبذل والعطاء بالليل والنهار .

- (١) - منهج الكتاب والسنة في العلاقات الإنسانية للدكتور مجاهد هريدي ص (١٧٢ - ١٨٧) بتصرف
- (٢) - أدب الدنيا والدين للمورددي ص (٩٨)
- (٣) - مبادئ الإسلام للمورددي ص (١٢٠ ، ١٢١)

يقول الله تعالى: ((الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خرف عليهم ولا هم يحزنون)) (١) .

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية: ((من أحسن الرجوع في سبب نزول الآية أنها عامة في الذين يعمون الأوقات والأموال بالصدقة تحرضهم على الخير، فكلمنا نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقت ولا مال)). (٢)

ويقول سيد قطب رحمه الله: ((وهذا نص عام يشمل جميع أنواع الأموال وكل طرق الإنفاق، في جميع الأوقات، وفي جميع الحالات، ليكون للمنفق الأجر المطلق، من مضاعفة المال، وبركة العمر، وجزاء الآخرة، ورضوان الله، والأمن من الخوف، والحزن في الدنيا والآخرة سواء)) (٢)

٢- الصوم وأثره في تحقيق الآخرة الإسلامية :

والصوم عبادة روحية يسو فيها المؤمن بنفسه ويرتقي بروحه ويطهر قلبه ويراقب ربه، وأساس هذه العبادة أن يحكم الإنسان نفسه ويتملك غريزته، ويصل بعزيمته إلى أرفع مكانة لها في القوة والثبات .

ولقد ذكر الله تعالى الصوم في القرآن الكريم وألزم به المؤمنين .
قال تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)) (٤) .

-
- (١) - سورة البقرة الآية (٢٧٤) .
 - (٢) - تفسير الفخر الرازي ٩٠/٧ .
 - (٣) - تفسير في ظلال القرآن الكريم للشهيد سيد قطب ٢١٦/١ .
 - (٤) - سورة البقرة الآية (١٨٢) .

يقول السيد رشيد رضا: ((إن الصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، لامطلق الإمساك، وقوله تعالى: ((لعلكم تتقون)): تعليق لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته العليا العليا، وهو أنه يُعدّ نفس الصائم لتقوى الله تعالى، بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسرة امتثالاً لأمره، واحتساباً للأجر من عنده، فتتربى إرادته على ملكه ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، فيكون إجتنابها أيسر، وأقرب على النهوض بالطاعات والمصالح والإصطبار عليها، فيكون الثبات عليها أهون، ولعلها تدل على إعداد النفس لما يرجى من الخير بأسبابه)). (١)

وإذا أمعنا النظر في هذه الفريضة، وفي نظام أدائها وفي وقتها، يتجلى لنا بوضوح مدى علاقتها بالتضامن وأثرها في تحقيق الأخوة بين المسلمين (قاله تعالى لم يفترض الصيام على المسلمين جميعاً إلا في شهر واحد بعينه ليصوموه جميعاً لامتفرقين، وفي ذلك كثير من المنافع، فإذا جاء شهر رمضان، أظل المجتمع المسلم كله جو من الطهارة والنظافة والإيمان وخشية الله وطاعة أحكامه، ودماثة الأخلاق وحسن الأعمال، وكسدت سوق المنكرات، وعم انتشار الخيرات والحسنات، وبدأ الصالحون من عباد الله يتعاونون فيما بينهم على أعمال البر والإحسان، وبدأ يعتري الأشرار الخجل عن أقران المنكرات، ونشأت في الأغنياء عاطفة المساعدة لإخوانهم الفقراء والمساكين، وبدأوا ينفقون أموالهم في سبيل الله، وأصبح المسلمون جميعاً في حالة تماثلة، وكل ذلك يكون فيهم الشعور العام بأنهم جميعاً جماعة واحدة، وتلك وسيلة ناجحة لتنشأ فيهم عاطفة التحاب والإخاء والمساواة والتعاون والوحدة) (٢).

(١) - مختصر تفسير المنار ١/١٢٨.

(٢) - مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المرودي ص (١١٨).

٤- الحج وأثره في تحقيق الأخوة الإسلامية :

إن الحج بمناسكه وأركانه وأعماله كلها تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وإمتثال للأمر المجرد، وهو بمثابة مؤتمر إسلامي عام يجتمع فيه المسلمون من مختلف أنحاء المعمورة على تباعد أماكنهم وتباين أقاليمهم واختلاف أجناسهم وتعدد ألوانهم، ولكنهم جميعاً إتحدوا في المقصد والهدف والغاية لتقوى بينهم روح الأخوة الإسلامية والتعاون على البر والتقوى، حيث يعود الحاج بعد أداء الحج كيوم ولدته أمه، خالياً من ذنوبه، مطبقاً لمبادئ الشريعة الفاصلة وأخلاقها الكريمة أخاً للمسلمين رحيماً بهم متضامناً معهم فهماً بشؤونهم، يواسي محرومهم ويعاون عاجزهم، يقوي ضعيفهم ويشد أزر قويهم.

يقول الشيخ المودودي: (من منافع الحج الدنيوية أن مكة المكرمة قد جعلت مركزاً للمسلمين، تهوي إليه نفوسهم من جميع نواحي الأرض، على اختلاف سلالاتهم وأوطانهم، فيشعرون أنهم إخوة فيما بينهم، وأنهم لا يؤلفون بمجموعهم إلا أمة واحدة، فكان الحج هو عبادة الله تعالى في جانب، ومؤتمر عالمي سنوي يفد إليه المسلمون من جميع نواحي الأرض وأقطارهم بالجانب الآخر، فهو أكبر وسيلة وأنجح طريقة لتربية الأخوة الإسلامية العالمين على الإتحاد والمحبة والتعاون) (١).

لهذا كان الحج في الإسلام ولا يزال مدرسة تنظم العلاقة بين بني الإنسان في كل عصر من العصور، وهو لأبناء العصر الواحد فرصة لو اغتنموها وحافظوا عليها وألوهها إهتمامهم كانت عاملاً قوياً على وحدة الصف وإيجاد التعاون والتعارف والمحبة والإخلاص بينهم، ولقطعت أسباب الشقاق والنزاع ولأودت بالخلافات والعصبيات، وعرف كل حرمة الآخر وحافظ على الصلة الوثيقة والعلاقة الطيبة به .

والنبي صلى الله عليه وسلم يرسم للناس ويوضح لهم ما يجب عليهم أن يكونوا عليه فيما بينهم في خطبته في حجة الوداع يوم التاسع من ذي الحجة وهو على ناقته التصواء .

(١) - مبادئ الإسلام للمودودي ص (١٢٢ ، ١٢٤) .

خطب الناس فقال :

((إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضع من دماننا دم ابن ربيعة كان مسترضاً في بني سعد قتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم أشهد اللهم أشهد أشهد ثلاث مرات)) (١).

فكانت هذه الكلمات من رسول الله صلى الله عليه وسلم موجهاً للمسلمين ومرشداً لهم إلى ما يقوي بينهم أخوة الإيمان .

تلك كانت أبرز آثار العبادات في تحقيق الأخوة الإسلامية بين المسلمين .

(١) - رواه الإمام مسلم في صحيحه بشرح النووي / كتاب الحج / باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ١٨٢/٨ ، ١٨٤ .

الوسيلة الثانية - الالتزام بالأخلاق الإسلامية:

الإسلام أخلاق كله، وهذه الأخلاق لا يقتصر أثرها على من يتخلق بها، وإنما يتعدى غيره، لأن الإنسان ودود بطبعه وهو يألف ويؤلف، ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف . .

(والإنسان إذا حسنت أخلاقه كثر مصافوه، وقل معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصواب، ولانت له القلوب الغضاب) (١).
لذلك كان الالتزام الخلقي وسيلة من وسائل الكتاب والسنة في تحقيق الأخوة بين المسلمين .

وهناك بعض صفات لا بد من أن تكون بارزة ومروفة في المسلم لمن يتعامل معهم، لتحقيق الثقة به، فيحقق بالتالي رابطة الأخوة الإسلامية بينه وبين غيره، وهي من مكارم الأخلاق أعددها هنا بعضاً منها :

أ- الصدق:

الصدق في كل شيء في القول والعمل والاعتقاد اليقيني النابع من القلب .

وقد أمر الله عباده بالصدق وحض عليه وقال لهم :

((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)) (٢).

(أي: كونوا مع جماعة الصادقين، أو منهم دون المنافقين الذين يتضلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف، والصادقون: هم المعتصمون بالصدق والإخلاص في جهادهم إذا جاهدوا، وفي عهدهم إذا عاهدوا، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا، وفي توبتهم إذا أذنبوا أو قصرُوا، والمنافقون ضدّهم في ذلك). (٢)

(١) - كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي ص (٢٢٧).

(٢) - سورة التوبة الآية (١١٩) .

(٢) - مختصر تفسير المنار للسيد رشيد رضا ٢/٢٦٢.

ويقول صلى الله عليه وسلم:

((إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)) (١).

(وإن خلق الصدق في المسلم يوحى بالثقة والاطمئنان إلى كل من تعرف عليهم وتعامل معهم، وهو أكثر تأثيراً في الآخرين من أي خلق آخر، لأنه أسرع ظهوراً من غيره من الأخلاق، وإنه إذا ما تبين للآخرين أن من يتعامل معهم غير صادق، فسيفرون منه ويحذرونه، وسيبنون كل تصرفاته على مائتبت لديهم من تصور عنه) (٢).

ب - ومنها الرحمة:

وهي من أبرز ما يجب أن يتحلى به المؤمنون، لما تبعث في النفس من الشهور بأنه أخ للمؤمن، ويحول دون كثير من المساوى لأن من يتصف بهذا الخلق يمتنع عن الإضرار ويسارع إلى نجدة من لحق بهم ضرر .

ولهذا الأصل الخلقي فروع خلقية متعددة، منها بر الوالدين، ومنها صلة الرحم، ومنها إكرام اليتيم، ومنها العطف على الفقراء والمساكين والمرضى والخدم وذوي الحاجات والعجزة وذوي المصائب، ومنها التعاطف بين الإخوان والأصحاب والبحيران وبين المسلمين بوجه عام .

والإسلام دين الرحمة ، ورسالة الخير والسلام .

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) (٢)

(أي وما أرسلناك بالشرائع والأحكام وغير ذلك من الأمور التي هي مناط لسعادة الدارين (إلا رحمة للعالمين) أي إلا برحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة وما أرسلناك في حال من الأحوال كونك رحمة لهم فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يفتنم مغانم آثاره فإنما فرط في نفسه وحرمه في نفسه وحرمه حقه لأنه تعالى حرمه مما يسعده) (٤).

(١) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب البر والصلة / باب قبج الكذب وحسن الصدق وفضله ١٦٠/١٦ .

(٢) - معاني الأخوة في الإسلام لـ للدكتور محمور بابلي ص (١٤٤).

(٣) - سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

(٤) - تفسير أبي السمود ٨٩/٦ .

ويقول تعالى: ((ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)) (١).

ولذلك نلاحظ في النصوص الإسلامية توجيهات صالحة للتخلي بخلق الرحمة، وحثاً على مظاهرها العملية وآثارها في السلوك وفي توثيق روابط الألفة والمحبة والتآخي بين الأفراد في المجتمع :

يقول صلى الله عليه وسلم: ((لا يرحم الله من لا يرحم الناس)) (٢).
ويقول صلى الله عليه وسلم: ((أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربة وسلم، وعفيف متعفف ذو عيال)) (٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)) (٤). ولذلك كان الإصلاح بين الإخوة بدافع خالق الرحمة بهم جالباً لرحمة الله تعالى.
يقول الله تعالى :

((إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)) (٥)

وإن من صفات المصطفى صلى الله عليه وسلم التي وصفه الله بها أنه رحيم بالمؤمنين، وذلك في قوله: ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)) (٦). فكون الرسول صلى الله عليه وسلم عزيز وحريص على المؤمنين وشديد الرأفة والرحمة بهم، يدل على أنه شديد إرادة النفع وإبتغاء الخير لهم وشديد الاستحسان بهم من أجل سعادتهم، وصيانتهم من كل ما يضرهم عن طريق الجنة، ومن كل ما يؤذيهم ويضرهم في دنياهم وآخرتهم .

وبسبب ما جعل الله في قلبه من رحمة، كان صلى الله عليه وسلم ليين الجانب محبباً ، ملكاً لقلب أتباعه، وهذا ما وصفه الله به بقوله تعالى :
((بما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، قاعف عنهم وأستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين)) (٧).

-
- (١) - سورة الأعراف الآية (١٥٦).
 - (٢) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب التوحيد / باب قول الله (قل أدعوا الله وأدعوا الرحمن) ١٩٢/٤ .
 - (٣) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الجنة وصمة نعيمها وأهلها / باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ١٩٨/١٧ .
 - (٤) - أخرجه الترمذي / كتاب البر / باب ما جاء في رحمة الناس ٢٢٤/٤ وقال حسن صحيح وأخرجه أحمد في مسنده ١٦٠/٢ .
 - (٥) - سورة الحجرات الآية (١٠).
 - (٦) - سورة التوبة الآية (١٢٨) .
 - (٧) - سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

فهي رحمة الله التي نالته وتالتهم، فجعلته صلى الله عليه وسلم رحيماً بهم، ليناً معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب ماتلفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة الى كنف رحيم وإلى رعاية فأنقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعمهم، وعلم لا يضييق بجهلهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى مطاء، ويحمل همومهم ولا يعينهم بهم، وهكذا كان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ووسع حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وسامن واحد منهم عاشره أو رأه إلا امتد قلبه بحبه، فتبيجة لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم من نفسه الكبيرة الرحيبة. (١).

(ومن آثار الرحمة في السلوك الظاهر لين الجانب للناس، وتقيضها غلظ القلب وقساوته، ومن مظاهر هذا التقيض الخشونة في معاملة الناس والسلوك الفظ .
والرحمة خلق مؤلفاً محبباً، وتقيضها خلق منفر مشير للكراهية، فمن آثار الرحمة التأليف، ومن آثار وتقيضها التنفير) (٢).
لذلك كان الالتزام بخلق الرحمة سبب في إيجاد رابطة الأخوة الإسلامية بين المسلمين.

ج - الأمانة:

(وهي صفة لها أثر بارز في التعامل المادي، وإن التخلق بها يشيع الثقة بين الناس فيقبلون على التعامل مع هذا الإنسان المشهور بالأمين، ولا تقتصر الأمانة على الناحية المادية التي هي عنوان الثقة بين المتعاملين اقتصادياً، وإنما هي تشمل الأمانة بالمجالس والأمانة بالتكاليف التي بنيت عليها الأمور التعبدية) (٢).
(والأمانة في الأعراض بالغة عماليس للإنسان به حق منها، وكف النفس واللسان عن نيل شيء منها بسوء، كالقذف والغبية .

والأمانة في الولاية بتأدية الحقوق إلى أهلها، وإستناد الأعمال إلى مستحقيها الأكفيا لها، وحفظ أموال الناس وأجسامهم وأرواحهم وعقولهم وصيانتها مما يؤذيها أو يضر بها .

-
- (١) - في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١/٥٠٠-٥٠١ .
(٢) - الأخلاق الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن الميداني ١/٤٠١ .
(٣) - معاني الأخوة في الإسلام /المحمود بابلي ص (١٤٧) .

والأمانة في الشهادة بتحملها بحسب ماهي عليه في الواقع، وبإدائها دون تحريف أو تفسير .

والأمانة في القضاء بإصدار الأحكام وفق أحكام العدل التي استؤمن القاضي عليها .

والأمانة في الأسرار التي يستامن الإنسان على حفظها وعدم إفشائها، وذلك بكتمتها .

والأمانة في السمع والبصر وسائر الحواس، وذلك بكفها عن العدوان على أصحاب الحقوق وبحفظها عن معصية الله فيها، وتوجيهها للقيام بما يجب فيها من أعمال (١) .

وتقد فرض الإسلام على المسلمين الأخذ بخلق الأمانة، وحرّم عليهم أن يسلكوا مسلك الخيانة . روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة (٢) رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يارسل الله؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه)) (٣) . وجل الرسول صلى الله عليه وسلم الخيانة من علامات النفاق .

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)) (٤) .

فالأمانة من صفات المؤمنين، وهي من صفات محبي الحق .

(١) - الأخلاق الإسلامية وأسسها / للميداني / ص (٥٩٥) ، ص (٥٩٦) .

(٢) - أبو هريرة (٥٥٧-٠٠٠) :

اسمه في الجاهلية عبد شمس وفي الإسلام عبد الرحمن كناه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، أسلم عام خيبر وشهد المشاهد بعدها، لازم الرسول صلى الله عليه وسلم في حله وترحاله روى عنه أكثر من (٨٠٠) رجل، دعا له الرسول بعدم النسيان فحفظ جميع ما سمعه من المصطفى صلى الله عليه وسلم استعمله عمر رضي الله عنه على البحرين ودفن بالمدينة المنورة .

* أسد الغابة ٢/٢١٥ . * الاصابة ٤/٢٠٢ .

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الأدب / باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ٤/٢٨

(٤) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الإيمان / باب علامات المنافق ١/١٢ .

ومن الملاحظ في أسس العقيدة أن الأمانة من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلوة والسلام، لأنها شرط أساسي لإصطفايتهم بالرسالة، فلو لم يكونوا أمناء لما استأمنهم الله تعالى على رسالاته لخلقه .

والله تعالى يقص علينا في القرآن الكريم قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام في سورة الشعراء، ويخبرنا بأن كل رسول من هؤلاء قد قال لقومه: ((إني لكم رسول أمين)) قال تعالى :
(كذبت قوم نوح المرسلين، إذ قال لهم آخوهم نوح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين)) (١) .

وقال تعالى: ((كذبت عاد المرسلين، إذ قال لهم آخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين)) (٢) .

وقال تعالى: ((كذبت ثمود المرسلين، إذ قال لهم آخوهم صالح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين)) (٣) .

وقال تعالى: ((كذبت قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم آخوهم لوط ألا تتقون، إني لكم رسول أمين)) (٤) . وقال تعالى: ((كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين)) (٥) .

ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم قد كان في قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بينهم بأنه الأمين، فكان خلق الأمانة من الأخلاق الظاهرة البارزة فيه صلوات الله وسلامه عليه، حتى كان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم عنده، ولما هاجر صلى الله عليه وسلم وكل علي بن أبي طالب برد الودائع إلى أصحابها (٦) .

(والجماعة المسلمة مسؤولة عن أمانتها العامة، مسؤولة عن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات، والله تعالى يصف في نص كريم - يجمل منه التعبير ويدعه يشتمل كل أمانة وكل عهد - المؤمنون بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون، فهي سعة دائمة لهم في كل حين.

-
- (١) - سورة الشعراء الآيات (١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧) .
 - (٢) - سورة الشعراء الآيات (١٢٢ - ١٢٤ - ١٢٥) .
 - (٣) - سورة الشعراء الآيات (١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣) .
 - (٤) - سورة الشعراء الآيات (١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢) .
 - (٥) - سورة الشعراء الآيات (١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨) .
 - (٦) - أنظر تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص (١١٤) .

يقول تعالى: ((والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)) (١).

(وماتستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدي فيها الأمانات، وترعى فيها العهد، ويضمن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة الضرورية لتوفير الثقة والأمن والأطمئنان)) (٢).

ومن هنا نرى أن الأمانة لها دورها الفعال في تنظيم التعامل بين الناس وأنها متى ما أديت وروعت في كل مجالات الحياة انتفى الصراع والنزاع بين الناس وتحققت بالتالي الأخوة الإسلامية.

د- ومنها العدالة:

وحتى يحقق الإسلام الأخوة بين المسلمين إتهج مبدأ تحقيق العدالة بين الجميع دون إستثناء، لأن الله تعالى يأمر بالعدل، وأنه سبحانه لم يحصر نفاذ هذا الأمر على أمة دون أخرى أو على فرد دون فرد آخر، لأن العباد جميعهم خلق الله، وأن أحبهم إليه أنعمهم لعياله، كما أن أكرمهم عند الله أتقاهم.

(والعدل هو أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وأثراً تطبيقياً من آثاره، ولما كان العدل كذلك كان لا بد أن نجد الذين يجبون الحق ويؤثرونه قوماً متصفين بخلق العدل، ولذلك نرى أهل الإيمان الصادقين أهل عدل في حكمهم وشهاداتهم ومعاملاتهم للناس، وقرولهم بالعدل، والكتابة به، إلى غير ذلك مما يدخل فيه العدل والجور) (٢).

ولذلك لما أمر الله تعالى بالعدل وبالتوسط خاطب بأمره الذين آمنوا إشعاراً بأن العدل من لوازم الإيمان.

يقول الله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالتوسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غيباً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)) (٤).

(١) - سورة المطارج الآية (٢٢).

(٢) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢٤٥٦/٤.

(٣) - الأخلاق الإسلامية وأسسها / للميداني ٥٧٤/١.

(٤) - سورة النساء الآية (١٢٥).

وحين نبحث عن الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية يتبين لنا أن العدل أحد هذه الأسس، لا سيما ما يتعلق من أحكام الشرائع بتنظيم علاقات الناس المادية والأدبية والسياسية، لضمان حقوقهم ومصالحهم، فمستند هذه الأحكام مما تدعو إليه وتقضيه مكارم الأخلاق .

وفي النص الكلي الجامع يقول الله تعالى : ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون)) (١) .

يقول الشهيد سيد قطب: (إن هذا القرآن الكريم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، وإطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والمهور والوعود، جاء بالعدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجارة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع .

وإلى جوار العدل، (الإحسان) والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً) (٢) .

فالعدل إذاً أحد الأسس العامة لأحكام الشرائع المتعلقة بتنظيم العلاقات بين الناس لضمان الحقوق والمصالح ومتى ما ضمنت الحقوق والمصالح انتفى الصراع وتحققت الأخوة الإسلامية.

(١) - سورة النحل الآية (٩٠) .

(٢) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢١٩٠/٤ .

الوسيلة الثالثة - التوجيه بالكلمة الطيبة :

للكلمة في منهاج الله منزلتها كما يعرضها القرآن، وتعرضها السنة من خلال عقيدة الإيمان ونهج الرحمن، سواء أكانت طيبة أم خبيثة: يقول الله تعالى: ((ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)) (١).

هذه هي منزلة الكلمة سواء كانت طيبة أم خبيثة، وأثر الكلمة الطيبة وأثر الكلمة الخبيثة، وإرتباط الكلمة الطيبة، وإرتباط الكلمة الخبيثة وأهل هذه وأهل تلك. الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة، والشجرة الطيبة مرتبطة بالتربة، مغروسة فيها تأخذ منها الماء وبعض أسباب النماء .

أما الكلمة الخبيثة فكالشجرة الخبيثة، لا قرار لها ولا جذور، ولا امتداد ولا تأخذ شيئاً من أسباب القوة والنماء.

والله سبحانه وتعالى يثبت عباده المؤمنين بالكلمة الطيبة والقول الثابت فيجعلهم على قول ثابت لا يتزعزع في الحياة الدنيا وفي الآخرة . والكلمة الطيبة صفة من صفات الإيمان وسمه من سماته :

يقول تعالى: ((وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد)) (٢). والقول الحسن كان أمر الله لبني إسرائيل ومن ميثاقهم الذي أخذ الله عليهم : ((واذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون)) (٣).

(أي قولوا للناس الذين لا يستطيعون الإحسان إليهم بأموالكم وأعمالكم قولاً حسناً، وهو يشمل كل خير وحسن ومنفعة، كلين القول، والصدق والنصيحة). (٤)

ولما للكلمة الطيبة في مجتمع الإيمان من أثر في تحقيق الأخوة بين المؤمنين ، يوجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى الدعوة بالحسنى يقول الله تعالى :

((وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن، إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً)) (٥)

(١) - سورة إبراهيم الآيات (٢٤/٢٧).

(٢) - سورة الحج الآية (٢٤).

(٣) - سورة البقرة الآية (٨٢).

(٤) - مختصر تفسير المنار ٧١/١.

(٥) - سورة الإسراء الآية (٥٢).

(وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن): على وجه الأطلاق وفي كل مجال قبيحتارون أحسن ما يقال ليقولوه، بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة . فالشيطان ينزغ بين الأخوة بالكلمة الخبيثة تغلت، وبالرد السيئ يتلوها، فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالمداء، والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندي جفانها وتجمعها على الود الكريم (١) . ويقول الله تعالى أيضاً : ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)) (٢) .

(والدعوة تكون بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة، والطريقة التي يخاطبهم بها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه، وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي أحسن: فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لاتنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لاتشعر بالهزيمة، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر بالمجادل أن ذاته مصونة، وقيمه كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والإهداء إليها، في سبيل الله لافي سبيل ذاته ونصرة رأية، وهزيمة الرأي الآخر، هذا هو منهج الدعوة ودستورها) (٢) .

هذا هو أثر الكلمة الطيبة، وهذا هو أدب الكلمة في الإسلام .
ويأتي الحديث الشريف أيضاً ويوجه عباد الله المؤمنين ليقولوا الكلمة الطيبة، وليقولوا الخير، ويربط ذلك بالإيمان بالله واليوم الآخر :
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت)) (٤) .

هكذا يربي الإسلام أفراد مجتمع الإيمان حتى الكلمة التي تتحرك بها الشفاء يجب أن ترتبط بالقلب ، بالعميقة، بالإيمان، وبالأمانة والمسئولية حتى يؤلف بين قلوب أبنائه بالكلمة الطيبة والقول الحسن فيحقق بذلك بينهم أسرة الأخوة الإيمانية التي ينشدها الإسلام .

-
- (١) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢٢٢٤/٤ .
 - (٢) - سورة النحل الآية (١٢٥) .
 - (٣) - تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٢٢٠٢/٤ .
 - (٤) - رواء مسلم في صحيحه بشرح النووي كتاب الإيمان/باب الحث على إكرام الجار والضيف ٢٠/٢ .

البحث الثالث

دور الأخوة الإسلامية في حماية
المجتمع من الصراع الحنصري

المبحث الثالث

دور الأخوة الإسلامية في حماية المجتمع من الصراع العنصري

من كل ما سبق عرضه وبيانه من أسباب الأخوة الإسلامية، ومن وسائل تحقيق هذه الأخوة بين المسلمين من خلال الكتاب والسنة، يتبين لنا بوضوح أن لهذه الأخوة ولتحقيقها بين أفراد المجتمع دوراً أساسياً في حماية هذا المجتمع المسلم من الصراع العنصري والطائفي .

(فلقد ربطت هذه الأخوة الإيمانية بين قلوب المسلمين حتى أصبحوا أسرة واحدة كبرى: يفرح المسلم لفرح أخيه، ويحزن لحزنه، ويمد يد المعونة إليه عند الحاجة، ويرشده إذا غوى، ويهديه إذا ضل، ويرحمه إذا ضعف، ويعاملة بما يحب أن يعامل به، ويمحضه النصيح إذا استصححه أو أرى عليه ما ينكره الشرع والدين، ويحفظه في ماله وعرضه، غائباً وحاضراً، ويسمى في إصلاح ذات البين، ورفع ما يقع من الخلاف: أخوة متصافون رحماء بينهم، شعارهم:

((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه)) (١).

((المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً)) (٢)

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) (٣)

ودعاؤهم: ((ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غداً للذين آمنوا)) (٤) (٥).

وقد طبق مبدأ الأخوة الإيمانية لأول مرة بمواخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حين قدم المدينة مهاجراً، وكانت من مظاهر القوة الذاتية لتعاليم الإسلام واختلاطها بالنفوس والقلوب، آوى الأنصار إخوانهم المهاجرين ففتحوا قلوبهم قبل أن يفتحوا قلوبهم ووسعوا صدورهم قبل أن يوسعوا بأمورهم، وتسابقوا إلى لقائهم وإكرامهم حتى لم يجدوا بداً في بعض الأحيان من تحكيم القرعة بينهم، وضربوا في باب الإيثار وسخاء النفس، وكرم الطبع مثلاً علياً لاتزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة بالإكبار والاعظام (٦).

(١) - رواة مسلم في كتاب البر والصلة/باب تحريم ظلم المسلم وخذله ١٦/١٢٠

(٢) - رواة مسلم في كتاب البر والصلة والآداب/باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ١٥/٣٩١.

وأخرجه البخاري في كتاب الأدب /باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ٤/٣٩١.

(٣) - رواة مسلم في كتاب الإيمان / باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب

لأخيه ما يحب لنفسه، وأخرجه البخاري في صحيحه /كتاب الإيمان/باب من

الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١/١٠.

(٤) - سورة الحشر الآية (١٠).

(٥) - الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص (٤٢٤ ، ٤٢٥).

(٦) - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبه ص (٤٠)

وقد مر معنا قصة سعد بن الربيع الأنصاري حين آخى بينه الرسول صلى الله عليه وسلم وبين عبد الرحمن بن عوف كيف أنه آثره في ماله وزوجه على نفسه، فمرض عليه أن يقاسمه ماله، وأن ينظر إلى أحب زوجتيه إلى نفسه ليتنازل عنه حتى إذا انقضت عدتها تزوجها .

وما سعد بن الربيع إلا صورة مشرقة ومشاة من أمثلة الأنصار الكرام الصادق في الحب في الله لإخوانهم في الله .

بل لقد بالغ الأنصار في الإيثار والعمل على مقتضى هذه الأخوة فكانوا يأتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون: (اقتسم بيننا وبين إخواننا النخيل) فيقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا))، فقالوا لإخوانهم المهاجرين: تكفونا المؤونة - يعني السقي والعمل - ونشرككم في الثمرة، فقالوا: سمعنا وأطعنا)) (١) .

ولقد كان جزاء هذا الإيثار أن أنزل الله تعالى فيهم قرآناً يتلى إلى يوم الدين، اذ يقول تعالى: ((والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)) (٢) .

وأن قال فيهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مشيداً بمناقبهم وفضلهم: ((لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار)) (٢) .

وأن جعل حبهم علامة الإيمان، وبغضهم علامة النفاق، فقال صلى الله عليه وسلم: ((آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)) (٤) .

- (١) - رواء البخاري في صحيحه/كتاب الوكالة/باب إذا قال أكفني مؤنة النخل أو غيره واشركني في الثمر ٢/٢١ .
- (٢) - سورة الحشر الآية (٩) .
- (٣) - رواء البخاري في صحيحه/كتاب المناقب/باب مناقب الأنصار/باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ٢/٢١١ .
- (٤) - رواء البخاري في صحيحه/كتاب مناقب الأنصار/باب حب الأنصار من الإيمان ٢/٢١١ .

وأن أوصى المسلمين بهم بعده خيراً، فقال: ((أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعييتي وقد قضا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم)) (١).

وهذا الحب في الله، وهذا الإيثار السخي الكريم من الأنصار للمهاجرين هو أثر تحقيق أخوة الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم (لأن أخوة الإيمان بالله لا يمكن أن تتحقق بصدق وأن تؤتي ثمارها إن لم يكن المؤمنون بالله متحابين فيه، يحبون ما يحب، ويلتزمون بما يأمر، ويحرصون على التخلق به، ويفضون أعداء الله، كما يفيضون معاصيه ومانهى عنه).

وإن هذه المحبة هي منطلق كل خير وكل فلاح لأنها تجمع المؤمنين على صراط واحد وهدى واحد، فهم في ذلك لا يعملون وفق هداهم، وإنما يحكمون الشرع في جميع تصرفاتهم وأقوالهم.

كما أن الحب في الله يؤلف بين قلوب المتحابين فيشكل منهم قوة وجبهة متماسكة مترابطة، يشد بعضهم أزربعض، وهو دليل الاستقامة والتوافق في السلوك، كما أنه يدفع بالمؤمنين إلى حسن التعايش فيما بينهم، فلا حسد لأن الإيثار هو من صفاتهم العليا، ولا تنافس إلا في الأعمال الصالحة، ولا تباعض ولا تشاحن.

وإنما هو: تكافل وتعاون وتناصر وإخلاص ومحبة وتناصر (٢).

فالتكافل لازم من لوازم الأخوة، بل هو أبرز لوازمها، وهو شعور الجميع بمسئولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه، يسأل عن نفسه ويسأل عن غيره، إن قصرت به أسباب الحياة فإنه سيجد في إخوانه من يسرع إلى مساعدته... وهكذا.

وبذلك يعيش أفراد المجتمع المتكافل في أمان وإطمئنان لا يعرفون النزاع والشقاق والصراع، بل هناك التأزر والتمازج، أمة متماسكة يشد بعضها أزر بعض.

وهذا ما سجله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بحق المسلمين المتأخين في الله، إذ يقول في فتي الأنصار والمهاجرين:

(١) - رواه البخاري في صحيحه / كتاب مناقب الأنصار / باب اقبلوا من محسنهم

وتجاوزوا عن مسيئهم ٢١٤/٢ .

(٢) - معاني الأخوة الإسلامية للدكتور محمود بابلي ص (٤٠-٤٢) باختصار وتصرف .

(وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرَكُونَ مَفْرَحًا بَيْنَهُمْ (١) بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ، وَأَنْ لَا يُحَافِظَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَهُ (٢) ظَلَمَ أَوْ إِثْمَ أَوْ عُدْوَانَ أَوْ فِسَادَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدًا أَحَدَهُمْ، وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ، وَأَنْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجْبِرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ (٣).

من هذا النص يتبين أن المهاجرين والأنصار، ومن دخل معهم في دين الله، أصبحوا أمة واحدة بعد أن كانوا متباعدين بالنسب والولاء، وأصبحت ذمتهم واحدة ويجبر عليهم أدناهم، وأنهم يد واحدة على من سواهم مهما كانت قرابته، وأن بعضهم موالى بعض (نصرأ) دون الناس، وكذلك يفدون أسراهم ويقومون بوفاء الدين عن الفارمين. كل ذلك بالتكافل والتضامن فيما بينهم، لأنهم أخوة في الله!!

*- والتعاون كذلك هو ثمرة الحب في الله والتآخي فيه، يدفع بالأخ المسلم إلى المسارعة في مديد المعونة إلى أخيه المسلم ابتغاء مرضاة الله لورود الأمر به من الله تعالى في قوله سبحانه:

((وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)) (٤)

(فلم يجعل القرآن الكريم ظاهرة التعاون ظاهرة خيرة، عالم يكن تعاوناً على فعل الخير، فإذا كان كذلك فالإسلام يأمر به، لأنه يكون حينئذ وسيلة لتحقيق خير عظيم ومنافع جسيمة، ويكون تدعيماً صالحاً للروح الجماعية بين المسلمين، وصارفاً عن الانعزالية والانفرادية اللتين تعمقان في نفس الفرد مشاعر الإنانية المرذولة، وتنايان به عن مشاعر الأخوة الإسلامية المحمودة) (٥).

(١) - مَفْرَحًا: المفرح: المشغل بالدين ١ تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص (١٢٤).

(٢) - دَسِيعَةٌ ظَلَمَ: أي ما يدفعه الإنسان عن نفسه دون أن يكون محقوقاً، والدسيسة هي العطية وإذا أضيفت إلى الظلم فهي تعني أنها أعطيت من دافعها دون وجه حق ١ نفس المرجع السابق ص (١٢٤).

(٣) - سيرة ابن هشام ١٢٠٧٢.

(٤) - سورة المائدة الآية (٢).

(٥) - الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني ١٩٤٧٢.

ولذلك حث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على فضيلة التعاون في مناسبات كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :
(وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو تحمله له عليها صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة وإمارة الأذى عن الطريق صدقة)) (١) .

فالتعاون مظهر من مظاهر وحدة الجماعة القائمة على الأخوة الصادقة، وعلى الترابط بين أفرادها بالتواد والتراحم والتآزر على البر والتقوى .

* أما النصيحة فهي باب من أبواب التعاون على البر والتقوى، لأن النصيح للآخرين فيه عون لهم وإرشاد إلى ما فيه صلاحهم وهدايتهم، وهو خلق إسلامي كريم، تفرضه الأخوة الإيمانية الصادقة بين المسلمين، ويعقد المودات بين الناس ويزيد في توثيقها.
والتناصح هو تبادل النصيحة، ولا تكون النصيحة نصيحة في حقيقتها إن لم يخلص صاحبها النصيح، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله عن الدين أنه النصيحة لعظم أثرها وعظيم مكانتها وإرتباطها بصدق تدين قائلها، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((الدين النصيحة، قلنا لمن يارسول الله؟ قال: لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)) (٢)

فإذا ذهبت النصيحة من عمل، وتجردت منه، هان العمل وهبط حتى لا يكون من الدين. فالنصيحة هي جوهر التعامل في الإسلام، وهي سمة من سمات الإيمان، في مختلف ميادين التعامل والتطبيق .

* - (ومعنى النصيحة لله: صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاصه لنية في عبادته.
* - والنصيحة لكتاب الله: هو التصديق به وإلتزام دراسته وتدبره وتلاوته والعمل به.

* - والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته وبرسالته وطاعته فيما أمر به ونهى عنه، والتمسك بستة والعلم بها .
والنصيحة لأئمة المسلمين: بإعانتهم على الحق، وطاعتهم في غير معصية، وأن لا يرى الخروج عليهم إذا جأروا .

والنصيحة لعامة المسلمين: بإرشادهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم) (٢)
إنه التناصح المتبادل بين الجماعة المؤمنة في أجواء الإيمان !!

- (١) - رواء مسلم في كتاب الزكاة/باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل معروف ١٥/٧ .
(٢) - رواء الإمام مسلم في صحيحه /كتاب الإيمان /باب الدين النصيحة ٢٦/٢ .
(٢) - النهاية في غريب الحديث / لابن الأثير / مادة نصيح / ٦٢/٥ - ٦٢ .

وإذا تحقق التناسح بين الأخوة في المجتمع الإسلامي إطمأنت النفوس بعضها إلى بعض، وعم الخير والتضامن بين أفراد هذا المجتمع، وكان لذلك أثره في جميع شئون الحياة .

والتناصر أيضاً بين المسلمين هو أثر من آثار تحقيق الأخوة الإسلامية في المجتمع المسلم، لا تناصر الصييات العمياء، بل تناصر المؤمنين لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وردع المعتدي وإجارة المهضوم.

وهذا ما أوجبه الدين وأقرضه الشارع عندما قرران المؤمنين إخوة بكل ما تتضمنه من معنى، أي أن صلات بعضهم ببعض هي صلات أخوة حقيقية زادت بها ترابطاً وقوة، هذه الأصرة الإيمانية التي تربط فيما بينهم .

وإن التناصر الذي فرضه الإسلام هو أن لا يترك المسلم وحده يكافح في المعترك، بل لا بد من الوقوف بجانبه على أي حال، لإرشاده إن ضل، وحجزه إن تناول، والدفاع عنه إن هوجم، والقتال معه إذا استبيح .

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ((أنصرا أخاك ظالماً أو مظلوماً، قال: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن ظلمه فذلك نصره)) (١).

قال ابن بطال (٢): (النصر عند العرب الإعانة، وتفسيره لنصر الظالم بمنه من الظلم من تسمية الشيء بما يؤول إليه، قال البيهقي (٣): معناه أن الظالم مظلوم في نفسه فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حساً ومعنى، فلو رأى إنساناً يريد أن يجب نفسه لظلمه أن ذلك يزيل مفسدة طلبه الزنا مثلاً منه من ذلك وكان ذلك نصراً له، واتحد في هذه الصورة الظالم والمظلوم) (٤).

(١) - رواء مسلم في كتاب البر والصلة / باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ١٢٨/١٦

وأخرجه البخاري في صحيحه كتاب المظالم/باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ٤٥/٢.

(٢) - ابن بطال : (٤٠٢ هـ) :

هو سليمان بن محمد بن بطال البطليوسي ، أبو أيوب ، فقيه باحث

زاهد محقق أديب، اشتهر بكتابه المتنع في أصول الأحكام توفي (٤٠٤ هـ)

* الديباج المذهب ٢٧٦/١ . * شجرة النور الزكية ١٠٢ رقم (٢٥٨).

(٢) - البيهقي (٢٨٤ هـ - ٤٥٨ هـ) :

أحمد بن الحسين بن علي ، أبو بكر ، من أئمة الحديث ولد بنيسابور ونشأ في

بيهق ، ورحل إلى بغداد ، ثم الكوفة ومكة وغيرهما ، ومات بنيسابور ، صنف

زهاء ألف جزء ، قال إمام الحرمين عنه : ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه

غير البيهقي * شذرات الذهب ٢٠٤/٢ * طبقات الشافعية ٨/٤ - ١٦ .

(٤) - فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٨/٥ .

وهذا هو تناصراً للمسلمين بالحق، فمن وجد أخاه المسلم مظلوماً وكان باستطلاعته أن ينصره ويدفع عنه الظلم فعليه أن ينصره على مقدار استطاعته وكذلك إذا وجد ظالماً فيجب عليه أن ينصره بمنعه من الظلم، وهذا هو النصر الحقيقي له، لا معونته على ظلمه، لأن حجزه عن الظلم نصر له على نفسه وأهوائها الجانحة عن سبيل الحق، ونصر له على وساوس شياطين الإنس والجن وتسويلاتهم، وفي هذا إنقاذ له من عذاب الله وعقابه، وإنقاذ له من خسارة الجريمة، وحماية له من دنس الأثام والعدوان .

وبمقتضى تحقيق الأخوة الإسلامية في المجتمع أيضاً لا يظلم المسلم أخاه المسلم ولا يسلمه لمظلمة، وهو مبدأ كريم يتغني به كثير مما تعانيه الإنسانية من فجرات التاريخ من البغي والتظالم بين الناس وإغتيال بعضهم حقوق بعض لا يردعهم عن ذلك إلا قوة حاکمة وبأس شديد .

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)) (١) .

وهذا الحديث له شواهد عدة تؤكد الأخوة بين المسلمين، وأن هذه الأخوة إذا تحققت بين الأفراد في المجتمع إنتفى الظلم وزال النزاع والشقاق بينهم .

(وكلمة (لا يسلمه) الواردة في الحديث لا تقتصر على أن يسلم المسلم أخاه إلى عدوه بالمعنى الظاهر من هذه الكلمة، وإنما يتضح أن لهذه الكلمة شمولاً واسعاً، وذلك في أن لا يسلمه إلى اليأس، ولا يسلمه إلى التهلكة، ولا يسلمه إلى الخزي والعار، ولا يسلمه إلى التردى في مهاوي الفساد، كما تفيد أيضاً أن لا يسلمه إلى عدوه) (٢) .

ويقول ابن حجر: (أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه، وهذا أخس من ترك الظلم، وقد يكون ذلك واجباً وقد يكون مندوباً بحسب اختلاف الأحوال) (٣) .

-
- (١) - رواء البخاري في صحيحه / كتاب المظالم / باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، وأخرجه مسلم في صحيحه / كتاب البروالة / باب تحريم ظلم المسلم وخذه وإحتقاره ١٢٠/١٦ .
- (٢) - معاني الأخوة في الإسلام للدكتور محمود بابلي ص (٦٤) .
- (٣) - فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني ٩٧/٥ .

(وما أروع أن يُدفع المسلم إلى أن يكون في حاجة أخيه حتى يكون الله في حاجته! فهل نرى مجتمعاً إنسانياً غير مجتمع الإسلام - يقوى على أن يلزم كل فرد بأن يسمى في حاجة أخيه.

بل إن صراع الحياة وزحامها يصير بالناس إلى أن يسمى بعضهم في إحباط مصالح البعض، حين تتعارض المصالح وتشتد المنافسة على الغايات المادية، وفي عصرنا الحاضر تبلغ تلك الحرب غايتها .

ولكن المجتمع الإسلامي يلزم أفراداه وفاءً بحق الأخوة أن يسمى كل منهم في حاجة أخيه حتى يستجيب لهم ربهم ويكون في عونهم، فيسرعون في حاجة إخوانهم لينالوا توفيق الله ورحمته) (١).

أما تفريج الكرب وستر العورات فهو حق فريد من حقوق الأخوة الإسلامية وذلك يعني أن يرتفع المجتمع إلى درجة عالية من التضامن والتكامل وأن يتوحد الإحساس، فيعمل كل فرد على تفريج ضوائق أخيه وحل مشكلاته، ويقف منه موقف العون والمساندة، لا موقف الحقد والشماتة .

وهي خطوات إجتماعية رشيدة تزيل أسباب الصراع وتشفي الكثير من أدواء المجتمع وتوضح على الكثير من مآسيه .

يقدم على تنفيذها المسلم بيسر وطواعية، يدفعه إليها شعوره أنه يعامل خالقه وبيئتي رضوانه، وأمامه تلك الغاية التي أعلنها الإسلام حثاً على التناصر ودفماً إلى التعاون (والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه) (٢).

وهكذا تعمل العقيدة والأخوة في الله على توثيق العائدق في المجتمع المسلم مادام الأمر متعلقاً بعون الله ونيل رضاه، وعلى إزالة أسباب الفرقة والاختلاف وعلى حماية المجتمع من الصراعات العنصرية والطائفية .

وما ذلك إلا لأن الله تعالى قد خلق البشر جميعاً من نفس واحدة وردهم إلى أصل واحد وإله واحد، والزمهم بمنهج رباني حكيم يتأى بكل مسلم عن الانزلاق في مهاوي أمراض القلوب، وانحراف السلوك وفساد العقول .

فلا حسد ولا حقد ولا كراهية ولا بغض ولا تدابر ولا تقاطع ولا تجسس ولا غيبة ولا نميمة.

(١) - المجتمع الإسلامي للدكتور مصطفى عبد الواحد ص (٥٤).

(٢) - رواء الإمام مسلم في صحيحه / كتاب الذكر / باب فضل الاجتماع على

تلاوة القرآن والذكر ٢١/١٧.

فهذه كلها أمراض قلبية عظيمة حتى عدها بعض العلماء من الكبائر، ولها آثارها الاجتماعية الخطيرة على أفراد المجتمع .
لذا كان من آثار تحقيق الأخوة الإسلامية بين المسلمين في المجتمع أن نأى الإسلام بفضل هذه الرابطة الإيمانية الصادقة - بأبناؤه عن مثل هذه الأمراض التي تفسد علاقات الود والصلة بالغير..

يقول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم:

((لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً)) (١) .
فبمجرد أن يتذكر المسلم أنه أخ لغيره في الدين فإنه يبتعد عن مثل هذه الأمراض التي تفسد حسن صلته بإخوانه، وبالتالي يأمن جميع أفراد المجتمع من شرور هذه الأمراض المؤدية إلى الصراع والفرقة والنزاع..

وكذلك يستقيم سلوك المسلم فلا ينحرف نحو الأنانية والعجب والكبر والخيلاء وإحتقار المسلم والسخرية به والإستهزاء وسوء الظن والسب واللعن .
وهذه كلها وغيرها انحرافات سلوكية يتغنى وجودها في المجتمع المسلم إذا تحققت بين أفراد رابطة الأخوة الإسلامية .

وإن انتفاء هذه الأمراض القلبية عن المسلم وإبتعاده عن الانحرافات السلوكية وتخلقه بأضدادها يعكس على أخيه المسلم آثارها، فتصفو النفوس وتطهر ، وتتفتح لمعاني الخير، ويطيب البذل، فيبادر أحدهم إلى تحري ما يرضي أخاه المسلم وما يجلب له السرور، وما يعود عليه بالنفع، واضعاً نصب عينيه أنه يعامل أخاً له في الله - ومن كانت أخوته في الله ، فالله سبحانه رقيب عليه - فلا يؤذيه ولا يكذب عليه، ولا يفشسه ولا يخدعه، ولا يأكل ماله بالباطل، ولا يخونه ... الخ .

لذلك فإن تحققه من أنه يعامل أخاً له في الله يجعله يتجنب كل ما يسيئ إلى أخيه، ويتحرى كل ما يعود عليه بالنفع، ويحرص على أن ينصحه ويؤثره على نفسه، إذا اقتضى الحال، لأن (الدين النصيحة) (٢) كما قال عليه الصلاة والسلام .

وإذا طبقنا مفهوم الأخوة الإيمانية بين المتعاملين من المسلمين فإننا سنجد حرص هؤلاء على أن يقدموا أحسن ما لديهم .

(١) - سبق تخريجه ص (١٥٠) .

(٢) - سبق تخريجه ص (١٧٨) .

وأن لا يكتموا عيباً، أو يستغلوا طيشاً، أو ظرفاً غير موات، وإنما ينظروا في حالة العسر، ويتصدقوا فيما إذا أيقنوا من ضيق يد من يتعاملون معه، إلى آخر هذه الصفات التي يتحلى بها المؤمنون .

وإن أثر الإخاء في التعامل المادي بين الناس يوجب العدل والإنصاف والتناصح، ويحول دون الإضرار أو الكسب الحرام أو الفسح أو الإحتكار، فهو ضابط أخلاقي له وزن في الأمور الاقتصادية وحسن التعايش مع الآخرين وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إذ يقول:

((والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) (١) .
فكما يكون تعامل الإنسان مع نفسه، كذلك يجب أن يكون هو تعامله مع أخيه في الله، ومع الناس أجمعين .

وهكذا نجد أن من مقاصد الأخوة الإسلامية أن يطمئن الناس في تعاملهم مع الآخرين، إلى أنهم في أمن وأمان وإستقامة وحسن أداء .

وإن من آثار مقاصد هذه الأخوة الإسلامية أن تؤدي إلى تقوية الروابط بين أفراد المجتمع، وتجعل منهم وحدة متماسكة مترابطة توافقاً مع قوله صلى الله عليه وسلم:

((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، قال: ثم شبك بين أصابعه)) (٢)
ومع قوله صلى الله عليه وسلم: ((مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)) (٣) .

وإن هذا التمثيل منه صلى الله عليه وسلم يفيد متانة الصلة بين أفراد المجتمع المسلم، ومن كان شأنه هكذا فإن الذي يصيبه من خير أو شر يصيب الآخرين، وبذلك نجد الترابط على أقوى وجه وأشد نتيجة الإيمان بالله، والحب في الله، والبغض في الله .

(١) - سبق تخريجه ص (١٧٤) .

(٢) - سبق تخريجه ص (١٧٤) .

(٣) - رواء مسلم في كتاب البر والصلة/باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم/١٦/١٤٠ .

وعلى هذا تكون الآخرة في الإسلام فيما إذا تم تحقيق مقاصدها ومعانيها بين المسلمين في تعاملهم وفي صلاتهم فيما بينهم وبين الناس، تكون سبباً متيناً لتقوية روابط المجتمع، حيث يعيش المسلمون كل منهم محباً للآخر، متعاوناً معه، مریداً له الخير، مشاركاً له في السراء والضراء، ساعياً معه في مصالحه، سليماً من كثير من الأمراض الخبيثة الحاقدة، بعيداً عن مواطن النزاع وأسباب الفرقة والاختلاف والصراع، وهذا ما يدعو إليه الإسلام ويريد من أتباعه ومحبيه المتأخين في الله.

* * *

الفصل الرابع

تنظيم الخلاقة بين المسلمين

وغيرهم من الطوائف الأخرى

ويشتمل على أربعة مباحث :

- المبحث الأول * التحريف بخير المسلمين وأنواعهم .
- المبحث الثاني * حقوق الذميين وواجباتهم .
- المبحث الثالث * حقوق المستأمنين وواجباتهم .
- المبحث الرابع * دور تنظيم الخلاقة بين المسلمين
وغيرهم في حماية المجتمع من الصراع
العنصري والطائفي .

مقدمة:

لم يقف الإسلام ممن يعيشون في مجتمعه من غير المسلمين موقف العداء والمناوأة، ولم يشرع في معاملتهم الاضطهاد والعصية، ولم يجعلهم في عزلة وصنأى عن مخالطة غيرهم ومزاولة مختلف الأنشطة وممارسة سائر شؤون الحياة في المجتمع المسلم، بل عاملهم بمنهج الله تعالى الذي لا يقبل الظلم لأي إنسان مهما كان ولا يرتضي العدوان حتى على الكافرين والمشركين.

* - فمن الممكن أن تقرم العلاقة في المجتمع الإسلامي بين المؤمنين وأهل الكتاب استناداً للمصالح المشتركة والتعاقد في مواجهة المشكلات والتعاون على جلب المنفعة ودفع المضرة.

ودستور هذه العلاقة مع غير المسلمين قول الله تعالى:

((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)) (١).

فالبر والقسط والعدل والرحمة والتسامح أسس وطيدة مطلوبة من المسلم للناس جميعاً، ولو كانوا كفاراً بدينه، ما لم يقفوا في وجهه ويحاربوا دعاته ويضطهدوا أهله.

أما إذا كاد هؤلاء العقيدة الإسلامية، ودبروا السوء لجماعة المسلمين، عندئذ لاتقوم علاقة سلمية بينهم وبين المسلمين، ولاتمكن المعاشة معهم، وفي ضوء هذا نفهم ماورد في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى:

((يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)) (٢).

ولقد عاش اليهود والنصارى وغيرهم في ظل دولة الإسلام، فاستمتعوا بما أتاحه هذا الدين لكل من استظل بظله من الأمان والسلام والاستقرار، كما جاور هذا الدين كثيراً من أمم الأرض فما وجدت من مجتمع الإسلام غير السماحة والعدالة والوفاء.

(١) - سورة الممتحنة الآيتان (٨ ، ٩).

(٢) - سورة المائدة الآية (٥١).

وهذا يدل على أن معايشة المسلمين لأهل الكتاب وغيرهم ممكنة كل الإمكان حين تنتفي العصبية، ويمحى الحسد وتختفي آثار الصراع .

ومن العجيب أن بعض الناس إفتروا على الإسلام واجترأوا على حقائق التاريخ فزيفوا وحرفوا النصوص عن مواضعها، وقولوه مالم يقل، محاولين بذلك أن يشوهوا الدين الإسلامي في معاملته للمخالفين له في العقيدة والفكرة .

وفي هذا الفصل بإذن الله سأبين حقيقة الوضع الشرعي لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، من جهة مالهم من حقوق كفلها الإسلام، وما عليهم أزاءها من واجبات، وكيف عاش هؤلاء بين المسلمين بما منحهم الإسلام من ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة جماعة المسلمين ، وبالتالي أبين دور تنظيم الإسلام لهذه العلاقة بين أبنائه ومخالفيه في حماية مجتمعه من الصراع العنصري والطائفي .

وعلى هذا يمكن تقسيم مباحث هذا الفصل على النحو التالي :

- المبحث الأول : التعريف بغير المسلمين وأنواعهم .
- المبحث الثاني: حقوق الذميين وواجباتهم .
- المبحث الثالث: حقوق المستأمنين وواجباتهم .
- المبحث الرابع : دور تنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم في حماية المجتمع من الصراع العنصري .

المبحث الأول

التعريف بخير المسلمين وأنواعهم

المبحث الأول

التعريف بغير المسلمين في المجتمع الإسلامي

المقيمون من غير المسلمين في دار الإسلام أصناف كثيرة، ويجمعهم على، اختلافهم عدم الدخول في الإسلام، وإن كان لكل منهم اسم خاص أذكر فيما يلي أهم أصنافهم :

١- الذميون :

الذمة في اللغة: الأمان والعهد، وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام (١).

وقد فسروا الفقهاء (الذمة) الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم: (يسمى بذمتهم أدناهم) (٢) بمعنى الأمان. (٣).

وفسروا عقد الذمة بأنه إقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية وإلتزام أحكام الملة. (٤)

أما حكمة مشروعية عقد الذمة فهي أن يترك الحربي القتال مع احتمال دخوله في الإسلام عن طريق مخالطته للمسلمين، وإطاعته على شرائع الإسلام، وليس المقصود من عقد الذمة تحصيل المال (٥).

ويعتبر الذميون من أهل دار الإسلام، وقد صرح الفقهاء بذلك فقالوا :
(والذمي من أهل دار الإسلام) (٦).

٢- المستأمنون :

استأمنه طلب منه الأمان (٧)

والمستأمن - بكسر الميم - هو الطالب للأمان (٨).

-
- (١) - القاموس المحيط ٤/١١٥ ، والمحلى لابن حزم ٧/٥٦٣ .
 - (٢) - أخرجه البخاري في صحيحه /كتاب الإعتصام/باب ماكره من التمتع والتنازع في العلم والغلو في الدين ٤/١٨٤ .
 - (٣) - كشف القناع للبهوتي ٢/١١٦ ، ومعني المحتاج ٤/٢٢٦ .
 - (٤) - كشف القناع ٢/١١٦ ، والمهذب للشيرازي ٢/٢٧٢ .
 - (٥) - بدائع الصنائع للكاساني ٧/١١٧ ، ونيل الأوطار للشركاني ١٨/٢١٥١٨ .
 - (٦) - بدائع الصنائع للكاساني ٥/٢٨١ .
 - (٧) - المصباح المنير (١/٢٥) .
 - (٨) - حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٤/١٦٦ .

والأصل في الأمان قول الله تعالى:

((وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)) (١)
يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية (والفرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار
الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من
الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً مادام متردداً في دار الإسلام
وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه) (٢)

ويقول صلى الله عليه وسلم: ((ذمة المسلمين واحد يسعى بها أدناهم)) (٣)

(والذمة: العهد والأمان والحرمة والحق) (٤).

(وأما حكم الأمان: فهو ثبوت الأمن للكفرة، لأن لفظ الأمان يدل عليه وهو قوله: أمنت
فثبت الأمن لهم من القتل والسبي والاستتقام فيحرم على المسلمين قتل رجالهم وسبي
نساءهم وذرياتهم واستتقام أمرهم) (٥).

وهذا الأمان الذي يكون به الحربي مستأناً أمان مؤقت، بخلاف الأمان بعقد
الذمة إذ أنه أمان مؤبد لأن عقد الذمة في إفادة العصمة والالتزام بأحكام الإسلام كالخلف عن
عقد الإسلام، والإسلام لا يصح إلا مؤبداً، فكذا عقد الذمة (٦)

ويجد المستأمن أجنبي عن دار الإسلام وليس من أهلها إذ هو من دار
الحرب، وإن دخل دار الإسلام بأمان مؤقت لقضاء حاجة ثم يعود إلى وطنه. وبهذا صرح
الفقهاء فقالوا: (المستأمن من أهل دار الحرب وإن دخل دار الإسلام لا يقصد الإقامة بل
لعارض حاجة ثم يعود إلى وطنه) (٧).

وفي المباحث التالية سأحدث عن حقوق وواجبات غير المسلمين الذين يعيشون
مع المسلمين في دار الإسلام، لأن صيانة هذه الحقوق وتلك الواجبات من الأسباب
الرئيسية التي تحقق الاستقرار في المجتمع وتصونه من الصراع بين طوائفه .

(١) - سورة التوبة الآية (٦) .

(٢) - تفسير ابن كثير ٢٢٧١٢ .

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الاعتصام / باب ما يكره من التعق والتنازع في
العلم والغلو في الدين ١٨٤/٤ .

(٤) - مغني المحتاج ٢٢٦١٤ ، وتفسير القرطبي ، ويقول السرخسي :
والمراد بالذمة : العهد مؤقتاً كان أو مؤبداً ، وذلك الأمان وعقد الذمة

/ شرح السير الكبير ٢٥٢١١ .

(٥) - بدائع الصنائع للكاظمي ١٠٧١٧ .

(٦) - بدائع الصنائع للكاظمي ١١٧١٧ ، ومغني المحتاج ٢٤٢/٤ .

(٧) - بدائع الصنائع للكاظمي ٢٢٦١٧ .

البحث الثاني

حقوق الذميين وواجباتهم

المطلب الأول -

حقوق الذميين العامة والخاصة

أولاً * الحقوق العامة

ثانياً * الحقوق الخاصة

المطلب الثاني -

واجبات الذميين تجاه الدولة الإسلامية

أولاً * الواجبات المالية

ثانياً * الواجبات غير المالية

القاعدة العامة في معاملة أهل الذمة في دار الإسلام أن لهم من الحقوق مثل
مالمسلمين، كما أن عليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين، إلا في بعض أمور محددة
مستثناة .

وفي هذا المبحث سأبين - بأذن الله - حقوق الذميين التي تجب لهم في
المجتمع الإسلامي وما يطالبون به من واجبات مقابل التمتع بتلك الحقوق ، وما يرد على كل
من شروط وإستثناءات .

المطلب الأول :

حقوق الذميين في الدولة الإسلامية العامة والخاصة :

لأهل الذمة الذين يقيمون في دار الإسلام حقوق ثابتة كفل النظام الإسلامي لهم
توافرها وتحقيقها والمساواة مع المسلمين في التمتع بها . وسأبين في هذا المطلب حقهم
في التمتع بالحقوق العامة في دار الإسلام أولاً. وثانياً: حق تمتعهم بحقوقهم الخاصة على
النحو التالي :

أولاً - الحقوق العامة للذميين (١) :

يتمتع الذميون بجميع الحقوق العامة في المجتمع الإسلامي - وهي التي لاغنى
لفرد عنها- إلا في إستثناءات قليلة، وهذه الحقوق تتضمن حماية الشخص في نفسه وماله
وحريته وحرمة مسكنه وغيرها ..

١- حق الذمي في حياته:

ولحماية الذمي في نفسه حرم الإسلام قتل الذمي بدون حق .
يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ((من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة
الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً)) (٢) .

(١) - انظر أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام

للدكتور/ عبد الكريم زيدان ص(٧٢) .

(٢) - صحيح البخاري كتاب الديات ا باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم ١٩٤/٤ .

والمراد به من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هدنة من

سلطان أو أمان من مسلم) :

* -فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٥٩١١٢ .

ولهذا فليس للمسلم قتل كل كافر بل يحرم عليه قتل الذمي والمهاجر بغير استحقاق (١). كما يحرم إلحاق الأذى بأبدانهم وضربهم وتعذيبهم أو حبسهم إلا بحق، بل لا يجوز ذلك حتى ولو تأخروا أو امتنعوا عن أداء الواجبات المالية المقررة عليهم كالجزية والخراج، وفي ذلك كتب أبو يوسف (٢): (ولا يضربن رجل في دراهم خراج، ولا يقيم على رجله، فإنه قد بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعونهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام) (٣).

(ومر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس، يصب على رؤوسهم الزيت، فقال: ما بال هؤلاء؟ فقالوا عليهم الجزية؟ لم يؤدوا فهم يعذبون حتى يؤدوا، قال عمر رضي الله عنه فما يقولون هم فيما يعذبون به في الجزية، قالوا: يقولون: لا نجد، قال: فدعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا تعذبوا الناس فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة)) (٤) وأمر بهم فخلى سبيلهم)) (٥).

ولم يجز الفقهاء في أمر الذميين المانعين أكثر من أن يجسروا تأديباً لهم بدون أن يصحب الحبس أي تعذيب أو أذى، وكتب في ذلك أيضاً أبو يوسف، قال: (ولا يضرب أحد من أهل الجزية في استيذانهم الجزية، ولا يقيموا في شمس ولا غيرها، ولا يحمل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم) (٦). ويلحق بحماية نفس الذمي، حماية عرضه، فلا يجوز لأحد أن يسبه أو يتهمه بالباطل، أو يشنع عليه بالكذب، أو يغتابه، ويذكره بما يكره في نفسه أو نسبه أو خلقه أو غير ذلك مما يتعلق به.

-
- (١) - فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٢/٢٦٠، ٢٦١.
- (٢) - أبو يوسف (١١٢ - ١٨٢ هـ): يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي صاحب أبي حنيفة وتلميذه الأول ذا فقه وعلم ودراية بالحديث حافظ له، ولي قضاء بغداد مدة ولاية ثلاثة خلفاء عباسيين إلى آخر وفاة الرشيد وهو أول من دعي قاضي القضاة، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب إمامه، تصانيفه في شتى العلوم. * البداية والنهاية ١١٠-١٨٠.
- * تذكرة الحفاظ ٢٩٢١١ * طبقات الفقهاء ١١٢.
- (٣) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٢١).
- (٤) - أخرجه مسلم في صحيحه/كتاب البر/باب الرعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق ١٦٨/١٦ بلفظ إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا.
- (٥) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٥٨).
- (٦) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٥٥).

وذلك (أن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام) (١).

٢- ومثل حماية الأنفس والأبدان والأعراض، حماية الأموال، روى أبو يوسف فيما جاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران (ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم على أموالهم وأنفسهم وأراضيهم، وثلتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعبادتهم وبيمهم وملتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير) (٢)
وقال: (ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم) (٣)
وساوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذميين بالمسلمين في حرمة دماهم وأموالهم، فقال: (إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدماؤنا) (٤) فمن سرق مال ذمي قطع يده) (٥)

(ومن أتلف ذمي خمرًا أو خنزيرًا وجب عليه ضمانها، إن كان مسلمًا بالقيمة وإن كان ذميًا بالمثل، لأن عقد الذمة إذا عصم عينًا قومها كنفس الآدمي، وقد عصم خمر الذمي بدليل أن المسلم يمنع من إتلافها فيجب أن يقومها، ولأنها مال لهم يتمولونها، بدليل ما روي عن عمر رضي الله عنه أن عامله كتب إليه أن أهل الذمة يمرون بالعاشر ومعهم الخمر فكتب إليه عمر: ولوهم بيعها، وخذوا منهم عشر ثمنها، وإن كانت مالا وجب ضمانها كسائر أموالهم) (٦).

وهذا غاية ما بلغه الإسلام من رعاية لحرمة أموالهم وممتلكاتهم أن يحترم ويحفظ ما يمدونه - حسب دينهم - مالا وإن لم يكن في نظر المسلمين مالا متقومًا.

-
- (١) - الفروق للترافي ١٤/٢ .
 - (٢) - الخراج لأبي يوسف ص (١٥٩).
 - (٣) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٥٧).
 - (٤) - المغني لابن قدامة ٤٩٧/١٠ .
 - (٥) - المغني لابن قدامة ٢٧٦/١٠ .
 - (٦) - المغني لابن قدامة ٤٤٢/٥ وهذا المذكور هو مذهب الحنفية ، والمسألة فيها خلاف ؛ فالإمام أحمد والشافعي على أنه لا يجب ضمان الخمر والخنزير سواء كان متلفه مسلماً أو ذمياً لمسلم أو ذمياً لقوله صلى الله عليه وسلم : ألا إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميسرة والخنزير والأصنام متفق عليه ، وما حرم بيعه لم تجب قيمته ، ولأن ماله يمكن مضموناً في حق المسلم لم يكن مضموناً في حق الذمي ؛ : المغني لابن قدامة ٤٤٢/٥ .

٢- حق التنقل والإقامة :

من حقوق الذميين في المجتمع الإسلامي، حق التنقل والإقامة - يشاءوا لأنهم من أهل دار الإسلام فلم الحرية في استعمال هذا الحق، ولا يرد عليه إلا استثناءات قليلة، لاختصاص بعض الأماكن والبلدان بأحكام خاصة على الذميين التقيد بها والتمشي بموجبها .
وذلك أن الفقهاء قسموا بلاد الإسلام ثلاثة أقسام: (حرم، وحجاز : وما عداها) (١) .

فأما الحرم: (وهو مكة وما طاف بها من نصب حرمها، فليس لجميع من خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل بحال لامتقياً فيه ولا ماراً به، وهذا مذهب الشافعية (٢) والحنابلة (٣) وحجتهم أن القرآن الكريم نهى غير المسلمين عن قربان المسجد الحرام في قوله تعالى :
(يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا)) (٤)

(والمقصود به الحرم كله لا المسجد الحرام فقط بدليل قوله تعالى:
(وإن خفتن عيلة)) (٥)
يريد ضرراً بتأخير الجلب عن الحرم دون المسجد (٦) ويؤيده قوله تعالى:
(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)) (٧) أي الحرم، لأنه أسرى به من بيت أم هانئ (٨) لامن نفس المسجد (٩) .

- (١) - الأحكام السلطانية للماوردي ص (١٥٧) .
- (٢) - انظر كتاب المذهب في فقه الإمام الشافعي للشيرازي ٢٥٩١٢ ،
وكتاب نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لابن شهاب الرملي الشهير
بالشافعي الصغير ٨٦١٨ .
- (٣) - كشف القناع متن الاقتاع للشيخ منصور بن إدريس البهوتي ١٢٤١٢ .
- (٤) - سورة التوبة الآية (٢٨) .
- (٥) - سورة التوبة الآية (٢٨) .
- (٦) - المغني لابن قدامة ٦١٦١٠ - نهاية المحتاج ٨٦١٨ .
- (٧) - سورة الإسراء الآية (١) .
- (٨) - أم هانئ: اسمها (فائقة) أو عاتكة أو هند، أسلمت يوم الفتح وخطبها النبي صلى الله عليه وسلم فاعتذرت فعذرها، وهي التي قال لها المصطفى يوم الفتح:
(قد أجرتنا من أجرت يأم هانئ) وهي شقيقة علي بن أبي طالب، ماتت في خلافة معاوية * الإصابة ٢٠١٠٢٠٠/١٢ .
- (٩) - كشف القناع ١٢٥١٢ .

(وجوز أبو حنيفة (١) دخولهم إليه كالحجاز كله، ولايستوطنون به) (٢).

وأما الحجاز: (وهو الحجاز بين وما تهامة (٢) ونجد (٤) كالمدينة، واليمامة (٥)،
(٦) وخيبر والينبع (٧).

- (١) - حاشية رد المحتار لابن عابدين ٢٠٩/٤ .
(٢) - المغني لابن قدامة ٦١٦/١٠ .
(٢) - تهامة : بالكسر، قال الأصمعي : طرف تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج
وأول تهامة من قبل نجد ذات عرق، سميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها .
* معجم البلدان للبغدادي ٦٢/٢ .
(٤) - نجد : بفتح أوله وسكون ثانيه، قال النضر : نجد قفاف الأرض وصلابها
وما غلظ منها وأشرف ، وكل ما ارتفع عن تهامة فهو نجد، وقيل نجد هو اسم
للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام .
* معجم البلدان للبغدادي ٢٦٢، ٢٦١/٥ .
(٥) - اليمامة : منقول عن اسم طائر يقال له اليمام، واحدته يمامة، فتحها أمير
المسلمين خالد بن الوليد عنوة ثم صولحوا، وهي معدودة من نجد، كان اسمها
قديماً جواً فسميت اليمامة نسبة إلى اليمامة بنت سهم بن طسم .
* معجم البلدان للبغدادي ٤٤٢، ٤٤١/٥ .
(٦) - خيبر : الموضع المذكور في غزاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي
ناحية على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشام ، وتشمل على سبعة حصون
ومزارع ونخل كثير، فتحها النبي صلى الله عليه وسلم كلها في ستة سبغ
للهجرة ، وقيل سنة ثمان .
ذكر أبو القاسم أنها سميت بخيبر بن قانية بن مهدييل بن إرم بن عييل ،
وعييل أخو عمار بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وخيبر موصوفة
بالحمى، وهي أيضاً موصوفة بكثرة النخل والتمر .
* معجم البلدان للبغدادي ٤١٠، ٤٠٩/٢ .
(٧) - ينبع : بالفتح ثم السكون، والباء الرحدة مضمومة وعين مهملة، بلفظ ينبع
الماء، وهي عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر، كان يسكنها
الأنصار وجهينة والليث، فيها عيون عذاب غزيرة، وبها وقوف لعلي بن أبي طالب
رضي الله عنه، قال ابن دريد: ينبع بين مكة والمدينة، أخذ اسمها من الفعل
المضارع لكثرة ينابيعها . * - معجم البلدان ٤٥٠، ٤٤٩/٥ .

وَقَدْكَ (١) - وهي قرية بينها وبين المدينة يومان - وما والاها من قراها (٢) .
فلا يجوز أن يستوطنه الذميون وبهذا صرح فقهاء الشافعية (٣) والحنابلة (٤) والحنفية (٥) .
واستدل الفقهاء على منع الذميين من سكنى الحجاز، بما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)) (٦) وقال: ((لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)) (٧) .
ويقوله ((لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً)) (٨) وأراد بجزيرة العرب التي وردت في هذه الأحاديث، الحجاز (٩) والدليل عليه ما روى أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم:

-
- (١) - فَدَكَ: بالتحريك وآخره كاف، قال ابن دريد: فدكت القطن تغديكاً: إذا نفثته، وفدك قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في سنة سبع طليحاً.
* معجم البلدان ٢٣٨/٤، ٢٢٩.
- (٢) - انظر كتاب كشف الغناع للبهوتي ١٢٥/٣، ١٢٦ .
وكتاب نهاية المحتاج ٨٥/٨، وكتاب المغني لابن قدامة ٦١٤/١٠ .
- (٣) - انظر كتاب نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ٨٥/٨، وكتاب فقه الإمام الشافعي ٢٥٨/٢ .
- (٤) - انظر كتاب المغني لابن قدامة ٦١٢/١٠، وكتاب كشف الغناع ١٢٦/٢ .
- (٥) - حاشية رد المحتار لابن عابدين ٢٠٩/٤ .
- (٦) - أخرجه مسلم في صحيحه/كتاب الوصية/باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي ٩٢/١١ .
- (٧) - أخرجه مالك في الموطأ /باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة ٨٨/٢ .
والمصنف لعبد الرزاق /باب إجلاء اليهود من المدينة ٥٤، ٥٢/٦ .
(مرسل وهو موصول في الصحيحين عن ابن عباس، فأخرجه البخاري في كتاب الجزية والمرادعة /باب إخراج اليهود من جزيرة العرب ٥٨/٦، ومسلم في كتاب الرصية لمن ليس له شيء يوصي فيه ٢٥/٥) موطأ مالك ٨٩٢/٢ .
- (٨) - رواه الترمذي في سننه /كتاب السير /باب ما جاء في إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ١٥٦/٤ - قال أبو عيسى، هذا حيث حسن صحيح .
وأخرجه أبو داود /كتاب الخراج والنسي والأمانة / باب إخراج اليهود من جزيرة العرب ١٦٢/٢ .
- (٩) - المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢٥٨/٢، وكشف الغناع ١٢٦/٢ بدليل أنه ليس أحد من الخلفاء أخرج أحداً من اليمن وتيماء .

((أخرجوا يهرد أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب)) (١) .
(وروى ابن عمر أن عمر رضي الله عنه أجلى اليهود والنصارى من الحجاز ولم ينقل
أن أحد من الخلفاء أجلى من كان باليمن من أهل الذمة وإن كانت من جزيرة العرب ، فإن
جزيرة العرب في قول الأصمعي (٢) من أقصى عدن (٢) إلى ريف العراق (٤) في الطول ومن
جسده وماوالاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام في العرض ، وأما نجران (٥) ؛

(١) - أخرجه أحمد رقم ١٦٩١ ، والبيهقي (٢٠٨/٩) من طريق يحيى بن سعيد:

حدثنا إبراهيم بن ميمون: حدثنا سعد بن سمرة بن جندب
عن أبيه عن أبي عبيدة قال: نذكر الحديث.

وأخرجه أحمد أيضاً برقم (١٦٩٤) من طريق أبي أحمد الزبيري

حدثنا إبراهيم بن ميمون عن سعد بن سمرة قال:

وهذا إسناد حسن أو صحيح رجاله كلهم ثقات إلا أن سعد بن
سمرة لم يذكروا له راوياً غير إبراهيم بن ميمون.

سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١٢٤/٢ ، الحديث رقم (١١٢٢) .

كما أورد الحديث الهيثمي في المجمع ٢٢٥/٥ ، وقال: (رواه أحمد
بأسانيد ، ورجال طريقين منها ثقات متصل إسنادهما) .

(٢) - الأصمعي :

هو عبد الملك بن قُريب بن أصبح الباهلي ، أبو سعيد الأصمعي ، راوية
العرب ، واحد أئمة العلم والشعر والبلدان ، ولد في البصرة سنة ١٢٢ هـ ، وتوفي
فيها سنة (٢١٦) * الأعلام ١٦٢/٤ .

(٣) - عدن: بالتحريك وآخره نون ، وهو من قولهم عدن بالمكان إذا أقام به ، وبذلك

سميت عدن ، وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، ردة
لاماء بها ولامرعى . * معجم البلدان للبغدادى ٨٩/٤ .

(٤) - العراق: مائة ليني سعد بن مالك وبني مازن ، سميت بذلك من عراق القربة

وهو الحرز المشي الذي في أسفلها أي أنها أسفل أرض العرب ، وقيل العراق

شاطئ البحر ، وسمي العراق عراقاً لأنه على شاطئ دجلة والفرات مدأ حتى

يتصل بالبحر على طوله ويقال بل هو من منابت الشجر ، فكانه جمع عراق

وقيل غير هذا . * معجم البلدان ٩٤٠٩٢/٤ .

(٥) - نجران: بالفتح ثم السكون ، وآخره نون ، والنجران في كلامهم: خشبة يدور

عليها رتاج الباب ، ونجران في عدة مواضع ، منها نجران في مخاليف اليمن من

ناحية مكة ، ونجران أيضاً موضع بالبحرين فيما قيل ، ونجران أيضاً موضع ببحوران

من نواحي دمشق .

* معجم البلدان للبغدادى ٢٦٦/٥ - ٢٧٠ .

فليست من الحجاز (١) (٢).

ويسمح للذميين في دخول الحجاز للتجارة، لأن النصارى كانوا يتجرون إلى المدينة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيأذن لمن دخل منهم تاجراً في مقام ثلاثة أيام ويخرجون بعد إنقضاءها (٢).

(ولا يمكنون من الدخول بغير إذن الإمام، لأن دخولهم إنما أجاز لحاجة المسلمين فوقف على رأي الإمام، فإن استأذن في الدخول فإن كان للمسلمين فيه منفعة بدخوله لحمل صيرة أو أداء رسالة أو عقد ذمة أو عقد هدنة أذن فيه لأن فيه منفعة للمسلمين، فإن كان في تجارة لا يحتاج إليها المسلمون لم يؤذن لهم، فإن دخل تاجراً فله أن يقيم ثلاثة أيام، ولا يقيم أكثر منها لحديث عمر رضي الله عنه، ولأنه لا يصير مقيماً بالثلاثة ويصير مقيماً بما زاد، وإن أقام في موضع ثلاثة أيام انتقل إلى موضع آخر وأقام ثلاثة أيام ثم كذلك ينتقل من موضع إلى موضع ويقيم في كل موضع ثلاثة أيام جاز لأنه لم يصير مقيماً في موضع) (٤).

(وأجاز الحنابلة تمديد المدة إلى أكثر من ثلاثة أيام إذا احتاج الذمي إلى ذلك لبيع بضاعته، لأن منع الذمي من الإقامة أكثر من هذه المدة - بالرغم من حاجته إليها - قد يمنعه من جلب البضائع إلى الحجاز فتتوت مصلحة أهل هذه البلاد) (٥).

(١) - الحجاز: بالكسر، وآخره زاي، والحجاز جبل ممتد حآل بين الفجر غور تهامة ونجد فكانه منح كل واحد منهما أن يختلط بالآخر، فهو حاجز بينهما، ويقول الأنباري: في الحجاز وجهان: يجوز أن يكون مأخوذاً من قول العرب حجز الرجل بعيره يحجزه إذا شدة شداً يقيد، ويقال للحبل حجاز، ويجوز يكرن سمي حجازاً لأنه يحتجز بالرجال والحجاز.

ويقول الأصمعي، الحجاز من تخوم صنعاء من العباد وتبالة إلى تخوم الشام، وإنما سمي حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد، فمكة تهامة، والمدينة حجازية والبلدان حجازية. * معجم البلدان ٢/٢١٨، ٢١٩.

(٢) - المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢/٢٥٨.

(٣) - أنظر المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢/٢٥٩.

وكتاب المغني لابن قدامة ١٠/٦١٥.

(٤) - المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢/٢٥٩.

وكتاب المغني لابن قدامة ١٠/٦١٥.

(٥) - المغني لابن قدامة ١٠/٦١٥.

وأنظر أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية ١/١٨٦.

والراجع - والله أعلم - أنه ينبغي ترك الأمر لولي الأمر يجهتد فيه حيث تكون المصلحة ثم يقرر، لأن المدة التي حددها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لإقامة الذمي في الحجاز وهي ثلاثة أيام كانت بإجتهاد منه رضي الله عنه بناءً على المصلحة التي رآها في ذلك الوقت، وليست بحكم شرعي قطعي وبناءً على هذا أجاز الحنابلة تمديد المدة إلى أكثر من ثلاثة أيام إذا وجدت حاجة تتحقق فيها مصلحة .

٤ - خروجهم من دار الإسلام وعودتهم إليها:
(من حقوق الذميين العامة حق الخروج من دار الإسلام إذا كان هناك مسوغ للخروج، مع أمن عودته إلى دار الإسلام، ويمنع من الخروج إذا كان على وجه اللحاق بدار الحرب) (١).

٥ - حماية حرية المسكن :
يتمتع الذميون بحرية المسكن في دار الإسلام، فلا يدخل عليهم أحد إلا بإذنهم ورضاهم ، لأن الاعتداء على حرمة مسكن الشخص اعتداء على الشخص نفسه، والشريعة الإسلامية تحرم الاعتداء على الغير بصراحة عامة، قال تعالى:
(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) ((٢)).
فلا يعتدي على مسكن الذمي، ولا يسلب حرمة فيه، وإنما يجب الالتزام منه بأداب الإسلام في الاستئذان .

وقد نص القرآن الكريم على المنع من دخول مساكن الغير بغير أذنهم؛
قال تعالى:

((يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم) ((٢)).
وبيوت الغير تشمل بيت المسلم وبيت غير المسلم، وعليه فيمنع دخول بيت الذمي بغير إذنه وعلمه حماية لحرية شخصية وحرمة مسكنه التي كفلها له الإسلام وجعلها حق من حقوقه العامة .

-
- (١) - رد المحتار لابن عابدين ٢/٢٤٦ .
(٢) - سورة البقرة الآية (١٩٠) .
(٢) - سورة النور الآيتان (٢٧، ٢٨) .

٦- حماية حرية العقيدة :

يجعل الإسلام حرية العقيدة حق من حقوق أهل الذمة العامة، وأساس هذا الحق.
قول الله تعالى: ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)) (١).
وقوله سبحانه: ((أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)) (٢).

(أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج على أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يغنيه الدخول في الدين مكرهاً متسوراً) (٢).

(وهذا يقتضي أن أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا اختاروا البقاء على دينهم وأدوا الجزية، وأما أهل الحرب فالآية وإن كانت تعميم - لأن النكرة في سياق النفي وتعريف الدين يفيدان ذلك، والإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - لكن قد خص هذا العموم بما ورد من آيات في إكراه أهل الحرب من الكفار على الإسلام) (٤).
وذلك كقوله تعالى:

((استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون)) (٥)

وعليه فحرية العقيدة حق مضمون للذميين، لأن عقد الذمة يتضمن إقرار الذمي على عقيدته وعدم التعرض له بسبب ديانتهم، وقد جاء في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران: (ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي صلى الله عليه وسلم - على أموالهم وأنفسهم وأراضيهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم، وعبادتهم وبيعتهم وملتهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من سقياه، ولا راهب من رهبانيتهم) (٦).

(١) - سورة البقرة الآية (٢٥٦) ء

(٢) - سورة يونس الآية (٩٩) .

(٣) - تفسير ابن كثير ٢١٠١١ ، وانظر تفسير فتح القدير للشوكاني ٢٧٥١١ .

(٤) - تفسير فتح القدير للشوكاني ٢٧٥١١ .

(٥) - سورة الفتح الآية (١٦) .

(٦) - كتاب الخراج لأبي يوسف ص(١٥٩) .

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل إيلياء (١) - القدس - نص على حرمتهم الدينية وحرمة معابدهم وشعائرهم: (هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتها، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبيها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهوا على دينهم، ولا يضار أحد منهم) (٢).

وكل ما يطلبه الإسلام من غير المسلمين أن يراعوا حقوق المسلمين وحرمة دينهم ، فلم أن يقيموا شعائرهم الدينية داخل معابدهم، ويتمنعون من إظهارها في خارجها في أوصار المسلمين، لما في هذا الإظهار من معنى الاستخفاف بالمسلمين والمعارضة لشعائر الإسلام، أما في القرى والمواضع التي ليست من أوصار المسلمين فلا يمنعون من إظهار شعائرهم الدينية فيها، وهذا مذهب الحنفية (٢) أما الحنابلة فقالوا دون تفصيل : يمنعون من إظهار الصلبان وضرب النواقيس ونحو ذلك (٤)، وقال الشافعية بمثل قولهم، إلا أنهم صرحوا بإظهار شعائرهم الدينية إذا انفردوا في قرية (٥)

والراجع - والله اعلم - الرأي القائل بمنع الذميين من إظهار شعائرهم الدينية خارج كنائسهم في أوصار المسلمين ، وعدم منعها في القرى والمواضع التي ليست من أوصار المسلمين، لئلا يحدث نتيجة إظهار شعائرهم الدينية في أوصار المسلمين شيء من الفتنة والإضطراب يخل بالمصلحة العامة في الدولة الإسلامية . ويعزز هذا الرأي ما جاء في عهد خالد بن الوليد (٦)

(١) - إيلياء : بكسر أوله واللام وياء وألف معدودة : اسم مدينة بيت القدس ، قيل معناه بيت الله، وقيل إنما سميت إيلياء باسم بانيتها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . * معجم البلدان للبغدادى ٢٩٢/١ .

(٢) الخراج لأبي يوسف ص (٢٩٤، ١٩٥)

(٣) - تبيين الحقائق بشرح كنز الدقائق للزيلعي ٢٨٠١٢ .

(٤) - كشف القناع ١٢٢/٢ .

(٥) - المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢٥٦/٢ .

(٦) - خالد بن الوليد ، سيف الله ورسوله ، أحد أشرف قريش في الجاهلية ، أسلم بعد الحديبية وهاجر ، شهد فتح مكة ، حارب المرتدين والروم وفارس وفتح دمشق ، مات على فراشه بحمص وله مشهد مزار من أقواله المأثورة: (لقد شهدت مائة زحف أوزهاءها وما في بطني موضع شسبر إلا وفيه ضربة أوطنة أورمية وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء).

* أسد الغابة ٩٢-٩٦ * الإصابة ٤١٢/١-٤١٥ .

لأهل عانات (١) :

(ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلوات وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم) (٢) .

وهذا يدل على مدى تمتع الذميين في دار الإسلام بحريتهم الدينية، مما يتفق وإقرارهم على عقيدتهم.

أما فيما يخص معابدهم كالكنائس والبيع، فليس لهم إحداث بيعة ولاكنيسة فيما مصره المسلمون كالكوفة (٢) وبصرة (٤) وبغداد (٥) ولايجوز صلحهم على ذلك (٦) .

(١) - عانات : في الأقليم الرابع من جهة المغرب ، وهي قرى سميت بثلاثة إخوة من قوم عاد خرجوا هرباً، فنزلوا تلك الجزائر فسميت بأسمائهم ، وهم : الروس ، ولسوس وناوس .

* معجم البلدان للبغدادي ٧٢٠٧١/٤ .

(٢) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٩٤) .

(٣) - الكوفة : بالضم المصر المشهور بأرض بابل من سراد العراق، ويسمونها قوم خذ العذراء ، سميت الكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب: رأيت كوفاناً وكوفاناً للرؤيلة المستديرة ، وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها ، من قولهم قد تكوف الرمل ، وقيل غير هذا مصرت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة التي مصرت فيها البصرة وهي سنة (١٧) .

* معجم البلدان للبغدادي ٤٩١٠٤٩٠/٤ .

(٤) - البصرة :

البصرة في كدام العرب الأرض الغليظة ، وسميت بصرة لغلظها وشدتها .

* معجم البلدان للبغدادي ٤٢٠/١ .

(٥) - بغداد: أم الدنيا وسيدة البلاد، من سراد بلاد العراق ،

وأصل بغداد الأعاجم ، والعرب تختلف في لفظها، قال بعض الأعاجم: تفسيرها بستان رجل، ف باغ بستان، و داد اسم رجل ، أول من مصرها وجعلها مدينة، المنصور بالله، أوب جعفر عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الثاني الخلفاء، وهي مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس بن عبد السفاح قرب الكوفة، وشرع في عمارتها سنة (١٤٥) ونزلها سنة (١٤٩) .

* معجم البلدان للبغدادي ٤٥٧٠٤٥٦/١ .

(٦) - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للرملي ٩٢/٨ . والمعني لابن قدامة ٦٠٩/١٠ .

وقال الزيدية: يجوز لهم الأحداث إذا أذن لهم أمام المسلمين بذلك المصلحة يراها (١) وكذلك الحال فيما فتحه المسلمون عنوة فلا يجوز لهم أن يحدثوا فيه شيء من البيع والكنائس لأنها صارت ملكاً للمسلمين (٢)

وقال ابن القاسم المالكي (٣) يجوز لهم الأحداث إذا أذن لهم الإمام بذلك (٤) وما كان في هذه الأمصار - المتوححة عنوة - شيء من الكنائس القديمة، فهذه لا يتعرض لها ولا يهدم شيء منها - إلا أنه كما قال الحنفية - ليس لهم إتخاذها معابد وإنما يتخذونها مساكن، ورجبتهم أن هذه الأمصار لما فتحت عنوة فقد استحقها المسلمون لإقامة شئناهم فيها فلا يصح للذميين إتخاذها معابد لهم . (٥) وعند الحنابلة قولان : الأول - وجوب هدمها لأن هذه البلاد ملكها المسلمون لما فتحوها عنوة فلا يجوز أن تكون فيها كنيسة أو بيعة، الثاني - إبقاؤها وعدم هدمها لأن الصحابة فتحوا كثيراً من البلاد عنوة ولم يهدموا شيئاً من الكنائس (٦) أما الشافعية فقد قالوا لا يقرون عليها في الأصح، وهناك قول ثان في المذهب بإقرارهم عليها للمصلحة (٧).

أما ما فتح صلحاً، فإن جرى الصلح على أن الأراضي لهم والخراج للدولة الإسلامية جاز لهم أحداث الكنائس والبيع ، وإن صلحوا على أن الدار للدولة الإسلامية ويؤدون الجزية فالحكم في معابدهم على ما يقع عليه الصلح، فإن صلحوا على شرط التمكين من أحداث الكنائس ونحوها فلم الأحداث والا فلا . (٨) وقال المالكية ما فتح صلحاً يجوز لأهله الأحداث مطلقاً شرط لهم ذلك أولم يشترط مادام لا يسكن معهم المسلمون (٩).

-
- (١-٢) - البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار للإمام المهدي لدين الله أحمد المرتضى ٥/٤٦٢، ٤٦٣. وشرح الأزهري للإمام أبي القاسم الشهرستاني منفتح ٤/٥٦٨.
- (٢) - ابن القاسم : مسبقت ترجمته ص (١٠٨) .
- (٤) - شرح الخرخشي على مختصر الجليل للإمام أبي الضياء خليل ٢/١٤٨ .
- (٥) - شرح فتح القدير ٥/٢٠٠ .
- (٦) - المغني لابن قدامة ١٠/٦١٠ .
- (٧) - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٩٢١٨، والمهذب في فقه الإمام الشافعي ٢٥٦١٢
- (٨) - المغني لابن قدامة ١٠/٦١١، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٩٢١٨ .
- المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢٥٦١٢ ، شرح فتح القدير ١٥/٢٠٠ .
- (٩) - فتح الجليل للشيخ محمد عايش / وهو شرح على مختصر الإمام خليل ١/٧٦١

والقول الراجح من أقوال الفقهاء فيما يخص معابد أهل الذمة هو ما ذهب إليه الزيدية من جواز إحداث البيع والكنائس في أمصار المسلمين إذا أذن لهم إمام المسلمين بذلك ، كما يرجح قول ابن القاسم المالكي أيضاً من جواز إحداث الكنائس فيما فتحه المسلمون عنوة إذا أذن لهم الإمام بذلك، وكذلك يرجح القول الثاني في المذهب الحنبلي من جواز إبقاء الكنائس القديمة في الأمصار المفتوحة عنوة ، حيث أن هذا الإبقاء يتفق وإقرار الإسلام لأهل الذمة على عقائدهم وعدم التعرض لهم بشأنها . ولا يجوز لهم إحداث بيعة ولاكنيسة في أرض الحجاز بالإجماع (١) . وهذا لا يعترض لأحد عليه لأن الحجاز لا يتوطن فيه أهل الذمة كما سبق بيانه .

٧- حرية الرأي والاجتماع والتعليم :

للذميين في دار الإسلام حرية إبداء الرأي والاجتماع فيما يخص شئونهم وفيما لا علاقة له بالأمر الإسلامية، في حدود القانون الإسلامي والنظام العام للدولة الإسلامية إذ ليس في نصوص الشريعة الإسلامية وقواعدها ما يمنع من ذلك . ولهم أيضاً حرية التعليم وفق ديانتهم وإنشاء المدارس الخاصة بهم، وما يدل على جواز تمتعهم بهذه الحرية، أن المسلمين بعد فتح خيبر وإتصارهم على اليهود جمعوا الغنائم وكان فيها نسخ من التوراة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بردها إلى اليهود (٢)

٨- حق التمتع بمرافق الدولة وكفالة بيت المال :

للذميين حق التمتع بمرافق الدولة الإسلامية العامة كوسائل المواصلات ومشروعات الري والإنارة ومياه الشرب ونحو ذلك، وذلك لمعوم لفظ (الناس) الوارد في الحديث الشريف ((الناس شركاء في ثلاث الماء والكاف والنار)) (٣) حيث أن لفظ (الناس) بمعومه يشمل المسلمين وغير المسلمين . كما أن لهم حق الكفالة من بيت مال المسلمين في حالة عجزهم وحاجتهم، شأنهم شأن المسلمين في ذلك، لأنهم رعية للدولة الإسلامية ومن حقهم عليها أن ترعاهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته)) (٤) .

(١) - شرح فتح القدير لابن الهمام ٢٠١/٥ ، تبيين الحقائق للزيلعي ٢٨٠١٢ .

(٢) - إمتاع الأسماع للمقرئزي ٢٢٢١١ .

(٣) - سبق تخريجه ص (٦٧) .

(٤) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الأحكام/باب قول الله تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) (٤/١٦٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه/كتاب الأمانة/باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ٢١٢/١٢ .

((ولأنه صلى الله عليه وسلم تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم)) (١).

وفي ظل هذا الهدى الإسلامي الكريم سار الخلفاء الراشدون وولاة الأمور وقادة المسلمين من رعاية الذميين والعناية بهم وإشراكهم مع المسلمين في كفاية بيت المال عند العجز والحاجة .

ففي زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه يسجل خالد بن الوليد في صلحه مع أهل الحيرة وكانوا من النصارى ما يأتي (وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله) (٢) ولم ينكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه على خالد بن الوليد ما كتبه في كفاية الذمي العاجز من بيت مال المسلمين، ولأنه كان بحضرته من الصحابة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرر أيضاً هذا المعنى ، حيث أنه رضي الله عنه عند مقدمه من أرض دمشق، مر بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت) (٣)

وعندما رأى رضي الله عنه شيخاً يهودياً يسأل الناس وعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأته إلى ذلك، أمر أن يقرض له ولأمثاله من بيت المال وما يكتفيهم ويصلح شأنهم روى أبو يوسف في كتاب (الخراج) (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه فقال من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما لجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن، قال: فأخذه عمر رضي الله عنه بيده فذهب به إلى منزله، فرضخ له من المنزل بشيء، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال:

أنظر هذا وضرباه، فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين - فالفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه) (٤).

كما أن هناك من قادة المسلمين وحكامهم من يأمر عماله بالتحري عن المحتاجين من أهل الذمة ليجري عليهم العطاء من بيت المال .

-
- (١) - الأموال لأبي عبيد ص (٨٠٤) .
 - (٢) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٩٠) .
 - (٣) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٥٩) .
 - (٤) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٥٩ ، ٢٦٠) .

فهذا عمر بن عبد العزيز(١) الخليفة الأموي يكتب إلى عامله في البصرة:
(أنظر من قبلك من أهل الذمة من قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه
المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه)(٢).

من هذا كله نستطيع أن نقول أنه يلزم الدولة الإسلامية أن تعول المحتاجين من
أهل الذمة حتى يتحقق الضمان الاجتماعي في المجتمع المسلم لجميع أبنائه مسلمين وغير
مسلمين عملاً بتعاليم الإسلام الحنيف دون إتفات إلى إختلاف الدين والعقيدة، فلا يجوز
أن يبقى في المجتمع المسلم إنسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو
العلاج، حيث أن هذا يضر به، ودفع الضرر عنه واجب ديني مسلماً كان أو ذمياً .
يقول الإمام النووي (٢) في المنهاج: (إن من فروض الكفاية دفع ضرر المسلمين
ككسوة عار أو إطعام جائع، إذا لم يندفع بزيادة أو بيت مال، ويوضح شمس الدين
الرملي(٤) في نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ذلك بقوله: إن أهل الذمة كالمسلمين في ذلك،
فرفع الضرر عنهم واجب.

- (١) - عمر بن عبد العزيز الأموي القرشي (٦١-١٠١ هـ) أبو جعفر، ولد ونشأ
بالمدينة المنورة تفقه على أهلها وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة (٩٩) هـ
ولم تطل مدته فدمس له السم بدير سمان بأرض المصرة ملا الأرض عدلاً
ونشر الأمان والإطمئنان كان رقيقاً رحيماً صالحاً عادلاً وعلى قول هو خامس.
الخلفاء الراشدين، رثاه الشعراء وألفت في سيرته الكتب .
* شذرات الذهب ١١٩١١ . * تهذيب التهذيب ٤٧٥١٧ .
- (٢) - الأموال لأبي عبيد ص (٥٧).
(٣) - النووي (٦٢١ - ٦٧٦ هـ)
- يحي بن شرف بن مري الحزامي الحوراني النووي الشافعي، أبو زكريا
محي الدين، ولد وتوفي بنوى قرب حرران سوريا تعلم بدمشق فبرع
بالتفه والحديث وعلم القراءات وصنف بذلك كتباً .
* تذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ . * طبقات الشافعية ٢٩٥١٧ .
- (٤) - الرملي (٧٧٢ - ٨٤٤ هـ):
أحمد بن حسين بن حسن بن علي بن أرسلان، أبو العباس، شهاب الدين الرملي
نسبة لرملة بفلسطين، كان فقيهاً شافعيًا مجتهداً مشاركاً في بعض العلوم
ذا زهد مشهور إنتقل إلى القدس وفيها نالته المنية من تصانيفه الزيد في
الفقه - شرح صحيح البخاري - منظومة في علوم القرآن .
* شذرات الذهب ٢٤٨/٧ * طبقات المفسرين ٢٦ .

ثم بحث الشيخ الرملي رحمه الله في تحديد معنى دفع الضرر فقال:
وهل المراد بدفع ضرر من ذكر مايسد الرق أم الكفاية؟ قولان: أحدهما ثانيهما، فيجب في
الكسوة مايستر كل البدن على حسب مايليق بالحال من شتاء وصيف، ويلحق بالطعام والكسوة
مافي معناها كأجرة طيب وثمان دواء وخادم منقطع(١).

هذا يدل على سماحة الاسلام، ورحمة المسلمين وبرهم بمن يعيش في كنفهم من أهل
الأديان الأخرى، ومدى رعايتهم وعنايتهم بهم رغم تعصبهم هم ومتمتعهم للمسلمين.

٩- حرية العمل والكسب :

للذميين في دار الإسلام حرية العمل إما بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب
أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة وسائر ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك
شأن سائر المسلمين .

(فقد قال الفقهاء: إن الذميين في المعاملات والتجارات والبيوع وسائر التصرفات
كالمسلمين إلا ما استثنى من معاملات الربا فهي محظورة عليهم كالمسلمين، لأن النبي صلى الله
عليه وسلم كتب إلى أهل نجران:

(إما أن تذرنا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله) (٢).

وهذا يدل على الحرمة لما فيه من وعيد شديد، وبذلك يكون الذميون كالمسلمين في
حرمة التعامل بالربا) (٢).

(كما يمنع الذميين من بيع الخمر والخنازير في أمصار المسلمين أو إدخالها في
الأمصار على وجه الشهرة والظهور، إلا أن لهم بيعها في قرأهم وأمصارهم، أو في موضع ليس
من أمصار المسلمين ولو كان فيه مسلمون). (٤)

وفيما عدا هذه الأمور المحددة يتمتع الذميون بتمام حريتهم في مباشرة التجارات
والصناعات والحرف المختلفة، وهذا ماجرى عليه الحال في شتى الأزمان .

(١) - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٤٦/٨ .

(٢) - أحكام القرآن للجصاص ٤٢٦/٢ .

(٣) - أحكام القرآن للجصاص ٤٢٦/٢ .

(٤) - بدائع الصنائع للكاساني ١١٢/٧ ، والدر المختار ٢٧٢/٢ .

ثانياً - حقوق الذميين الخاصة :

يتمتع الذميون في دار الإسلام بجميع الحقوق الخاصة التي يتمتع بها المسلمون، ويتساوون معهم في الحقوق التي لاتبنى على العقيدة الدينية ولا تستلزم توافر الإسلام، والحقوق الخاصة لاتبنى على العقيدة الإسلامية ولا يشترط لها الإسلام حتى يمنع منها الذمي .

وليس عليهم في أحوالهم الشخصية والاجتماعية أن يتنازلوا عما أحله دينهم وإن كان الإسلام يحرمه .

فالمجوسي الذي يتزوج إحدى محارمه، واليهودي الذي يتزوج بنت أخيه والنصراني الذي يأكل الخنزير ويشرب الخمر، لا يتدخل الإسلام في شؤونهم هذه ماداموا يعتقدون حلها، فقد أمر المسلمون أن يتركوهم وما يدينون، فإن رضوا بالاحتكام إلى شرع المسلمين في هذه الأمور حكم عليهم فيها بحكم الإسلام، لقوله تعالى: ((وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم)) (١) .

ومن حقوق الذميين الخاصة التي يتمتعون بها في دار الإسلام :

١- الزواج :

فللذمي حق الزواج بمن شاء في دار الإسلام وإنشاء أسرة وما يتبعها من حقوق النفقة والأرث وغير ذلك (٢) .

وتبنى أحكاما لنكاح بالنسبة لهم فيما بينهم على قاعدة، وهي أنه يمنع الحاكم المسلم من التعرض لهم في أنكحهم وما يترتب عليها وما يتصل بها من أفضية وشؤون .
والدليل على ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر مجوس هجر على أنكحهم مع علمه بأنهم يستحلون نكاح المحارم، ولم يكتب لهم بشأنها كما كتب لهم بشأن الربا يأمرهم أن يتركوه (٣) .

(١) - سورة المائدة الآية (٤٩) .

(٢) - تاريخ الفكر الإسلامي ومصادره للشيخ السنهوري ص (١٢) .

(٣) - كشف القناع ١١٦/٥ .

إلا أنه بالنسبة لزواج الذمي من المسلمة فإنه يمثل قيداً على هذا الحق الخاص، وذلك أنه لم يجز الإسلام زواج المسلمة بغير المسلم، فإذا تزوجت به فالزواج باطل، لقوله تعالى: ((ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا)) (١).

(ولأن في زواج المسلمة بغير المسلم خوف وقوعها في الكفر، لأن الزوج قد يدعوها إلى دينه، والنساء في العادة يتبعن الرجال، ويقلدنهم في الدين) (٢)

أما المسلم فيجوز له أن يتزوج غير المسلمة إذا كانت من حرائر نساء أهل الكتاب؛

والدليل على ذلك قول الله تعالى

((اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان)) (٣).

يقول الجصاص (٤) في تفسيره: (لاخلاف بين السلف على إباحة نكاح الحرائر منهن إذا كن ذميات، إلا شيئاً يروى عن ابن عمر أنه كرهه، وجعلوا قوله تعالى: ((ولا تنكحوا المشركات)) (٥) خاصاً في غير أهل الكتاب). (٦)

- (١) - سورة البقرة الآية (٢٢١)
- (٢) - أنظر: تفسير القرطبي ٧٢١٢ . بدائع الصنائع للكاساني ٢٧٢٠، ٢٧١٢ .
- (٣) - سورة المائدة الآية (٥).
- (٤) - أبو بكر الجصاص (٢٠٥ ، ٢٧٠ هـ)
- أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص من أهل الرأي، سكن بغداد وتوفي بها إنتهت إليه رئاسة الحنفية ، امتنع من القضاء ، ألف في أحكام القرآن وأصول الفقه .
- * طبقات الأصريين ١٢/٢ . * طبقات الحنفية ٤١٢١١ - ٤١٥ .
- (٥) - سورة البقرة الآية (٢٢١).
- (٦) - أحكام القرآن للجصاص ٢٢٤/٢ .

ومن حقوقهم الخاصة أيضاً :

٢- احترام نظرتهم في الفرقة على نظام شريعتهم الخاص بهم .
فلا يتعرض لهم أيضاً في شؤون الطلاق بين الزوجين إن اتحدا في الطائفة والملة، فإن شريعتهم الدينية هي التي تحكم الطلاق، وحكم هذه الشريعة يختلف باختلاف الأحوال: (ف عند الكاثوليك لايجوز الطلاق لأي سبب كان، وإنما الذي عندهم هو التفريق الجسماني مع بقاء الرابطة الزوجية، عند وجود سببه كزنى أحد الزوجين أو تغيير أحدهما ديانتة أو مذهبه الكاثوليكي، أو في حالة سلوك أحد الزوجين سلوكاً مشيناً، أو تعريض أحد الزوجين نفس الزوج الآخر أو جسده للخطر .

وغير الكاثوليك، كالأقباط والأرثوذكس والإنجليي البروتستانت، وإن كانوا لايقرون بالطلاق بوصفه مشيئة لأحد الزوجين أو كليهما، إلا أنهم يأخذون بمبدأ التطلاق بحكم من المحكمة عند وجود الأسباب المبررة له .

إلا أن هذه الطوائف تختلف في مدى هذه الأسباب، فعند البروتستانت لايجوز التطلاق إلا بسبب الزنى، أو الخروج من المسيحية . و الأرثوذكس يضيفون إلى السببين السابقين أسباباً أخرى تختلف باختلاف الكنائس الأرثوذكسية، ويرجع هذا الاختلاف في الغالب إلى العادات المحلية، ومن الأسباب المبررة للتطلاق عندهم زنى أحد الزوجين، أو إصابته ببعض الأمراض كالجنون، أو غيبته خمس سنوات متوالية، أو اعتداء أحد الزوجين على الآخر... الخ

أما عند اليهود فالطلاق مباح وهو حق للزوج، وللرأة أن تطلب الطلاق عند وجود المسوغ الشرعي، كما لو أصيب الزوج بمرض لايمكن معه بقاء الحياة الزوجية، أو في حالة عقم الزوج المحقق، أو إمتناعه عن مباشرتها، أو زناه، أو إضراره بها بدون مسوغ شرعي(١) .

وعلى هذا فيلزم القاضي الشرعي أن يحترم شعائر هذه الطوائف وأن يتقيد بنظم الطلاق المطبقة عندهم، على أنه لا يطلق هو، ولكنه يقرر أن الطلاق وقع في الدائرة المرسومة عندهم، فيحكم بصدقه الدعوى فيه، أو يقرر أنه لم يقع في الدائرة المرسومة عندهم فلا يحكم بأي أثر للطلاق .

(١) - انظر الأحوال الشخصية لمحمد أبو زهرة ص(٢٠٩ - ٢١١)

وأحكام الذميين والمستأمنين للدكتور عبد الكريم زيدان ص(٢٨٥ ، ٢٨٦) .

ومن حقوقهم الخاصة أيضاً :

٢- الوصية والميراث: (*)

إن الله تعالى لم ينه المسلمين عن بر الذميين، قال تعالى: ((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)) (١).

فالآية الكريمة لم تنه المسلمين عن بر الذميين، والوصية لهم بر، فكانت غير منهي عنها.

(وعلى هذا إذا أوصى مسلم لذمي صحت الوصية) (٢).

(وتجوز وصية الذمي للذمي بالخمر والخنزير لأنهما مال متقوم في حقهم كالخيل والشاة في حقنا، أما المسلم فلا يجوز وصيته بهما للذمي كما لا تجوز وصية الذمي بهما للمسلم، لأن الخمر والخنزير محرمان على المسلم، وليس من الأموال المتقومة في حقه، ومن شروط صحة الوصية أن يكون الموصى به مالاً متقوماً) (٣).

فالإسلام لم يمنع الوصية عند اختلاف الدين، لأنها ليست مبنية على الولاية فلا يؤثر في جوازها اختلاف الدين، وإنما منع التوارث عند اختلاف الدين لانقطاع الولاية لأن الأثر مبني على الولاية .

أما توارث الذميين فيما بينهم فجاز بلا خلاف بين أهل العلم (٤).

وأسباب الميراث بينهم كأسباب الميراث بين المسلمين: أي القرابة، والنكاح، والولاء، لأن غير المسلم محتاج مكلف فيملك بالأسباب الموضوعة للملك كالمسلم، ولأنه بمقدرة الذمة التحق بالمسلم في المعاملات فيكون حكمه في ذلك كحكم المسلم (٥).

وعلى ذلك فالذمي في دار الإسلام كالمسلم في إقرار تمتعه بحقوقه الخاصة ومنها الوصية والميراث فلا يمنع منها الذمي كما هو متبع في نظامهم الخاص بهم.

(*) - الوصية والميراث يجمعها معنى واحد هو أن كلاً منهما تصرف على وجه البر في مال الإنسان ، وإن اختلفا في أن الميراث بر لأقربين بعد الموت بمقتضى وصية الله ، والوصية تصرف على وجه البر مطلقاً مضافاً إلى ما بعد الموت بمقتضى. (وصية الإنسان نفسه).

* - الوصايا في الفقه الإسلامي للأستاذ محمد سلام مذكور ص (٦).

(١) - سورة الممتحنة الآية (٨) .

(٢) - بدائع الصنائع للكاساني ٢٤١١٧ .

(٣) - الكاساني ٢٥٢١٧ .

(٤) - المعنى لابن قدامة ١٦٧١٧ : الكفار يتوارثون إذا كان دينهم واحداً لانعلم بين أهل العلم خلافاً .

(٥) - الوصايا في الفقه الإسلامي للأستاذ محمد سلام مذكور ص (٢٢) .

٤- ومن حقوقهم الخاصة:

تبادل الأموال في دار الإسلام -

إن الذميين في دار الإسلام كالمسلمين في المعاملات الشاملة لجميع الارتباطات القانونية وفي جميع الشؤون الدنيوية، فقد قال الفقهاء إن الذمي كالمسلم في التزامه أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات لأنه من أهل دار الإسلام (١) وإن الذميين في المعاملات والتجارات، كالبيع وسائر التصرفات، كالمسلمين إلا ما استثني (٢).

فيجوز لغير المسلمين، فيما بينهم التصرف في الخمر والخنزير في دار الإسلام، لأنهم مقرون على أن يكونا مالاً لهم، إذ لو لم يجز تصرفهم فيهما والانتفاع بهما لما كانا متمولين في حقهم، وقد روى أن المسلمين كانوا يأخذون الخمر من أهل الذمة في المشور، فكتب إليهم عمر رضي الله عنه :

((أن ولوهم بيها وخذوا العشر من أثمانها ولو لم يجز بيع الخمر منهم لما أمرهم بذلك ، فالخمر والخنزير من الأموال المتقومة في حق غير المسلمين كالخل والشاة في حقنا، فيجوز انتفاعهم بهما في حكم الشرع (٢).

إذن فالإسلام لم يمنع غير المسلمين من تبادل الأموال والانتفاع بما يعتقدون حله في دار الإسلام كحق من حقوقهم الخاصة.

تلك هي حقوق الذميين العامة والخاصة في دار الإسلام، والتي أقرها لهم الإسلام وكفلها لهم، وجعلها حقاً مضافاً لا يجوز الاعتداء عليه أو سلبه منهم، وبفضلها عاش الذميون في حماية تامة لحرياتهم وإنسانيتهم من التضييق عليهم أو إلحاق أذى أو ضرر بهم من غيرهم أو غمط حق من حقوقهم .

وبهذا حمى الإسلام المجتمع المسلم من إحداث ألوان الصراعات والفتن التي تنشأ من إحساس الفرد بالظلم من غيره أو ممن يعيش معه، حيث أنه أعطي حقه كاملاً وأقام حوله سياجاً من الحماية يمنع الظلم والاعتداء من غيره عليه .

(١) - المبسوط للسرخسي ١٠/١٤٤ .

(٢) - أحكام القرآن للجصاص ٢/٤٢٦ .

(٣) - أحكام القرآن للجصاص ٢/٤٢٦ ، بدائع الصنائع للكاساني ٥/١٤٢ .

المطلب الثاني

واجبات الذميين نحو الدولة الإسلامية

فرض الإسلام على الذميين واجبات مالية وغير مالية مقابل التمتع بتلك الحقوق في المجتمع المسلم، تنحصر في الأمور التالية :

أولاً - الواجبات المالية:

من أبرز الواجبات المالية التي كلف بها الذمي : الجزية والخراج والعشور وفيما يلي أتحدث عن كل من هذه الضرائب ، وسند استيفائها وأبرز شروطها:

آ - أداء الجزية:

الجزية بكسر الجيم على وزن فعلة بكسر الفاء من جزى يجزي بمعنى قضى يقضي، تقول العرب جزيت دينه أي قضيته (١)، وقال الحق تبارك وتعالى:

((واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً)) (٢).

والجزاء مافيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، يقال جزيته كذا وبكذا (٣) قال الله تعالى: ((فله جزاء الحسن)) (٤).

((وجزاء سيئة سيئة مثلها)) (٥).

وهي في الشرع اسم لما يؤخذ من الذميين مقابل عدم قتل المسلمين إياهم ومن ثم سمي المأخوذ منهم جزية لأنه كفى المسلمين قتلهم .

جاء في مفردات غريب القرآن للأصفهاني:

((الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة وتسميتها بذلك للاجتناء بها في حقن دمهم . (٦)

وفي النهاية لابن الأثير (٧): الجزية هي عبارة عن المال الذي يعقد للكتابي عليه الذمة (٨).

(١) - المعني لابن قدامة ٥٦٧/١٠ .

(٢) - سورة البقرة الآية (٤٨).

(٣) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٩٢).

(٤) - سورة الكهف الآية (٨٨).

(٥) - سورة الشورى الآية (٤٠).

(٦) - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص (٩٢)

ومثله جاء في المصباح المنير ١٢٨/١ .

(٧) - ابن الأثير (٥٥٤ - ٦٠٦ هـ).

المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، حجة الدين، محدث لغوي أصولي، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر وانتقل إلى الموصل.

* وفيات الأعيان ١٤١/٤ . * طبقات الشافعية ٢٦٦/٨ - ٢٦٧ .

(٨) - النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٦٢/١ .

وفي المغني لابن قدامة (١): الجزية هي الوظيفة المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام (٢).
من هذا يمكن أن نعرف الجزية بأنها: مبلغ مقدر من المال يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب .

والأصل في مشروعيتها:
من القرآن، قول الله تعالى: ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يمتطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)) (٣).
ومعنى الصغار هنا التسليم وإلقاء السلاح والخضوع لحكم الدولة الإسلامية (٤)
(واجراء أحكام الإسلام عليهم مع أنهم ممتنعون عن الدخول في الإسلام) (٥).

ومن السنة ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أخذ الجزية من مجوس البحرين (٦).

كذلك أخذ الخلفاء الراشدون الجزية من أهل الكتاب ومن في حكمهم في سائر البلاد المفتوحة واستقر العمل عليه فصار إجماعاً (٧).
إذن فأخذ الجزية من غير المسلم أمر مشهور ثابت بنص الكتاب والسنة والإجماع .

والجزية لا تعد اضطهاداً مالياً يفرضه الإسلام على غير المسلمين، بل على العكس من ذلك فإن الإسلام كان منصفاً كل الإنصاف في إيجابه هذه الجزية الزهيدة، حمايتهم والدفاع عنهم والكف عن أذاهم مالاً ونفساً وعرضاً.

-
- (١) - ابن قدامة (٥٤١ - ٦٢٠ هـ): عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي الدمشقي الحنبلي، أبو محمد موفق الدين ولد في جماعيل في قري نابلس، تعلم في دمشق ورحل إلى بغداد وأعاد الكرة لدمشق وفيها وفاته، وكان مشاركاً مشاركاً في بعض العلوم، كتب في الفقه المقارن وأصول الفقه .
- * البداية والنهاية ١٠٧/١٢ . * مختصر طبقات الحنابلة (٤٥).
- (٢) - المغني لابن قدامة ٥٦٧/١٠ .
- (٣) - سورة التوبة الآية (٢٩).
- (٤) - انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٥٩/٦
وكتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي لمحمد أبو زهرة ص (٢٢).
- (٥) - الأمام للشافعي ٢٧٧/٨ .
- (٦) - أخرجه مالك في الموطأ / كتاب الزكاة / باب جزية أهل الكتا والمجوس ٢٦٤/١،
والمصنف لابن أبي شيبة ٢٤٢/١٢ .
- وأخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الجزية / باب الجزية
والموادعة مع أهل الحرب ٥٧/١ .
- (٧) - المغني لابن قدامة ٥٧٠/١٠ .

يقول الكاساني (وأما سبب وجوب أخذ الجزية فهو عقد الذمة) (١)
(وعقد الذمة يوجب الكف عنهم، نفساً ومالاً وعرضاً واختصاصاً وضماناً ما تلغفه عليهم نفساً
ومالاً، وحمايتهم من المسلمين وأهل الحرب وأهل الذمة، لأنه بعقد الذمة لزم حفظهم) (٢).

وهم بذلك لا يتحملون ما يتحملة المسلم.

- فقد أوجب الإسلام على المسلمين فريضة دفع الزكاة عن أموالهم وتجاراتهم
وأنعاهم وزروعهم، فضلاً عن صدقة الفطر وغيرها، أما غير المسلم فلا يلزم بدفع الزكاة، ومع
هذا يتمتع بجميع مرافق الدولة العامة، كالقضاء والشرطة، ووسائل المواصلات، وكفالة
المعيشة لكل فرد يستظل بظلها، مسلماً كان أو غير مسلم .
فلا عجب أن يطلب من غير المسلمين المساهمة في نفقات المرافق العامة، التي
يتمتعون بها، بهذا القدر الزهيد وهو الجزية .

وهما يدل على سماحة الإسلام في الجزية أنه لا يأخذها إلا ممن إستوفى عدداً
من الشروط :

أولاً - العقل والبلوغ والذكورة :

(فلا تجب على الصبيان والنساء والمجانين) (٣).

وذلك أن الله تعالى أو جب الجزية على من هو من أهل القتال فقال تعالى :

((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. الآية)) (٤).

(فيقتضي ذلك وجوبها على من يقاتل، وهؤلاء ليسوا من أهل القتال فلا تجب عليهم) (٥).

وهناك آثار مروية عن سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم أخذ الجزية من النساء
والصبيان، من ذلك أنه كتب إلى أمراء الأجناد: أن يقاتلوا في سبيل الله ولا يقاتلوا إلا من
قتلهم، ولا يقتلوا النساء ولا الصبيان، ولا يقتلوا إلا من جرت عليه الموسى، كما كتب إليهم :

(١) - بدائع الصنائع للكاساني ١١١/٧ .

(٢) - انظر المغني لابن قدامة ٦٢٢/١٠ ، ونهاية المحتاج ٩٢/٨ .

(٣) - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٨٤/٨ ، شرح فتح القدير ٢٩٢/٥ ،

المغني لابن قدامة ٥٨١/١٠ .

شرح الخرخشي على مختصر خليل ١٤٤/٣ أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية ٤٢/١ .

(٤) - سورة التوبة الآية (٢٩) .

(٥) - تفسير القرطبي ١١٢/٨ ، وبدائع الصنائع للكاساني ١١١/٧ .

(أن يضربوا الجزية ولا تضربوها على النساء والسيان، ولا تضربوها إلا على من، جرت عليه المراسي) (١).

ثانياً - السلامة من الزمانة والعمى والكبر :

فلا تجب الجزية على زمن ولا عمى ولا شيخ كبير (٢).
وقال الشافعية تجب على هؤلاء لأن الجزية عندهم كأجرة الدار فيستوي فيها أرباب الأعداء وغيرهم وقول ثان في المذهب أنه لا جزية عليهم تنزيلاً لهم منزلة النساء والسيان لأنهم لا يقتلون إذا أسروا (٢).
وحجة الأولين أن هؤلاء لا يلزمهم أصل النصر بأبدانهم لدار الإسلام لو كانوا مسلمين، وكذلك لا يؤخذ منهم ما هو خلف عن النصر وهو الجزية، أو لأنهم لا يقتلون إذا أسروا لأنهم ليسوا من أهل القتال فلا تجب عليهم الجزية لأنها بدل عن قتلهم (٤)

والراجع - والله أعلم - قول أصحاب المذهب الأول الثالين بعدم وجوبها على هؤلاء لأن هذا ما كان العمل عليه في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، يدل عليه ما جاء في صلح خالد بن الوليد رضي الله عنه مع أهل الحيرة:
(وإني انتهيت إلى الحيرة فجاء إلي إياس بن قبيصة الطائي (٥) في أناس من أهل الحيرة من رؤسائهم، وإني دعوتهم إلى الله وإلى رسوله، فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا لأحاجة لنا بحربك، ولكن صالحتنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية، وإني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل .

(١) - أحكام القرآن للجصاص ١٦/٢ ، والأموال لأبي عبيد ص (٤٥) .

(٢) - المغني لابن قدامة ٥٨٦/١٠ ، وشرح فتح القدير ٢٩٢/٥ .

أحكام أهل الذمة لابن القيم ٤٩/١ .

(٢) - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ٢٤٦/٤ .

(٤) - المغني لابن قدامة ٥٨٦/١٠ ، بدائع الصنائع للكاساني ١١١/٧ .

(٥) - إياس بن قبيصة الطائي: (٤٠-٤١ ق.هـ)

من أشرف طي وفصحائها وشجعائها في الجاهلية، اتصل بكسرى ابرويز، فولاه الحيرة، ثم نجاه وولى النعمان أبا قابوس، وتعدى الروم تخوم العجم في أيام ابرويز فوجه إياساً لقتالهم فظفر بهم، حدثت في أيامه (ذي قار) التي اتصف بها العرب من العجم، وكان على العجم إياس فانهزم ولم يبرح والياً على الحيرة إلى أن مات.

* الأعلام ٢٢/٢ .

ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف رجل، فصالحوني على مئتين ألفاً، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينة يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام (١)

وهذا يدل صراحة على أن الجزية لا تؤخذ من الشيخ الكبير ولا من الزمن ومن كان في حكمهما كالأعمى، وقد كتب خالد بن الوليد بهذا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يعلمه فيه بما فعل، ولم ينتقل إنكار أحد على فعل خالد رضي الله عنه فيكون إجماعاً . إضافة إلى هذا أن آية الجزية توجب الجزية على من يقاتل ممن يقدر على حمل السلاح، وهؤلاء لا يقدر على القتال .

وقد صرح بهذا الإمام القرطبي في تفسيره حيث يقول:
(وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الثاني) (٢) .

ثالثاً - الحرية :

فلا تجب على العبد لأنه ليس من أهل ملك المال (٢) .
ولأن الله قال: ((حتى يعطوا الجزية .. الآية)) .
(ولا يقال لمن لا يملك حتى يعطي) (٤) .

رابعاً - أن لا يكون الذمي قبيراً غير معتمل :
وهو الذي لا قدرة له على الكسب ، وهذا مذهب الحنفية (٥) ،
والحنابلة (٦) . المالكية (٧) ، فعندهم لا تجب الجزية على الفقير العاجز عن الكسب .
أما عند الشافعية (٨) فتجب عليه الجزية ، فإذا تمت السنة وهو معسر ففي ذمته حتى يوسر ، وفي قول غير مشهور أنه لا جزية عليه .

(١) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٨٩ ، ٢٩٠)

(٢) - تفسير القرطبي ١١٢/٨ .

(٣) - بدائع الصنائع ١١١/٧ ، والمغني لابن قدامة (٥٨٧/١) .

(٤) - تفسير القرطبي ١١٢/٨ .

(٥) - بدائع الصنائع للكاساني ١١١/٧ ، وشرح فتح القدير ٢٩٤/٥ .

(٦) - كشف القناع ١٢٠/٢ ، ١٢١ ، والمغني لابن قدامة ٥٨٥/١٠ .

(٧) - شرح الخرشي على مختصر خليل ١٤٥/٢ .

(٨) - مغني المحتاج ٢٤٦/٤ ، ونهاية المحتاج ٨٥/٨ .

(واحتج أصحاب المذهب الأول بأن الفقير غير المعتمل عاجز عن الاداء، والعاجز عن الاداء معذور فيما هو حق العباد، لقوله تعالى: ((وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة)) (١).

ففي الجزية أولى، وبأن الجزية لم توضع على فقير غير معتمل من أهل سواد العراق في زمن عمر بن الخطاب، كما أن عمر رضي الله عنه نفسه رفع الجزية عن رجل كبير من أهل الذمة رآه يسأل الناس وأيضاً فإن الخراج كما لا يوظف على أرض لا يمكن إستغلالها فكذلك الجزية لا توضع على الذمي العاجز بجامع عدم القدرة والطلاقة .
كما إحتجوا بقوله تعالى ((لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)) (٢) (٢).

ويرجح - والله أعلم- المذهب الأول القائل بعدم وجوب الجزية على الذمي الفقير الذي لا قدرة له على العمل والكسب، لقوة ما استند إليه أصحابه من أدلة...

خامساً - ألا يكون الذمي راهباً :

وهذا مذهب المالكية (٤) والحنابلة (٥).

ويعلل الحنابلة ذلك بأن الراهب إذا أسر لم يقتل فإذا دخل في الذمة لم تجب عليه الجزية، وأما الحنفية (٦) فقالوا: إن الجزية لا توضع على الرهبان الذين لا يخاطون الناس، فإن خالطهم وضعت عليهم الجزية .
وقال الكاساني:

(إنها توضع عليهم إذا كانوا قادرين على العمل لأنهم من أهل القتال فعدم العمل مع القدرة على العمل لا يمنع الوجوب كما إذا كان له أرض خراجية فلم يزرعها مع القدرة على الزراعة لا يسقط عنه الخراج) (٧). و مذهب الشافعية (٨) وجوب الجزية على الراهب لأنها عندهم بمنزلة أجرة الدار وفي مذهبيهم قول بعدم وجوبها .

-
- (١) - سورة البقرة الآية (٢٨٠).
 - (٢) - سورة البقرة الآية (٢٨٦).
 - (٣) - بدائع الصنائع للكاساني ١١١/٧ ، كشف القناع ١٢٠/٢ .
 - (٤) - الخرشبي على مختصر سيدي خليل ١٤٤/٢ .
 - (٥) - شرح منتهى الإرادات ١٢٩/٢ ، والمغني لابن قدامة ٥٨٧/١٠ ، وكشاف القناع ١٢٠/٢ .
 - (٦) - شرح فتح القدير ٢٩٥/٥ .
 - (٧) - بدائع الصنائع للكاساني ١١١/٧ .
 - (٨) - المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢٥٢/٢ ، ومغني المحتاج ٢٤٦/٤ .
ونهاية المحتاج ٨٥/٨ .

والراجح عدم وجوبها على الرهبان لأن هؤلاء ليسوا من أهل القتال عادة لأنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع فأشبهوا من لا يقدر على القتال، يؤيده ما جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه لجنده (وستمرون على أقوام في الصوامع قد حبسوا أنفسهم فيها فدعوهم حتى يميتهم الله على ضالهم) (١).

ب - الخسراج :

من واجبات الذميين المالية تجاه الدولة الإسلامية أداء خراج أراضيهم والخراج في اللغة: الإتاوة، وأصله ما يخرج من غلة الأرض والمال (٢) وقيل اسم للكراء والقلعة (٣) وجمعه: أخراج وأخرجة (٤). ومن معناه المال المضروب على الأرض والجزية والقالب أنه يختص بالضريبة على الأرض (٥) وفي اصطلاح الفقهاء: الخراج ما وضع على رقاب الأرضين من حقوق تؤدي عنها (٦) فالخراج إذن ضريبة مالية تفرض على الأراضي وتسمى أراضي خراجية.

وقد استعمل الفقهاء كلمة الخراج بمعنى الجزية : يقول الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: (ولا يترك ذمي في دار الإسلام بغير خراج رأسه) (٧). وعن الشعبي قال: (أول من فرض الخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض على أهل هجر على كل محتلم ذكراً كان أو أنثى) (٨). ويراد بخراج الرأس ما يؤخذ من الذمي لشخصه وهو الجزية . (إلا أن الشائع في استعمال كلمة الخراج عند الفقهاء هو ما يفرض على الأرض من ضريبة مالية، فإذا أطلقت كلمة الخراج فإنما يراد بها ضريبة الأرض، ولا يطلق اسم الخراج على الجزية إلا مقيداً بخراج الرأس) (٩).

-
- (١) - المغني لابن قدامة ٤٧٨/٨ .
 - (٢) - المنجد ص (١٦٩) .
 - (٣) - الأحكام السلطانية للماوردي ص (١٤٦) ، والأموال لأبي عبيد (٩٢) .
 - (٤) - المنجد ص (١٦٩) .
 - (٥) - مفردات القرآن للأصفهاني ص (١٤٥) .
 - (٦) - الأحكام السلطانية للماوردي ص (١٤٦) .
 - (٧) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٦٩) .
 - (٨) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٦٦) .
 - (٩) - تفسير فتح القدير للشوكاني ٢٦٧/٤ .

والخراج في الأصل تكليف مالي يدفعه الذمي في مقابل احتفاظه بالأرض.
والأصل فيه ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند فتحه العراق، فقد ترك الأرض
بأيدي أهلها وضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أراضيهم الخراج بعد مشاورة الصحابة
وموافقتهم (١).

(وخراج الأرض واجب على صاحب الأرض رجلاً كان أو امرأة، كبيراً أو صغيراً
عاقداً أو مميزاً أو غير ذلك، لأن أصل وجوبه هو تصرفه في أرضه بالنماء وكلهم في
حصول النماء سواء (٢).
ولأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين وضع الخراج جعله عاماً شاملاً على كل من لزمته
المساحة وصارت الأرض في يده من رجل أو امرأة أو صبي أو مكاتب أو عبد، فصاروا
متساوين فيها) (٢).

ونلاحظ سماحة الإسلام في فرض هذا الواجب المالي على غير المسلمين، حيث
راعى في فرضه قواعد أساسية وطبقها تطبيقاً دقيقاً.
وهذه القواعد هي:

أولاً - قاعدة العدالة:

حيث وضعت الشريعة الإسلامية المقدار الذي يؤخذ من الأرض على أساس
ما يتناسب مع طاقة هذه الأرض ومساحتها، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو
أول من وضع ضريبة الخراج، وضعها على أساس طاقة الأرض، وأكد على عماله أن يجعلوا
مقدارها متناسباً مع هذه الطاقة: فقد روي أن حذيفة بن اليمان (٤) وعثمان بن
حنيفة (٥) لما مسح سواد العراق ووضعها عليها الخراج بأمر عمر بن الخطاب رضي الله
عنه، قال لهما عمر:

-
- (١) - أحكام القرآن للجصاص ٤٢٠/٢ .
 - (٢) - المبسوط للسرخسي ٧٩/١٠ .
 - (٢) - الأموال لأبي عبيد ص (٩١ ، ٩٢) .
 - (٤) - حذيفة بن اليمان سبقت ترجمته.
 - (٥) - عثمان بن حنيف الأنصاري الدوسي يكنى بأبي عمرو شهد أحداً وما بعدها،
استعمله عمر على سواد العراق وكذلك علي بن البصرة ، سكن الكوفة
حتى زمن معاوية . * أسد الغابة ٢/٢٧١ . * الإصابة ٢/٤٥٩ .

(لملكها حملتها الأرض مالتطبيق ؟ قالوا: لا، بل حملناها ماتطبيق ولو زدنا لأطقت) (١)

ومناقشة عمر رضي الله عنه لحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف في مقدار ماوضع من خراج دليل على عدالة عمر رضي الله عنه المستمدة من سماحة الإسلام وعدالته بالنسبة إلى كل إنسان مهما كان دينه .

وتظهر هذه القاعدة أيضاً، فيماقرره الفقهاء من أن الخراج بنوعيه (٢) يجب بالتمكن من الانتفاع بالأرض، فإذا تعذر الانتفاع لايجب الخراج، ويجب أيضاً بوجود الزرع حقيقة فإن لم يوجد لم يجب الخراج، وإذا لم تخرج الأرض إلا بقدر مايكفي الخراج ، فلا يؤخذ الخراج كله وإنما ينقص إلى النصف) (٣).

وهذه صورة رائعة للعدالة التي إتزمها الفقهاء في تشريع الخراج وجبايته من أهل الذمة.

ثانياً: قاعدة الرضوح أو اليقين:

ومعنى هذه القاعدة أنه يجب أن تكون الضريبة التي يلزم الفرد بأدائها، واضحة معينة معلومة المقدار لدى المكلف بها ومحدد موعد دفعها، وذلك حتى لايستغل الجباة جهل المكلف بها فيما يجب عليه فيأخذون منه أكثر من المستحق عليه .
وقد توافرت هذه القاعدة في ضريبة الخراج، فمقدارها معلوم إذ هو إما بالنسبة إلى مساحة الأرض، وإما بنسبة معينة من الخارج، وأيضاً موعد دفعها محدد إذ هو في السنة مرة واحدة إن كان خراج وظيفة، وكلما خرج الزرع إن كان خراج مقاسمة. (٤)

ثالثاً - قاعدة الفرق :

ويقصد بها عدم إرهاق المكلف في أداء هذا الواجب، وذلك بمراعاة الأوقات الملائمة التي تجبى فيها ضريبة الخراج، فهي لاتجبى إلا وقت ظهور الزرع وحلول وقت حصاده .

- (١) - بدائع الصنائع للكاساني ١٦٢/٢ ، ٦٢ ، وتبيين الحقائق للزيلعي ٢٧٢/٢ .
- (٢) - الخراج نوعان : خراج وظيفة وهو مايفرض على الأرض بالنسبة إلى مساحتها ونوع زراعتها ، وخراج مقاسمة وهو أن يكون الواجب شيئاً من الخارج نحو الخمس والسدس وماأشبه ذلك .
- انظر بدائع الصنائع ٦٣/٢ . وتبيين الحقائق للزيلعي ٢٧٢/٢ .
- (٣) - بدائع الصنائع للكاساني ٥٤/٢ .
- (٤) - تبيين الحقائق للزيلعي ٢٧٥/٢ ، وبهامشة حاشية الشيخ شهاب الدين الشلبي .

يدل على ذلك أنه: (لما قدم سعيد بن عامر ابن حذيم (١) على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما أتاه علاء بالدرة، فقال سعيد: سبق سيئلك مطرك، إن تعاقب نصبر، وإن تعف نشكر، وإن تستعجب نعتب، فقال: ما على المسلم إلا هذا، مالك تبطن بالخراج؟ قال أمرتنا أن لانزيد الفلاحين على أربعة دنائير، فلسنا نزيدهم على ذلك، ولكننا نوخرهم إلى غلاتهم (٢)، فقال عمر: لا عزلتک ما حبيت.

قال أبو عبيد: وإنما وجه التأخير إلى الغلة للرفق بهم، ولم نسمح في إستيلاء الخراج والجزية وقتاً من الزمان يجتبي فيه غير هذا (٢).

هذه هي سماحة الإسلام، واضحة جلية، في تعامله مع غير أبنائه حتى فيما يجب عليهم نحوه، ورقه بهم، ومعاملتهم بمقتضى العدل والإنصاف، وعدم تعسفه في جباية الواجب عليهم، ومراقبة العمال في كيفية إجبتائهم له، حتى أننا نجد الإمام أبا يوسف يؤكد الوصية على الخليفة هارون الرشيد بضرورة مراقبة عمال الخراج فيوصيه بأن يرسل خلف عماله:

(قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينهم يسألون عن سيرة العمال وكيف جبوا الخراج) (٤).

وهذا غاية ما بلغه الإسلام^{في} معاملة غير المسلمين على أساس العدل والرفق والإنصاف

ج - العشور :

وهي قدر من المال يفرض على أموال الذميين المعدة للتجارة، سواء كانت ثياباً أو حبوباً أو حيواناً أو غير ذلك مادامت معدة للتجارة، ويؤخذ منها نصف العشر بالنسبة إلى الذمي .
ودليل مشروعية هذا السنة والإجماع .

(١) - سعيد بن عامر (١٩ هـ) بن حذيم القرشي الجمحي أسلم قبل خيبر وشهدها وما بعدها ولاء عمر حمص وله مع أهلها غرائب كان في قائمة فقراء حمص من وكان زاهداً قاضياً مشهوداً له بذلك ، توفي بالرقعة وبها قبره .
* أسد الغابة ٢/٢١١ * الإصابة ٢/٤٩ .

(٢) - يعني إلى أن يحصدوا زرعهم ويجمعوا غلتهم ليتيسر لهم الدفع :

الأموال لأبي عبيد ص (٥٥)

(٢) - الأموال لأبي عبيد ص (٥٥) .

(٤) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٢٧) .

أما السنة:

فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث أنس بن مالك لجباية العشور، فقال أنس: يا أمير المؤمنين تقلدني المكس (١)؟ فقال له عمر قلدتك ماقلدني رسول الله صلى الله عليه وسلم قلدني أمور العشور وأمرني أن آخذ من المسلم ربع العشر ومن الذي نصف العشر ومن الحربي العشر (٢).

وهذا الأثر لم يذكره أهل الحديث مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكره عن عمر، كما جاء في كتاب الأموال لأبي عبيد: (عن زياد بن حدير (٢) قال: استعملني عمر على العشر، فأمرني أن آخذ من تجار المسلمين ربع العشر، ومن تجار أهل الذمة نصف العشر (٤)).

وأما الإجماع:

فإن عمر بن الخطاب نصب العشار وقال لهم: ((خذوا من المسلم ربع العشر ومن الذي نصف العشر ومن الحربي العشر) وكان ذلك بمحضر من الصحابة ولم ينقل عن أحد منهم أنه أنكر عليه، فكان إجماعاً (٥).

ويشترط في المال الخاضع للتعشير أن يكون معداً للتجارة، وأن يبلغ النصاب، وأن يكون قد انتقل به صاحبه من بلد إلى بلد آخر، لما جاء عن أنس بن مالك قال: بعثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على العشور، وكتب لي عهداً أن آخذ من المسلمين ما اختلفوا به، تجارتهم ربع العشر، ومن أهل الذمة نصف العشر ومن أهل الحرب العشر (٦). حيث قيد المال بأنه المتاجر فيه، والنصاب في التجارة يساوي نصاب الزكاة. (لأن هذه الأموال تجبى باسم الزكاة وعلى شرائطها، وإن لم تكن في الحقيقة زكاة، فوجب أن يكون المال نصاباً، فإن كان أقل من ذلك لم يؤخذ منه شيء) (٧).

(١) - المكس : العاشر وهو العامل القائم على جباية العشور : الأموال ١/٦٢٢

(٢) - تبيين الحقائق للزيلعي ١/٢٨٢ .

(٣) - زياد بن حدير:

بالتصغير الأسدي، نزيل الكوفة، له إدراك، وكان كاتباً لعمر على العشور له رواية عن بعض الصحابة في سنن أبي داود، وله قصة مع ابن مسعود في البخاري، وروى عنه الشمي بن أبي ثابت وآخرون.
* الأضابة ١/٥٨٠.

(٤) - الأموال لأبي عبيد ص (٦٤٠).

(٥) - المغني لابن قدامة ١٠/٥٩٨، والأموال لأبي عبيد ١/٦٢٢.

(٦) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٧٥) ومثله جاء في كتاب الأموال لأبي عبيد ص (٦٤).

(٧) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٧٢).

هذا وقد نص الفقهاء على أن هذه الأموال إنما تجب على الذمي إذا انتقل بأمواله التجارية من بلد إلى آخر.

وفي هذا يقول أبو يوسف: (ومالم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس يؤخذ منه شيء) (١).

وفي المغني لابن قدامة: (ومن يجز من أهل الذمة إلى غير بلده أخذ منه نصف العشر في السنة) (٢).

وأعني الذمي من الدفع في بلد الذي هو فيه، ووجب عليه بانتقاله بها إلى بلد آخر، لحماية قوات الدولة للمتنقل بأمواله التجارية من بلد إلى آخر وقد أشار الفقهاء إلى هذا بقولهم: (إن استخفاف الأخذ بالتعشير إنما كان بسبب الحماية، وإن الجباية بالحماية) (٣).

وأيضاً قد يكون بسبب انتفاعه بمرافق الدولة كطرق المواصلات والقناطر والجسور، ويزداد ربحه بسبب انتقاله من بلد إلى آخر، والدولة هي التي هيأت له أسباب الربح، فكان من حقها مشاركتها له في شيء من هذا الربح.

يقول ابن قدامة: (ويؤخذ العشر من كل حربي تاجر، ونصف العشر من كل ذمي تاجر سواء كان ذكراً أو أنثى أو صغيراً أو كبيراً، وإنما هو حق يختص بمال التجارة لترسعه في دار الإسلام وانتفاعه بالتجارة) (٤). هذا بخلاف ما لو كانت أمواله في بلد الذي هو فيه، فإنها لاتبلغ الربح المتحصل عليه بسبب الانتقال، كما أنه لا يستفيد من مرافق الدولة بقدر ما يستفيد منها بانتقاله، ولهذا أعفي من دفع هذا الواجب في داخل بلده . والله أعلم .

(١) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٧٢).

(٢) - المغني لابن قدامة ٥٩٧/١٠.

(٣) - تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعي ٢٨٢/١ .

(٤) - المغني لابن قدامة ٦٠٤/١٠.

ثانياً- واجبات الذميين غير المالية تجاه الدولة :

على أهل الذمة واجبات أخرى غير مالية يلتزمون بها قبل الدولة الإسلامية منها ماياتي :

أولاً - أن يمتنعوا عما فيه غضاظة على المسلمين وإنتقاص لدينهم، فلا يجوز لهم الطعن في الإسلام أو القرآن أو سب الله تعالى أو ذكر الله تعالى أو ذكر رسوله صلى الله عليه وسلم بسوء (١)

(والذميون لم تعقد لهم الذمة على المجاهرة بهذه الأمور، فإذا خالفوا ذلك إنتقص عهدهم) (٢).

ثانياً - أن يمتنعوا عن إظهار بيع الخمر والخنازير في أمصار المسلمين، أو إدخالها فيها على وجه الشهرة والظهور (٢).

وذلك أن أمصار المسلمين تقام فيها شعائر الإسلام الظاهرة، وفي إظهار بيع الخمر والخنازير فيها استخفاف بالمسلمين ، ولم تعقد لهم الذمة على الاستخفاف بالمسلمين (٤).
إلا أن لأهل الذمة إظهار بيع الخمر والخنازير في قرانهم وأمصارهم، لأن المنع من ذلك مختص بأمصار المسلمين .

يقول الإمام أبو يوسف :
(ولا يخرجوا خنزيراً من منازلهم إلى أفنية المسلمين ولا يرفعوا في نادي أهل الإسلام صلياً، ولا يبيعوا خمرأ ولا خنزيراً، وأما خارج المدينة فلا تمنعهم من ذلك) (٥).

وكل ما يراه الإسلام منكراً في حق أبنائه، وهو مباح في دينهم ، فعليهم - ان فعلوه - ألا يعلنوا به، ولا يظهروا تحديدهم لشعور المسلمين ومشاعرهم حتى يميئس الجميع مسلمين وغير مسلمين في المجتمع في سلام ووثام، دون التسبب في إحداث أي فتنة عن الإسلام أو إفساد لأهله .

-
- (١) - مغني المحتاج ٢٥٨/٤، والمغني لابن قدامة ٦١٨/١٠ .
 - (٢) - المغني لابن قدامة ٦٠٨/١٠، أحكام القرآن للجصاص ٨٥/٢ : (إن أهل العهد من شروط بقاء عهدهم تركهم للطعن في ديننا، وأن أهل الذمة ممنوعون من إظهار الطعن في الدين فإن خالفوا شيئاً مما عاهدوا عليه وطعنوا في دين المسلمين نقضوا العهد).
 - (٣) - تفسير القرطبي ١١٢/٨ .
 - (٤) - شرح الخرخشي ١٤٨/٢ ، ١٤٩ .
 - (٥) - الخراج لأبي يوسف الصفحات (٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٦١).

المبحث الثالث

حقوق المستأمنين وواجباتهم

المطلب الأول

حقوق المستأمنين العامة والخاصة

أولاً * الحقوق العامة

ثانياً * الحقوق الخاصة

المطلب الثاني

واجبات المستأمنين :

أولاً * الواجبات المالية .

ثانياً * الواجبات غير المالية .

المبحث الثالث

حقوق المستأمنين وواجباتهم

المستأمنون قوم من أهل دار الحرب خرجوا إلى ديار الإسلام (١) بأمان على غير نية الإقامة فيها، بل يقيمون مدة معلومة، بقصد التجارة أو السياحة أو الزيارة (٢)، وإقامتهم تكون محدودة بمدة قابلة للتجديد. وبذلك يعد المستأمن أجنبياً عن دار الإسلام بخلاف الذمي الذي يعتبر من أهل دار الإسلام .

ومع ذلك فإن الدولة الإسلامية قررت للمستأمنين في دار الإسلام من الحقوق ما يقرب من حقوق الذميين إلا في إستثناءات قليلة اقتضتها طبيعة كون المستأمن أجنبياً عن دار الإسلام .

ومصدر هذه الحقوق التي يتمتع بها المستأمنون في دار الإسلام هو الشريعة الإسلامية، لأن هذه الحقوق تعتبر من مقتضيات الأمان، والوفاء بمقتضى الأمان أمر توجبه الشريعة الإسلامية، والتفريط فيه غدر وخيانة ، والخيانة منهي عنها في شرعة الإسلام .

وقد قرر الفقهاء بناءً على هذا الأصل أن الدولة الإسلامية لا يجوز لها تسليم المستأمن إلى دولته بدون رضاه ولو على سبيل مغادته بأسير مسلم بل حتى ولو هدتها دولة المستأمن بالقتال إذا أبت تسليمه (٢) .

(١) - قسم فقهاء المسلمين العالم إلى دارين : دار الإسلام ودار الحرب ، ويذكر الفقهاء إلى جانب هاتين الدارين ، دار العهد وهي في الحقيقة من دار الإسلام ، ويراد بهذه التسمية الدار التي دخلت في سلطان المسلمين وانضمت إلى دار الإسلام بصلح لا بفتح وغنوة الأحكام السلطانية للماوردي ص (١٢٢، ١٥١، ١٦٦) .

وقد ذهب الفقهاء إلى أن المناط الذي يبنى عليه الحكم على الدار بأنها من دار الإسلام أو من دور الكفر هو غلبة الأحكام:

فالدار التي يغلب عليها حكم الإسلام تكون دار إسلام ، والدار التي يغلب عليها حكم الكفر تكون دار كفر .

جاء في البدائع : (إن كل دار مضافة إما إلى الإسلام وإما إلى الكفر ، وإنما تضاف الدار إلى الإسلام إذا طبقت فيها أحكامه ، وتضاف إلى الكفر إذا طبقت فيها أحكامه) بدائع الصنائع للكاساني ١٢٠/٧ ، ١٢١ .

وعلى هذا يمكن تعريف دار الإسلام بأنها الدار التي تكون السيادة والغلبة فيها لأحكام الإسلام ودار الحرب أو دار الكفر هي الدار التي تكون السيادة والغلبة فيها لأحكام الكفر / انظر أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية ٢٦٦/١ ، وشرح السير الكبير للسرخسي ١٠٨/٤ .

(٢) - أنظر الأمام للشافعي ٣٥٨/٧ .

(٣) - شرح السير الكبير للسرخسي ٢٠٠/٢ .

لأن المستأمن مادام قد دخل إقليم الدولة الإسلامية بأمان، فمن حقه أن تحميه الدولة وتمنع عنه الأذى، ولا تتسبب له فيه لأنه في حماية الدولة ورعايتها.

وفي هذا المبحث - بإذن الله - سأبين ماقرته الشريعة الإسلامية للمستأمنين من حقوق في دار الإسلام ومدى تمتع المستأمنين بها ، وما عليهم من واجبات تجاه الدولة .

المطلب الأول : حقوق المستأمنين العامة والخاصة :

أولاً - حقوق المستأمنين العامة :

١- حق المستأمن في دخول دار الإسلام :
إن غاية الإسلام ودولته أن يدخل الناس في دين الله، وأن يهتدوا بهديه، فكان من الطبيعي للدولة الإسلامية أن تفتح أبوابها لغير أبنائها وأن تسمح لهم بالدخول إلى دار الإسلام حتى يخالطوا المسلمين ويروا محاسن الإسلام ليقتنعوا به ويؤمنوا به، وعلى هذا فإن الأجنبي يدخل دار الإسلام بأمان من قبل الحكومة أو من يمثلها .
ولكن هناك حالتين يجب أن يفرق بينهما بالنسبة لدخول الأجانب في ديار الإسلام :

الحالة الأولى :

إذا طلب الحربي أماناً ليدخل دار الإسلام ليسمع كلام الله ويعرف شرائع الإسلام ، ففي هذه الحالة تجب إجابته ثم يرد إلى مأمنه (١) لقوله تعالى :
(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (٢) .
(فالآية الكريمة اقتضت جواز أمان الحربي إذا طلب ذلك منا ليسمع دلالة صحة الإسلام، لأن قوله تعالى : استجارك : بمعنى استأمنك .
وقوله : فأجره ، معناه فأمنه حتى يسمع كلام الله) (٢) .

الحالة الثانية :

لو طلب الحربي أماناً ليدخل دار الإسلام للتجارة فلا يلزم الدولة الإسلامية شرعاً إجابة طلبه، وإنما يترك الأمر لتقدير الدولة فلها أن تجيبه ولها أن ترفضه .

(١) - المغني لابن قدامة ٤٢٦/١٠ ، وكشاف القناع ١٠٧/٢ ، ومغني المحتاج ٢٢٧/٤ .

(٢) - سورة التوبة الآية (٦) .

(٣) - أحكام القرآن للجصاص ٨٢/٢ .

وهذا ما يشير إليه ابن عابدين في كتاب مغني المحتاج حيث يقول :
(ولاتجب إجابة من طلب الأمان إلا إذا طلبه لسماع كلام الله تعالى فتجب قطعاً) (١) .
ومع هذا فقد نجد في قوله تعالى:
(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) .

إشارة إلى أن المرغوب فيه هو إعطاء الأمان لمن يطلبه إلا إذا كان في إعطائه مفسده يراها الأصام، لأن دخول الأجنبي دار الإسلام - حتى وإن لم يطلب الأمان ليسمع كلام الله - لا يخلو من فائدة إطلاعه على محاسن الإسلام وشرائعه وأحكامه فيكون متضمناً في جميع الأحوال معنى قوله تعالى:
(حتى يسمع كلام الله) .

وعلى هذا فلا ينبغي رفض طلب الأمان إلا لمسوغ شرعي .

٢- حق المستامن في مدة إقامته بدار الإسلام :

إن كل ما ذكر من أقوال الفقهاء في حق المدة المقررة لإقامة المستامن ببلاد الإسلام إنما هو من الأمور الاجتهادية المحصنة التي تقدر بتقدير الإمام على ضوء الحاجة والمصلحة ولا تتقيد بمدة معينة .

فالأحناف قالوا: (إذا دخل الحربي دار الإسلام بأمان فلا يمكن من الإقامة الدائمة أو الطويلة، وإنما يسمح له بالإقامة اليسيرة لأن في طول إقامته ضرراً على دولة الإسلام إذ قد يكون جاسراً، وقدروا هذه المدة اليسيرة بأقل من سنة) (٢) .
وأما الحنابلة: فأجازوا أن تكون مدة الأمان أكثر من سنة، ويجب ألا تزيد عن عشر سنوات (٢) . وعند الشافعية: لهم أن يقيموا في دار الإسلام أربعة أشهر، ولا يقيمون فيها سنة، (٤) ولكل فريق منهم دليله .

والقول الراجح أن مدة إقامة المستامن في دار الإسلام هي من الأمور الاجتهادية التي لا تلتزم بها الدولة الإسلامية شرعاً كما ذكرنا سابقاً، وإنما تقدر للمستامن المدة التي تراها الدولة مناسبة لإقامته في دار الإسلام بما يحقق الحاجة والمصلحة .

-
- (١) - مغني المحتاج ٢٢٧/٤ .
(٢) - شرح كنز الدقائق للزيلعي ٢٦٨/٢ .
(٣) - شرح منتهى الإرادات ١٢٢/٢ ، وكشاف القناع ١٠٤/٢ .
(٤) - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٧٧/٨ ، ومغني المحتاج ٢٢٨/٤ .

٢- حرية الحركة وضمن الحماية :

أقر الإسلام للمستأمن حرية الحركة في الرواح والمجيء، وحمى شخصه من أي اعتداء أو أذى بدون وجه حق، بامتضى ما أعطيه من الأمان الذي أقاده عصمة نفسه وماله في دار الإسلام .

(وعلى أمام المسلمين أن ينصره مادام في دار الإسلام، وأن ينصفه ممن يظلمه، كما يجب عليه ذلك في حق أهل الذمة لأنهم تحت ولاية المسلمين (١) .

وحفاظاً على حماية شخص المستأمن لم يجز الفقهاء مفاداة المستأمن بالأسير المسلم ولو طلب أهل الحرب ذلك إلا برضا المستأمن نفسه، ولا يجوز تسليمه إلى أهل دار الحرب حتى ولو هددوا دولة الإسلام بالحرب إذا أبت تسليمه لأن هذا غدر بالأمان الذي أعطيه ولا توجد معه رخصة (٢) .

وهذا يدل على مدى حرص الإسلام على حماية شخص المستأمن من أي اعتداء وحماية حريته التي ضمنها له بامتضى عهد الأمان الذي أعطاه له .

كما ضمن له أيضاً حرية التنقل والإقامة حيث شاء إلا فيما يخص الحرم والحجاز فإنه يخضع لما يخضع له الذمي باعتبارهما غير مسلمين .

كما أن له الحق في العودة إلى وطنه ولا يمنع من الخروج إليه حين يريد (٢)

٤- حرية التدين :

للمستأمن أن يباشر شعائره الدينية في دار الإسلام كالذمي تماماً بناءً على الأصل المقرر في الإسلام ((لا إكراه في الدين)) فالدولة الإسلامية لاتمنع الذمي من إقامة شعائره الدينية في دار الإسلام ولا تكرهه على تغيير عقيدته وهو من رعاياها، فمن باب أولى أن لا تكره المستأمن وهو أجنبي عنها .

٥- حرية العمل :

يتمتع المستأمن في دار الإسلام بمزاولة الأنشطة المختلفة والعمل للكسب، وغالباً ما يكون دخول المستأمن إلى دار الإسلام للعمل والتجارة، وقد صرح الفقهاء له بهذا الحق فقالوا:

(لا يمنع المستأمن في دار الإسلام أن يتجر في أي نواحيها شاء) (٤) .

(١) - شرح السير الكبير للسرخسي ١٠٨/٤ .

(٢) - شرح السير الكبير للسرخسي ٢٠٠/٢ .

(٣) - شرح السير الكبير للسرخسي ٢٠٦/١ .

(٤) - شرح السير الكبير للسرخسي ٢٨٢/٢ .

٦- حق تمتع المستأمن بمرافق الدولة العامة وكفالتبيت المال :
فيتمتع بها المستأمن كما هو الحال بالنسبة للذمي . أما كفالة بيت المال فتقوم
الدولة الإسلامية عند حاجته وعجزه بإعانتته مادام في دار الإسلام كالذمي تماماً بناءً على
ماقرر فقهاء الإسلام من أن:
(المستأمن في دارنا كالذمي تماماً) (١) .

(١) - بدائع الصنائع للكاساني ٨١/٥ .

ثانياً- حقوق المستأمنين الخاصة

يتمتع المستأمنون في دار الإسلام بكافة الحقوق الخاصة التي يتمتع بها الذميون، لأنهم ماداموا في دارنا فهم بمنزلة الذميين كما قال الفقهاء (١).
(فلهم أن يتمتعوا بالحقوق العائلية كالزواج وما يترتب عليه) (٢).
كما أن لهم حق مباشرة سائر المعاملات المالية مع المسلمين، وفي هذا يقول ابن رشد (٢): (أما مبايعة أهل الحرب ومناجرتهم إذا قدموا بأمان فذلك جائز). (٤)
ويحظر على المسلمين أن يبيعوهم مافيه تقوية لأهل الحرب على دار الإسلام من سلاح ونحوه.

وفي هذا يقول ابن رشد أيضاً (لا يجوز أن يباعوا مما يستعينون به في حروبهم من كراع أو سلاح أو حديد ولا شيئاً مما يرهبون به المسلمين في قتالهم) (٥).

ويتمتعون بحق الملكية: (فلهم أن يملكوا المنقول والعقار بل لهم أن يملكوا دار المسلم بحق الشفعة) (٦).

وقد بلغ من حرص المسلمين على صيانة حق الملكية للمستأمنين والمحافظة على أموالهم أنهم لم يجيزوا نزع المسلمين الذين غنموهم المستأمنون من أيديهم إذا قدموا بهم إلى بلاد الإسلام بأمان.

-
- (١) - بدائع الصنائع للكاساني ٢٨١/٥ .
 - (٢) - انظر تاريخ الفكر الإسلامي ومصادره للشيخ محمد أحمد فرج السنهوري ص (١٢).
 - (٣) - ابن رشد:

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي، قاضي الجماعة بقرطبة ومفتيها، صنف نحو خمسين كتاباً، كان دمث الأخلاق حسن الرأي، اتهمه خصومه بالزندقة والإلحاد، فأوغروا عليه صدر المنصور، فنقل إلى مراکش، وأحرق بعض كتبه، ثم رضي عنه، وأذن له بالعودة إلى وطنه، فعاجلته الوفاة بمراكش سنة (٥٢٠ هـ).

*- العبر في خبر من غير للذهبي ٤١٤/٢ .
* - الأعلام ٢١٨/٥ * شذرات الذهب ٢٢٠/٤ .

- (٤) - المقدمات لابن رشد ٢٨٩/٢ .
- (٥) - المقدمات لابن رشد ١١٨/٢ .
- (٦) - شرح السير الكبير ١١٨/٤ .

تقد جاء في شرح الخرشي المالكي (١).
(المشهور أن الحربين إذا قدموا بأمان إلينا ومعهم مسلمون غنمهم منا فإنهم لا ينزعون منهم، ولهم أن يرجعوا بهم إلى بلدهم، وسواء كانوا ذكوراً أو إناثاً من الأحرار أو العبيد، في أحد قولي ابن القاسم، وفي قوله الآخر: أنهم ينزعون بالقيمة وهو الذي عليه أصحاب مالك وبه العمل) (٢).

(١) - الخرشي (١٠١٠ - ١١٠١ هـ) :

محمد بن عبد الله البحيري المصري المالكي أبو عبد الله ققيه أصولي
متكلم محدث لغوي تولى مشيخة الأزهر توفي بالقاهرة له الفرائد السنية
في شرح المقدمة السنوسية في التوحيد وغيرها.

* إيضاح المكنون ١٨٢/٢ * طبقات المالكية ١/٢١٧.

(٢) - شرح الخرشي ١٢٧/٢.

المطلب الثاني

واجبات المستأمنين

إن القاعدة في الواجبات المكلف بها المستأمنون كالقاعدة في الحقوق، أي أن المستأمن كالذمي فيما يلزمه من التزامات نحو الدولة الإسلامية، إلا أنه يختلف عن الذمي في بعض الواجبات التي أساس التزام الذمي بها كونه من أهل دار الإسلام، كوجوب أداء الجزية على الذمي باعتباره من أهل دار الإسلام وعدم وجوبها على المستأمن لأنه أجنبي عنها، وإن كان كل منهما غير مسلم.

وقد فرضت الشريعة الإسلامية على المستأمنين واجبات مالية وغير مالية مقابل تلك الحقوق التي يتمتعون بها في دار الإسلام .

أولاً - الواجبات المالية :

يخضع المستأمنون في دار الإسلام لضريبة تجارية تفرض على أموالهم التي يدخلون بها دار الإسلام للتجارة بأمان .
(لأن الحربي لما دخل دار الإسلام صار ماله في حماية الدولة الإسلامية فأوجب ذلك حق استيفاء هذه الضريبة منه) (١) .

ومقدارها بالنسبة لهم عشر ما يدخلون به من مال، كقاعدة عامة، تقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه (خذوا من المسام ربع العشر، ومن الذمي نصف العشر، ومن الحربي العشر) (٢) .

والقاعدة التي بني عليها هذا المقدار هي قاعدة المعاملة بالمثل، وذلك أن أهل دار الإسلام إذا دخلوا دار الحرب بأموالهم التجارية أخذوا منهم العشر، ودليل هذه القاعدة أن عائداً كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (كم تأخذ من تجار أهل الحرب؟ فقال: كم يأخذون منا؟ فقال: هم يأخذون منا العشر، فقال خذ منهم العشر) (٣) .

(١) - بدائع الصنائع للكاساني ٢٧/٢ .

(٢) - المغني لابن قدامة ٥٩٨/١٠ .

الأموال لأبي عبيد ص (٦٤٠) والخراج لأبي يوسف ص (٢٧٥) .

(٣) - شرح السير الكبير للسرخسي ٢٨٢/٤ .

وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن تجاراً من قِبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر، فكتب إليه عمر، فخذت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين) (١).

وتستوفى منهم مرة واحدة في السنة، لما روي أنه جاء رجل نصراني إلى عمر رضي الله عنه فقال: إن عاملك عشري في السنة مرتين، قال: ومن أنت؟ قال: أنا الشيخ النصراني، قال عمر: وأنا الشيخ الحنيف، ثم كتب إلى عامله أن لاتعشروا في السنة إلا مرة (٢).

أما إذا رجع المستامن إلى دار الحرب ثم عاد ثانية إلى دار الإسلام استوفيت منه ضريبة أخرى أول ما يدخل كأنه دخل لأول مرة، لأنه يرجوعه إلى داره ارتفع عنه حكم الأمان الأول فإذا عاد فأنما يعود بأمان جديد (٣).

ثانياً - واجبات غير مالية:

إن المستامن في التزامه بالواجبات الأخرى قبل الدولة الإسلامية كالذي تماماً، فيمتنع عن كل ما ذكر مما يحظر على الذي، ويجب عليه الإمتناع عنه، (٤). وذلك لأن كل تلك الأفعال من المنكرات التي لاتقرها الشريعة الإسلامية وتحرس على محاربتها وإزالتها من المجتمع المسلم أيأ كان مصدرها.

-
- (١) - الخراج لأبي يوسف ص (٢٧٥، ٢٧٦) ، والخراج ليحيى بن آدم ص (١٧٢).
(٢) - المغني لابن قدامة ٥٩٨/١٠ .
(٣) - المغني لابن قدامة ٦٠٤/١٠ ، بدائع الصنائع للكاساني ٢٧/٢ .
(٤) - بدائع الصنائع للكاساني ١٣٢/٧ .

المبحث الرابع

دور تنظيم الخلافة بين المسلمين وغيرهم
في حماية المجتمع من الصراع العنصري

المبحث الرابع

دور المحافظة على حقوق غير المسلمين في حماية المجتمع من الصراع الطائفي

كثيراً ما توضع قوانين حسنة، وأحكام عادلة، ومبادئ قيمة، ولكنها تظل حبراً على ورق، فلا توضع موضع التنفيذ، ولا يبالي بها الذين في أيديهم سلطة الأمر والنهي والإبرام والنقض .

ولكن ميزة المبادئ والأحكام الإسلامية أنها مبادئ ربانية الأصول، دينية الصيغة، ولهذا وجدت من القبول والاستجابة - ليس لدى المسلمين فقط - ما لم تجده أي شريعة أخرى أو قانون مما يضع البشر بعضهم لبعض . ذلك أن هذه المبادئ وهذه الأحكام عالمية، لا تنظم حياة المسلمين فقط ومجتمعهم، بل تسمى جادة إلى تنظيم حياة غير المسلمين، وتنظيم حقوقهم ومعاملاتهم في مجتمع الإسلام .

وقد اتضح معنا ذلك من خلال المباحث السابقة التي إنتظمت حقوق غير المسلمين وكفلتها لهم وأقامت مساجاً من الحماية حولها ربحت البشرية في ظلها مبدأ أخلاقياً من أعظم المبادئ في العلاقات الإنسانية والدولية . ذلك المبدأ هو التسامح مع المخالفين في الدين . وقد حفل الواقع التاريخي لأمة الإسلام في مختلف عصورها، وشتى بقاعها، بأروع مظاهر التسامح ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها ولا لاتباع عقيدة معينة إنما هي للإنسان بوصفه إنساناً .

(وأساس النظرة المتسامحة التي تسود المسلمين في معاملة مخالفهم في الدين والمحافظة على حقوقهم ترجع إلى الأفكار والحقائق الناصعة التي غرسها الإسلام في عقول المسلمين وقلوبهم، وأهمها:

- ١- إعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أي كان دينه أو جنسه أولونه، قال تعالى: ((ولقد كرمنا بني آدم)) (١)
- وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية .
- ومن الأمثلة العملية: ما روى البخاري عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبي صلى الله عليه وسلم قمام لها واقفاً، فقيل له: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال: (أليست نفساً) (٢) .

(١) - سورة الإسراء الآية (٧) .

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الجنائز/ باب من قام لجنازة يهودي ١/١٦١ .

٢- إعتقاد المسلم أن إختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع، قال تعالى ((فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)) (١) .
وقوله تعالى: ((ولو شاء ربك لَجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين)) (٢)

والمسلم يؤمن أن مشيئة الله لاراد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم يوماً أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين، قال تعالى موجهاً الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم: ((ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)) (٣) .

٢- ليس المسلم مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم أو يعاقب الضالين على ضلالهم فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم الى الله في يوم الحساب، قال تعالى: ((وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون)) (٤) وقال تعالى يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب :
((فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير)) (٥) .

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين إعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره والإقسطاء إليه، وإقراره على ما يراه من دين وإعتقاد .

٤- إعتقاد المسلم بأن الله تعالى يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر، قال تعالى: ((ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)) (٦) (٧) .

(١) - سورة الكهف الآية (٢٩) .

(٢) - سورة هود الآية (١١٨) .

(٣) - سورة يونس الآية (٩٩) .

(٤) - سورة الحج الآيتان (٦٨ ، ٦٩) .

(٥) - سورة الشورى الآية (١٥) .

(٦) - سورة المائدة الآية (٨) .

(٧) - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي ص (٥٢٠٥١) .

هذه هي روح الإسلام السمحة وهي روح تمكن له من إقرار السلام في الأرض، ومن تأليف الأجناس والألوان، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بني البشر، ومن تنقية جو الحياة من سموم التناسد الفردي، والتطاحن الطبقي، والتناحر العنصري، كما تمكنه من كف الحروب والمجازر التي تقوم على تلك الأسباب في المجتمع (١).

وفي مبادئ الإسلام العامة ما يصور هذه الروح الإنسانية الحاضرة :
قال تعالى : ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) (٢)
وقال تعالى ((ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - إلا الذين ظلموا منهم - وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون)) (٣).
وقال تعالى ((قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله)) (٤).

ولقد كانت هذه الروح السمحة هي التي اجتذبت الناس إلى الإسلام، ويسرت له أن ينساح في الأرض بتلك السرعة العجيبة الخارقة، فقد كان الناس يفرون إليه من الاضطهادات الدينية والعنصرية السائدة حينذاك، وهم ينتظرون لديه السماحة والهداة والمساواة.

وليس هناك أسى وأنبى من تلك الوصية التي يوصي بها القرآن الكريم المسلمين بحسن معاملة مخالفيهم في الدين ، والتي كان لها دورها في دخول الناس في دين الله أفواجا، وفي حب الإسلام وأهله، يقول الله تعالى :
((وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)) (٥).

فترى أن القرآن الكريم لا يكتفي بأن نجبر هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن في جوارنا فحسب، ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى، بل يأمرنا أن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل غائلة ليسمعوا كلام الله وشرعه التويم.

(١) - السلام العالمي والإسلام لسيد قطب ص (١٧٧، ١٧٨).

(٢) - سورة الحجرات الآية (١٢).

(٣) - سورة العنكبوت الآية (٤٥).

(٤) - سورة البقرة الآية (١٤).

(٥) - سورة التوبة الآية (٦).

وليس هناك أعدل وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية التي لا تكفي بأن تكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم وعوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، كما مر معنا - بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

إن في تحقيق تلك الوصية القرآنية، وفي تطبيق تلك القاعدة الإسلامية مع غير المسلمين في توفير الحماية والرعاية لهم، وفي المحافظة على حقوقهم في كافة شؤون الحياة وكامل تمتعهم بها، ما يضمن تحقيق وحدة المجتمع والتعايش السلمي بين أفراد ومنع الصراع الطائفي بينهم.

ذلك أن مجتمع الإسلام مجتمع عالمي، غير عنصري ولا يتقرب ولا قائم على الحدود الجغرافية، ولنظامه الاجتماعي خصائص عالمية انفرد بها عن سائر النظم الأخرى، ولذلك تملك جميع الأجناس البشرية، وجميع الألوان وجميع اللغات أن تجتمع في حوى الإسلام، وفي ظل نظامه الاجتماعي وهي تحس أسرة واحدة تربط بينها جميعاً، أسرة الانسانية التي لا تفرق بين أسود وأبيض، ولا بين شمالي وجنوبي، ولا بين شرقي وغربي، لأنهم جميعاً يلتقون عند الرابطة الانسانية الكبرى.

((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبه منهما رجالاً كثيراً ونساءً)) (١).

إن المجتمع الإسلامي - كما أسلفنا - مجتمع حر، تملك العقائد الأخرى أن تعيش في ظله، لا يخاف من لا يدينون بدينه، ولا يطردهم من أرضه، ولا يقتالهم بحركات التطهير، ذلك أنه يعتمد على الإيمان بالعقيدة، وعلى تطوع كل فرد فيه بصيانة النظام القائم على هذه العقيدة، ومن ثم فحدوده مفتوحة بلا جواز ولا قيود لجميع المسلمين من كل جنس ولون وصقع، ولغير المسلمين كذلك من المسالمين.

ونظامه الاجتماعي كذلك ينفرد بسمة لانظير لها في سائر أنواع النظم الاجتماعية التي عرفت البشرية قديماً وحديثاً.

إنه يفسح لغير أتباعه في رحابه وبين أهله أن يعيشوا مواطنين محترمين، مكفولي الحرية في العقيدة والعبادة، مكفولي الدم والمال، مكفولي الرزق والمعيشة عاملين أو عاجزين عن العمل ماداموا خاضعين للقوانين التي تنظم حياة الجماعة - شأنهم شأن المسلمين من أهل البلاد تربط بينهم وبين المسلمين صلوات المردة، والتبادل الاجتماعي، والمجاملات العامة!..

فلا يعزلهم في أحياء خاصة، ولا يكلفهم أعمالاً خاصة، ولا يمنهم الاختلاط بالمسلمين، - على نحو ما يمنع البيض والسود في أمريكا، والملوثون في جنوب أفريقيا . إن غير المسلمين في الإسلام يودون ويوادون، ويعيشون في جو اجتماعي طلق، يدعون إلى ولأنهم المسلمين، ويدعون إلى ولأنهم، ويتم بينهم ذلك التواد الاجتماعي اللطيف : ((اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم))، (١) في مثل هذا النظام الرباني الفريد، وبمثل هذا التسامح، وهذه العدالة عاش غير المسلمين في المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين في قافلة إنسانية واحدة نعموا فيها بالأمن والسلام مع المسلمين لامتزقهم العصبيات الدينية، والامنازعات الطائفية، والافروقات العنصرية التي تُظلل العالم اليوم وتحيله إلى مجتمعات منهاره بسبب تلك العصبيات الذميمة، التي تنقصها روح السماحة الإنسانية وروح العدالة الحقيقية، والتي تنطلق وفي اثرها الأحقاد والحزازات، والمطامع الاقتصادية وغير الاقتصادية، فيحتل الحياة البشرية جحيماً في السلم، وجحيماً في الحرب، تنتشر منه المجاعات والمخاوف والقلق الدائم، ويظلل المجتمع دائماً وابدأ في زعر لأمن فيه، وحتد لاسلام فيه، وظلمة لابيصى فيها .

إن السماحة الإنسانية عنصر هام لإقرار السلام في المجتمع الإسلامي مع مخالفه في الدين، ولا بد لنجاح أية دعوة عالمية من وجود مجتمع عالمي حر مفتوح، يسمح للمخالفين له في الرأي والعقيدة، أن يعيشوا في ظله آمنين، لأن الناس لا يمكن أن يدينوا جميعاً بمذهب واحد، ولو كان هذا المذهب من وحي الاله لامن صنع بشر .

وإن الواقع التاريخي للمجتمعات الإسلامية قد حفل بصور مشرقة لتسامح الإسلام والمسلمين لمخالفهم في المذهب والعقيدة . ولقد رأيت هنا أن أقتطف بعض أقوال وشهادات لمؤرخين أوروبيين نصرانيين، شهدوا للإسلام بالسماحة المطلقة، والعدالة العامة في معاملة المخالفين له في العقيدة، شهادة فوق مستوى الشبهات، ولا يمكن أن تكون صادرة عن حماسة دينية للإسلام، ولا عن مبالغة في كشف مزاياه .

جاء في كتاب (قصة الحضارة) لـ لوول ديورانت يقول :
(لقد كان أهل الذمة المسيحيون، الزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لانجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام .

فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من إرتداء زي ذي لون خاص وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخه وتتراوح بين دينار وأربعة دنائير، ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعنى منها الرهبان والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ، والأرقاء، والشيوخ، والعجزة، والعمى الشديد والفقير، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم (١).

ويقول مستر (جب) في كتابه: (إلى أين يتجه الإسلام):
(ولكن الإسلام مازال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جلييلة فليست هناك أية هيئة سواء يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة، أساسها المساواة، فالجامعة الإسلامية العظمى في أفريقية والهند وأندونيسيا، بل تلك الجامعة الصغيرة في الصين، وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان، تتبين كلها أن الإسلام مازال له القدرة التي تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس، فلا بد من الاستجاء إلى الإسلام لحسم النزاع) (٢).
واعترف ترتون بتسامح الحكام المسلمين فقال :

(كان سلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذ على الذميين، وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصراري واليهود، بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها، فاكتنزوا الثروات الضخمة، وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة، كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية) (٣).

وجاء في كتاب (الدعوة إلى الإسلام) تأليف: (سيرت. و. أرنولد) :
(ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في فحل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون :

-
- (١) - نقلاً عن كتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي ص (٥٢، ٥٤).
 - (٢) - الإسلام العالمي والإسلام لسيد قطب ص (١٨٤).
 - (٣) - وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢٥٦ ، نقلاً عن كتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي ص (٥٦).

(يامعشر المسلمين أتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أتم أوفى لنا وأراف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا) وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم.

أما ولايات الدولة البيزنطية، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببساتهم، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ماشاع بينهم من الآراء اليقينية والنسبورية، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعاً لاثارة أي إحتكاك بين أتباع الديانات المنافسة، أو إثارة أي تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية في مظهر المفاخرة، حتى لا يؤذي ذلك الشعور الإسلامي، ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح - الذي بلغت النظر في تاريخ القرن السابع - من هذه العهود التي أعطاهها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها، وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان و دفع الجزية (١).

وبمثل هذا التسامح، وهذه العدالة، استطاع الإسلام في الماضي، ويستطيع في المستقبل، أن يحقق السلام العالمي في الأرض، - فضلاً عن تحقيقه السلام في المجتمع - لأنه يمنح الناس ما لا تمنحه عقيدة أخرى ولا نظام، ويحفظ لهم حقوقهم وحررياتهم، ويصون لهم كرامتهم الإنسانية ما يكون له أكبر الأثر في منع الصراع الطائفي والديني بين الفئات المتباينة في العقيدة والمذهب في المجتمع .
إنها الرغبة الإسلامية في إجتذاب البشرية كلها إلى الخير المشترك - بدون إكراه - وفي تحقيق العدل الكامل لكل فرد وكل شعب وكل جنس، حتى لوبقي هؤلاء جميعاً على دياناتهم بعد استماعهم لدعوة الإسلام، لمجرد كونهم آدميين، يوجب على الأمة المسلمة أن تحميهم من الظلم في كل صورة من صوره، وأن تقيهم الفساد في أي شكل من أشكاله .

مراجع هذا البحث ، أنظر :

- (١) - نحو مجتمع إسلامي لسيد قطب ص (١٠٢-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢١-١٢٥).
- (٢) - سماحة الإسلام للدكتور أحمد الحوافي ص (٨٤ - ٨٨ - ٩٢).
- (٣) - السلام العالمي والإسلام لسيد قطب ص (١٧٧ - ١٨٢ - ١٨٤ - ١٨٥).
- (٤) - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي (٥٢، ٥٤، ٥٦).
- (٥) - شريعة الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص (٥١ - ٥٢).
- (٦) - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام لمحمد الغزالي ص (٨٦).
- (٧) - الدين عبد الله دراز ص (١٨٤ - ١٨٥).
- (٨) - عالمية الدعوة الإسلامية للدكتور علي عبد الحلیم محمود ص (٢٦٢).

الباب الثاني

حماية الإسلام للمجتمع من الصراع الطبقي

ويشتمل على مقدة وتمهيد وفصلين :

الفصل الأول * تحقيق العدل بين الناس .

الفصل الثاني * تحقيق التكافل الاجتماعي بين الناس .

المقدمة :

إن الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً للبشرية عامة لا يقر نظام الطبقات وتناحرها، لأنه يقيم العلاقة بين أفرادها على أساس تحقيق حاكمية الله وحده، وعلى العدل المطلق الشامل لأبنائه وغيرأبنائه، وعلى التعاون والتكافل العام بين جميع أفراد المجتمع .

(والفارق بين المجتمع الذي يؤسسه الإسلام والمجتمعات الأخرى التي تقيمها الديانات الأخرى ومذاهب الهدم والتفريق فارق كبير إلى حد بعيد فالمجتمع الإسلامي مجتمع إنساني كريم، مجتمع ضمائر ونفوس، يقوم على أسس المبادئ والأخلاق الإنسانية، ثم تأتي المصالح السياسية والتجارية والاقتصادية وغيرها كأجزاء في المجتمع لا يكمل إلا بها.

أما المجتمعات غير الإسلامية فتختلف أنصبتها من القيم الإنسانية حتى أن بعضها يتجرد منها كل التجرد، فلا تعرف الإحسان والرحمة والعدل والتكافل والمعاني الكريمة والقيم الرفيعة والخلائق الفاضلة، وتجدد وجود الله وتنكسر الرسالات، وتحكم قوانينها الوضعية) (١).

لذلك نرى أن المجتمعات الإسلامية تنعم دائماً بالأمن والسلام وشيوع روح المحبة والتقارب بين جميع طبقات أفراد المجتمع، لتحكيمها شرع الله وأخذها بمبادئه السامية.

وبناءً على هذا يمكن تقسيم فصول هذا الباب كما يلي :

الفصل الأول: تحقيق العدل بين الناس في المجتمع .

الفصل الثاني: تحقيق التكافل الاجتماعي في المجتمع .

(١) - أنظر إنسانية الإسلام للأستاذ أحمد عبد الففور عطار ص (١١٧)

تمهيد:

للطبقات في العالم نوعان تقليديان، أولهما الطبقات المغلقة ومن أوضح الأمثلة عليها ماتعزي به الديانة المانوية في المجتمع الهندي القديم بتقسيم أفراد المجتمع إلى أربع طبقات، هي طبقة البراهما (طبقة رجال الدين)، وطبقة الكشاتريين (طبقة المحاربين)، وطبقة الفيسيانيين (طبقة التجار والصناع)، والطبقة الأخيرة هي طبقة السوديين (طبقة العبيد والأرقاء) وفي مثل هذه الطبقات لا يجوز لأي فرد من أي طبقة أن ينتقل إلى طبقة أخرى أو حتى يتصاهر معها (١).

وثانيهما: نظام الطبقات المفتوحة، أي التي لا يجوز لأي فرد - إذا امتلك ثروة كبيرة - أن ينتقل من طبقة الفقراء إلى طبقة الأثرياء، وهذا هو النوع السائد في أكثر المجتمعات في الوقت الحاضر حيث يوجد في مثل هذه المجتمعات ثلاث طبقات فقيرة ووسطى وثرية.

ظهر الإسلام في المجتمع العربي وهو يرمسذ يتكون من طبقتين، أي طبقة حرة تعيش على أكتاف طبقة مستترقة. وقد عمل الإسلام على القضاء على نظام العبودية بصورة رائعة وهادئة، أتاح فيها للعالم أن يتخلص شيئاً فشيئاً من هذا النظام الذي يتعارض مع مبادئه السامية (٢) كما سيأتي بيانه معنا.

(أما عن الطبقات في المجتمع الشيوعي فتتضح من خلال ماتضمنته وثيقة البيان الشيوعي حيث قالت (إن تاريخ المجتمعات بأسرها هو تاريخ الصراع بين الطبقات). وهو مبدأ يقوم على تقسيم المجتمع الحاضر إلى طبقتين يتصاعدان دوماً ولايجوز التوفيق بينهما أو إقامة السلام لهما: هما طبقة العمال وطبقة المالكين.

وفكرة الصراع الطبقي هي وسيلة مأكرة لتغذية العمال بالحق على كل من عداهم من الناس وتجنيدهم ليصبحوا أداة للثورة الهوجاء ليصبح العمال بأنفسهم الوسيلة الفعالة في القضاء على آخرامل للعامل في أن يكون مالكاً وحرراً طليقاً.

-
- (١) - التفكير الاجتماعي نشأته وتطوره للدكتور زيدان عبد الباقي ص (٢٦).
 - (٢) - انظر حقوق الإنسان للدكتور علي عبد الواحد وافي ص (٢٠٢، ٢١٢).

يقول ماركس وانجلز: (إن الشيوعية تؤمن بمبدأ اجتماعي واحد هو صراع الطبقات وإن صراع الطبقات يعود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة وأن هذا لن يتحقق إلا بإشعال نار الثورة العمياء والانقلاب الشامل المبيد .
ويقول لينين: إن رسالتنا أن نشير الطبقة العاملة ونماد قلوبها بالحقد والفيظ حتى تستطيع هدم المجتمع .
ويقول ستالين: لن تثور الطبقة العاملة إلا إذا ملأنا صدورنا بالحقد والمقت على الطبقات الأخرى وليس معنى هذا كله إلا مصادرة السلام وتهديده) (١)

وقد أقام ماركس حتمية الصراع الطبقي في ظل الملكية الفردية لوسائل الإنتاج الحديثة، في ظل ثورة الشعوب في أوروبا على الملكية الإقطاعية.
ويرى ماركس أن التفسيرات التاريخية التي تطرأ على الجماعات الإنسانية إنما تحدث نتيجة للصراع الطبقي وبسبب إلتصار طبقة إجتماعية معينة على غيرها من الطبقات (٢) .

والطبقات وفقاً لتعريف لينين هي: (مجموعات كبيرة من الناس تتميز بمكانها في نظام الإنتاج الإجتماعي المحدد تاريخياً، بوسائل الإنتاج، وبدورها في التنظيم الإجتماعي للعمل، وبالتالي أساليب حصولها على ذلك النصيب من الثروة الإجتماعية الذي تمتلكه ومقاديره) (٢) .

إذن فاهم سمة تحدد الفوارق الطبقيية هي علاقة الطبقات المختلفة بوسائل الإنتاج والأساليب حصولها على الثروة ومقداره .

ويقول وارنر: (نقصد بالطبقات فئات معينة من السكان الذين يعتبرهم الرأي العام في مراكز عليا أو سفلى من حيث علاقاتهم بعضهم ببعض) (٤) .

- (١) - هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام تأليف أنور الجندي ص (٧٠، ٧١) .
وانظر موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ تأليف أحمد العوايشة ص (١٩٢ ، ١٩٢) .
- (٢) - انظر أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي للدكتور زيدان عبد الباقي ص (٩٠) .
- (٢) - أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، سبركين وياخوت ص (١٦٢) .
- (٤) - دراسات في الطبقات الإجتماعية تأليف جورج جورفتشس ترجمة أحمد رضا ص (١٠٠، ٧) .

وكتب جيجر) نقصد بالطبقة فئة من أفراد المجتمع يمكن تحديد مركزها الاجتماعي ببعض المعايير الخارجية المشتركة، ويتفاعل الأشخاص الذين ينتمون إلى مثل هذه الفئات بأحوالهم ومظهرهم وطرائق سلوكهم (١).

ويوضح ماركس فكرة الطبقات الاجتماعية بقوله (إن تاريخ المجتمع ككل هو تاريخ صراع الطبقات، فالإنسان الحر والعبد والشريف والوضيع، ورئيس العمل والصانع، وبالإجمال الطبقة والمهثرون الذين يواجه بعضهم بعضاً في خلاف مستمر، كل أولئك قد شنوا فيما بينهم صراعاً متصلاً لا ينقطع، صراعاً كان ينتهي في كل مرة بانقلاب ثوري يحيق بالمجتمع كله، أو بدمار الطبقات المتصارعة كلها). (٢)

وقد كشف الباحثون عن خطأ فكرة الصراع الدائم من واقع التاريخ البشري نفسه وتبين أنه غير صحيح ما ذكره ماركس من أن التاريخ قد شهد دائماً صراعاً بين الطبقات العليا الحاكمة والمالكة لوسائل الإنتاج من ناحية وبين الطبقة موضع الاستغلال. وتبين وقائع التاريخ أن الطبقة العاملة منذ نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد استطاعت في الدول الرأسمالية المتقدمة أن تنال الكثير من الحقوق الاجتماعية والسياسية دون أن تقوم بحركات عنيفة ثورية وإنما نالتها بمراقبة الطبقة العليا الحاكمة ذاتها فقد سارت حركة التطور في الاتجاه غير الذي تنبأ به ماركس عندما إتجهت الدول إلى تحقيق أكبر قدر من المساواة بين هاتين الطبقتين، فعمدت التشريعات الحديثة إلى التضييق من حقوقه الملكية شيئاً فشيئاً، كما وجدناها من الناحية الأخرى تكفل الكثير من ضروب الخدمات الاجتماعية للطبقة العاملة. (٢).

وإذا كانت محاولة ماركس في التركيز على فكرة الصراع بين الطبقات قد وجدت مجالاً للانفجار في المجتمعات الغربية فإنها لاتجد مثل هذا الأثر في المجتمعات الإسلامية، ذلك لأن الإسلام قرر لصالح الفقير والأجير من الأحكام في مجال التعاون والزكاة والتكافل والتعاطف والعدل شيئاً كثيراً من شأنه أن يخلق الالتقاء بين الطبقات ويقرب الفوارق بين الفئات بحيث لاتدع مجالاً لخلق البغضاء والحقد أو النزاع والصراع .

(٢-١) - دراسات في الطبقات الاجتماعية تأليف جورج جورفتش

ترجمة أحمد رضا ص (١٠،٧).

(٢) - هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام تأليف أنور الجندي ص (٧٢).

الفصل الأول

تحقيق العدل بين الناس

ويشتمل على مقدمة وثلاثة مباحث :

المبحث الأول * مفهوم العدل في الإسلام .

المبحث الثاني * مجالات العدل في الإسلام .

المبحث الثالث * دور تحقيق العدل في حماية المجتمع

من الصراع الطبقي .

المقدمة

البحث في العدالة الاجتماعية يعني البحث في أعقد معضلة يجابهها الإنسان في العصر الحاضر، فالثورات والانتفاضات والحروب الأهلية وغير الأهلية التي نشبت وتنشب في بعض الأقطار والأمصار ترجع في أسبابها العميقة البعيدة إلى فقدان التوازن في مستويات المعيشة بين الناس، واستبداد بعضهم ببعض الآخر، فالغني الفاحش في بعض المجتمعات يقابله بالضرورة فقر مدقع، ومن التباعد بين الفئات الغنية والفئات الفقيرة ينشأ الصراع على الحياة، ويبدأ الكفاح في سبيل البقاء، والوسيلة الوحيدة في الإسلام لمنع هذين الصراع والكفاح كامنة في إقامة (عدالة اجتماعية) بين الأفراد الذين يؤلفون المجتمع، بحيث تضع هذه العدالة الحدود والقيود لجمع الثروات وإحتكارها، وتحول دون استخدامها في وجوه ضارة بأصحابها والمجتمع نفسه، كما تضمن للعمل والفلاحين والكادحين والفقراء جميعاً مستوى لائقاً من العيش الكريم ينعمون فيه بالغذاء والكساء والمسكن والدواء لهم ولعائلهم في حالات البطالة والمرض والعجز والشيخوخة (١).

ويتسع مفهوم العدل في الإسلام ليشمل كافة ميادين الحياة وشؤونها الاجتماعية.

فالعدل يشمل النفس في مظهرها الأول البسيط، فالفرد يعامل الآخرين بمثل ما يحب أن يعاملوه به.

وفي هذا المجال يقول الحق سبحانه:

((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)) (٢).

ويشمل الأعداء..

يقول تعالى:

((ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)) (٣).
والله تعالى يأمر بالعدل باعتباره حقاً للإنسان، وليس بامتضى كونه مسلماً يقول تعالى: ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)) (٤).

(١) - العدالة الاجتماعية عند العرب تأليف إبراهيم حداد ص (٥-٦) بتصرف.

(٢) - سورة النساء الآية (١٢٥).

(٣) - سورة المائدة الآية (٨).

(٤) - سورة النحل الآية (٩٠).

وتمتد مجالات العدل لتشمل كافة ميادين القضاء والحكم
والإدارة... .

وفي هذا الفصل بإذن الله سأبين مفهوم العدالة الشامل الراسخ
في ضوء الكتاب والسنة، والمجالات التي يدخل فيها العدل في المجتمع
الإسلامي، ثم دور تحقيق العدالة الاجتماعية في حماية المجتمع من الصراع
الطبيقي.

وعلى هذا يأتي تقسيم هذا الفصل موزعاً على المباحث
التالية:

المبحث الأول: مفهوم العدالة في الإسلام.

المبحث الثاني: مجالات العدل في المجتمع.

المبحث الثالث: دور تحقيق العدل في حماية المجتمع من الصراع
الطبيقي.

المبحث الأول

مفهوم الحدال في الإسلام

المبحث الأول -

مفهوم العدل في الإسلام

- لمادة عدل في اللغة معانٍ منها:
- العدل: هو الإنصاف، وهو إعطاء المرء ماله وأخذ ما عليه (١).
- وهو المساواة بين الناس والمماثلة بين الخصمين (٢).
- وهو الحكم بالإستواء (٣).
- وهو الجزاء والقداء (٤).
- يقول تعالى: ((وإن تعدل كل عدل)) (٥)، أي وإن تغد كل فداء (٦).
- والعدل: نفي عن الجور والظلم (٧).
- يقال: عدل، عدل عن الطريق جار (٨)، وعدل إليه رجح (٩).
- وعَدَل عدلاً وعدولاً: مال (١٠).
- وعَدَل الشيء عدلاً: أقامه وسواه (١١).
- وعَدَلْتُ فداناً بفدان: إذا سررت بينهما (١٢).
- والعدل: نصف، الحصل يكون على أحد جنبي البعير (١٢).
- (والعدل والعدل يتقاربان: لكن العدل يستعمل فيما يدرك بالبعيرة كالأحكام وعلى ذلك قوله تعالى ((أوعدّل ذلك حسيماً)) (١٤).
- والعدل والعدل فيما يدرك بالخاصة كالمرزونات والمعدودات والمكيادات، فالعدل هو: التمهيط على سراء.

-
- (١) - المعجم الوسيط ٥٨٨١٢ ، والمعجم الوجيز ص (٤٠٩).
- (٢) - المفردات في غريب القرآن لأصفهاني ص (٢٢٥) وموسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ٢٢/٢.
- (٣) - مقاييس اللغة ٢٤٧/٤ ، وموسوعة أخلاق القرآن ٢٢/٢.
- (٤) - المعجم الوسيط ٥٨٨/٢ .
- (٥) - سورة الأنعام الآية (٧٠).
- (٦) - مختار الصحاح للرازي ص (٤١٨).
- (٧) - مقاييس اللغة ٢٤٧/٤ ، ومختار الصحاح للرازي ص (٤١٨).
- (٨) - مختار الصحاح للرازي ص (٤١٨).
- (٩) - المعجم الوجيز ص (٤٠٩).
- (١٠) - المعجم الوجيز ص (٤٠٩).
- (١١) - المعجم الوسيط ٥٨٨/٢ .
- (١٢) - مختار الصحاح للرازي ص (٤١٨).
- (١٣) - المعجم الوسيط ٥٨٨/٢ .
- (١٤) - سورة المائدة الآية (٩٥).

وتطلق كلمة العَدْل على العادل من الناس، المرضي المستوي الطريقة (١)، يقال: رجل عَدْلٌ عادِلٌ، ورجال عَدْلٌ، يقال في الواحد والجمع قال الشاعر: (فهم رخصاً وهم عَدْلٌ) (٢).

ولفظ العَدْل في الأصل مصدر، كقرله تعالى ((وأشهدوا ذوي عدل منكم)) (٣) أي عدالة (٤) سُمي به فوضع موضع وصف (العادل)، ولفظ العَدْل أبلغ في الدلالة على صفة العدالة من لفظ العادل (٥).

والعدالة أو المادالة: لفظ يقتضي معنى المساواة (٦).

وقد جاءت مادة (العَدْل) بمشتقاتها ما يقرب من ثلاثين مرة في القرآن الكريم، وقد يشير هذا ولو من ناحية المظهر على الأقل - إلى عناية التنزيل المجيد بالحديث عن العَدْل، والعجيب في أمر هذا الحديث أنه استعرض مواطن عديدة ينبغي أن يتحقق العَدْل فيها، أو تحقق العدل الكامل فيها بالفعل، وفي طبيعة هذه المواطن نجد القرآن يتحدث عن عدل الله جل جلاله، فينفي أولاً عن ذاته العلية صفة الظلم، كان يقول سبحانه: ((وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)) (٧).

ويصف ذاته القدسية بالعدْل والتسَطُّ، كان يقول: ((شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالتسَطُّ لا إله إلا هو العزيز الحكيم)) (٨).

فالله جل جلاله كما تخبر هذه الآية هو الذي يقوم بتحقيق العدل في الدين، وفي الكون، فيأمر بعلم ويقضي بحكمة، وشريعته تحقق العدالة بين مطالب البدن ومطالب الروح، وهو الذي يأمر بالعدْل والتوسط دون إفراط أو تفريط.

-
- (١) - موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ٢٢/٢.
 - (٢) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٢٢٥).
 - (٣) - سورة الطلاق الآية (٢).
 - (٤) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٢٢٥).
 - (٥) - موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ٢٢/٢.
 - (٦) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٢٢٥).
 - (٧) - سورة النحل الآية (٢٢).
 - (٨) - سورة آل عمران الآية (١٨).

يقول ابن القيم: (إن الشريعة الإسلامية مبناه وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه) (١).

وقد جعل الله تعالى العدل أساس الدعوة التي أسند أمر تبليغها إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى: ((فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير)) (٢).

قاله تعالى قد أمر بالعدل باعتباره هدفاً وغاية دون تخصيصه بنوع معين أو رابطته بطائفة دون أخرى لأن العدل نظام الله، وأساس ملكوته، بمستوي فيه الأبيض والأسود، والمسلم وغير المسلم، والقريب والبعيد.

وفي هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدة ولا في رخاء، والعدل - وإن رسي لينا - فهو أقوى وأظفأ ييجور، وأقمح للباطل من الجور) (٣).

ولقد عبر القرآن الكريم عن العدل بثلاث كلمات هي: العدل، والقسط، والميزان .

فإن العدل يحتاج إلى دقة ويقظة وتقدير عبر القرآن الكريم عنه بلفظ (الميزان) فقال الله تبارك وتعالى: ((الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان)) (٤) وقال تعالى: ((لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)) (٥).

(١) - أعلام الموقعين لابن القيم ص (١٤).

(٢) - سورة الشورى الآية (١٥).

(٣) - تاريخ الطبري ٥٨٥/٢.

(٤) - سورة الشورى الآية (١٧).

(٥) - سورة الحديد الآية (٢٥).

فالقسط بمتنضى هذا النسخ العام الشامل شريعة النبيين أجمعين.
وقد جاء في تفسير (المنار) تعليقاً على هذه الآية العبارة التالية:
(خير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان هداية القرآن، ويليهم من يصدهم العدل الذي يقيمه السلطان، وشهرهم من لاعلاج له إلا السيف والسنان، وهذا هو المراد بالحديد، ققوام سلاح العالم بالإيمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد، فيجتنبها المؤمن خوفاً من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء ثوابه فيهما، وبالعدل في الأحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان) (١).

ويذهب الشيخ شلتوت (٢) إلى أن إقرار العدل بين الناس واجب إلهي محتم للقائمين به أن يستعينوا عليه باستعمال القوة التي سخر لها ولآلاتها الحديد، وأن عقيدة التوحيد مع كثرة ذكرها والدعوة إليها، فإنه سبحانه لم يطلب استعمال القوة والحديد بالنسبة للذين جحدوا وحدانية الله، وأشركوا معه غيره، ولكنه في العدل لرح باستعمال القوة في وجه الظالمين، الذين سيتمرنون البغي والعدوان (٢).

وأما القسط - بكسر القاف - هو العدل، وبفتحها: هو الجور.

وقال الأصفهاني: إن القسط هو أن يأخذ قسط غيره، وذلك جور، والإقساط أن يعطي قسط غيره، وذلك إنصاف (٤).
والقسط هو النسب المستحق بالعدل والحسب (٥).
وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:
(ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم، لا يظلمون) (٦).
وقال تعالى: ((وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين)) (٧)
والمقسطون هم المقيمون للقسط بالحكم به أو الشهادة أو غير ذلك.
وقال تعالى: ((قل أمر ربي بالقسط)) (٨).

- (١) - تفسير المنار ١٩/٩٩ .
(٢) - محمود شلتوت (١٢١٠-١٢٨٢هـ): فقيه، مفسر، من أهل مصر تخرج بالأزهر عام (١٩١٨) شغل مناصب مختلفة آخرها مشيخة الأزهر عام (١٩٥٨) إلى وفاته خطيباً وهو بأهله ستاً وعشرين كتاباً * الأعلام ١٧٢/٧ .
(٣) - الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص (٤٤٦).
(٤) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٤٠٢).
(٥) - موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ١١٨/٥ .
(٦) - سورة يونس الآية (٤٧).
(٧) - سورة المائدة الآية (٤٢).
(٨) - سورة الأعراف الآية (٢٩).

(أي بالاعتدال في الأمور كلها، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط (١)).
وقال تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو
الوالدين والأقربين)) (٢).

(والمواصرون بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالآتيان به على أكمل الوجوه
وأدومها، وذلك لأن التوام هو المبالغ في القيام بالشيء، والقيام بالشيء هو الآتيان به
مستوياً تماماً بلا نقص ولا عرج) (٢).

ومن مادة (القسط) جاءت كلمة (القسطاس) بمعنى الميزان، وفي الميزان معنى
العدل - كما عرفنا - وقد يعبر بكلمة القسطاس عن العدالة، كما يعبر عنها بكلمة الميزان
ولذلك قال الله تعالى: ((وزنوا بالقسطاس المستقيم)) (٤).

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ما ورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه والظلم
ضد العدل (٥) (وهو في الأصل وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان
منه، أو بزيادة عليه، وإما بعدول عن وقته أو مكانه).

والظلم أيضاً هو مجاوزة الحق والعدل، وهو الميل والجور عن الصراط المستقيم (٦).
ولقد تكرر ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن الكريم في مواطن التحذير
منه، والتهديد لأهله والأمر بالابتعاد عنه، فيقول تعالى:

((ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لاقتدت به)) (٧).
ويقول تعالى ((فويل للذين ظلموا من عذاب أليم)) (٨).

وقد نفى الله تعالى الظلم عن نفسه قال:

((وما كان الله ليعظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)) (٩).

وفي الحديث القدسي:

((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)) (١٠).

(١) - الموسوعة في أخلاق القرآن الكريم للشرباصي ١٢٢/٥.

(٢) - سورة النساء الآية (١٢٥).

(٣) - تفسير المنار (٤٥٥/٥).

(٤) - سورة الاسراء الآية (٢٥).

(٥) - موسوعة أخلاق القرآن الكريم ٢٩/٢.

(٦) - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (٢١٥).

(٧) - سورة يونس الآية (٥٤).

(٨) - سورة الزخرف الآية (٦٥).

(٩) - سورة النكبات الآية (٤٠).

(١٠) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب البر/باب تحريم الظلم ١٢٢٤/١٦.

ويقول صلى الله عليه وسلم في معته والحدير منه:
(أتقوا الظلم فإن الظلم ظلومات يوم القيامة)) (١)
ويقول صلى الله عليه وسلم: ((إن الله ليملئ للظالم، فإذا أخذه لم يفلته، وكذلك أخذ
ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)) (٢).

ولاعجب في ذلك، فالشريعة الإسلامية هي شريعة إلهية، جاءت محققة لفكرة
العدالة المطلقة في كل ما تنطوي عليه من أحكام خاصة بحقوق الفرد والجماعة أياً كان
ذلك الفرد وهذه الجماعة .

وعليه فإن العدل في الإسلام يعني: إحقاق الحق، ورد الظلم والجور، دون
تخصيصه بنوع معين أو ربطه بطائفة دون أخرى.

-
- (١) - أخرجه مسلم في صحيحه/كتاب البر/ باب تحريم الظلم ١٦/١٢٤ .
(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه /كتاب البر/ باب تحريم الظلم ١٦/١٢٧ .

المبحث الثاني

مجالات العدل في المجتمع

- أولاً * العدل في الحكم
- ثانياً * العدل في الشهادة
- ثالثاً * العدل في الكتابة
- رابعاً * العدل في القضاء
- خامساً * العدل في الأسرة
- سادساً * العدل الاجتماعي

المبحث الثاني

مجالات العدل في المجتمع

الإسلام ليس عقيدة مجردة، أو عقوفاً على العبادة وحدها، وليس صلة بين الإنسان وزبه فقط، وبين الإنسان ونفسه فقط، ولكنه إلى جانب ذلك صلة بين الإنسان ومجتمعه وبين الإنسان وسائر الأمم، ومن هذا المنطلق تتضح معايير كثيرة نرى فيها: التعاون، والأمانة، والوفاء، والصدق، والتسامح، والعدل، وغير ذلك .

والعدل الذي ينادي به الإسلام عدل مطلق يساوي بين الناس جميعاً، وله أبعاد ومجالات كثيرة نلمسها في القول، والعمل، والمال، والحكم، والعبادة.. وغيرها. وهو عدل في الضعفاء، وتسوية بين المتخاصمين مهما اختلفت منزلتهم أوتباينت طبقتهم، كما أنه عدل في توزيع الحقوق والواجبات، وعدل في إقامة الحدود والقصاص، وعدل بين الزوجات إذا كن أكثر من واحدة، وعدل في القول، وعدل في الشهادة، وعدل في الكتابة، وعدل بين طوائف المسلمين إذا تخصصت، وعدل بين المسلمين وبين غيرهم من الذميين والمستأمنين، فلكل حقه الممنون وعليه واجبه المحدد. فالعدل في الإسلام عدل كامل، وعدل مطلق .

وفي هذا المبحث سأحدث عن أهم المجالات التي يدخل فيها العدل، ومنه نتبين دقة العدالة في الإسلام، وهي التي يقوم بها بناء الجماعة، وأنها أساس لإشاعة الأمن والسلام في المجتمع كما سيوضح معنا فيما يلي :

أولاً- العدل في الحكم :

١- شمول العدل لسائر الناس: لقد قامت الأدلة الصريحة من الكتاب والسنة على وجوب النزول على مقتضيات العدل، قال تعالى: ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)) (١) . وقال تعالى: ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) (٢) . فالله تعالى يأمر كل من يتولى حكماً بين الناس أن يحكم بالعدل ولا يتبع الهوى فيضل عن السبيل القويم .

فلا تقر الشريعة إذن أي لون من ألوان الحكم الظالم، أو صورة من صور التعسف في استعمال السلطة، فلا يجوز أن يعبث بميزان العدل عامل الهوى أو العاطفة من الحب أو الكراهية، حتى بين الأعداء .

(١) - سورة النحل الآية (٩٠) .

(٢) - سورة النساء الآية (٥٨) .

فلا يجوز الجور عليهم أو ظلمهم أو منع حق من حقوقهم، أو كتم شيء ممالهم، فالعدل واجب لهم على الحكام في كل الأوقات وسائر الأحوال، إذ هو أقرب إلى تحقيق تقوى الله تعالى والبعد عن عقابه :

((ولايجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)) (١).

ولايجوز أن يعيثر بميزان العدل عامل القرابة لقوله تعالى:

((ياأيهاالذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أووالالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)) (٢).

فالعدالة حق يتمتع به كافة الناس على السواء دون تفرقة بين أوضاعهم الاجتماعية. والمؤمنون مطالبون بأن يكونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، وشهداء لله قوامين بالقسط، ولو كان ذلك ضد أنفسهم أووالالدين أوالأقربين .

وهذا مستوى عظيم من المثالية في الإنصاف والعدل لم ترق إليه أي من القوانين الوضعية في حاضرها وماضيها .

(١) - سورة المائدة الآية (٨) ومعنى كلمة (لايجرمكم) : (لايحملنكم، شأن قوم) : بغض قوم، وفي استخدام كلمة (لايجرمكم) بمعنى لايحملنكم إشارتان الدافع إلى ترك العدل فيه ما يحمل على ارتكاب جريمة الظلم أو الجور أو العدوان، وذلك لأن من يبغض قوماً فيحمله بغضه على أن يكون ظالماً لهم أو جائراً عليهم، أو مستدياً على حقوقهم ، في قوله أو فعله أو حكمه وقضائه ، لا بد أن يركب مركب الجريمة . وفي استخدام كلمة (شأن) بمعنى البغض إشارتان بأن البغض بغض شديد مضطرب يغلي في القلوب فيحمله على الجور أو الظلم أو العدوان / الأخلاق الإسلامية للميداني ٥٨٠/١ .

(٢) - سورة النساء الآية (١٢٥) .

صدر هذه الآية كصدر آية المائدة السابقة، بفارق واحد، هو

تبادل كلمتين فيه، مواضعهما هما :

آية المائدة ((كونوا قوامين لله شهداء بالقسط))

وآية النساء ((كونوا قوامين بالقسط شهداء لله)) .

والسرفي هذا هو الدلالة على الإلزام بأن القوامية والشهادة كلاهما لله وبالقسط ، فالمؤمنون مأمورون بأن يكونوا قوامين لله وبالقسط ، وبأن يكونوا شهداء لله وبالقسط، وذلك لأنه ربما يكون القسط لغير الله فيكون حسناً في الحياة الدنيا، ولكن لا ثواب له عند الله ، لأنه لم يبتغ به وجهه / الأخلاق الإسلامية ٥٨٠/١ .

٢- العدل في إختيار الرلاة والموظفين :

ولما كانت ولاية المسلمين من أعظم مسؤوليات في الحياة، وكانت دواعي الإغراء بجانبه سبيل العدل وخيانة الأمانة فيها من أشد الدواعي وأقواها، كان ثواب الإمام العادل من أعظم الأجرور عند الله وكانت فضيلة العدل منه من أعظم الفضائل .

ولذلك جاء ذكر الإمام العادل في أول الأصناف الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله،

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)) (١).

ويقول صلى الله عليه وسلم :

((ان أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً، إمام جائر)) (٢).

(على أن الشريعة الإسلامية - في سبيل تحقيق العدل والمصلحة العامة - وضعت بيد ولي الأمر سلطات تقديرية واسعة - وهي التي لم يرد بشأنها نص من كتاب أو سنة يحددها، مما يقتضيه تنظيم مرافق الدولة وتدير شؤونها ورعاية المصالح العام على ممتضى من روح الشريعة ومقاصدها العامة - فواجب ولي الأمر تقصي المصلحة والعدل في تصرفه، وتجنب التعسف والانحراف بها عن الحق والعدل، ومجاقة مقصد الشارع في استعمالها، إذ استعمال السلطة في غير مصلحة تشهياً، أو انتقاماً، أو لتحقيق أغراض غير مشروعة تعسف وظلم (٢).

فإسناد أعمال الدولة لغير الأكفاء، اعتماداً على القرابة أو الصداقة، أو ما إلى ذلك من العوامل الشخصية التي يؤدي التعويل عليها إلى إفساد الأوضاع في الدولة مجانبية للعدل وخيانة للأمانة التي أمر الله تعالى بأدائها إلى أهلها في قوله تعالى: ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) (٤).

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الأذان/باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٨٨/١.

(٢) - مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٠، وأخرجه الترمذي/كتاب الأحكام/باب ماجاء في الإمام

العادل ٦٠٨/٢. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا تعرف إلا من هذا

الوجه / تحفة الأحوذى ٥٦٠/٤.

(٢) - الحق ومدى سلطان الدولة في تعيينه للدكتور فتحي الدريني ص ١٠٥-١٠٦ يتصرف

(٤) - سورة النساء الاتية (٥٨).

فالمراد بالأمانات التي يجب تأديتها إلى أهلها هي كل الأمانات، وفي مقدمتها أمانات ولاية أمور المسلمين، أي أن يؤدوا ولاية أمور المسلمين إلى من هم أكفياؤها، قادرين على ضبطها وحسن إدارتها، وصيانة حقوق الناس، وإقامة العدل بينهم (١).

يقول ابن تيمية: (يجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل، فإن عدل عن الأحق الأصح إلى غيره لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس، أو الرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) (٢)

فإن الرجل لحبه لولده أو لعشيقته قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه مالا يستحقه، فيكون قد خان أمانته) (٣).

وكان من شدة حرص عمر رضي الله عنه على أن يحكم عماله وولاته بالعدل أنه كان يخرج مع من يستعمله منهم يشيعه ويذكر لهم أنه لم يستعملهم على الناس لينالوا من أبشارهم وأموالهم وأعراضهم وإنما ليعلموهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وليقتضوا بينهم بالحق ويقسموا بينهم بالعدل، ثم يقول للناس: فمن ظلمه عامله بمظلمة فليرفعهما إلي حتى أقصه منه.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين أرايت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أنقصه منه؟ فقال عمر: ومالي لأقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه) (٤).

ثانياً - العدل في الشهادة :

يجب أن تكون الشهادة بالعدل، وذلك بأن يشهد الشاهد شهادة مساوية لما رأى أو سمع في الأمر الذي يشهد به.

(١) - انظر تفسير الطبري ٤٩٢/٨. فاشتملت الآية على بيان الوظيفة الأولى

للرعية، وهي أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وذلك بأن يبايعوا الأكفيا

للولاية العامة الكبرى واشتملت على بيان الوظيفة الأولى والثانية للرعي،

أما الأولى فهي أن يؤدي الأمانات إلى أهلها بإسناد الولايات الصغرى إلى

أهلها الأكفيا لها الأمانة عليها، وأما الثانية فهي أن يحكم بين الناس بالعدل

/ الأخلاق الإسلامية للميداني ٥٨٤/١.

(٢) - سورة الأنفال الآية (٢٧).

(٣) - السياسة الشرعية ص (١٠).

(٤) - انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٨١/٢.

آ- فيقول القرآن الكريم عن النساء المطلقات وهن في العدة :
(فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف، واشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً)) (١).

(يعني إذا شارف النساء المطلقات آخر عدتهن فراجعوهن إن أردتم العودة إلى الحياة الزوجية بحسن عشرة وجميل معاملة، واقطعوا الحياة الزوجية قطعاً نهائياً، إن أردتم الانفصال مع الوفاء بالحقوق والابتعاد عن الأضرار. وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعذيباً لها - وأشهدوا شاهدين عادلين على الرجعة، أو على الفراق، حتى لا تكون هناك ريبة أو تنازع، وليكن الشهود متقين لا يدخلون على الشهادة أي عوج أو إنحراف، بل عليهم أن يجعلوها عادة مستقيمة خالصة لوجه الله تعالى، لا للمشهود عليه ولا لفرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم)) (٢).

ب - وكذلك أمر القرآن بالعدل في الشهادة على الوصية، يقول الله تعالى :
(يا أيها الذين آمنوا شهدوا بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية إثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولانكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين)) (٣).

(والآية تقيّد معنيين في قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا شهدوا بينكم)) : أحدهما: شهادة بينكم شهادة اثنين ذوي عدل منكم فحذف ذكر الشهادة الثانية لعلم المخاطبين بالمراد، ويحتمل: عليكم شهادة بينكم، فهو أمر بإشهاد اثنين ذوي عدل كقوله تعالى في الدين (واشهدوا شهيدين من رجالكم) فأفاد الأمر بإشهاد شاهدين عدلين من المسلمين أو آخرين من غير المسلمين على وصية المسلم في السفر)) (٤).

فوجه الله تعالى لضرورة العدل في الشهادة، لأنها من وسائل تثبيت الحقوق وضمانها، وأرشد إلى ضرورة إشهاد شهيدين اثنين ذوي عدل، في كل الأمور التي تستدعي إثبات حقوق فيها، وتستدعي ضمانها. وقد عدّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم شهادة الزور في أكبر الكبائر، فقال صلى الله عليه وسلم :

(١) - سورة الطلاق الآية (٢).

(٢) - انظر تفسير الكشاف للزمخشري ١١٩/٤ ، ١٢٠ .

(٣) - سورة المائدة الآية (١٠٦).

(٤) - تفسير أحكام القرآن للجصاص ٤٩٢//٢ .

((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قالوا: بلى، قال: الإِشراك بالله، وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئاً ثم قال: ألا وقول الزور)) (١).
(والزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صمته حتى يخيل إلى من سمعه أوراً بخلاف ما هو به فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق) (٢).

(والشهادة واجب وتكليف في البدء ((ولا يابا لشهداء إذا مادعرا)) (٣).
(فتلبية الدعوة للشهادة إذن فريضة وليست تطوعاً، فهي وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق، والله هو الذي يفرضها كي يليها الشهداء عن طواعية تلبية وجدانية، بدون تضرر أو تلوؤ، وبدون تفضل كذلك على المتعاقدين أو على أحدهما ، إذا كانت الدعوة من أحدهما أو من كليهما) (٤).
وهي واجب وتكليف عند التقاضي أيضاً - لا عند التعاقد فقط - لأنها أمانة في عنق الشاهد وقلبه .

يقول تعالى : ((ولا تكتسروا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه)) (٥).
ويقول تعالى ((واقيموا الشهادة لله)) (٦). ويقول النبي صلى الله عليه وسلم
((أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)) (٧) وفي أداء الشهادة نصرة .
وفي أداء الشهادة نصرة .

(فهي فرض عين على من تحملها متى دعي إليها وخيف من ضياع الحق، ومتى كثر الشهود ولم يخش على الحق أن يضيع كانت الشهادة في هذه الحالة مندوبة فإن تخلف عنها الفير عذر لم يآثم)) (٨).

وإنما تجب متى قدر على أدائها بلا ضرر يلحقه في بدنه وعرضه أو ماله أو أهله لقوله تعالى: ((ولا يضار كاتب ولا شهيد)) (٩).

(فكما أوجب على الكاتب أو الشهيد ألا يابوا الكتابة أو الشهادة ، أوجب لهم الحماية والرعاية ليتوازن الحق والواجب في أداء التكليف العامة، وهو احتياط لا بد منه لأن الكتاب - والشهداء معرضون لسخط أحد الفريقين المتعاقدين في أحيان كثيرة:

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الآداب /باب عقوق الوالدين من الكبائر/٤/٢٥.

وفي كتاب الشهادات/باب من اتكا بين يدي أصحابه ٦٧/٤.

(٢) - سبل السلام للصنعاني ١٢٠/٤ .

(٣) - سورة البقرة الآية (٢٨٢).

(٤) - تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٢٦/١ .

(٥) - سورة البقرة الآية (٢٨٢).

(٦) - سورة الطلاق الآية (٢).

(٧) - سبق تخريجه في الباب الأول ص(١٧٩).

(٨) - قه السنة لسيد سابق ٢٢٢/٢ .

(٩) - سورة البقرة الآية (٢٨٢).

فلا بد من تمتعهم بالضمانات التي تطمئنهم على أنفسهم وتشجعهم على أداء واجبهم بالذمة والأمانة والنشاط (١).

ثالثاً - العدل في الكتابة:

يقول الله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يبأس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)) (٢).

(فالكتابة أمر مفروض بالنص، غير متروك للاختيار في حالة الدين إلى أجل، والشخص الذي يقوم بكتابة الدين مأمور أن يكتب بالعدل، فلا يميل مع أحد الطرفين، ولا ينقص أو يزيد في النصوص .

والمدين - الذي عليه الحق - هو الذي يملي على الكاتب إقراره بالدين ومقدار الدين، وشرطه وأجله، ذلك خيفة أن يقع الغبن على المدين لو أملى الدائن، فزاد في الدين، أو قرب الأجل، أو ذكر شروطاً معينة في مصلحته. والمدين في موقف ضعيف قد لا يملك معه المعارضة لشدة حاجته، فيقع عليه الغبن .

وفي الوقت ذاته يناشد ضمير المدين - وهو يملي - أن يتقي الله ربه ولا يبأس شيئاً من الدين، فإذا كان المدين سفيهاً لا يحسن تدبير أموره، أو ضعيفاً - أي صغيراً أو ضعيف العقل - أو لا يستطيع أن يمل هو إما لمي أو جهل أو آفة في لسانه، فليمل ولي أمره القيم عليه بالعدل والعدل يذكر هنا لزيادة الدقة، فربما تهاون الولي - ولو قليلاً - لأن الدين لا يخصه شخصياً، كي تتوافر الضمانات كلها لسددة التعاقد (٣).

رابعاً - العدل في القضاء

ويقوم القضاء على قواعد العدل التي أمرت بها شريعة الله لعباده ذلك أن إقامة الحق والعدل هي التي تشجع الطمأنينة، وتنتشر الأمن، وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوي الثقيين الحاكم والمحكوم، فتتولد الثروة ويزيد الرخاء، ويتتفي القلق والاضطراب

و القضاء بالمد: الولاية المعروفة، وهو في اللغة مشترك بين إحكام الشيء والفراغ منه، ومنه قوله تعالى: ((فقضاهن سبع سموات)) (٤). وبمعنى امضاء الأمر:

(١) - تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٢٢٧.

(٢) - سورة البقرة الآية (٢٨٢).

(٣) - تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٢٣٥ باختصار وانظر تفسير النسفي ١/١٤٠.

(٤) - سورة فصلت الآية (١٢).

ومنه قوله تعالى: ((وقضينا إلى بني إسرائيل)) (١).
وبمعنى الحتم والإلزام، ومنه قوله تعالى: ((وقضى ربك ألا تعبدوا إلاياه)) (٢).

وفي الشرع: إلزام ذي الولاية بعد الترافع، وقيل هو الإكراه بحكم الشرع في الوقائع الخاصة لمعين أو جهة، والمراد بالجهة كالحكم لبيت المال أو عليه (٢).
ويكون القضاء في جميع الحقوق سواء أكانت حقوقاً لله تعالى، أم حقوقاً للأدميين.

وقد أفاد ابن خلدون (أن منصب القضاء استقر آخر الأمر على أن يجمع مع، الفصل بين الخصوم إستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيامى عند قد أوليائهن على رأي من يراه)) (٤).

وقد أجمل الماوردي عموم ولاية القاضي (٥) على عشرة أحكام :

- (١) - سورة الأسراء الآية (٤).
- (٢) - سورة الإسراء الآية (٢٢).
- (٣) - سبل السلام للصنعاني ١١٥/٤، وعرفه بعضهم بأنه : فصل الخصومات وقطع المنازعات على وجه خاص صادر من ولاية عامة ↵
/ العلاقات الدولية والنظم القضائية تأليف عبد الخالق النواوي ص (١٧٢).
- (٤) - مقدمة ابن خلدون ص (٢٢١).
- (٥) - وقد اعتبر الفقهاء فيمن يتقلد للقضاء شروطاً سبعة:
الأول- أن يكون رجلاً ، وهذا الشرط يجمع صفتين البلوغ والذكورية.
الثاني - العقل الذي يبلغ معه أن يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيداً من السهو والغفلة ، الثالث - الحرية : لأن نقص العبد من ولاية نفسه يمنع من انعقاد ولايته على غيره ، ولأن الرق لما منع عن قبول الشهادة كان أولى أن يمنع من نفوذ الحكم وانعقاد الولاية. الشرط الرابع - الإسلام لكونه شرطاً في جواز الشهادة ، الشرط الخامس - العدالة : وهي معتبرة في كل ولاية ، والعدالة : أن يكون صادق اللهجة ظاهر الأمانة ، عفيفاً عن المحارم متوقفاً المآثم بعيداً من الريب ، مأموناً في الرضا وال غضب ، مستعمداً لمروءة مثله في دينه ودنياه. الشرط السادس - السلامة في السمع والبصر ليصح بهما إثبات الحقوق ويفرق بين الطالب والمطلوب ، ويميز المقر من المنكر، ليمتيز له الحق من الباطل ، ويعرف المحق من المبطل ، فأما سلامة الأعضاء فغير معتبرة فيه ، فيجوز أن يقضي وإن كان مقعداً ذا زمانة ، الشرط السابع- أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية وعلمه بها يشتمل على علم أصولها والارتياض بفروعها / الأحكام السلطانية للماوردي ص (٦٥ ، ٦٦) باختصار .

(أحدها- فصل المنازعات وقطع التشاجر والخصومات .

الثاني - إستيفاء الحقوق ممن مطل بها وإيصالها إلى مستحقيها بعد ثبوت إستحقاقاتها من أحد وجهين :إقرار أويينة .

الثالث - ثبوت الولاية عل من كان ممنوع التصرف بجنون أو صغر والحجر على من يرى الحجر عليه لسنه أو فليس حفظاً للأموال على مستحقيها، وتصحيحاً لأحكام العقود فيها .

الرابع -النظر في الأوقاف بحفظ أصولها وتنمية فروعها والقبض عليها وصرفها في سييلها .

الخامس -تنفيذ الوصايا على شروط الموصي فيما أباحه الشرع ولم يحظره .

السادس- تزويج الأيامي بالأكفاء إذا عد من الأولياء ودعين إلى النكاح .

السابع - إقامة الحدود على مستحقيها، فإن كان من حقوق الله تعالى تفرد بإستيفانه من غير طالب إذا ثبت بإقرار أويينة ، وإن كان من حقوق الآدميين كان موقوفاً على طلب مستحقيه

الثامن -النظر في مصالح عمله من الكف عن التعدي في الطرقات والأقنية وإخراج ملايستحق من الأجنحة والأبنية .

التاسع -تصفح شهوده وأمنائه وإختيار التائبين عنه من خلقانه في إقرارهم والتعويل عليهم مع ظهور السلامة والإستقامة وصرفهم والإستبدال بهم مع ظهور الجرح والخيانة .

العاشر -التسرية في الحكم بين القوي والضعيف، والعدل في القضاء بين المشروف والشريف، ولايتبع هواء في تصيرالمحقاً وممايلة مبطل(١) .

(والتضاء فرض كفاية لدفع التظالم وفصل التخاصم، ويجب على الحاكم أن ينصب للناس قاضياً ومن أبي أجبره عليه إذا لم يصلح للقضاء غيره)(٢) .

(١) - الأحكام السلطانية للماوردي ص(٧١٠٧٠) .

(٢) - قه السنة لسيد سابق ٢١٢/٢ .

وقد رغب الإسلام في الحكم بين الناس بالحق والعدل، ورهب من الجور والظلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره فله الجنة، ومن غلب جوره عدله فله النار)) (١).

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم :

((إن الله مع القاضي ما لم يجرفاً إذا جار تخلى الله عنه ولزمه الشيطان)) (٢).

ويقول صلى الله عليه وسلم:

((القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق

فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)) (٣).

(والحديث يدل على أنه لا ينبغي من النار من القضاة إلا من عرف الحق وعمل

به، والعمدة العمل فإن من عرف الحق ولم يعمل به فهو ومن حكم بجهل سواء في النار، وفيه التحذير من الحكم بجهل أو بخلاف الحق مع معرفته به، والاثنان الآخريان في النار، وفيه

أنه يتضمن النهي عن تولية الجاهل القضاء) (٤).

(١) - أخرجه أبو داود في سننه/كتاب الأفضية /باب في القاضي يخطي ٢٩٢/٢ .

وفي البيهقي ٨٨/١٠ .

الحديث سكت عنه المنذري /مختصر سنن أبي داود ٢٠٦/٥ .

(٢) - أخرجه الترمذي في سننه /كتاب الأحكام /باب ما جاء في الإمام العادل ٦٠٩/٢ .

وقال حسن غريب .

وأخرجه ابن ماجه في سننه/كتاب الأحكام /باب التغليظ في الحيف

والرشوة ٧٧٥/٢ .

(٣) - أخرجه أبو داود في سننه/كتاب الأفضية /باب ما جاء في القاضي يخطي ٢٢٩٠٢٩٢/٢ .

وأخرجه ابن ماجه في سننه بإسناد حسن /كتاب الأحكام /باب الحاكم

يجتهد فيصيب الحق ٧٧٦/٢، قال المنذري: وأخرجه الترمذي، مختصر

سنن أبي داود ٢٠٥/٥ .

(٤) - سبل السلام للصناني ١١٥/٤ .

وقال صلى الله عليه وسلم ((من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين)) (١).
(والحديث يدل على التحذير من ولاية القضاء والدخول فيه، فإنه إن حكم بغير الحق مع علمه به أو جهله له فهو في النار، والمراد من ذبح نفسه أهلاكها: أي فقد أهلكتها بتولية القضاء، وإنما قال بغير سكين للإعلاء بأنه لم يرد بالذبح فري الأوداج، بل أريد إهلاك النفس بالعذاب الأخرى، وقيل: ذبح ذبحاً معنوياً وهو لازم له، لأنه إن أصاب الحق فقد أتعب نفسه في الدنيا لإرادته الوقوف على الحق وطلبه، واستقصاء ما تجب عليه رعايته في النظر في الحكم، والموقف مع الخصمين، والتسوية بينهما في العدل والقسط، وإن أخطأ في ذلك لزمه العذاب الأخرى) (٢).
وقد بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المنهج الذي ينبغي أن يسلكه القاضي في قضائه لما بعث معاذاً (٣) إلى اليمن فقال له صلى الله عليه وسلم :
(بم تقضي؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: فبرأيي) (٤).

ويقول صلى الله عليه وسلم:
(إذا تقاضى إليك رجلان فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر فسوف تدري كيف تقضي) (٥).

والحديث دليل على أنه يجب على الحاكم أن يسمع دعوى المدعي أولاً ثم يسمع جواب المجيب، ولا يجوز أن يبني الحكم على سماع دعوى المدعي قبل جواب المجيب وعلى القاضي أن يتحرى الحق والعدل فيبتعد عن كل ما من شأنه أن يشوش فكره، فلا يقض أثناء الغضب الشديد، أو الجوع المفرط، أو الهم المقلق، أو الخوف المزعج، أو النعاس الغالب، أو الحر الشديد، أو البرد الشديد، أو شغل القلب شغلاً يصرف عن المعرفة الصحيحة والفهم الدقيق :

-
- (١) - أخرجه أبو داود في سننه/كتاب الأفضية/باب في طلب القضاء ٢/٢٩٢، وأخرجه الترمذي في سننه كتاب الأحكام/باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي ٢/٦٠٥ قال أبو عيسى : حسن غريب .
 - (٢) - سبل السلام للصنعاني ٤/١١٦ .
 - (٣) - معاذ بن جبل : سبقت ترجمته في الباب الأول ص () .
 - (٤) - سبق تخريجه في الباب الأول ص (٨٥) .
 - (٥) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه (١/١٤٢) .
والترمذي /كتاب الأحكام/ باب ما جاء في القاضي لا يقضي بين الخصمين حتى يسمع كلامهما ٢/٦٠٩، قال الترمذي: هذا حديث حسن /تحفة الأحوذى ٤/٥٦١ .

ففي حديث أبي بكر (١) رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان ((٢)).

وهذا يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على كفاية تطبيق العدالة عند الفصل في المنازعات التي تشور بين أفراد المجتمع .
ولقد وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدستور المحكم للقضاء في الرسالة التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري، بين فيها آداب القضاة وصحة الحكم وكيفية الاجتهاد واستنباط القياس، جاء في الرسالة قوله :

((أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له، أم بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضيف من عدلك، البينة على المدعي واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، ومن أدعى حقاً غائباً أو بيئة فاضرب له أمداً ينتهي إليه، فإن جاء بيئته أعطيته حقه وإلا استحللت عليه القضية، فإن ذلك أبلغ للعدو وأجلى للعدو، ولا يملك قضاء قضيت فيه اليوم فرجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظليماً في ولاء أو نسب أو قرابة، فإن الله تعالى تولى منكم السرائر وأدرا بالبيئات والأيمان وإياك والغضب والتلق والضجر والتأذي بالناس عند الخصومة والتنكر عند الخصومات، فإن القضاء عند مواطن الحق يوجب الله به الأجر، ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاء الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما ليس في قلبه شأنه الله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً فما ظنك بشواب من الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام)) (٢).

(١) - أبو بكر : هو نفيح بن الحارث بن كلدة الثقفي ، من موالي

رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير العبادة ، توفي بالبصرة سنة

(٥٢ هـ) . قال الحسن : لم يزل من الصحابة من سكنها أفضل من عمران بن

حصين وأبي بكر . * الإصابة ٥٧١/٢ - ٥٧٢ * أمداً الغاية ١٥١/٥ .

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الاقضية / باب كراهة قضاء القاضي وهو

غضبان ١٥/١٢

(٣) - الأحكام السلطانية للماوردي ص (٧١ ، ٧٢) .

انظر أخبار القضاة لوكيع ٧٠/١ ، مجموعة الوثائق السياسية لمحمد

حميد الله ص (٢١٦-٢١٧) .

فهذه الرسالة تدل على مدى ما كان يتمتع به عمر رضي الله عنه من سمو في التفكير وإجلال لدور القضاء في ترسيخ أسس العدالة بين أفراد المجتمع .

والعدل في القضاء يقتضي العدل في التنفيذ وإقامة الحدود، فالأحكام إذا صدرت ولم يتهيأ لها أن تنفذ كانت أدعى إلى إجترار الناس على الحق وخروجهم على جادة الصواب، والحدود تقصد إلى حفظ الدين والعرض والمال والنفس والعقل، لذا كان من الطبيعي أن يشير الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة التسوية بين الناس في تنفيذ أحكام القضاء والحدود عليهم فيقول:

((إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، وإذا سرق الشريف تركوه، والذي نفسي بيده لو سرق فاطمة (١) بنت محمد لقطع محمد يدها)) (٢) .

ويقول الله تعالى: ((فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)) (٣) .

- وقوله تعالى: ((ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً)) (٤) .

- وقوله تعالى: ((ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون)) (٥) .

وهذا عدل في القضاء وفي تنفيذ الحدود يقتضيه التقابل والتماثل .
(فالأعتداء على المعتدي ، ومقابلة المسيء بالإساءة من قبيل العدل، وبهذا المعنى يقال إن العدل هو المساواة في المكافأة والمجازاة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر)) (٦) .

(١) - فاطمة الزهراء (١٨ ق الهجرة - ١١ هـ)

ابنة المصطفى صلى الله عليه وسلم من خديجه أم المؤمنين تكنى أم أيها تزوجها علي بن أبي طالب كان المصطفى إذا قدم من سفر قبل ابته وهي وزوجها وابناها أهل بيت النبوة وهي أول من غطى نعشها في الإسلام توفيت بعد الرسول بسنة أشهر وصلى عليها زوجها ودفنت بالبقيع ليلاً وعمرها تسعة وعشرين سنة * أسد الغابة ٥/١٩٠ * الإصابية ٤/٢٧٧ .

(٢) - سبق تخريجه في الباب الأول ص () .

(٣) - سورة البقرة الآية (١٩٤) .

(٤) - سورة الأسراء الآية (٢٢) .

(٥) - سورة البقرة الآية (١٧٩) .

(٦) - موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ٢/٢١٠ .

وبعد : نستطيع أن نقول بلا تردد إن جزءاً كبيراً من عدالة الحكم يتحملها النظام القضائي في الدولة الإسلامية، ذلك أن القضاء المستقل هو وسيلة الدولة لدفع الظلم عن الناس، وإقامة معالم العدل في الأرض، وهي ذات الغايات التي تعطي لفكرة الدولة الإسلامية معناها، ومبررات قيامها.

(فإذا كان هدف الدولة الإسلامية هو تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية على كافة شؤون الحياة حتى يتحقق الحق والخير والعدالة، فإن القضاء العادل هو الدعامة الأساسية لتحقيق هذا الهدف النبيل، ففي ظل القضاء العادل يستطيع كل فرد في المجتمع الإسلامي أن ينعم بحياة آمنة كريمة يتمتع في ظلها بالحرية والمساواة (١).

(١) - أنظر كتاب الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الواحد محمد الفارص ص (١٠٤).

خامساً- المعدل في الأسرة:

آ- المعدل بين الزوجات إذا كن أكثر من واحدة .

كان الزواج في الجاهلية مباحاً إلى غير عدد محدود، فالرجل يتزوج من النساء أي عدداً، ومنهم من كان يتزوج عشراً ومنهم من كان يتزوج أكثر من ذلك أو أقل، فجاءت الشريعة الإسلامية وحدت العدد بقدر معتول وهو أربع نسوة، لا يحل للرجل أن يجمع في وقت واحد أكثر منهن .

روى البخاري أن غيلان بن سلمة الثقفي (١) أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ((اختر منهن أربعاً)) (٢) .

(١) - غيلان بن سلمة الثقفي ، أسلم بعد فتح الطائف ، كان تحتة عشر

نسوة فاختر أربعاً بأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد إسلامهن جميعاً ، أحد وجوه ثقيف شاعر توفي آخر خلافة عمر بن الخطاب .

* اسد الغابة ١٧٢/٤ . * الإصابة ١٨٩/٢ .

(٢) - أخرجه أبو داود في سننه / كتاب الطلاق/ باب من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع ٥٦٢/١ .

قال البخاري: هذا حديث غير محفوظ، يعني أن الصحيح إرساله

وقد ذكر ذلك وبينه، وقال مسلم بن الحجاج: أهل اليمن أعرف

بحديث معمر فإن حدث به ثقة من غير أهل البصرة صار الحديث

حديثاً وإلا فالإرسال أولى، يعني أن أهل البصرة تفردوا بإسناده

وقد روى الحديث عن غير أهل البصرة مرصولاً .

أنظر مختصر سنن أبي داود ١٥٧/٢ .

وأخرجه الترمذي / كتاب النكاح/ باب ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر

نسوة ٤٢٦/٢ .

يقول الترمذي: هكذا رواه معمر، عن الزهري، عن سالم عن أبيه

وسمعت محمد بن اسماعيل يقول: هذا حديث غير محفوظ، والصحيح

ماروى شعيب بن أبي حمزة وغيره عن الزهري وحمزة، قال: حدثت عن

محمد بن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة أسلم وعنده عشرة

نسوة .

قال محمد: وإنما حديث الزهري عن سالم عن أبيه: أن رجلاً من

ثقيف طلق نساءه، فقال له عمر، لتراجعن نساءك أولاً رجمن

قبرك كما رجم قبر أبي رغال / تحفة الأحوذى ٢٧٩، ٢٧٨/٤ .

وأخرجه ابن ماجه / كتاب النكاح/ باب الرجل يسلم وعنده أكثر من

أربع نسوة ٦٢٨/١ .

وروى أبو داود أن عميرة الأسدي (١) قال: أسلمت وعندي ثمانى نسوة، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ((أختر منهن أربعاً)) (٢).

فالإسلام لم يشرع تعدد الزوجات بإطلاق، ولم يدع الرجال على ما كانوا عليه من الإسراف في العدد وفي ظلم النساء، بل قيده بالعدد الذي قد تقتضيه مصلحة النسل وحالة الاجتماع ومدى استعداد الرجال له مع اشتراط القدرة على الإنفاق وإستطاعة العدل .

وقد تضمنت آيتا النساء كل أطراف التعدد (٢) سواء من حيث حكم الجواز والعدد المسموح به أو من حيث الضوابط التي تجب مراعاتها على من أراد الإستفادة بالرخصة الواردة في هذا التشريع.

(١) - عميرة الأسدي :

الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي صحابي جليل رضي الله عنه ذكر ابن كثير أن الصواب في اسمه هو قيس بن الحارث وكانت العرب تتحاكم إليه. انظر ترجمته في أسد الغابة ١/٤٠٢٤٤/٢١٠.

(٢) - أخرجه أبو داود في سننه / كتاب الطلاق / باب من أسلم وعنده أكثر من أربع ١/٥٦٢.

في مختصر سنن أبي داود عن الحارث بن قيس الأسدي / مختصر سنن أبي داود ٢/١٥٥.

قال المنذري: وأخرجه ابن ماجه، وفي إسناده محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى وقد ضعفه غير واحد من الأئمة، وقال أبو القاسم البغوي: لأعلم للحارث بن قيس حديثاً غير هذا، وقال أبو عمر النمرى: ليس له إلا حديث واحد ولم يأت من وجه صحيح. مختصر سنن أبي داود ٢/١٥٧.

(٢) - والحكمة من إجازة التعدد في التشريع الاسلامي تتضح فيما يلي :

أن تشريع التعدد ابتداءً إنما جاء لحماية الأسرة من التصدع والإنهيار ، ومواجهة بعض الحالات الطارئة على تكوين الأسرة المسلمة ، ومن ثم لمجتمع المسلم :

أ- فهناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة - تاريخية وحاضرة - تبدو فيها زيادة عدد النساء على عدد الرجال نتيجة الحروب التي تقتال الرجال وتجعل كثرة الأسم أطفالاً ونساءً ، فشرع التعدد، إعالة لما تركه الرجال من نساء وأطفال ولزيادة النسل ليحل الخلف محل السلف في الدفاع عن المجتمع المسلم وحمائته من أعدائه

ب - ثقل أعباء الحياة الاجتماعية تجعل الرجال أكثر عرضة للوفاة من الإناث ، فشرع التعدد لإعادة التوازن الى الخلل الناتج عن نقص الرجال عن النساء . (**)

الآية الأولى: قال تعالى:

((وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانحكروا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا)) (١).

الآية الثانية: قال تعالى:

((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً)) (٢).
والعدل المطلوب يكون في المعاملة والسكن والنفقة والمعاشرة والميit .

أما العدل في مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس، فإذ يطالب به أحد، لأنه خارج عن إرادة الإنسان، وهو العدل الذي نفاء الله تعالى في الآية التالية:
((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)).

(**ج) - الرجل يكون قادراً على التنازل منذ بلوغه وحتى يصل إلى سن متأخرة قد تصل إلى المائة ، بينما المرأة قلما تنجب بعد وصولها إلى سن الخمسين عاماً، وقد يوجد من هؤلاء الرجال من له الرغبة في النسل، فلو لم يبيح التعدد لكان في ذلك إهدار لنصف أعمار هؤلاء .
هـ- قد يكتشف الرجل بعد الزواج عمقاً لدى زوجته والحال أن له رغبة في النسل ، فبدل أن يطلقها وتبقى بدون عائل ، يأتي بأخرى تشاركها حياتها مقابل احتفاظها بكامل حقوقها كزوجة .
د- قد تمرض المرأة مرضاً لا يمكن معه المعاشرة الزوجية ، فرفع الإسلام الحرج عن الزوج بتشريع التعدد حفاظاً على هذه الأسرة من التصدع واحتفاظاً بحق الوفاء للزوجة الأولى من حيث الإعالة والميit وغير ذلك من الحقوق .

ز- يوجد لدى بعض الرجال قوة ورغبة جامحة في ممارسة العملية الجنسية بحيث لا يمكنه الصبر على ذلك ، والمرأة قد تعثر بها حالات تضعفها من القيام بهذه العملية لضعف عام بها أولكبر سنها ، ثم فترات الحيض والنفاس والمرض ، فهل يؤمر الرجل بكبت شهوته أم يطلق لنفسه العنان أم يتزوج بأخرى تقوم بعبء ما تعجز الأولى عنه؟ هذه هي بعض الأسباب الداعية إلى التعدد، وكلها ترجع إلى علاج حالات طارئة على تكوين المجتمع المسلم أو الأسرة المسلمة / انظر كتاب: تعدد الزوجات للدكتور أحمد علي طه ريان ص(١٤٠١٢) وكتاب الإسلام عقيدة وشريعة للدكتور محمود شلتوت ص(١٨٠،١٨١) وكتاب دستور الأسرة في ظلال القرآن لأحمد فايز ص(١٨٠).

(١) - سورة النساء الآية (٢).

(٢) - سورة النساء الآية (١٢٩).

(ويحاول بعض الناس أن يتخذوا من هذه الآية دليلاً على تحريم التعدد (١) والأمر ليس كذلك، وشريعة الله ليست هائلة، حتى تُشرع الأمر في آية، وتُحرّمه في آية، فالعدل المطلوب في الآية الأولى، والذي يتعين عدم التعدد إذا خيف ألا يتحقق، هو العدل في المعاملة والنقطة والمعاشرة والمباشرة وسائر الأوضاع الظاهرة، بحيث لا ينقص إحدى الزوجات شيئاً منها، وبحيث لا تؤثر واحدة دون الأخرى بشيء منها (٢) على نحو ما كان صلى الله عليه وسلم يقوم به، في الوقت الذي لم يكن أحد يجهل أنه يحب عائشة رضي الله عنها ويؤثرها بعاطفة قلبية خاصة، فالقلوب ليست ملكاً لأصحابها، إنما هي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء (٢) وقد كان صلى الله عليه وسلم يعرف دينه ويعرف قلبه، فكان يقول :

((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)) (٤).

(١) - منهم الإمام محمد عبده، فبعد أن أشار إلى الآيتين السالفتين وما يستفاد منهما من أحكام، قال : فمن تأمل الآيتين علم أن إباحت تعدد الزوجات في الإسلام، أمر مضيق فيه أشد التضييق كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور، وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المقاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربي أمة فشا فيها تعدد الزوجات، فإن البيت الذي فيه زوجتان وزوج واحد لا يستقيم له حال، ولا يقوم فيه نظام، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت، كان كل واحد منهم عدو للآخر، ثم يجيء الأولاد بعضهم لبعض عدو، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة ثم يقول : وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعياً عند الخوف من عدم العدل . / نقلاً عن كتاب تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية للدكتور أحمد ريان . ص (١٥-١٦).

(٢) - انظر تفسير القرطبي ٢٠/٥ ، ٤٠٧ .

وأحكام القرآن لابن العربي ٢١٢/١ - ٢١٥ .

وفتح القدير للشوكاني ٤٢٠/١ ، ٤٢١ .

(٢) - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه/كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى القلوب

كيف يشاء ٢٠٤/١٦ بلفظ ((قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن))

(٤) - أخرجه أبو داود في سننه/كتاب النكاح/ باب القسم بين النساء ٥٢٤/١ .

وأخرجه الترمذي في سننه /كتاب النكاح/ باب التسوية بين الضرائر ٤٢٧/٢ .

وأخرجه النسائي في سننه /كتاب عشرة النساء/ باب ميل الرجل إلى بعض

نسائه ٦٤/٧ . وذكر الترمذي أنه روى مرسلاً وذكر أن المرسل أصح

/تحفة الأحوذى ٢٩٤/٤ .

يقول الطبري رحمه الله عن قوله تعالى:

((وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى)) (١) فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن، من واحدة إلى أربع، فإن خفتم الجور في الواحدة أيضاً فلا تنكحوها ولكن عليكم بما ملكت أيماكم فإنه أحرى ألا تجوروا عليهن، وذلك أن معنى الكلام: وإن خفتم ألا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم فلا تتزوجوا منهن إلا ما أمتمت معه الجور (٢).
ويقول عند قوله تعالى: ((فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة))

أي في العشرة والقسم (٢) بين الزوجات الأربع والشاثل والأثنتين فواحدة، فمنع من الزيادة التي تؤدي إلى ترك العدل في القسم وحسن العشرة وذلك دليل على الوجوب (٤)

ويقول أبو السعود: (لما نزلت الآية في اليتامى وما في أكل أموالهم من الحوب الكبير أخذ الأولياء يتحرجون من ولايتهم خوفاً من لحوق الحوب بترك الإقساط مع أنهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل في حقوق النساء حيث كان تحتاً لرجل منهم عشر منهن فقيل لهم: إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء، فقللوا عدد المنكوحات لأن من تحرج من ذنب أوتاب عنه وهو مرتكب مثله وغير متحرج ولا تأنب عنه، ((فإن خفتم ألا تعدلوا)) أي فيما بينهن ولو في أقل الأعداد المذكورة كما خفتوه في حق اليتامى، (فواحدة) أي فالزموا أوقاhtarوا واحدة وذروا الجميع بالكلية، وقوله (أو ما ملكت أيماكم)) أي من السواري بالغة ما بلغت من مراتب العدد، قللة تبغتهن وخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم فيهن، ((ذلك أدنى ألا تعولوا)) العول: الميل من قولهم عال الميزان عولاً إذا مال وعال في الحكم إذا جار، والمراد هنا الميل المحظور المقابل للعدل، أي ما ذكر من إختيار الواحدة. والتسري أقرب بالنسبة إلى ما عداها من أن لا تميلوا ميلاً محظوراً (٥).

(١) - سورة النساء الآية (٢)

(٢) - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ١٥٨/٤ .

(٣) - والمراد من القسم: تخصيص الرجل جزءاً من وقته للخلوة الشرعية

بأهله وذلك بأن يبيت مع كل واحدة من زوجتيه - أو زوجاته - ليلة مشدّاً

هذا إذا كان يعمل نهاراً فإن كان عمله الذي يرتزق منه ليلاً كالحراس

مشدّاً، فإنه يخص لكل منهما نهاراً أو بعضه .

وكذلك الحال بالنسبة للزوجة الواحدة، فإنه يجب على زوجها أن يخص

لها وقتاً يتفرغ لها فيه، ولا يجوز له أن ينشغل عنها بأعماله أو

تهجده أو غير ذلك / كتاب تعدد الزوجات للدكتور أحمد طه ريان ص (٢٢).

(٤) - تفسير القرطبي ٢٠/٥ .

(٥) - تفسير أبي السعود ١٤٢/٢ ، ١٤٢ .

ويقول ابن الصربي (١): ((فإن خقتم ألا تعدلوا فواحدة)) أي في القسم بين الزوجات والتسوية في حقوق النكاح، وهو فرض، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتمد عليه، وقوله ((ذلك أدنى ألا تعولوا)):

(إختلف الناس في تأويلها على ثلاثة أقوال: ألا يكسر عليكم، قاله الشافعي. الثاني: ألا تضلوا قاله مجاهد، والثالث: ألا تميلوا قاله ابن عباس) (٢)ء

ومن هذا يتبين لنا أنه إذا توفرت القدرة المالية والبدنية للمسلم، وأمن على نفسه العدل بين الزوجات حل له نكاح أربع من النساء، فإن خاف من عدم العدل بينهن اقتصر على ما يتحقق به العدل، وهو الزواج من ثلاث، فإن خاف كذلك من عدم العدل اقتصر على اثنتين، فإن خاف أيضاً عدم قدرته على العدل فليقتصر على واحدة أو على ملك اليمين فذلك أقرب إلى عدم الجور والظلم .

وفي قوله تعالى: ((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً)) (٣) يقول الإمام القرطبي: (أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب، وصف تعالى حالة البشر وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول: ((اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)) (٤).

ثم نهى فقال: ((فلا تميلوا كل الميل))

قال مجاهد :

(لا تتعمدوا الإساءة بل إلزموا التسوية في القسم والثقة لأن هذا مما يستطاع (٥)٤).

ويقول الإمام الرازي ((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم)).

فيه قولان: الأول - لن تعدلوا على التسوية بينهن في ميل الطبع وإذا لم تعدلوا عليه لم تكونوا مكلفين به. الثاني - لا تستطيعون التسوية بينهن في الأقوال والأفعال لأن التفاوت في الحب يوجب التفاوت في نتائج الحب لأن الفعل بدون الداعي ومع قيام الصارف محال.

(١) - أبو بكر بن العربي (٤٦٨ هـ ٥٤٢ هـ) هو محمد بن عبد الله الأشيلي المالكي ،

ولد بأشيلية ، وتوفي بمدينة فاس ، حافظ للحديث ورجاله ، صنف في

الحديث والفقہ والأدب والتاريخ ، وهو آخر علماء الأندلس ، بلغ رتبة

الاجتهاد، وولي قضاء اشيلية . * فنج الطيب ٢/٢٥ . * وفيات الأعيان ١/٤٨٩ .

(٢) - أحكام القرآن لابن العربي ١/٣١٢ - ٣١٥ .

(٣) - سورة النساء الآية (١٢٩) .

(٤) - سبق تخريجه ص () .

(٥) - تفسير القرطبي ٥/٤٠٧ .

((فلا تميّلوا كل الميل))

المعنى أنكم لستم منهيين عن حصول التفاوت في الميل القلبي لأن ذلك خارج عن وسعكم، ولكنكم منهيون عن إظهار ذلك التفاوت في القول والفعل (١)٤ .

إذن فالعدل واجب في الأمور الظاهرة التي تدخل في حدود الإستطاعة كالنقمة والسكن والمعاملة، ولا يجب في الأمور القلبية كالميل القلبي والجماع فإن الله تعالى قد رفع الحرج عن عباده في العدل المطلق بين الزوجات لعله تعالى يضعفهم وعدم إستطاعتهم ذلك، إلا أنه مع ذلك قد طلب منهم سبحانه عدم الإفراط في الميل إلى إحدى الزوجات حتى تصير الأخريات لاهن مطلقات ولاهن ذوات زوج .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إذا كانت عند الرجل إمرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط (٢)٤٤ .

((وقد كان صلى الله عليه وسلم يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة)) (٢) .

يقول ابن حجر: (والذي يظهر أن ذلك إنما كان لإرادة العدل بينهما في ذلك، وإن لم يكن واجباً عليه) (٤) .

وجمهور العلماء يرون أن على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوماً وليلة، ولا يستطع حق الزوجة مرضها ولا حيضها، وعليه أن يعدل بينهما في مرضه كما يفعل في صحته، إلا أن يعجز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض، فإذا صح إستأنف القسم (٥) .

(١) - تفسير الرازي ٦٨/١١ .

(٢) - أخرجه الترمذي في سننه/كتاب النكاح/ باب ما جاء في التسرية بين الضرائر ٤٢٨/٢ .

أسند هذا الحديث همام بن يحيى عن قتادة .

ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال: كان يقال. ولا تصرف هذا

الحديث مرفوعاً إلا من حديث همام /تحفة الأحوزي ٢٩٥/٤ .

وأخرجه النسائي في سننه/كتاب عشرة النساء/باب ميل الرجل إلى بعض

نسائه ٦٢/٦ .

وأخرجه ابن ماجه في سننه/كتاب النكاح/باب القسمة بين النساء/١٢٢٢ .

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب النكاح/باب كثرة النساء/١٧٠/٢ .

(٤) - فتح الباري ٢١٦/٩ .

(٥) - المهذب ٦٧/٢، والمبسوط ٢١٧/٥، والمغني ٢٨/٧ .

وفي وجوب التسوية في المسكن والنقمة ومتعلقاتهما بين الزوجات خلاف بين الفقهاء :

مذهب مالك (١) وأصحابه: أنه يجب على الرجل القيام بكل مايلزم لزوجيه أوأزواجه من مسكن مناسب، ومطعم مناسب ومايتبع ذلك، كل بقدر حالها، ولاحرج أن يوسع على من شاء بعد ذلك بما شاء (٢) بشرطين :

أحدهما - ألا يكون ذلك التفضيل بقصد الضرر بإحدى الزوجتين .

ثانيهما - ألا يكون بدافع الميل إليها وإلا منع (٢) .

ويذهب بعض الأحناف الى أنه لو كانت تحت الرجل امرأتان حرتان أوأمتان، يجب عليه أن يعدل بينهما في المأكل والمشروب والملبوس والسكنى (٤) .
إلا أن المفتى به في مذهب الحنفية، هو عدم لزوم التسوية بل تعطى كل زوجة من الزوجتين أو الزوجات بقدر حالها، فقد تكون إحداهما غنية والأخرى فقيرة، فلا يلزم التسوية بينهما مطلقاً في النقمة (٥) .

ويتفق الحنابلة مع المالكية في عدم وجوب التسوية بين الزوجين أوالأزواج في المسكن والمطعم والملبس ومايشتهى من ألوان الزينة ونحو ذلك .

ففي المغني : (وليس عليه التسوية بين نسائه في النقمة والكسوة إذا قام بالواجب لكل واحدة منهن .

(١) - مالك بن أنس (٥٨٤)

مالك بن أنس بن مالك الحميري الأصبحي أبو عبد الله المدني مولده ووفاته بالمدينة المنورة أمام دار الهجرة في زمانه أحد الأئمة الأربعة وإليه تنسب المالكية ماتولى الأفتاء حتى شهد له سبعون عالماً أنه أهل بذلك سألهم المنصور أن يصنف للناس كتاباً يحملهم عليه فصنف الموطأ مات عن عمر يبلغ الأربع والثمانين سنة دفن بالبقيع .

* البداية والنهاية ١٠/١٨٠ * طبقات المالكية ١/٥٢ .

(٢) - بلغة السالك للساوي ١/٤٢٧ .

(٣) - حاشية البناني على الزرقاني ٤/٥٥ .

(٤) - بدائع الصنائع للكاساني ٥/٥٤٧ .

(٥) - حاشية ابن عابدين ٢/٢٠٢ .

يقول أحمد: في الرجل له امرأتان له أن يفضل إحداها على الأخرى في النفقات والشهوات والكسب إذا كانت الأخرى في كفاية، ويشترى لهذه أرفع من ثوب هذه وتكون تلك في كفاية، وهذا لأن التسوية في هذا كله تشق، فلو وجب لم يمكن القيام به إلا بحرج، فسقط وجوبه كالتسوية في الوطاء (١)

ولم ينص الشافعية بما يفيد وجوب التسوية في النفقة ومتعلقاتها أو عدمها لصاحب الزوجتين أو الزوجات، لكن يؤخذ من كلامهم في باب النفقات من وجوب مراعاة حال الزوج من يسر وعسر في النفقة على الزوجة. حيث قالوا: (على مومسر لزوجته كل يوم مدا طعام، ومومسر مد، ومتوسط مد ونصف (٢).

وذلك يقتضي التسوية بينهما في النفقة من ملهم ومشرب فقط (٣).

أما في مجال المسكن والخدمة والكسوة فاعتبروا بحال الزوجة. جاء في متن المنهاج: (ومسكن يليق بها، وعليه لمن لا يليق بها خدمة نفسها، إعدامها بحرة أو أمة له أو مستأجرة أو بالإنفاق على من في صحبتها من حرة أو أمة لخدمة وسواء في هذا مومسر ومومسر، وعبد (٤).

وهذا القول يقتضي عدم وجوب التسوية المطلقة بين الزوجين أو الأزواج في الكسوة والخدمة والمسكن، عند الشافعية). وبذلك يقترب موقف الشافعية في هذه الأمور من قول الحنابلة والمالكية.

من كل ما تقدم يمكن أن نقول باختصار:

١- أنه لا خلاف بين أهل العلم في أنه يجب على الزوج أن يقوم بكل ما يلزم، لزوجتيه أو زوجاته من النفقة وما يتعلق بها بحيث تتناسب مع كفايتها وحال، مثلها.

-
- (١) - المغني لابن قدامة ١٤٤/٨ .
(٢) - مغني المنهاج مع شرحه مغني المحتاج ٤٢٦/٢ .
(٣) - تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية للدكتور أحمد ريان ص (٤٦).
(٤) - متن المنهاج مع شرحه مغني المحتاج ٤٢٢/٢ .

- ٢- يجب العدل بين الزوجات بمعنى عدم الحيف والجور بحق إحداها أو إحداهن، وعدم إعطائها ما تستحقه وتحتاجه من النفقة وغيرها من الحقوق.
- ٢- ألا يزيد إحداها على الأخرى في النفقات وغيرها بقصد الإضرار بالأخرى و بقصد إشارتها وتفضيلها عليها .
- ٤- العبرة في النفقة وماليها بحال الزوجة لدى جمهور الفقهاء، إذ قد تكون إحداهن مكنتية والأخرى محتاجة .
- ٥- أن العدل ليس معناه مطلق التسوية بين الزوجتين أو الزوجات، بل العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، فأعطاء الرجل كل زوجة ما هي محتاجة إليه فعلاً بما يحق لها الكفاية التي تتناسب مع مثلها من مسكن ومشرب وملبس هو العدل المطلوب بين الزوجات .
- ٦- أن العدل في المبيت عند كل واحدة في مسكنها الخاص بها واجب، ولا يستعمله مرض الزوجة أو الحيض أو كبر السن بغير رضاهن .
- ٧- أن العدل في القسم في حقه صلى الله عليه وسلم كان يقصد به صلى الله عليه وسلم عدم تفضيل بعضهن على بعض في الإقامة والمبيت، ففي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا)) (١).
- ٨- الزوج مطالب بالعدل في الميل القلبي لأحدى الزوجات بقدر استطاعته، لأنه لا يملك ذلك ولا يستطيعه، بل القلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .
- ٩- وكذلك الحال بالنسبة للجماع ومقدماته، يقول ابن قدامة (لأنعلم خلافاً بين أهل العلم في أنه لا تجب التسوية في الجماع، وذلك لأن الجماع طريقه الشهوة والميل ولاسييل إلى التسوية بينهن في ذلك) (٢).

(١) - أخرجه أبو داود في سننه/كتاب النكاح/باب في القسمة بين النساء/١/٥٢٥ .
والمستدرک للحاكم/كتاب النكاح/باب التشديد في العدل بين النساء/٢/١٨٦ .
قال المنذري: في إسناد عبد الرحمن بن أبي الزناد، وقد تكلم فيه غير واحد، ووثقه الإمام مالك بن أنس واستشهد به البخاري: وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما:
(أن سودة بنت زمعة وهبت يوماً لعائشة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة يوماً ويوم سودة)).
مختصر سنن أبي داود ٦٤/٢ .

(٢) - عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكسر أن يقول: يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت يا نبي الله: أمنا بك وما جئت به فعمل تخاف علينا؟ قال نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء).
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح/ أنظر تحفة الأحوذى/ أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٢٥٠٠٢٤٩/٦ .
(٢) - المغنسي لابن قدامة ١٤٨/٨ .

ب - ومن العدل في الأسرة العدل بين الأولاد:

الرحمة بالأولاد، والشفقة عليهم، والتروء إليهم، والعدل بينهم في المعاملة، والتسوية بينهم في الهبة والعتية، أمر دعاليه الإسلام ورغب فيه وحث عليه .
يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ((اتقوا الله واعدلوا في أولادكم)) (١) .
وذلك وعندما ميز أحد الصحابة ولداً له بعتية على سائر إخوانه وآثره بها دونهم .

يقول النعمان بن بشير (٢) رضي الله عنهما :

((أعطاني أبي عتية، فقالت عمرة بنت رواحة (٢): لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عتية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، قال : فرجع فرد عتيته)) .
وكان من أمر عمرة أنها أرادت لولدها النعمان أن يحوز شيئاً من أبيه يختص به دون إخوته، لصغر سنه، أو لكونه وحيداً منها، فطلبت من زوجها ذلك، فحمل له غلاماً أو حديقة كما جاء في بعض الروايات، ولم تكتف المرأة بما صنع حتى قالت له: أشهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب بولده ليشهده على ما وهب له، ولكن رسول الله المبعوث بالعدالة والمساواة عاب ذلك، وأبى أن يشهد عليه، وعدّه من الجور وقال:
((اتقوا الله واعدلوا في أولادكم)) .

(وظاهر الحديث يدل على وجوب المساواة بين الأبناء إلا إذا رضي ووافق بقية الأبناء على صنيح الأب .

ومن أراد بسرائبانه وأن يترحموا عليه إذا مات ولاتكون بعده بين بنيه خصومة، فليتق الله وليسوي بينهم، وليجعلهم عنده بمنزلة واحدة لا يفضل أحداً على أحد إلا بعلم أو عمل صالح) (٤) .

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الهبة / باب الهبة للولد ٦١/٢ .

وأخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الهبات / باب كراهية أن يفضل بعض الأولاد في الهبة ٦٧/١١ .

(٢) - النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي (٢٠٦هـ) :

أول مولود لأنصار بعد الهجرة قبل وفاة المصطفى بثمان سنين وسبعة أشهر استعمله معاوية على حمص ثم الكوفة ، ذو كرم وشعر وشجاعة وتوفي بدمشق .

* أسد الغابة ٢٢/٥ . * الإصابة ٥٥٩/٢ .

(٢) - عمرة بنت رواحة :

أخت عبد الله بن رواحة ، زوجة بشير بن سعدا لأنصاري ، وأم النعمان بن بشير، سألت زوجها أن يهب لابنها النعمان .

* الإصابة ٢٦٦/٤ . * أسد الغابة ٥٠٩/٥ .

(٤) - إصلاح المجتمع للعلامة الشيخ اليعقوبي ص (٢٢١) ، وفتح الباري ٢١٥/٥ .

(يقول ابن القيم (١) : (هذا الحديث هو من تفاصيل العدل الذي أمر الله به في كتابه وقامت به السموات والأرض وأثنت عليه الشريعة فهو أشد موافقة للقرآن من كل قياس على وجه الأرض، وهو محكم الدلالة غاية الأحكام)) (٢).
(فعلى الآباء أن يعدلوا بين أبنائهم ذكوراً وإناثاً وألا يفضلوا بعضاً على بعض، لما يترتب على ذلك من المقاسد التي تقوض كيان الأسرة) (٣).

وهكذا يتبين أن البحث عن العدل والتوسط في كل ما جلت وصغر هو رائد المنهج الإسلامي وهدف كل جزئية من جزئياته، والعدل أجدر أن يراعى في المحضن الذي يضم الأسرة، وهي اللبنة الأولى للبناء الاجتماعي كله، ونقطة الانطلاق إلى الحياة الاجتماعية العامة، فإن لم يتم على العدل والورد والسلام، فلا عدل ولا ود في المجتمع كله ولا سلام (٤).

٦- العدل الاجتماعي :

تقتضي العدالة الاجتماعية أن يعيش كل فرد في المجتمع المعيشة الكريمة غير محروم ولا ممنوع، وأن يمكن من استقلال مواهبه بما يفيد شخصه وبما يفيد الجماعة، وبذلك يخفف الإسلام من ويلات الفقر النفسية والمادية، فلا يحقد الفقير على الغني، فيكون الخراب، ولا يحرم من الصوت والكساء والإيواء فتحرم الجماعة قوى عاملة يمكن أن تعمل وتدر على الجماعة بعملها خيراً، وتدفع عنها وعن نفسها ضرراً (٥).

(١) - ابن القيم (٦٩١-٥٧٥١هـ) :

محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين مولده ووفاته بدمشق أحد كبار العلماء تتلمذ لابن تيمية وسجن معه في دمشق لأجله واهين وعذب كان حسن الخلق محبوباً جمع كثيراً من الكتب مولماً بها مشاركاً في بعض العلوم.

* البداية والنهاية ٢٤٦/١٤ . * طبقات المفسرين ٩٠/٢ .
* الدر الكامنة ٤٠٠/٢ .

(٢) - فقه السنة لسيد سابق ٢٩٤/٢ .

(٣) - نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي ص (١٢٠٤) .

(٤) - أنظر كتاب دستور الأسرة في ظلال القرآن لأحمد فايز ص (١٨٨) .

(٥) - أنظر تنظيم الإسلام للمجتمع لمحمد أبو زهرة ص (٢٥) .

ولقد اعترف الإسلام بأن الناس منهم الثري ومنهم الفقير، فتلك حقيقة ثابتة من طبيعة الوجود الإنساني .

يقول الله تعالى: ((نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون)) (١) .

ولكن مع ذلك لم يجعل الإسلام هنالك طبقات بسبب الفنى، فليس في الإسلام نظام الطبقات وإنما الفضل عند الله، بالتقوى، والدرجة والعلو بالعمل الصالح ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) (٢) .

وقد عالج الإسلام الفقر ومنعه من أن يذل صاحبه، فتكون تلك الطبقات المكروهة التي تقطع أواصر الألفة بين الجماعة، وتفرض الحقد في نفس الفقير والذي يولد الصراع والتلق والإضطراب .

وطرق علاج الفقر كانت على نواح كثيرة منها :

١- العمل :

(فعلى كل فرد مسلم أن يسعى ويعمل ويجتهد، ملتصقاً الرزق في خبايا الأرض، وتحت أديم السماء، وأن يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله، كما قال تعالى:

((هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)) (٢) .

والعمل هو السلاح الأقوى لمحاربة الفقر وعمارة الأرض، والإسلام يفتح أبواب العمل أمام المسلم، التي تحقق له ولمجتمعه المصلحة وتدفع عنه الضرر لشخصه أو للمجتمع، وتحقق له ولأسرته الكفاية والحياة الكريمة .

(وسمي الإنسان إلى تحصيل معاشه وتحقيق كفايته عن طريق عمل يوافق مواهبه وقدراته وميوله يقتضي تمكينه من حرية الاختيار في حدود ما يوافق الشرع) (٤) .

ولقد حرص التشريع الإسلامي على إيجاد وضع يستوفي فيه العامل أجراً مجزياً لا يقل عن الكفاية الطبيعية للإنسان، وليس هذا فحسب بل شجع الإسلام المسلم العامل في ملاك الدولة الإسلامية وفي مجال الخدمة العامة أن يستوفي كافة حقوقه الشخصية ذات الطابع الاجتماعي كالزواج وذلك إقراراً منه بالحق الثابت للعامل .

(١) - سورة الزخرف الآية (٢٢) .

(٢) - سورة الحجرات الآية (١٢) .

(٣) - سورة الملك الآية (١٥) .

(٤) - أنظر كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص (٥٢)

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :
(من كان لنا عاملاً وليس له زوجة فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب
خادماً، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً)) (١).
وتبين من خلال هذا النص أن العامل - إن كان موظفاً في الدولة - فيجب
أن يكون الأجر الذي يدفع له من بيت مال المسلمين كافياً يسد حاجاته الضرورية
الإعتيادية كالمسكن وغيره .
وينهى الإسلام عن استئجار الأجير حتى يبين له مقدار الأجر، وذلك حماية
للعامل من الغبن في الأجر، وحرصاً على منع كل ما يترتب من خلاف أو نزاع بين العامل
وصاحب العمل .

(قد نهى صلى الله عليه وسلم عن استئجار الأجير حتى يبين له أجره) (٢).
(وأداء الأجر للعامل حق ثابت له، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم في
عبارات شديدة الذين لا يوفون العمال أجورهم فقال: ((ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة)) وعد
منهم النبي صلى الله عليه وسلم ((رجلاً استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يوفه
الأجر)) (٢).

٢- تهيئة الفرص في العمل وتكافؤها :
العمل حق لكل مسلم، ويجب على ولي الأمر كفالة حقوق الأفراد الذين لا يجدون
عملاً، وأن تهيأ فرص العمل لانتفاع كل ذي موهبة بموهبته على قدر طاقته .
ومعنى تكافؤ الفرص أن تكون مجالات الحياة متاحة لأفراد المجتمع على
السواء (٤)، وحيال هذا التقرير فلا بد من ضمان حق الأفراد كافة في العمل على وجه
التساوي، فإذا عجزت الدولة عن توفير عمل مناسب فعليها أن تدفع لهم ما يقوم بكفائتهم من
الحاجات الضرورية .
يقول ابن حزم (٥) رحمه الله :

- (١) - أخرجه أبو داود/كتاب الامارة/باب في أرزاق العمال ١٢٢/٢، وأخرجه ابن خزيمة
/باب إذن الإمام للعامل بالتزويج وإتخاذ الخادم والمسكن من الصدقة ٧٠/٤.
الحديث سكت عنه المنذري، مختصر سنن أبي داود ٢٠١/٤.
(٢) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه (١/١٤٢).
(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الإجارة/باب إثم من منع أجر الأجير ٢٢/٢٢.
(٤) - انظر كتاب الدين والحضارة الإنسانية للدكتور محمد البهي ص (٢٤٢)
(٥) - ابن حزم (٥٤٨٤-٥٤٠٦) :

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري -عالم
الأندلس أحد أئمة الأئمة الأعلام كان قتيهاً حافظاً -
تولى رئاسة الوزارة وزهدها وتوفي بالأندلس.
* نفع الطيب ٧٧/٢ . * وفيات الأعيان ٤٤٨/٢ .

(وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بقراءتهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف يمثل ذلك) (١)

فالبطالة داء يجب على المجتمع محاربتة، لأنها تشقي العامل وأسرته، وتدفع بالمجتمعات إلى حافة الهاوية فتعرضها لأخطار اجتماعية وإقتصادية جسيمة .
والإسلام قد حارب البطالة، ووضع أسساً لتدخل الدولة ممثلة بولي الأمر، للعمل على تنظيم الأمور الاقتصادية في نطاق الدولة .

(عن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله: فقال: لك في بيتك شيء؟ قال: بلى، جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء. قال (اثنتي بهما) قال: فاتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، ثم قال: (من يشتري هذين) ؟ فقال رجل: أنا أخذهما بدرهم، قال: (من يزيد على درهم)؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما الأنصاري، وقال: (اشتر بأحدهما طعاماً فانبذهُ إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً، فاتني به)، ففعل، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشده فيه عوداً بيده وقال: (اذهب فاحتطب ولاأراك خمسة عشر يوماً) فجعل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فقال: (اشتر ببعضها طعاماً وببعضها ثوباً)، ثم قال (هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسأل لاتصلح إلا لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مظع، أو دم صوجع). (٢)

فالإسلام يحرم التسول مع القدرة على العمل، ولايبيح السؤال إلا في حالات اضطرار محددة . وعلى المحتسب (٢) منع ذي جلد وقوة على العمل من المسألة، وأمره بالإحتراف، فإن أقام على المسألة من بعد عزره عليها) (٤) .
(ولو تأملنا حديث أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتبعنا علاج الرسول صلى الله عليه وسلم لمشكلة ذلك الصحابي الفقير لخرجنا بنظرية اقتصادية كاملة من حديث واحد .

(١) - المحلى لابن حزم ١٥٦/٦ .

(٢) - أخرجه أحمد في مسنده ١١٤/٢، وأخرجه ابن ماجه في سننه/كتاب التجارات/
باب بيع المزيدة ٧٤١/٢ .

(٣) - المحتسب: هو من نصبه الإمام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية والكشف عن أمورهم ومصالحهم) والحسبة: أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن منكر إذا ظهر فعله، وإصلاح بين الناس، وكان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم .
/الأحكام السلطانية للقاضي أبو يعلى ص(٢٨٤) .

(٤) - الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص(٢٩٢)

فجدير بالدول التي تعاني التخلف في العصرالحاضر وخصوصاً الدول الإسلامية التي تتشبه بالنظريات الاقتصادية المستوردة من الشرق أو الغرب، من وراء الجبال أو من خلف السهوب، جدير بها أن ترجع إلى ترانها الخالد وعميدتها وشريعته لتستعين بها على حل مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وأن تنظر في التاريخ الإسلامي لتعرف من شواهد الناصعة كيف نجح المسلمون بالإسلام وفشلوا بغيره، وأن يدركوا مدى الفشل الذي تعانيه الأنظمة الاقتصادية الرأسمالية والإشتراكية على حد سواء ومدى تناقضها مع حقوق الإنسان وحرياته الأساسية وفي قدرتها على إسعاد الإنسان (١).

٢- تسهيل أسباب الحياة للعاجزين عن الكسب :

إن الأصل في شريعة الإسلام أن يحارب كل امرئ الفقر بسلاحه هو، وسلاحه هو السعي والعمل إن كان قادراً، ولكن هناك من لا يقدر على العمل، إما بسبب كبر سنه وشيخوخته، أو بسبب المرض أو الكوارث التي أقعدتهم عن الكسب، أو بسبب ترميل النساء وضعفهن عن العمل بسبب أنوثتهن، فهؤلاء وأمثالهم قد عمل الإسلام على إنقاذهم من مخالب الفقر والحاجة، وإغنائهم من ذل السؤال، بطرق كثيرة تتلاقى فلا تجعل لتقير عاجز حاجة لم تسد منها:

١- عن طريق الخزانة العامة للدولة، وهي ما يسمى بيت المال (٢)، فإن كل موارد بيت المال فيها حق للتقير يجب أن يعطى منها بانتظام، حتى ينعم المجتمع في عدالة إجتماعية وعيش هانئ كريم وتنحصر الموارد المالية لبيت المال في الأمور التالية :

أ- الوقف الخيري:

(الوقف في اللغة: الحبس، يقال وقفت كذا أي حبسته . وهو في الشرع حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه، بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح) (٢).

(ويعتبر الوقف نوع من أنواع الصدقات الدائمة غير اللازمة، إذ لا يجب الوقف على أحد، ولكنه إختص بميزة عن كل الصدقات، لأن له صفة الدوام والإستمرار في الجملة، ولأن موضوع التصدق فيه المنفعة المستمرة) (٤).

(١) - انظر كتاب حقوق الإنسان وحرياته الأساسية للدكتور عبد الوهاب الشيشاني ص (٤٧١).

(٢) - انظر كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص (١٠١)، وكتاب المجتمع الإنساني في ظل الإسلام لمحمد أبو زهرة ص (١٨٧).

(٣) - فقه السنة لسيد سابق ٢/٢٧٨، وكتاب سبيل السلام ٢/٨٧.

(٤) - انظر تنظيم الإسلام للمجتمع لمحمد أبو زهرة ص (١٦٨).

وقد شرع الله الوقف وندب إليه وجعله قرينة من القرب التي يتقرب بها إليه سبحانه وتعالى، ولم يكن أهل الجاهلية يعرفون الوقف وإنما استنبطه الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا إليه وحسب فيه برأ بالفقراء وعطفاً على المحتاجين. يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) (١). (والصدقة الجارية فسرّها العلماء بالوقف) (٢).

وكان أول وقف في الإسلام وقف عمر رضي الله عنه، كما أخرج ابن أبي شيبة (٣) (أن أول حبس في الإسلام صدقة عمر رضي الله عنه) (٤).

وروى البخاري ومسلم: ((عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أصاب عمر أرضاً بخيبر، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها فقال: يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي منه، فقال: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، قال: فتصدق عمر بها، وأنه لا يباع أصلها ولا يورث ولا يوهب فتصدق بها في الفقراء وفي القريب وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضعيف لاجتناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقاً غير متمول مالاً) (٥).

(والوقف فيه المنفعة المستمرة للمسلمين سواء أكانوا أقارب الواقف أو بعيدين عنه، ويشمل جميع أنواع البر كوقف المساجد والأراضي ودور العلم والمدارس والمستشفيات، والأوقاف للقرض الحسن، ووقف البيوت الخاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به داراً أو يستأجرها، والمستشفيات، والمطاعم الشعبية التي يفرق فيها الطعام للفقراء والمحتاجين...)

-
- (١) - أخرج أبو داود/كتاب الوصايا/باب فيمن مات من غير وصية يتصدق عنه ١١٧/٢.
 - وأخرجه ابن ماجه/مقدمة/باب ثواب معلم الناس الخير/٨٨.
 - (٢) - سبل السلام للأميرالصنعاني ٨٧/٢.
 - (٣) - ابن أبي شيبة (١٥٩ - ٢٢٥ هـ): عبد الله بن محمد الكوفي حافظ مؤرخ قال عنه أبو زرعة ما رأيت أحفظ منه.
 - * شذرات الذهب ٨٥/٢ * تذكرة الحفاظ/٢/٤٢٢.
 - (٤) - المصنف لابن أبي شيبة (٧٢٩/٢)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص (١٢٧).
 - وفي هامشه: يريد أول من وقف شيئاً يتصدق بفلته.
 - (٥) - أخرج البخاري في صحيحه/كتاب الوصايا/باب الوقف كيف يكتب ٨٩/٢، وأخرجه مسلم في صحيحه/كتاب الوصايا/باب الوقف ٨٧، ٨٦/١١.

ووقف بيوت الحجاج بمكة ينزلونها حين يأتون إلى الحج، ووقف الآبار في الفلوات لسقاية المسافرين والزروع والماشية، ووقف المتاع المنقول لاسيما مايتعلق منه بالحرب كالخيول والكراع والآت الحرب، ووقف عقارات وأراضي زواعية يصرف ريعها للمجاهدين في سبيل الله لاسيما عندما تمجز الدولة عن الإتفاق على كل أفرادها (١).

أخرج ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
((إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً نشره أو ولدأ صالحاً تركه أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)) (٢).

وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف أصحابه المساجد والأرض والآبار والحدائق والخيول ، ولا يزال الناس يقفون من أموالهم إلى يومنا هذا .
وهذه بعض أمثلة للأوقاف في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

١- عن أنس رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأمر ببناء المسجد قال ((يابني النجار: تأمنوني بحائطكم هذا؟ فقالوا: والله لانطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى، فأخذه، فبناه مسجداً)) (٣).

٢- وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
((من حفر بئر رومة فله الجنة، قال: فحفرتها)) (٤).

- (١) - المجتمع المتكافل في الإسلام لعبد العزيز الخياط ص (٢٢٢).
- (٢) - أخرج ابن ماجه/المقدمة/باب ثواب معلم الناس الخير/١/٨٨٠٨٨.
- كنز العمال (٤٢٦٥٧) ٩٥٢/١٥.
- (٣) - أخرج مسلم في صحيحه /كتاب المساجد ٨٠٧/٥.
- وأخرجه البخاري في صحيحه /كتاب مناقب الأنصار/ باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة ٢/٢٢٢٠٢٢١.
- (٤) - أخرج البخاري في صحيحه /كتاب الوصايا/ باب إذا أوقف أرضاً أو بئراً/١/٩٠.

وفي رواية البغوي (١):

((أنها كانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بمد، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : تبيئنيها بعين في الجنة؟ فقال: يا رسول الله، ليس لي ولا لغيري غيرها، فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتجعل لي ما جعلت له؟ قال: نعم، قال: قد جعلتها للمسلمين)) (٢).

٢- وعن سعد بن عباد (٢) رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله إن أم سعد، ماتت فأبي الصدقة أفضل؟ قال الماء، فحفر بئراً وقال : هذه لأم سعد)) (٤).

(١) - البغوي (٤٣٦ ، ٥١٠ هـ) : هو الحسين بن مسعود ، تقيته محدث مفسر من خراسان يلقب بمحي السنة ، توفي بمرور الروذ ، ألف في علم الحديث منها شرح السنة والجمع بين الصحيحين .

* شذرات الذهب ٤/٤٨ - ٤٩ ، * وفيات الأعيان ٢/١٢٦ .

(٢) - شرح السنة للبغوي (١٧٦/٦) .

(٣) - سعد بن عباد (١٥ هـ) : هو سعد بن عباد بن وليم الأنصاري يكنى ابو ثابت تقيب بني ساعدة وصاحب راية الأنصار في المشاهد كلها ذارياً وقيادة ووجهه في قومه كان يحمل لرسول الله جفنة من ثريد ولحم حيث دار، دعى له الرسول بقوله - اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد ان عبادة وكانت بيده راية الرسول يوم الفتح سار الى الشام عند مبايعة ابي بكر وأقام بحوران الى أن مات بقربة المليحة بقوطة دمشق .

* اسد الغابة ٢/٢٨٢ . * الإصابة ٢/٢٠ .

(٤) - أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة/ باب في فضل سقي الماء ١/٤٢٦ .

قال المنذري: وأخرجه ابن ماجة بنحوه من حديث ابن المسيب وهو منقطع، فإن سعيد بن المسيب والحسن البصري لم يدركا سعد بن عبادة، فإنه مولد سعيد بن المسيب سنة خمس عشرة، ومولد الحسن البصري - سنة إحدى وعشرين، وتوفي سعد بن عبادة بالشام سنة خمس عشرة، وقيل سنة أربع عشرة وقيل سنة إحدى عشرة، فكيف يدركانه.

/مختصر سنن أبي داود ٢/٢٥٥ .

٤- وعن أنس رضي الله عنه : ((كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية الكريمة ((لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)) (١) قام أبو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله تعالى يقول في كتابه ((لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)) وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ ذلك مال رابع، ذلك مال رابع، قد سمعت ما قلت فيها، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)) (٢).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً فإن شعبه وروثه ويوله في ميزانه يوم القيامة حسنة)) (٣).

٦- وعنه أيضاً قال : بمث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر على الصدقة الحديث، وفيه: وأما خالد فقد احتبس أدرعه واعتاده في سبيل الله)) (٤)

ب- الزكاة :

لم يجعل الإسلام نظام الزكاة من شؤون الفرد، ولا من الواجبات الشخصية الموكولة إلى ضمائرهم، بل جعلها فريضة تشرف الدولة الإسلامية على جباتها وتوزيعها على مستحقيها، ويقا تل الإمام من إمتنع عن أدائها، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه (لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب، فقال عمر : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بجهده وحسابه على الله تعالى.

(١) - سورة آل عمران الآية (٩٢).

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الزكاة/باب الزكاة على الأقارب ١/١٨٠، وأخرجه مسلم في صحيحه/كتاب الزكاة/باب فضل النفقة على الأقربين والزوج والأولاد (٧/٨٤، ٨٥).

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الجهاد والسير/باب من احتبس فرساً ٢/٩٨، ٩٩.

(٤) - أخرجه مسلم في صحيحه /كتاب الزكاة/باب تقديم الزكاة ومنعها ٧/٥٦، ٥٧.

قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصدقة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها، فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (١). وإنما وكل الإسلام جباية الزكاة إلى الدولة لآلي ضمان الأفراد وحدها لعدة أسباب:

الأول- ضمان إيصال هذا الحق إلى الفقراء، لأن من الأفراد من تموت ضمانتهم أو يصيبها السقم والهزال فلا يقوم بإيصال الزكاة إلى الفقراء ودفعها إليهم .

الثاني - للمحافظة على كرامة الفقير وصيانة لماء وجهه أن يراق بالسؤال إلى ذي مال.

الثالث - لتنظيم التوزيع وإعطاء أكبر قدر ممكن من الفقراء، إذ قد يتتبع أكثر من غني لإعطاء فقير ويغفل عن آخر فلا يظن له أحد ، وقد يكون أشد فقراً وحاجة .

الرابع - إن صرف الزكاة ليس مقصوداً على الفقراء، أو الأفراد، فمن الجهات التي تصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يقدرها الأفراد، وإنما يقدرها أولو الأمر في الجماعة المسلمة، كأعطاء المؤلفة قلوبهم، وإعداد العدة للجهاد في سبيل الله (٢).

فلا يذهب الفن بأحد أن الزكاة من الغني تفضل وإمتنان، ومن الفقير شحاذة وهوان، فليس بين الغني والفقير تعامل مباشر في الزكاة كما شرعها الإسلام، وإنما الحكومة هي نائبة عن الفقير في أخذ الزكاة من الأغنياء . ولهذا قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ((خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)) (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه والياً ومعلماً إلى اليمن ((أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد إلى فقرائهم)) (٤). وهذا يدل (أن الزكاة في نظر الإسلام ليست إلا صرف بعض أموال الأمة، ممثلة في أغنيائها إلى الأمة نفسها ممثلة في فقرائها

-
- (١) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الإعتصام/باب الإقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤/١٨٢.
 - (٢) - انظر العبادة في الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص(٢٤٢).
 - (٣) - سورة التوبة الآية (١٠٢).
 - (٤) - أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الزكاة/باب وجوب الزكاة ١/١٧٢.

وبعبارة أخرى: ليست إلا نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها، وهي اليد المشرقة التي استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرف فيه - وهي يد الأغنياء - إلى اليد الأخرى وهي اليد العاملة الكادحة التي لا يفي عملها بحاجتها أو التي عجزت عن العمل، وهي يد الفقراء (١).

ج- النفيء والثنيمة:

النفيء أخوذ من فاء يفي إذا رجع، وهو المال الذي أخذ المسلمون من أعدائهم دون قتال .

والثنيمة في اللغة : ما يناله الإنسان بسعي .

وفي الشرع : هي المال المأخوذ من أعداء الإسلام بالقتال (٢).

فبالنسبة للنفيء تقسمه الدولة إلى خمسة أسهم، وتوزع كل سهم منها لفئة من

المذكورين في قوله تعالى :

((ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول، ولذي القربى واليتامى، والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب)) (٣).

ويقول القرطبي: قال مالك: (هو موكول إلى نظر الإمام وإجتهاده فيأخذ منه من

غير تقدير، ويعطي منه القرابة بإجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين) (٤).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آتاه النفيء قسمه في يومه فأعطى أهل

حظين والأعزب حظاً) (٥).

وكان أبو بكر رضي الله عنه، يقسم للححر والعبد، يتوخى كفاية، الحاجة (٦).

ووضح عمر رضي الله عنه الديوان على السرايق والحاجات، فالرجل

وقدمه، والرجل وبلاؤه، والرجل وعياله، والرجل وحاجته) (٧).

وأصل كل هذا الاختلاف الاجتهاد، فتوخى كل المصلحة التي رأى في

وقته.

(١) - الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص (٩٤).

(٢) - أنظر تفسير القرطبي ١٤/١٨، وقته السنة لسيد سابق ٩٢/٢ .

والقاهر من المحيط / باب الميم فصل الغين .

(٣) - سورة الحشر الآية (٧).

(٤) - تفسير القرطبي ١٥/١٨ .

(٥) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٥/٦، وأخرجه أبو داود في سننه/كتاب الخراج

والنفيء والإمارة/باب في قسم النفيء ١٣٦/٢

الحديث سكت عنه المنذري. / مختصر سنن أبي داود ٢٠٥/٤ .

قال أحمد البنا: أخرجه أبو داود بدون ذكر السلسلة أعني

الى قوله فأعطى خطأ واحداً وسنده جيد/الفتح الرباني ٨٦/١٢ .

(٦) - الخراج لأبي يوسف ص (٤١ - ٤٢).

(٧) - الخراج لأبي يوسف ص (٤٦).

وأما الغنيمة فقد بين الله تعالى كيفية تقسيمها في قوله تعالى :
(واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى
الجمعان والله على كل شيءٍ قدير)) (١).

فآية الكريمة نصت على الخمس يصرف على المصارف التي ذكرها الله سبحانه
وتعالى وهي - الله ورسوله - وذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فهم الله
ورسوله مصرفه مصرف النبي، فينفق منه على الفقراء، وفي السلاح، والجهاد، ونحو ذلك من
المصالح العامة .

روى أبو داود (٢) والنسائي (٣) عن عمرو بن عبسة (٤) قال: قال رسول الله صل
الله عليه وسلم : ((صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بغير من المغنم، ولما سلم
أخذ وبرة من جنب البعير، ثم قال
(لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم)) (٥) .

(١) - سورة الأنفال الآية (٤١) .

(٢) - أبو داود (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ)

« سليمان بن الأشعث بن إسحاق أصله من سجستان إمام أهل الحديث
بزمانه له تصانيف منها السنن وكتاب الزهد والمراسيل ووافته المنية
يوم الجمعة منتصف شوال .

* وفيات الأعيان ٤٠٤/٢ . * تذكرة الحفاظ ٥٩١/٢ .

(٢) - النسائي (٢١٥ - ٢٠٢ هـ) أحمد بن علي بن شعيب أبو عبد الرحمن جال

البلاد طالباً العلم، استوطن مصر فحسد ورجع إلى الرملة ففتن وضرب
في السجامح ، ثم مات عليلًا ودفن ببيت المقدس ، صنّف في الحديث
ورجاله له السنن الكبرى والسنن الصغرى وغيرهما .

* تذكرة الحفاظ ٦٩٨/٢ . * طبقات الشافعية ١٤/٢ .

(٤) - عمرو بن عبسة القيسي السلمي - أبو نجيع

اسلم قديماً على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتى الله في
روعي أن عبادة الأوثان باطلة فسمح رجل بذلك فقال عليك بمكة ففيها
رجل يقول مثل ما تقول قال : فخرجت إلى مكة وسممته يهمل بعد أن
اختفيت ، فسأته عن اسمه ورسالته ثم قلت أبسط يدك

أبايعك فبايعه الرسول وأمر بالرجوع إلى قومه حتى يظهر الأمر
ويسمع بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قدومه المدينة بعد بدر
وأحد والخندق وسكنها ثم سكن الشام . * أسد الغابة ١٢٠/٥ * الإصابه ٥/٢

(٥) - سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧١٧/٢) .

(أي ينفق منه على الفقراء، وفي السلاح، والجهاد) (١).
وأما الأربعة أخماس الباقية فتعطى للجيش .
(وإن في تخصيص اليتامى والمساكين، وابن السبيل بالعتاء في آيتي الفتي والغنيمة
لحكمة بالغة في تأمين التكافل لهم، وفي الرفع من مستواهم الميشي وأوضاعهم
الاقتصادية) (٢).

د - الخراج والعشور والجزية :

الخراج ضريبة مالية وضعت على رقاب الأرض كحقوق تؤدي عنها لبيت المال (٢).
العشور: وكانت العشور تؤخذ في الإسلام على أنها ضرائب على بضائع التجار، فيؤخذ
العشر من بضائع التجار الكافرين إذا قدموا بها من دار الحرب إلى دار الإسلام (٤).

أما الجزية:

فهي مبلغ معين من المال يوضع على الرؤوس (٥).
(والأصل في فرض الجزية على الذميين إيجاد التوازن عن طريق التكافؤ، فالمسلمون في
نظر الإسلام رعية لدولة واحدة ويتمتعون بحقوق واحدة، ويتنعمون بمصالح الدولة
العامية بنسبة واحدة، ومن هنا فرضت الجزية على أهل الذمة في مقابل فرض الزكاة على
المسلمين) (٦).

إن هذه الموارد المالية كلها لابد أن توزع على جميع طبقات الأمة توزيعاً عادلاً
لافضل فيه لأحد على أحد إلا بالعمل والجهد والعناء والحاجة .
والمهم في نظر الإسلام ألا تنحصر هذه الثروة في قطر ما، أو إقليم ما، أو طبقة معينة، فضلاً
على أن تحتكر لشخص واحد معين ، والمبدأ الذي يوضح هذه الحقيقة الإسلامية قوله تعالى:
(كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (٧).

-
- (١) - فقه السنة لسيد سابق ٧٨/٢ .
 - (٢) - التكافل الاجتماعي لعبد الله علوان ص (٩٢).
 - (٣) - انظر الخراج لأبي يوسف ص (٥٩).
 - (٤) - النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ص (٢٦٨).
 - (٥) - أحكام أهل الذمة لابن القيم ص (٢٢).
 - (٦) - النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ص (٢٦٥).
 - (٧) - سورة الحشر الآية (٧).

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني النضير (١) التي إنتهت بالصلح أعطى النبي كلاً للمهاجرين الفقراء دون الأنصار الأغنياء .

ماعدًا رجلين فقيرين منهم (٢) لأنهما شاركا المهاجرين في الفقر، رغبة منه صلى الله عليه وسلم في إعادة التوازن الاجتماعي بين المهاجرين والأنصار .

وهكذا يجيء قول الله تعالى : ((كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)) عداًجاً لكل تفاوت طبقي، حتى لاتعلو طبقة على طبقة، ولاتستغل طبقة طائفة أخرى .

٢- ومن الطرق التي إتبعها الإسلام أيضاً لسد حاجة الفقير العاجز عن الكسب والعمل :

تشريع نظام نقات الأقارب :

فإن الإسلام أوجب على القريب الفني نعمة قريبه العاجز.

(١) - وقعت هذه الغزوة في السنة الرابعة من الهجرة، وكان سببها أنه كان بين المسلمين واليهود حلف يقضي بالتعاون المادي بين الفريقين عند الحاجة، وحدث أن إحتاج المسلمون إلى معوتهم في دفع دية نتيجة قتل أحد المسلمين رجلين خطأ، فسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم المساهمة وبينما هو ينتظر بجانب حائط إذ أجمعوا على تديير مؤامرة ضده تخلصهم منه، فصعد أحدهم أعلى الجدار ليأتي عليه حجراً، ولكن الله أوحى إلى عبده بمكيدتهم . . . بعدها أدرك المسلمون ألا مقام لبني النضير بينهم، فتحصنوا حول حصونهم وحاصروهم، إلى أن إستسلموا وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسمح لهم بالخروج من المدينة، فخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر وبعضهم الشام .

* أنظر فتوح البلدان للبلاذري ٢٢/١-٢٤ .

وموسوعة التاريخ الإسلامي د/ أحمد شلبي ٢٦٤/١ .

والرحيق المختوم للمباركفوري ص (٢٨٢) .

(٢) - هما سهل بن حنيف وأبا دجانه /تهذيب سيرة ابن هشام ص (١٨٢) .

(وتشمل هذه النفقات المأكل والملبس والسكن والتعليم والتزويج والقيام بالخدمة، أو تكليفاً بالاجر لمن يقوم بخدمة العاجز منهم، والمريض.

وإنما أراد الإسلام بهذه النفقات محاربة الفقر والجهل والمرض والمسكنة والمذلة (١).

وقد أكد الإسلام حق ذوي القربى، وحده في آيات كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم على برهم وصلتهم والإحسان بهم .

فمن الآيات قوله تعالى:

((إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى)) (٢). وقوله تعالى :

((واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً)) (٣).

وقوله تعالى: ((وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً)) (٤).

ويقول صلى الله عليه وسلم ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه)) (٥)

وكل هذه النصوص وغيرها تؤكد أن للتقريب على قريبه حتماً أكثر من غيره من الناس، فما هو هذا الحق إن لم تكن إعالته والنفقة عليه عند عجزه؟

- (١) - انظر شرح قانون الأحوال الشخصية للسباعي ٢١٩/١ - ٢٥١ .
- (٢) - سورة النحل الآية (٩٠) .
- (٣) - سورة النساء الآية (٢٦) .
- (٤) - سورة الإسراء الآية (٢٦) .
- (٥) - أخرجه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلوة/باب صلة الرحم/وتحريم قطعها ١١٢/١٦ .

فان قيل : المراد بحقه ترك قطيعته، فالجواب : كما قال ابن القيم من وجهين :
(أحدهما : أن يقال : فأي قطيعة أعظم من أن يراء يتلظى جوعاً
وعطشاً، ويتأذى غاية التأذي بالحر والبرد، ولا يطعمه لقمته، ولا يستقي جرعة، ولا يكسوه
ما يستر عورته، ويقيه الحر والبرد، ويسكنه تحت سقف يظلمه؟ فان لم تكن هذه قطيعته فإنا
لاندرى ماهي القطيعة المحرمة، والصلة التي أمر الله بها؟
الوجه الثاني: أن يقال: فما هذه الصلة الواجبة التي نادى عليها النصوص وبالفت في
إيجابها وذمت قاطعها؟ فأي قدر زائد فيها على حق الأجنبي حتى تعقله القلوب وتجري به
الألسنة وتعمل به الجوارح ؟
والنبي صلى الله عليه وسلم قد قرن حق الأخ والأخت بالأب والأم فقال : ((أمك
وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك)) (١)، فما الذي نسخ هذا؟ وما الذي جعل أوله
للوجوب وآخره للاستحباب؟ (٢).

٢- تشريع نظام التوريث الإسلامي (٢):

كذلك الميراث في الإسلام أحد الطرق لمكافحة الفقر، تتحقق فيه ملكية الوارث
بالفعل من الموروث بعد وفاته، وهو وسيلة لتفتيت الثروات الكبيرة أو رؤوس
الأموال، وإيصال النفع لمختلف الأقرباء مع ملاحظة درجة القرى من المتوفى .

٤- تشريع نظام الكفارات (٤):

وهي أيضاً إحدى الدعائم الأساسية للعلاقات المالية بين أفراد المجتمع، مما
يؤدي إلى منع إنتشار الفقر، وهي التي تلزم المسلم في حالات معينة لكفارة
اليمين، وكفارات الصيام، وكفارة الظهار .

إن هذه الوسائل التي إتبعها الإسلام ليعالج بها مشكلة الفقر، ويحقق بها الكفاية
للفقراء وسد حاجاتهم الأساسية وصيانة كرامتهم الإنسانية وتحقيق الحياة الكريمة لهم
وسط مجتمعهم، إنما يهدف بها تحقيق العدالة الاجتماعية في المجتمع المسلم، ومكافحة
الطبقية التي يتمايز بها الأغنياء والفقراء، فيتولد الحقد والبغض والصراع .

(١) - أخرجه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین / عن صعصعه بن ناجية

المجاشعي جد الفرزدق/

في معرفة الصحابة في ذكر صعصعه ٦١١/٢ .

(٢) - زاد المعاد لابن القيم ٢٢٤/٤ .

(٢-٤) - وستتکلم عن هذين النظامين بزيادة تفصيل وبيان في الفصل التالي

لهذا الفصل بإذن الله في موضعهما منه .

(ولقد بين الإسلام أن الفقراء - إذا وجدوا في مجتمع الإسلام - لا يكونون طبقة تسمى (طبقة الفقراء) لأن شرط الطبقة أن تدوم وتتوارث بحكم القانون، وقوانين الإسلام وتعاليمه السامية لا تفرض الفقر على طائفة من المجتمع بحيث يتوارثه الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد، فإن الفقر قد يزول وقد يختفي نهائياً، والفقراء قد يكونون قراء اليوم أغنياء غداً) (١).

يقول الله تعالى: ((إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله)) (٢).

ويقول: ((سيجعل الله بعد عسر يسراً)) (٣).

فإن أبواب الفرص العادلة والطموح المشروع مفتوحة للجميع .

وأهم ما يلاحظ في الأسلوب الإسلامي لتحقيق العدالة الاجتماعية، أن الإسلام تسامى بمدلولات العدالة عن أن تكون مجرد قوانين اقتصادية محدودة .

* - إن العدالة الاجتماعية في الإسلام هي إقرار الإنسان بحقوقه الإنسانية
* - هي تأكيد حق المساواة الكاملة بين طوائف الناس ومالههم وأجناسهم، مع القضاء على التمييز العنصري، وتحطيم فوارق الطبقات .
(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (٤).

* - وهي تأكيد لحق الحرية للإنسان منذ أن تتفتح عيناه على نور الوجود، كما قال عمر رضي الله عنه (متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) (٥).
(وقد اتخذ الإسلام الحرية بمدلولها العام دعامة ومحوراً لجميع ماسنه للناس من عقائد ونظم وتشريع، ولم يقيد الإسلام حرية الفرد إلا ضمن الحدود التي يقتضيها الصالح العام، أو يدعوا إليها احترام الآخرين، وعمد إلى كل نظام يتعارض مع هذه الأسس والمبادئ فإلغاه مرة واحدة، إن كان لا يترتب على إلغائه مرة واحدة زلزلة تضرب بها حياة الجماعة، وإلغاه على مراحل ووضع عليه قيوداً تكفل القضاء عليه بالتدريج حين يكون في إلغائه مرة واحدة، ما يؤدي إلى تلك النتائج، مثل نظام الرق) (٦).

(١) - انظر كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام للدكتور يوسف

القرضاوي ص (١٢٢).

(٢) - سورة النور الآية (٢٢).

(٣) - سورة الطلاق الآية (٧).

(٤) - سورة الحجرات الآية (١٢).

(٥) - تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص (١٦٦-١٦٧).

(٦) - حقوق الإنسان في الإسلام لعبد الواحد وافي ص (١٩٧).

* - وهي تأكيد لحق الكرامة لبني آدم جميعاً: فلا يجوز أن تخدش كرامة أحد، ولا أن يقذف عرض أحد، ولا أن يستهزأ بأي إنسان، لقوله تعالى: ((ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)) (١).

* - وهي تأكيد لحق الملكية الفردية لضمان الحياة الحرة الكريمة، شريطة أن تكون هذه الملكية وسيلة لقضاء الحوائج وتبادل المنافع، لا للإسراف في التمتع بمباهج الحياة، بينما تعيش طوائف من المجتمع في الفقر والمرض والحرمان.

تلك هي حقيقة العدالة الاجتماعية في الإسلام، إنها أكبر من سياسة المال، وأسمى من مجرد توزيع ثروة المجتمع بالمساواة، وأوسع من ضمان المعيشة المادية للأفراد.

إنها مساواة في الكرامة الإنسانية وفي الحريات العامة، إنها بعداً بالإنسان عن التمييز العنصري والطبقي الذي يولد الصراعات بين أفراد المجتمع حتى ينعم بالأمن والطمأنينة والسلام.

ومن هنا نرى أن العدل في الإسلام يشمل كافة مجالات الحياة، كما يشمل سائر الناس مسلمين وغير مسلمين، الأمر الذي يحقق الأمن والأمان في المجتمع، ويحميه من الصراع الطبقي الظالم.

* * *

(١) - سورة الإسراء الآية (٧٠).

البحث الثالث

دور العدل في حماية المجتمع من الصراع

المبحث الثالث

دور تحقيق العدل في حماية المجتمع من الصراع

العدل من المبادئ الأساسية التي جاء الإسلام بها، وقد كان هذا طبيعياً من الإسلام الذي يحرس على كرامة الإنسان، ووصول حقه إليه، فالعدالة ضرورة لإقامة الحق، وضمان الطمأنينة، ونشر الأمن، وإقامة علاقات الأفراد بعضهم ببعض على التوازن والإنسجام والرخاء، بعيدة عن الصراع والتمييز الطبقي المذموم .

(وحيثما حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة، ارتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة، وأن يكون التكليف وحده هو الذي يكفلها، فجعلها عدالة إنسانية شاملة نابعة من داخل النفس بدافع قوة الإيمان والتكليف الشرعي في محيط المجتمع) (١).

وقد بلغ الإسلام الغاية في تهذيب النفس البشرية من جميع جوانبها إتجاهاتها وملاذباتها فجعل حسن الخلق والمعاملة الدائمة الأساسية الأولى لبناء المجتمع المتين المتعاون الركين .

(فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لإنسجام الإنسان مع أخيه، الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم إلى الدمار) (٢)

فلا يعقل أن يكون هناك ذا خلق كريم مع الناس، وهو يأكل حقوقهم ويعتدي عليهم، ويتجاوز حدود الواجب الأدبي الذي توصي به الآداب الاجتماعية الإسلامية، فهذا مناف لما توجبه فضائل الأخلاق من التزام الحق والعدل مع الآخرين .
وقاعدة الأخلاق الاجتماعية الكبرى تتلخص في أن يعامل الإنسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، إنه يحب أن يعاملوه بالعرف إذا أساء، فليكن عفواً عن إساءتهم، ويجب أن يكونوا أمانة، فليكن معهم أميناً، ويجب أن يصدقوه ولا يكذبوه، فليصدقهم ولا يكذبهم، ويجب أن يقسطوا معه بالحق فليكن معهم متسطاً وعادلاً فيما له وعليه .

(١) - العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص (٨١) بتصرف .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسماها للميداني ٢٩١٢ .

وقد أبان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذه القاعدة للأخلاق الاجتماعية بقوله: ((فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذين يحب أن يؤتى إليه)) (١).

(وهذه القاعدة تشتمل على ميزان دقيق يهدي الإنسان إلى فضائل السلوك الأخلاقي، كلما اشتبه على الإنسان أمر السلوك، وفي تطبيق هذه القاعدة ينبغي للإنسان أن يضع نفسه في مكان الآخرين، ويفترض أن الأمر كان معكوساً، فالأمر الذي يستحسنه لنفسه من الآخرين مما لا مصيبة لله فيه هو الأمر الذي تدعو إليه الفضيلة الخلقية، أو يدعوا إليه السلوك الأحسن في معاملة الناس .

ولدى التأمل في النصوص الإسلامية التي تحض على حسن الخلق وترغب فيه، نلاحظ أن الغاية من الالتزام بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن رذائلها هي تحقيق أنواع من السعادة للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، بإعطاء كل ذي حق حقه، وفي هذا تحقيق للعدل الرباني المنشود) (٢).

وبتهذيب الضمير البشري وتربيته على مكارم الأخلاق أرسى الإسلام قواعد العدالة الاجتماعية لإنشاء مجتمع إنساني متوازن متناسق متالف غير متنازع ولا متصارع .
وحين تقعد مكارم الأخلاق في المجتمع، يعم الظلم كافة المجالات في الحياة، فتضيع الحقوق، وتوكل الأموال بالباطل، وتقتل النفس بدون حق، وتنتهك الأعراس، وتقبل الرشوة، إلى غير ذلك .

ولهذا كان الظلم من أقيح القبائح، وأرذل الرذائل، لذلك حرمه الله على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، ففي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أن الله تبارك وتعالى قال :
(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فادعوا لغيره) (٢).

وحين يقيم الله عدله في عبادة فانه لا يظلمهم شيئاً، ولكنهم هم الذين يظلمون أنفسهم، قال تعالى :

((إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن أنفسهم يظلمون)) (٤).

(١) - أخرجه أحمد في مسنده ١٩٢/٢، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

(٢) - أنظر الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني ٧٦١١ ، ٨٢ بتصرف .

(٢) - سبق تخريجه ص () .

(٤) - سورة يونس الآية (٤٤) .

ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : (تقوي منكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف منكم قوي حتى آخذ الحق له) (١) (٢).

ولهذا عاش ذلك المجتمع لتحقيقه العدل في كافة شؤونه حياته في أمن وسلام، بعيداً عن الصراع، يسوده الحب والوفاق والوئام .
مما يؤكد لنا أن إقامة العدل وتحقيقه في المجتمع يحميه من الفرقة والنزاع .

(١) - الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/٢٢٢ .

(٢) - انظر : أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ص (١٠٢) بتصرف .